تاريـخ الأندلـــس
من الفتح
حتــى السقـوط

إعـداد

دكتور / رجب محمود إبـراهيم بخيـت

بطاقة الفهرسة

اسم الكتـــاب:	تاريخ الأندلس من الفتح حتى السقوط
إعــــــــداد:	د/ رجب محمود إبراهيم بخيت
الطبعـــــــة:	ط أول / ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م
الناشــــــر:	مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيـداع:	
الترقيم الـدولي:	

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر ت : ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

٠١٢/٩٩٦١٦٣٥ - ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٠/٠١٠٤١١٥

٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر

ت : ٠١٢/٢١٠٨٤٩٣ - ٠٢/٥١١٤٣٧١



{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾}

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

* * *

المقدمة

الحمد لله وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أستفتح بالذي هو خير: {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ} [الممتحنة: ٤].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾} [لقمان: ٣٣].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾} [الحج: ١].

أما بعد:

إن التاريخ دروس وعبر، وتتضح العبرة، وتتجلى الصورة، وتعم الفائدة حين تنظر الأمة في ماضي تاريخها، لا في تاريخ غيرها، وحين تكون التجربة قد مرت بها لا بغيرها. فتتعلم الدروس، وتأخذ العبرة والعظة، وتعلم مكمن الداء وتعمل جاهدة على إيجاد الدواء، ولكن ما أكثر العبر وما أقل الاعتبار! وما أشبه الليلة بالبارحة.

ومن أجل ذلك فإن دراسة تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح إلى السقوط مليء بالدروس والعبر والعظات، بل هو درس ثقيل، وتجربة مرة في فردوس مفقود؛ في

أرض بقي فيها المسلمون ثمانية قرون، ثم خرجوا منها بل أخرجوا، وكأن لا أثر لهم فيها ولا عين ما الذي أدخلهم؟ وما الذي أخرجهم؟

إن نصوص الشرع ودروس التاريخ تقول: إن العرب والمسلمين بغير الإسلام لا قيام لهم، وإنهم بغير الدين لا عز لهم، فإن الإسلام وحده ولا شيء غيره هو الذي يربي ويبني ويزكي ويقوي ويزرع العزة والمسؤولية﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] ولقد جسد ذلك عمر ﷺ في مقولته المشهورة: (لقد كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله).

فإن أسلافنا وأجدادنا لما دخلوا بلاد الأندلس، دخلوها بالإسلام فاتحين، وبالعقيدة مستمسكين، ومن عالي الأخلاق متمكنين لأوامر ربهم متبعين، وعن مناهيه ومساخطه متباعدين، حتي لقد بعث أحد الجنود الأسبان برسالة إلى ملكه يصف فيها جيش المسلمين الذين عبروا إلى بر الأندلس بقيادة طارق بن زياد: لقد نزل بأرضنا قومٌ لا ندري أهبطوا من السماء، أم نبعوا من الأرض؟

لقد سار المسلمون في الأندلس في عزة وقوة ومنعة ووحدة وتماسك على هذا النهج.

يذكر ابن تغري بردي: أن المنصور بن أبي عامر كان يسهر على مصالح رعيته، وكانت متابعته لأمور رعيته تستنفذ كل وقته، حتى أنه كان لا ينام إلا سويعات متفرقات، فقيل له: لقد أفرطت في السهر وبدنك يحتاج إلى نومٍ أكثر من هذا.

فأجاب: إن الراعي لا ينام إلا إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي لما كان في بيوت هذا البلد العظيم عينٌ نائمة.

هذه هي صورة القوة، وحسن الرعاية، وصدق الحماية، وحفظ البلاد، ولقد بقوا على ذلك قروناً طوالاً محافظين على دينهم، معتزين بإسلامهم، متوحدين في كلمتهم،

يجسد ذلك قول بعض المؤرخين من المسلمين: بقينا في الأندلس ما بقينا مع الله، وضاعت الأندلس منا لما أضعنا دين الله.

لقد بدت وبدأت عوامل الضعف، وانحلت الدولة الأموية الواحدة الكبرى إلى دويلات وملوك وطوائف تنافس فيها أصحابها على السلطة، وتناحروا من أجل كراسي الحكم؛ فانتشر بينهم الغدر المستحكم، والخصام الدائم، والكيد المستمر؛ فلا همَّ لأحدهم إلا تحقيق مصالحه الذاتية، وإشباع أنانيته المفرطة، وكأن الأندلس إنما وجدت لمصلحته الخاصة مهما كان ذليل المكانة مهزوز القواعد.

إن كل تقدم حضاري، وسمو فكري، وثقل سياسي، وارتفاع معنوي، وعز سلطاني، إنما مرده إلى التمسك بدين الله، وهو مرهون بمقدار الالتزام بشرع الله والبعد عن حياة اللهو والمجون السافر والحقوق المهدرة يقول ابن خلدون: إذا تأذن الله بانقراض الملك في أمة حملهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل، وهذا ما حدث في الأندلس وأدّى إلى ضياعها.

بل قد أدرك ذلك كاتبٌ من الخصوم يدون لذلك العصر فهو يقول: العرب هووا وسقطوا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها، أصبحوا على قلبٍ متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات.

وكتاب ربنا يقول:{ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾} [الإسراء: ١٦].

إن سنن الله في الأمم لا تتخلف، بل لقد ذكر ابن حزم شيئاً خطيراً في بيان الحال التي وصل إليها حكام دويلات الأندلس في سبيل مصالحهم الذاتية، وما يقدمونه للأعداء من تنازلات خطيرة، حتى قال: والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون الأعداء فيمكنوهم من حرم المسلمين وأبنائهم، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

أيها الإخوة: لقد انحرف هؤلاء الأسلاف عن دين الله، ووالوا أعداء الله، وتركوا الجهاد في سبيل الله، وقعدوا عن الدفاع عن حرمات المسلمين، وابتعدوا عن أسباب التآلف والاتحاد، وحلت الأثرة محل الإيثار؛ ثم من بعد ذلك تكالبت عليهم القوى المعادية، فتمكنت منهم ومزقتهم شر ممزق.

لقد ابتغى حكام الأندلس الآخرين العزة والنصر والوحدة بغير دين الله؛ وفي غير مرضاة الله، ابتغوها في مهادنة النصاري، ودفع الأموال لهم، وعقد المعاهدات التي لا يرضي الله ورسوله ولا المؤمنون عنها، وفي التغافل عما يبيت لهم بليل، وفي تدبير الدسائس والمكائد لبعضهم البعض من أجل عروش زائلة، وظل زائل، فماذا كانت النتيجة؟ لقد ضاعوا وأضاعوا الأندلس.

تبكي الحنيفية البيضاء مــن أســف ::: كما بكى لفــراق الألــف هيمــانُ
على ديــار مــن الإســلام خاليــة ::: قد أقفرت ولهــا بــالكفر عمــرانُ
حتى المحاريب تبكي وهــي جامــدة ::: حتى المنابر ترثــي وهــي عيــدانُ
يا غافلاً ولــه في الــدهر موعظــة ::: إن كنت في سنة فالــدهر يقظــانُ
تلك المصيبة أنســت مــا تقــدمها ::: ومالها من طــوال الــدهر نســيانُ
يا راكبين عتــاق الخيــل ضــامرةً ::: كأنهــا في مجــال الســبق عُقبــانُ
وحــاملين ســيوف الهنــد مرهقــةً ::: كأنهــا في ظــلام النقــع نــيرانُ
وراتعــين وراء البحــر في دعــة ::: لهــم بأوطــانهم عــزٌ وســلطانُ

(أبو البقاء الرندي)

حقا إن دراسة تاريخ الأندلس عمل يدمي القلب ويدمع العين ويحير العقل ولكن وبالرغم من قساوة وعتاوة درس الإسلام في الأندلس، يجب المسلم أن يتعلق بربه، يؤمن بوعده ووعيده، والمتبصر بالسنن ونواميس الكون، يرى من وراء ذلك كله فتحاً قريباً، وليس هذا تحدثاً من سياسة قاصرة، ولا من منطق وهم زائل، ولا هو من

معطيات واقع مرير، ولكنها روح الأمل الدافع، والفأل الدافق الذي تغرسه في أهل الإسلام حقائق الوحي، وهداية النبوة المحمدية الخاتمة، وشواهد التاريخ تؤكد أن للإسلام جولة وصولة من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريبا عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح،{وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا} [الإسراء: ٥١].

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة والتاريخ المحفوظ، يحدثوننا وينبئوننا أن أمة الإسلام أمة متجددة وعودة، كالغيث لا يدرى الخير في أولّه أو في آخره، إنها أمة غير منقطعة بل متصلة مستمرة بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفي حالة الهجوم على ديار الإسلام، يقيض الله له من يرده على أعقابه.

هذا هو الإسلام، وهذا هو التاريخ، وهذه دروسه وعبره، وتلك هي سنن الله في الغابرين والحاضرين، فأبشروا وأملوا، وبدينكم فاستمسكوا، وربكم غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أخيرا:

أسأل الله أن أكون قد وفقت في إتمام هذا العمل، وأن يكون خالصا لوجه الكريم، وأن يتقبله مني وأن يثيبني عليه، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم العرض عليه، وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يدعوا الله لي بحسن الخاتمة وأن يرزقني الشهادة في سبيله، وأن يدخلني الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب.

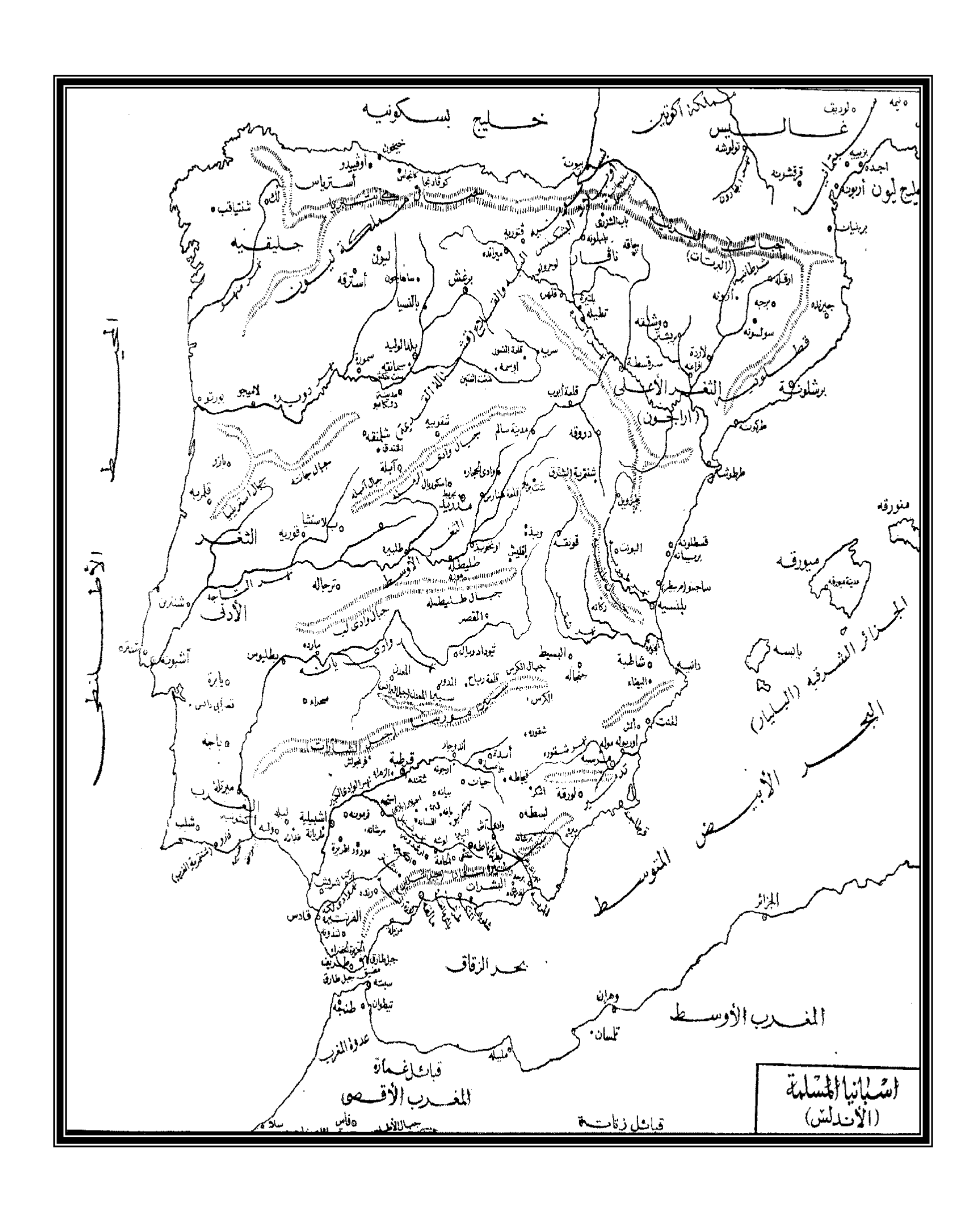
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *


خليج بسكونيه
غاليس
مملكة أكوتين
جليقية
أستورياس
الثغر الأعلى
الثغر الأوسط
الثغر الأدنى
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
ميورقة
منورقة
يابسة
برشلونة
سرقسطة
طرطوشة
بلنسية
طليطلة
قرطبة
اشبيلية
قادس
طنجة
بحر الزقاق
الجزائر
وهران
تلمسان
المغرب الأوسط
قبائل غمارة
عدوة المغرب
المغرب الأقصى
قبائل زناتة
اسبانيا المسلمة
(الأندلس)

التمهيد

* * *

الفتح الإسلامي لإفريقية والمغرب:

أولا: فتح مصر

كان الصراع الذي نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة، وبين الدولة الرومانية الشرقية، يضطرم حيثما تبسط الدولة الشرقية سلطانها، وكانت بسائط الشام مهاد المعارك الأولى بين الدولتين، وكانت أول قطر غنمته الخلافة من أراضي الدولة الرومانية[١] ثم بدأ التفكير الجدي في فتح مصر وهي أيضا ولاية رومانية.

كانت دوافع فتح مصر عند المسلمين قوية، فهناك العقيدة التي يريدون التمكين لها في كل مكان، ومصر تتصل بفلسطين فمن الطبيعي بعد فتح فلسطين أن يتجه المسلمون إلى مصر، وقد قسم المسلمون الإمبراطورية البيزنطية إلى قسمين لا يصل بينهما سوى البحر وذلك باستيلائهم على الشام، وفي مصر وشمال أفريقية جيوش ومسالح رومية، ولبيزنطة أسطول قوي في البحر، ولن يأمن المسلمون في الشام ومصر تحت النفوذ الروماني، ومصر غنية، وهي مصدر لتموين القسطنطينية فإذا فتحها المسلمون ضعف نفوذ بيزنطية كثيراً وأمن المسلمون في الشام والحجاز حيث يسهل اتصال الروم بالحجاز عن طريق مصر [٢] ومن العوامل أيضاً أن (القبط) أنفسهم يعانون من اضطهاد الروم، وأن هؤلاء لا يعيشون في مصر إلا بمثابة حاميات عسكرية، فلماذا لا تنتهز هذه الفرصة خاصة أن عدل المسلمين لابد أن يكون قد سبقهم إلى مصر، أما الحامية نفسها فإن الرعب لابد أن يكون قد تملكها حينما رأت ملكها هرقل يترك بلاد الشام لتصير جزءاً من الدولة الإسلامية كل هذا كان يدركه عمرو بن العاص وخلص إلى نتيجة وهي: أن الروم في مصر سيكونون عاجزين عن الوقوف في وجه المسلمين بينما لو تركت مصر دون فتح فستظل مصدر تهديد لهم، وهذا ما صرح به عمرو بن العاص نفسه وبالرغم من تعدد الروايات حول أول من فكر في فتح مصر: عمرو بن العاص أم الخليفة نفسه دون تدخل من عمرو، أم أن الخليفة وافق تحت إلحاح عمرو [٣]، بالرغم من ذلك الاختلاف فإن العوامل السابقة كلها تنفي أن تكون خطة فتح مصر هي مجرد خاطرة من عمرو وأن الخليفة غير راضٍ عن ذلك، أو أنهم لم يكن لديهم التصور الكامل عن

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٤.

(٢) علي محمد الصلابي، أمير المؤمنين عمر، ص ٤٩٣.

(٣) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ٤/١ - ٧، أمير المؤمنين عمر، ص ٤٩٣.

مصر وأرضها وحجم قوة أعدائهم فيها وقد جاءت الروايات التاريخية تؤيد ما ذهبت إليه فقد بين ابن عبد الحكم: أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بعد فتح الشام أن أندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خف معك فسر به، وجاء في الطبري:.. أقام عمر بإيلياء بعدما صالح أهلها ودخلها أياماً، فأمضى عمرو بن العاص إلى مصر، وأمّره عليها، إن فتح الله عليه، وبعث في إثره الزبير بن العوام مدداً له ويؤكد هذا تلك الإمدادات التي أرسلها عمر إلى مصر ووصل عددها إلى اثني عشر ألفاً، وكذلك أمره بفتح الإسكندرية دون خلاف في ذلك، فهل من الممكن أن يتوغل عمرو في مصر دون رضاً من الخلافة؟ ونحن نعرف المسلمين قادة وجنوداً كانوا غاية في السمع والطاعة والالتزام ومن ثم نكرر أن فتح مصر لم يكن إلا استجابة لخطة مرسومة سلفاً عند الخليفة وقواده، ولم تكن استجابة لرغبة عابرة [١].

* * *

مسير الفتح الإسلامي لمصر

يعتبر فتح مصر المرحلة الثالثة من الفتوحات بالنسبة لمحور الدولة البيزنطية ولقد كانت مسيرة عمرو من فلسطين إلى مصر محاذياً البحر فسار من رفح إلى العريش إلى الفرما واستمر فتحه للقاهرة فالإسكندرية وهذا يدلنا على موهبة عمرو العسكرية حيث سار في هذا الخط ربما لأنه لم يكن للروم ثقل عسكري في هذا الخط كما كان في بلاد الشام وربما لأن الدرب كان معروفاً لعمرو بن العاص، فكان تسلسل الفتح كما هو مرتب فيما يلي مع بيان أوجه الاختلاف والاضطراب حيث لم يخل سير الفتح من اختلاف كما حدث في فتح بلاد الشام [٢].

* * *

(١) تاريخ الطبري، ٨٤/٥ - ٩٣، أمير المؤمنين عمر، ص٤٩٤.

(٢) د. عبد الرحيم محمد، عمرو بن العاص القائد والسياسي، ص٧٩، أمير المؤمنين عمر، ص٤٩٥.

فتح الفرما

تقدم عمرو غرباً ولم يلاق جيشاً رومانياً إلا في (الفرما) أما قبل ذلك فقد قابله المصريون بالترحاب والتهليل، فكان أول موضع قوتل فيه كان في (الفرما) فقد تحصن الروم في المدينة لمواجهة المسلمين، واثقين من قدراتهم على الذود عنها ورد المسلمين بعد أن علموا أن المسلمين الذين جاءوا مع عمرو قلة في العدد والعدة وليس معهم عدة للحصار، عرف عمرو عدد الروم، واستعداداتهم وأنهم يزيدون على جنده أضعافاً، فكانت خطته في الاستيلاء على الفرما هي المهاجمة وفتح الأبواب أو الصبر عليها إلى أن يضطر الجوع أهلها فينزلوا إليها، واشتد حصار المسلمين للمدينة واشتد عناد الروم ودام الحصار شهوراً، وكانت بعض القوات الرومانية تنزل إلى المسلمين بين الحين والآخر لقتالهم فيجهز عليهم المسلمون وكان عمرو يشد أزر المسلمين بكلماته القوية، فمن قوله لهم: يا أهل الإسلام والإيمان، يا حملة القرآن، يا أصحاب محمد، اصبروا صبر الرجال واثبتوا بأقدامكم ولا تزايلوا صفوفكم، واشرعوا الرماح واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله، ولا تحدثوا حدثاً حتى آمركم.

وذات يوم خرجت فرقة من الرومان من القرية إلى المسلمين ليقاتلوهم وكانت الغلبة للمسلمين والدائرة على الروم فلاذوا بالفرار إلى القرية، وتبعهم المسلمون، وكانوا أسرع منهم، فملكوا الباب قبل أن يقتحمه الرومان، وكان أول من اقتحم المدينة من المسلمين هو (أسميقع) فكان الفتح المبين، ومما هو جدير بالذكر أن أقباط مصر الذين كانوا بالقرى عاونوا المسلمين ودلوهم على مناطق الضعف وتلقوا المسلمين في (أتميدة) بالترحاب، وبعد تمام احتلال الفرما قام المسلمون بهدم أسوارها وحصونها حتى لا يستفيد منها الروم لو رجعوا إليها لا قدر الله ثم خطب عمرو في الجيش قائلاً: أيها الناس، حمداً لله الذي جعل لجيش المسلمين الغلبة والظفر، والله عظيم حمى بالإسلام ظهورنا، وتكفل به طريق رجوعنا، ولكن إياكم أن تظنوا أن كل ما نرغب فيه قد تحقق، وأن تخدعوا بهذا النصر، فلا يزال الطريق أمامنا وعراً شاقاً والمهمة التي وكلها لنا أمير المؤمنين بعيدة المنال، وعليكم بالصبر والطاعة لرؤسائكم، فسيعلم القوم هنا أننا جنود السلام، لا نبغي فساداً في الأرض بل نصلحها وكونوا خير قدوة للرسول ؟ [1].

---

(١)، فتح مصر، ص ٢٠، أمير المؤمنين عمر، ص٤٩٥.

اطمأن عمرو إلى أن المدينة لم تعد صالحة لحماية جيش يأوي إليها، وتفقد جيشه وما فقده في المعركة وتألم لفقد رجال كانوا حريصين على فتح مصر فعاجلتهم المنية، وخشي إن استمرت المعارك على هذا النحو مع وقوع الخسائر في الجيش القليل العدد ألا يستطيع مواصلة الزحف، ولا يتمكن من بلوغ الغاية ولكن الله تعالى قد عوضه عمن فقده فانضم إلى جيشه كثير من رجال القبائل العربية من راشدة ولخم وكانوا يقيمون بجبل الحلال، ومضى عمرو بجيشه لا يلقى شيئاً من المقاومة متجهاً غرباً حتى وصل القواصر (القصاصين) ومن هناك اتجه نحو الجنوب حتى أصبح في وادي الطمبلان بالقرب من التل الكبير ثم اتجه إلى الجنوب حتى نزل بلبيس. قال صاحب النجوم الزاهرة: فتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس [١].

* * *

فتح بلبيس

وعند بلبيس برز الروم في قوة كبيرة قاصدين صدّ عمرو عن التوجه نحو حصن بابليون وأرادوا منازلة المسلمين، فقال لهم عمرو ﵁ : لا تعجلونا حتى نعذر إليكم وليبرز إلى أبو مريم وأبو مريام، وعندئذ كفوا عن القتال، وخرج إليه الرجلان، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصية النبي ﷺ بأهل مصر، بسبب هاجر أم اسماعيل: روى مسلم في صحيحه أن رسول الله قال: ﴿**إنّكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط** [٢]، **فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمّة ورحماً**﴾؛ أو قال: ﴿**ذمة وصهراً**﴾ [٣]، فقالا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء، آمِنّا حتى نرجع إليك. فقال عمرو: مثلي لا يُخدع: ولكني أوجلكما ثلاثاً لتنظرا فقالا: زدنا، فزادهما يوماً، فرجعا إلى المقوقس عظيم القبط، وأرطبون الوالي من قِبَل الروم، فأخبراهما خبر المسلمين، فأما أرطبون فأبى وعزم على الحرب، وبيّت المسلمين، فهزموه هو وجنده إلى الإسكندرية، ومما هو جدير بالذكر، ما يدل على شهامة المسلمين ومروءتهم أنه لما فتح الله على المسلمين (بلبيس) وجدوا فيها ابنة المقوقس واسمها (أرمانوسة) وكانت مقربة من أبيها، وكانت في زيارة لمدينة بلبيس مع خادمتها (بربارة) هرباً من زواجها من قسطنطين ابن هرقل (وهو فيما بعد والد قنسطنز) صاحب موقعة ذات الصواري وكانت غير راغبة في الزواج منه، ولما

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة ٧/١، ٨، أمير المؤمنين عمر، ص ٤٩٨.

(٢) القيراط: معيار في الوزن وفي القياس، اختلفت مقاديره باختلاف الأزمنة.

(٣) مسلم، ك فضائل الصحابة رقم ٢٥٤٣.

تمكنت مجموعة من الجيش الإسلامي من أسر أرمانوسة جمع عمرو بن العاص الصحابة وذكرهم بقوله تعالى:{ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾} [الرحمن: ٦٠]. ثم قال: لقد أرسل المقوقس هدية إلى نبينا وأرى أن نبعث إليه بابنته وجميع من أسرناهم من جواريها وأتباعها، وما أخذنا من أموالهم، فاستصوبوا رأيه، فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة ومعها كل مجوهراتها وجواريها ومماليكها وقالت لها خادمتها (بربارة) أثناء سفرهما: يا مولاتي إن العرب يحيطون بنا من كل جانب فقالت أرمانوسة: إني آمن على نفسي وعرضي في خيمة العربي، ولا آمن على نفسي في قصر أبي، ولما وصلت إلى أبيها سُرَّ بها وبتصرف المسلمين معها [١].

* * *

معركة أم دنين

ذكر ابن عبد الحكم في روايته أن عمراً مضى بجيشه حتى فتح (بلبيس) بعد قتال دام نحواً من شهر، ثم مضى حتى أتى (أم دنين) وتسمى المقسس وهي واقعة على النيل فقاتل المسلمون حولها قتالاً شديداً وأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين يستمده فأمده أمير المؤمنين بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف، وهم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مُخلّد، وقيل الرابع خارجة بن حذافة، وقال عمر في كتابه له: اعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلّة، وقد خرج الروم مع الأقباط لمواجهة المسلمين، وجرت بينهم معركة حامية استعمل فيها عمرو بن العاص دهاءه الحربي كما صنع خالد بن الوليد في حروب العراق، وذلك أنه جعل جيشه ثلاثة أقسام، حيث أقام كميناً للأعداء في الجبل الأحمر، وأقام كميناً آخر على النيل قريباً من أم دنين، وقابل أعداءه ببقية الجيش، ولما نشب القتال بين الفريقين خرج الكمين الذي في الجبل الأحمر وانقضَّ على الروم فاختل نظامهم وانهزموا إلى أم دنين فقابلهم الكمين الذي بقربها فأصبحوا بين جيوش المسلمين الثلاثة وانهزموا وتفرق جيشهم ولجأ بعضهم إلى حصن بابليون الحصين، وهكذا كسب المسلمون هذه المعركة ووقاهم الله شر أعدائهم بفضله تعالى وذلك بتوفيق قائدهم المحنّك إلى هذه الخطة المحكمة التي شتت بها قوات الأعداء [٢].

* * *

---

(١) صبحي ندا، فتح مصر، ص٢٤.
(٢) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ص٢١٨، أمير المؤمنين عمر، ص٤٩٩.

معركة حصن بابليون

تقدم عمرو وجيشه إلى حصن بابليون وحاصروه حصاراً محكماً ودام الحصار سبعة أشهر، وأرسل المقوقس خلال ذلك رسله إلى عمرو بن العاص للمصالحة فاستجاب عمرو بن العاص على الشروط: الإسلام أو الجزية أو الحرب فاختار المقوقس الجزية، وكتب المقوقس إلى هرقل يستأذنه في ذلك، فلم يقبل منه بل حنق عليه ولامه لوماً شديداً واستدعاه إلى القسطنطينية ثم نفاه، ولما أبطأ فتح حصن بابليون قال الزبير بن العوام: إني أهب نفسي لله وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، وراح عمرو بن العاص يحاصر حصن بابليون ثم تسوروا الحصن في الليل واشتبكوا مع الجنود في قتال عنيف وكان أول من تسور الحصن الزبير بن العوام فوضع سلماً من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يقتحموا الحصن، فما شعروا إلا والزبير بن العوام على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فكبر تكبيرة فأجابه المسلمون من خارج الحصن، ولم يشك أهل الحصن أن المسلمين قد اقتحموا جميعاً الحصن فهربوا، فعمد حواري رسول الله بأصحابه إلى باب حصن بابليون ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن وفتحوه عنوة، ولكن عمرو بن العاص أمضى الصلح على أن يخرج جند الروم ما يلزمهم من القوت لبضعة أيام، أما حصن بابليون وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فتبقى غنيمة للمسلمين ثم خرب أبو عبد الله أبراج الحصن وأسواره [(١)].

* * *

فتح الإسكندرية

رابط عمرو بن العاص ورجاله عدة أشهر في حصن بابليون ليستجمَّ الجنود ويصله الإذن من أمير المؤمنين عمر بالسير لفتح الإسكندرية، فلما تحقق ذلك ترك عمرو في الحصن مسلحة قوية من المسلمين، وفصل بجنوده من بابليون في مايو سنة ٦٤١م، الموافق جمادى الآخرة سنة ٢١هـ، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط الذين اطمأنوا إلى أن مصلحتهم باتت في مساندة القوة الإسلامية المظفرة، وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم، وقد آثر عمرو السير على الضفة اليسرى للنيل حيث محافظة البحيرة لتتيح له الصحراء مجالاً واسعاً لحركة خيله وجنوده، وكي يتجنب ما كان سيعترضه من الترع الكثيرة لو سار في دلتا النيل، ولم يلق عمرو إلا قتالاً يسيراً عند مرفوط أو (الطرانة) كما يسميها المؤرخون العرب، ثم عبر النهر إلى الضفة

---

(١) د. عبد العزيز الشناوي، الفتوحات الإسلامية ص٩١، أمير المؤمنين عمر، ص٥٠٠.

الشرقية حيث تقع مدينة نقيوس الحصينة، وكانت ذات حصن منيع فتخوف عمرو أن يتركها على جانبه ويسير عنها، ولكن الروم بدل أن يتحصنوا من المسلمين في حصنهم ركبوا سفنهم ليحاربوا المسلمين فيها ويمنعوهم من الاقتراب من مدينتهم، فرماهم المسلمون بالنبال والسهام وطاردوهم في المياه، فولوا الأدبار في سفنهم نحو الإسكندرية، وسرعان ما استسلم من بقي في الحصن ودخله المسلمون ظافرين، وأمضوا عدة أيام يستبرؤون ما حوله من أعدائهم، وأرسل عمرو قائده شريك بن سُميَّ ليتعقب الروم الفارين، فالتقى بهم وليس معه إلا قوة معدودة، فطمع فيه الروم وأحاطوا به، فاعتصم بهم في نهد من الأرض عُرف فيما بعد بكوم شريك، فأرسل إلى عمرو يطلب الأمداد، وما إن علم الروم أن المدد في الطريق إلى المسلمين حتى لاذوا بالفرار، وعند سُلْطَيْس على ستة أميال جنوبي دمنهور كان اللقاء التالي بين عمرو والروم، وجرى قتال شديد انهزموا فيه وولوا الأدبار، ومما يؤسف له أن هذه المعارك التي خاضها المسلمون بقواتهم المحدودة ضد قوات تفوقهم عدة أضعاف من الروم عدداً وعدة، والتي استمر بعضها عدة أيام لم تظفر من مؤرخي المسلمين سوى بأسطر قليلة أو كلمات معدودة، في حين أفرد بعضهم عشرات الصفحات للحديث عن القادسية أو اليرموك أو نهاوند [1]، ومن هذه المعارك الكبرى التي لا تشفى فيها مصادرنا العربية غليلاً معركة كِرْيون وهي آخر تلك السلسلة من الحصون التي تمتد بين بابليون والإسكندرية وقد تحصن بها تيودرو قائد الجيش الرومي ودار قتال شديد استمر بضعة عشر يوماً، ورغم ذلك فلم يظفر من ابن عبد الحكم سوى بهذه الكلمات: ثم التقوا بكريون، فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً، وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو، وصلى (عمرو) يومئذ صلاة الخوف، ثم فتح الله للمسلمين، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية، وفي أثناء ذلك أورد قصة عن بطولة عبد الله بن عمرو ووردان مولى أبيه، وقد كانت الإسكندرية عند فتح المسلمين لها عاصمة البلاد وثانية حواضر الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، وأول مدينة تجارية في العالم، وكان البيزنطيون يدركون خطورة استيلاء المسلمين عليها ويحملون همّ ذلك، حتى قال هرقل: لئن ظهر العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم، وقد زعم الرواة أنه تجهز ليخرج إلى الإسكندرية بنفسه ليباشر قتال المسلمين بها، فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته، وكفى الله المسلمين مؤنته، واضطربت أمور الدولة البيزنطية بعد موت هرقل إذ تولى الحكم ابناه قسطنطين وهرقل الثاني

---

(١) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ص٢٢٤ ـ ٢٥، أمير المؤمنين عمر، ٢ / ١ ـ ٢.

(هرقليانوس) وشاركتهما الإمبراطورة مارتينة أم هرقليانوس، لكن قسطنطين سرعان ما وافته منيته بعد مائة يوم من وفاة أبيه مما جعل أصابع الاتهام تتجه إلى الإمبراطورة التي كانت ترغب في أن ينفرد ولدها بالحكم، فاشتعلت الثورة ضدها، واستمرت الفتن ضاربة في البلاد عدة أشهر، حتى تولى كونستانس بن قسطنطين الحكم شريكاً لعمه هرقليانوس.

وكانت الإسكندرية فضلاً عن متانة أسوارها وضخامة ووفرة حماتها تمتاز بموقعها الدفاعي المميز فكان البحر يحميها من شمالها؛ حيث السيطرة آنذاك للروم، وكانت بحيرة مريوط تحميها من جنوبها، وكان اجتيازها عسيراً، بل غير مستطاع، وكانت إحدى تفريعات النيل قديماً واسمها نزعة الثعبان تدور حولها من الغرب، وبذلك لم يبق إلا طريق واحد من الشرق يصل إليها؛ وهو الطريق الواصل بينها وبين كرْيون.

وطال الحصار عدة أشهر مما أثار مخاوف عمرو من ملل جنوده أو شعورهم بالعجز أمام عدوهم، فقرر أن يبث كتائبه تجوس خلال بلاد الدلتا وقرى الصعيد، غير أن طول حصار الإسكندرية آثار حفيظة الخليفة عمر، وأثار في نفسه الهواجس والظنون حول استعداد جنوده للتضحية والمبادأة، ورأى أن ذلك ما كان إلا لما أحدثوا، وشرح ذلك في رسالة إلى عمرو بن العاص يقول فيها: (أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين ذلك إلا لما أحدثتم، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نيّاتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، (يعني الزبير وصحبه)، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكون غيّرهم ما غيّر غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحُضَّهم على قتال عدوهم، ورغّبهم في الصبر والنية، وقدّم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومُر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ووقت الإجابة، وليعجّ الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم، فلما أتى عمرو الكتاب جمع الناس وقرأه عليهم، ثم دعا أولئك النفر فقدّمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله ويسألوه النصر، ففعلوا ففتح الله عليهم[1].

---

(١) حمدي شاهين، الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٢٦.

ويروى أن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلد الأنصاري فقال: أشر علي في قتال هؤلاء فقال مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب النبي ﷺ فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيه، فقال عمرو: ومن ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت، فدعاه عمرو إليه، فلما دنا منه أراد النزول عن جواده؛ فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت، ناولني سنان رمحك، فناوله إياه فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له وولاه قتال الروم، ففتح الله على يديه الإسكندرية في يومهم ذاك، وقد جاء في رواية: إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لا يصلح آخره إلا من أصلح أوله يريد الأنصار، فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح الله على يديه [(١)]، ويروي ابن عبد الحكم: أن حصار الإسكندرية استمر تسعة أشهر وأنها فتحت في مستهل المحرم سنة عشرين للهجرة، وهي ما يوافق ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠م بينما انتهى بتلر في دراسته عن فتح مصر إلى أن حصار المدينة قد بدأ في أواخر يونيو سنة ٦٤٠م وأنها استسلمت في ٨ نوفمبر سنة ٦٤١م وهو ما يوافق ٧ ذي الحجة سنة ٢١هـ، وقد يرجح هذا القول ما ورد في رسالة عمر الفاروق إلى عمرو بن العاص: إنكم تقاتلونهم منذ سنتين، فما بين وصول عمرو العريش في ديسمبر سنة ٦٣٩م وتسليم الإسكندرية في نوفمبر ٦٤١م ما يعادل سنتين هلاليتين واستبقى عمرو أهل الإسكندرية فلم يقتل ولم يَسْبِ وجعلهم أهل ذمة، كأهل بابليون... ثم ترك في الإسكندرية حامية من قواته بعد أن اطمأن إليها ونشر بقية كتائبه لتفتح بقية حصون الروم وجيوبهم في مصر، فاستكمل فتح ساحل البحر المتوسط ومدنه الكبرى مثل رشيد ودمياط وغيرها: وكذلك بسط سيطرته على كل دلتا مصر وصعيدها [(٢)].

* * *

---

(١) أمير المؤمنين عمر، ٢ /٤ - ٥.

(٢) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين ص٢٢٩. علي محمد الصلابي، أمير المؤمنين عمر، ٢ /٤ - ٥.

فتح إفريقية

بدأ المسلمون فتوحهم في إفريقية عقب إفتتاحهم لمصر مباشرة. ففي سنة اثنتين وعشرين من الهجرة، سار عمرو بن العاص غربا إلى برقة، فافتتحها وصالح أهلها على الجزية، ثم افتتح طرابلس بعد أن حاصرها شهرا ولجأ سكانها إلى سفنهم في البحر، ولكنه تركها بعد ما غنم ما فيها، وفي خلافة عثمان بن عفان ﷺ توغل العرب في قفار إفريقية [١].

وكان من مقاصد حملة عمرو بن العاص ﷺ لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا، فتح البلاد وإزالة الطاغوت الروماني عن قلوب العباد حتى تتضح لهم السبل وتفترق لهم الطرق، وتصبح حرية الاختيار في متناول تلك الشعوب، بعد تلك الحملة المباركة التي كانت سببا في دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وعن حملة عبد الله بن سعد على إفريقية، يقول الدكتور صالح مصطفى: وفي سنة ٢٦ هـ/٦٤٦م عُزل عمرو بن العاص ﷺ عن ولاية مصر، واستعمل عليها عبد الله بن سعد ﷺ، وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل كما كانوا يفعلون أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون[٢]، وكانت جرائد الخيل تقصد إفريقية (تونس) تمهيدا لفتحها ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التي تعتبر مقدمة الجيش وعيونه، فلما اجتمعت عند عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعدادها، وموقعها الجغرافي الاستراتيجي كتب حينئذ إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان يخبره بهذه المعلومات الهامة عن إفريقية، يستأذن بناء على تلك المعلومات بفتحها، فكان له ما طلب.

يقول الدكتور صالح مصطفى: ولما استأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن عفان في غزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه بفتحها، إلا أبو الأعور سعيد بن زيد، الذي خالفه متمسكا برأي عمر بن الخطاب في ألا يغزو أفريقية أحد من المسلمين، ولما أجمع الصحابة على ذلك دعا عثمان للجهاد، واستعدت المدينة - عاصمة

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٥.
(٢) صالح مصطفى مفتاح المزيني، ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ص٤٩، علي محمد الصلابي، عثمان بن عفان، ص ٢٥٠.

الخلافة الإسلامية - لجميع المتطوعين وتجهيزهم، وترحيلهم إلى مصر لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد. وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جليا، وهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة، ومن خيار شباب آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل وكذلك الأنصار؛ فقد خرج في تلك الغزوة الحسن والحسين، وابن عباس وابن جعفر وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها في غزوة عبد الله بن سعد ستمائة رجل، ومن غنث سبعمائة رجل، ومن ميدعان سبعمائة رجل، وعندما بات الاستعداد تامًا خطب عثمان فيهم، ورغبهم في الجهاد، وقال لهم: لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله. ويقال: إن عثمان ﷺ قد أعان في هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس، وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر انضم إلى جيش عبد الله بن سعد، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذي يقدر بعشرين ألفا يخترق الحدود المصرية الليبية، وعندما وصلوا إلى برقة انضم إليهم عقبة بن نافع الفهري ومن معه من المسلمين، ولم يواجه الجيش الإسلامي أية صعوبات أثناء سيرهم في برقة؛ وذلك لأنها ظلت وفية لما عاهدت المسلمين عليه من الشروط زمن عمرو بن العاص، حتى إنه لم يكن يدخلها جابي الخراج، وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب. ومما يؤكد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العاص، ما ذكر أنه سمع يقول: قعدت مقعدي هذا، وما لأحد من قبط مصر علي عهد إلا أهل أنطابلس [(١)]، فإن لهم عهدًا يوفي لهم به، كما أن عبد الله ابن عمرو بن العاص كان يقول: ولولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها [(٢)].

وهكذا انطلقت هذه الحملة المباركة نحو إفريقية، وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة ابن نافع إليها، إلا أن عبد الله بن سعد قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون في جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق وتأمينها ورصد تحركات العدو وضبطها؛ تحسبا لأي كمين أو مباغتة تطرأ على حين غفلة، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست في ساحل ليبيا البحري بالقرب

(١) أنطابلس: معناها برقة.
(٢) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ص٣٩، الصلابي، عثمان بن عفان - (١ / ٢٥١).

من مدينة طرابلس، فما هي إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مائة من أصحابها، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون في طريقهم لفتح إفريقية.

وواصل عبد الله بن سعد السير إلى إفريقيا، وبث طلائعه وعيونه في كل ناحية، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيطلة بأمان، وهناك التقى الجمعان؛ جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد وجيش جرجير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مائة وعشرين ألفا، وكان بين القائدين اتصالات مستمرة ورسائل متبادلة، فحْوَاها عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول في الإسلام، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعا لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض رفضها وأصر واستكبر هو وجنوده، وضاق الأمر بالمسلمين، ونشبت المعركة بين الجمعين وحمي الوطيس بينهما لعدة أيام، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير، وكانت نهاية هذا المستكبر الطاغي جرجير على يديه [(١)].

ولما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة، غارت أنفسهم وتجمعوا وكاتب بعضهم بعضا في حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوه وراسلوه وجعلوا له جعلا على أن يرتحل بجيشه، وألا يعترضوه بشيء ووجهوا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب في بعض الروايات، وفي البعض الآخر مائة قنطار، جزية في كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال، وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح رده عمر.

إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة، فلعل الله ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٥٨/٧، عثمان بن عفان، (١ / ٢٥٢).

الظهر قتالا شديدا، فلما أذن بالظهر همَّ الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم والمسلمون؛ فكل الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبا، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقتل جرجير، قتله ابن الزبير، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية، ونازل عبد الله بن سعد المدينة وحاصرهم حتى فتحها، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.

ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا، وسيِّر عسكرا إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصرهم وفتحه بالأمان فصالحه أهل إفريقية كما مر معنا، ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك وأرسله ابن سعد إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية [١].

* * *

بطولة عبد الله بن الزبير في فتح إفريقية

هذا ولقد كان لعبد الله بن الزبير ﷺ موقف عظيم في البطولة والشجاعة، وقد ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال: لما قصد المسلمون - وهم عشرون ألفا - إفريقية، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وفي جيشه عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف، وقيل: في مائتي ألف، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة، فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا أخوف عليهم منه.

قال عبد الله بن الزبير: نظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي السرح فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري، وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان، فأمر بهم فحموا ظهري وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه، وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك، فلما اقتربت منه أحس مني الشر، ففر على برذونه فلحقته فصفعته برمحي وذففت - يعني أجهزت - عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبرت، فلما رأى ذلك البربر فرقُوا وفروا كفرار القطا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فغنموا غنائم جمة وأموالا عظيمة وسبيًا عظيمًا، وذلك

---

(١) ابن الأثير، الكامل ٣/٤٥، ٤٦.

ببلد يقال له: (سبيطلة) على يومين من القيروان.

قال ابن كثير: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير ﷺ وعن أبيه، وعن سائر الصحابة الكرام أجمعين [(١)].

إن ما قام به ابن الزبير نوع من الطموح نحو المعالي المحفوفة بالأهوال بدون تدرج سابق، لقد كان عمره آنذاك سبعا وعشرين سنة، ولم يذكر له قبل ذلك مواقف بطولية من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التي يغلب على الظن أو يكاد يقرب من اليقين في عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك؟!! وإن الاحتمالات التي يمكن أن ترد في مثل هذه المغامرة أن يدور في خلد المغامر أمران:

١ - أن ينجح في هجومه فيقضي على ملك البربر، ويتفرق جنده كما هي عادة الكفار، وفي ذلك نصر مؤزر للمسلمين، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة قد تخوف منها المسلمون.

٢ - أن يتقبله الله شهيدا، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأماني، وأبلغ الدرجات التي يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها، كما أن في ذلك من إرهاب الكفار وإثارة الرعب فيهم الشيء الكثير؛ حيث سيتوقع الكفار أن المسلمين الذين سيقاتلونهم كلهم من هذا النوع الجريء الفتاك؛ إذ أنه يكفي المغامر شجاعة أن يقذف بنفسه في وسط المعركة الملتهبة، إنه لا يقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة ويشتاقون للعيش فيها. ولقد كان ابن الزبير وثب تلك الوثبة متجردا من علائق الدنيا وأثقالها المثبطة، طامحا إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم، سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة [(٢)].

وقد جاء في هذا الخبر: أن البربر بعدما قتل ملكهم فروا من جيش المسلمين كفرار القطا، وأن المسلمين تبعوهم يقتلون ويأسرون منهم من غير مقاومة، وإن هذا الخبر دليل على أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين، وأنه يقيض لهم إذا صدقوا ما يخلصهم من الشدائد وينقذهم من المآزق، فإن المسلمين قد وقعوا في معضلة كبرى؛ حيث أحاط بهم أعداؤهم الذين يفوقونهم ست مرات في العدد أو أكثر، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانب، وهو أمر عسير على جيش صغير بالنسبة لكثرة عدوه، كما جاء في قول الراوي: فوقف المسلمون في موقف لم ير أشنع منه ولا

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٥٨/٧، عثمان بن عفان، ص ٢٥٤.

(٢) عثمان بن عفان، ص ٢٥٥.

أخوف عليهم منه، فقيض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقدم على مغامرة نادرة المثال، فأنقذ الله به ذلك الجيش الإسلامي من عسرة كان يعاني منها.

ولا ننسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبد الله بن الزبير يحمون ظهره، فإنهم قد شاركوه في تلك المخاطرة، ولئن لم يذكر التاريخ أسماءهم فإن عملهم الفدائي قد بقي مخلدا في الدنيا برفع ذكر هذه الأمة حينما تفاخر بأبطالها، وفي الآخرة بما ينتظرون من وعد الله للمجاهدين الصادقين.

هذا وقد قدَّم المسلمون الغالي والرخيص في فتوحات إفريقية، واستشهد منهم الكثير، وممن توفى منم غازيا بإفريقية في خلافة عثمان: أبو ذؤيب الهذلي وكان شاعرا مشهورا، وهو الذي قال:

وإذا المنيــــة أنشـــبت أظفارهـــا ::: ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع
وتجلـــدي للشــــامتين أريهـــم ::: أني لريب الـــدهر لا أتضعضـــع [1]

* * *

فتوحات الشمال الأفريقي في عهد معاوية رضي الله عنه

هذا وقد انشغل المسلمون بفتنة عثمان وما تبع ذلك من اضطرابات، ولم يقوموا بعمل حاسم لفتح إفريقية منذ سنة ٢٨ هـ حتي سنة ٣٥ هـ / ٦٥٤ م، وهي السنة التي قتل فيها عثمان بن عفان، وخلفه علي بن أبي طالب، فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان - والي الشام في عهد عثمان -، أعاد عمرو بن العاص علي مصر للمرة الثانية، فاستأنف عمرو غزواته السابقة علي برقة وطرابلس، فكان يبعث إليها جندا يغنمون من أراضيها ماشاء لهم ذلك، ويعودون من حيث أتوا دون الاشتباك مع الوم في مواقع حاسمة [2].

ومن واقع تاريخ إفريقيا في عهد معاوية نجد أنه في أول سنة من حكمه ٤١هـ أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقيا ثم أرسله ثانية سنة ٤٥هـ على رأس حملة من عشرة الآف مقاتل، فمضى حتى دخل إفريقيا وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشراف قريش، فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقاً يقال له: نقفورا في ثلاثين ألف مقاتل، فنزل الساحل، فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله بن

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص٣٥٩.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس وآثارهم، ص ٣١.

الزبير في خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة، اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نقفوراً أقلع من في البحر منهزماً من غير قتال، ورجع بن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء فحاصرها وقتل من أهلها عدداً كثيراً حتى فتحها عنوة، وأغزى معاوية بن حديج جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً، ثم انصرفوا إلى إفريقيا بغنائم كثيرة، وبعد هذه الفتوح عاد معاوية بن حديج إلى مصر دون أن يترك قائداً أو عاملا، ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج أثناء هذه الغزوة أن البربر أهل البلاد كانوا قد أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومي من هذه الناحية [١] وعندما استعاد معاوية بن حديج طرابلس الغرب ترك فيها رويفع بن ثابت الأنصاري والياً عليها سنة ٤٦هـ فغزا منها إفريقيا (تونس) ودخلها سنة ٤٧هـ، وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر، وقد تحدثت المراجع عن كثرة السبايا في هذه الغزوة وقام رويفع بن ثابت الأنصاري بتذكير المسلمين في هذه بأحكام وطء السبايا، حيث قال: أما أني لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين:﴿**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امراة من السبي حتى يستبرئها** [٢]، **ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يُقسم**﴾[٣]. وقد بقي في ولاية طرابلس الغرب ثم ولاه مسلمة بن مخلد ولاية مصر وبرقة، وبقي عليها أميراً ومات بها سنة ٥٦هـ وقبره معروف في الجبل الأخضر ببرقة في مدينة البيضاء وهو آخر من توفي من الصحابة هناك، وروي عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، وأن فقيهاً من أصحاب الفتيا من الصحابة وكان خطيباً مفوهاً

ولم يتح لمعاوية بن حديج أن يتم فتح إفريقية، إذ عزله معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٨ هـ / ٦٦٩ م، وقيل سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠م وولي إفريقية عقبة بن نافع الفهري. وبتولية عقبة علي إفريقية يبدأ طور الفتح المنظم [٤].

* * *

(١) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، (٨٥/١).
(٢) يستبرئها: بحيضة أو بشهر.
(٣) يُقسم: أي من الغانمين ويخرج منه الخمس.
(٤) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣٣.

عقبة بن نافع وفتح إفريقية

يعتبر عقبة بن الفهري [١] من أكابر التابعين وأفاضلهم، فقد ولد قبل وفاة الرسول ﷺ بعام واحد، وكان من أعرف الناس بأحوال المغرب العربي، وكان قوي الإيمان بدينه، شديد الحماس لنشره، فكان يتخذ من من الفتوحات وسيلة لنشر الإسلام، وكان بالإضافة إلى ذلك قائدا قديرا، ساهم في فتوحات عمرو بن العاص الأولى في إفريقية، كما ساهم في فتوحات عبد الله بن سعد [٢] وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة في طريق فتح شمال إفريقيا كله، ذلك أنه لطول إقامته في برقة وزويلة وما حولها، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكي يستقر الأمر للمسلمين في إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها في غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبي سفيان قيادة الفتوحات في إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من اسلم من البربر فكثر جمعه [٣]، وسار في جموعة حتى نزل بمغمداش من سرت، فبلغه أن أهل ودان [٤] قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبي أرطأة الذي كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسماً من الجيش عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان [٥]، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا[٦].

---

(١) هو عقبة بن نافع القرشي الفهري، نائب إفريقيا لمعاوية وليزيد، وهو الذي أنشأ القيروان وأسكنها الناس وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصحّ له صحبة، شهد فتح مصر، واختطّ بها(١)، فقد أسند معاوية ابن أبي سفيان قيادة حركة الفتح في إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذي خلد التاريخ اسمه في ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك في غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب في هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤٨٣/٢)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٣.

(٤) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، ياقوت الحموي، معجم البلدان (٣٦٥/٥، ٣٦٦).

(٥) فزان: جنوب ليبيا ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة، الصلابي، الدولة الأموية، (٢ / ٥٥).

(٦)ابن عبد الحكم، فتوح مصر، صـ١٣٢.

ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوّار [١]، وخاور [٢]، وغدامس [٣]، وغيرها، ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب في مسيرة المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلداً بلداً، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطي[٤].

* * *

بناء مدينة القيروان

في سنة ٥٠هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهداً جديداً مع عقبة بن نافع، المتمرس بشؤون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شئ، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها، وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادي! إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا، ثلاث مرات فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله [٥]، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة، وقد رأى قبيل من

---

(١) إقليم ببلاد السودان الغربي جنوب فزان. ياقوت الحموي، معجم البلدان (٤٨٦/٤).
(٢) خاور: مدينة جنوب فزان.
(٣) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية.
(٤) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٢٨٠، الدولة الأموية، (٢ / ٥٥).
(٥) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩، الصلابي، الدولة الأموية ـ ٢ / ٥٨.

البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار.

وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة ٥٥هـ وسكنها الناس، وكان في الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثيراً من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها [1]، وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائماً إلى جوار بعضهما، ويكونان دائماً في قلب المدينة التي يخطتها المسلمون ويرتكزان في وسطها [2]، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسي للقيروان، الذي سيسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغاً حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمراراً للشارع الرئيسي في الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها وكان الكثير منهم دخل في الإسلام، وشرعوا في تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم وهكذا نشاهد فيما بين سنتي ٥٠ و٥٥هـ حركة قوية بدأت في تعريب الشمال الأفريقي [3].

* * *

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٤٨٤/٢). السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٥، محمد سيد الوكيل، الأمويون ٧٢/١.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٥، الصلابي، الدولة الأموية، ٢ / ٥٨.

الخصائص المتوفرة في موضع القيروان

... كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية في قرار عقبة في اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتي:

أ - بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية في الفسطاط أي بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البري الذي يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب، ويبدو أن عقبة رحمه الله أخذ بنظرية عمر بن الخطاب في بناء الأمصار والمعسكرات بألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب - موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع في أن يكون الموضع قريباً من السبخة: فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إبلكم على بابها في مراعيها [(١)]..، وكذلك في الكلمات التي عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم في الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر [(٢)].

جـ - بأنه يتمتع ببعض الانتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التي كان فيها موضع القيروان عبارة غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهاً لجبال أوراس، معقل قبائل البربر، إذن، فإنه كان في بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التي تكفل للمجاهدين المسلمين مورداً غذائياً مهماً [(٣)].

س - صحيح أن المشكلة الرئيسية التي جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثلة بالموارد المائية، كما هي الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصرين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين، الأول منهما: الأمطار حيث كانت تخزن في صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل)، وثانيها: مياه وادي السراويل في قبلة المدينة، لكنه كان مالحاً. لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان قائلا: وشربهم من ماء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩، د. عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية صـ٢٥٢.

(٢) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ٧٨/١.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩، الحبيب الجنحاني، القيروان، صـ٥٩.

من الأودية إلى برك عظام يقال لها (المؤجل).. ولهم وادٍ يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح.. يستعملونه فيما يحتاجونه، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجياً إلى حد ما [(١)].

٢ - القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية:

... لم تبدأ الحياة العلمية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمته العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق ومما رشح القيروان في هذه المكانة ما يلي:

أ - إن إنشاء مدينة القيروان يعني أن إفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي الكبير، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقي مسئولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها.

ب - لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابياً [(٢)]، وقد مكثوا فيها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها، ولا شك، نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غياباً طويلاً عن القيروان، أما في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابياً، وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة مما دعا عقبة أن يوصي أولاده من ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩، الحبيب الجنحاني، القيروان، صـ٥٩.

(٢) البيان المغرب (٢٠/١). السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩.

ت - لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة. ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجاً ودعّم حسان بن النعمان - فيما بعد جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر حيث خصّص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدِّين، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله [(١)].

جـ - كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السراري وأمهات الأولاد، قال أبو العرب: روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية من أم الولد وماتت، فدفنها في مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية. ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشئ المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جداً، فقد روي عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه، وكان سفيان ابن وهب قد دخل القيروان مرتين أولاهما سنة ٦٠هـ أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة ٧٨هـ [(٢)].

س - إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمرّ

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٩، الصلابي، الدولة الأموية، ٢ / ٦١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص٣٤، الصلابي، الدولة الأموية، ٢ / ٦٢.

بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق.

ش - لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدّثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهماً في إزدهار الحياة العلمية بالقيروان.

ص - وممّا أسهم في شراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيراً من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتي استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثاني، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب.

ل - كما أن القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه صحابة رسول الله ﷺ، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب، كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية في إفريقية والمغرب حتى وصفها أبو إسحاق الجبنياني قوله: القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها ولا قاتل ولا قتل على أحياء السنة إلا أئمتها [(١)]، وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي من ذلك ما وصفها به ماقديشي بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام [(٢)]، وهكذا أصبحت القيروان دار العلم الإفريقية وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء ورحل إليها أهل المغرب والأندلس

---

(١) الدولة الأموية، ٢ / ٦٢.

(٢) الشيخ محمد النيفر، حسن البيان، صـ١٨٩، الدولة الأموية، ٢ / ٦٢.

لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب، لقد قامت القيروان بدور كبير في فتح شمال أفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام في المغرب وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية[1].

ص - وممّا أسهم في شراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيراً من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتي استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثاني، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب.

* * *

عزل عقبة وتولي أبي المهاجر دينار سنة ٥٥هـ

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري يعزله سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م، ويولي مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال:... إن أبا المهجر صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل فنحن نحب أن نكافئه، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية في دمشق معاتباً، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لي، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلي. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخي كما يقول ابن عذارى حتى توفي معاوية وأفضى الأمر إلى يزيد، فرد عقبة والياً على إفريقية. وهناك نقطة في هذا الموضوع، وهي: الإساءة التي تعرض لها عقبة من أبي المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديداً، ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا؟ قال الدكتور عبد الشافي محمد عبد اللطيف في كتابه القيم: ولا ندري ما الذي حمل أبا المهاجر على هذا، ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد، بأنه هو الذي أوعز إلى أبي المهاجر أن يسيء إلى عقبة. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصاً وأن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولي أبا

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ٢٧٠، الدولة الأموية ٦٤/٢.

المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديداً، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه. ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبا المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة [(١)]، ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصياً كان يجل عقبة، ويعرف مقامه؟ وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال هذا رجل لا يرد له دعاء، هذا هو السؤال الذي لا نملك عليه جواباً شافياً.. اللهم إلا الاستنتاج الذي أخذ به محمد علي دبوز، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطراراً إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبي المهاجر: ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين. إن كان هذا الاستنتاج صحيحاً وهو على كل حال معقول، فقد يخفف من شدة اللوم الذي يوجهه إلى أبي المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل الأحقاد وأن يكون السابق منهم حريصاً كذلك على أن يعطي خبرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح في مهمته لأن هدفهم واحد وهو الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه [(٢)].

* * *

فتوحات أبي المهاجر دينار ٥٥ – ٦٢هـ

... على الرغم... من الخطأ الكبير الذي ارتكبه أبو المهاجر في حق سلفه، المجاهد الكبير عقبة بن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول أنه قام بدور عظيم في فتح المغرب وتمهيده لقبول الإسلام ديناً ونظام حياة، فقد كان أبو المهاجر يتمتع بقدر كبير من الكياسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى - بثاقب نظرة - أن سياسة الشدة التي كان يسير عليها عقبة بن نافع لا بد أن تغير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسة كسب القلوب، فالبربر قوم أشداء يعتدون بكرامتهم وحريتهم فسياسة

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر صـ١٣٤، الدولة الأموية، ٢ / ٦٥.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الدولة الأموية، ٢ / ٦٥.

اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة وقد نجح أبو المهاجر في سياسته تلك نجاحاً كبيراً، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر في شمال أفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم، الذين أخذوا يتحببون إلى البربر ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد يستعمروهم ويستعبدونهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذي فيه سعادتهم ومساعدتهم على التحرر من ربقة الروم، الذين يستغلون بلادهم منذ قرون، وكان الروم رغم الهزائم التي حلت بهم في وسط إقليم إفريقية وجنوبه، لازالوا قوة في الشمال، ولازالت عاصمتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحين الأولين، ثم إنهم لازالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، فكان على أبي المهاجر أن يضرب الروم ضربة قوية ليضعضع نفوذهم في تلك النواحي، ويكسر الحلف الذي عقدوه مع البربر، فسار إلى قرطاجنة ونازلها[(١)]، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر الحصار عليها فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فيدخل العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك، لتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعاني ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد. رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسايراً الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعاً، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة، على خمسين ميلاً من بجاية في جنوبها الشرقي فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم في هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحواً من سنتين وقد استثمر هذه المدة في الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة

---

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة (١٥٢/١)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٦٦).

الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح في سياسته نجاحاً كبيراً فأقبل البربر على الإسلام وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له في هذه النواحي من المغرب، قسطنطينية الآن ونواحيها إلى بجاية. لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح في اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحي، سكون البحر بعد العاصفة، وترامت الأخبار إلى أبي المهاجر أن جمعاً من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة [١]، وهي قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوي الشخصية ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه وكان البربر يجلونه ويحبونه وكان نصرانياً متمسكاً بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا في الإسلام والمسلمين فرآهم عدواً لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر في ميلة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لامة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم [٢].

١ - معركة تلمسان: بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر في تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبي المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فألتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيراً، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار [٣].

* * *

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١،. الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٦٨).
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الدولة الأموية - ٢ / ٦٨.
(٣) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٧.

إسلام كسيلة

... أسر كسيلة في معركة تلمسان وحمل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك [١]، وطمع في إسلامه، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته، وإنه دين التوحيد الخالص، والعدل والمساواة، والأخوة، وأنه لو أسلم فلن يخسر شيئاً، بل العكس سوف يكسب الكثير روحياً ومادياً، وكان كسيلة ذكياً طموحاً مخلصاً لقومه لا يريد لهم إلا الإصلاح، فآمن كسيلة، وأصبح من المسلمين وأغرم بالعربية فصار يتعلمها، وأصبح من المقربين من أبي المهاجر وشمّر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين ودعا قومه البربر للدين الحنيف، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين وعاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريباً من القيروان، وأقام بقرية تسمى دكرور يراقب الأمور، ويرصد تحركات الروم ودسائسهم ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقي، لكن لسوء الحظ لم يطل به المقام، فقد عزله يزيد بن معاوية ٦٠، ٦٤هـ عن إفريقية وأعاد عقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية [٢].

* * *

ولاية عقبة بن نافع الثانية ٦٢ - ٦٣ هـ

ظل أبو المهاجر علي ولاية إفريقية حتي مات معاوية سنة ٦٠ هـ وأفضت الخلافة من بعده لابنه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان يزيد مقتنعا بفضل عقبة علي الإسلام وحسن بلائه في غزو إفريقية، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد والي مصر، وعزل أبا المهاجر بن دينار، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية [٣].

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه في وثاق شديد [٤]، ومع هذا فقد كان أبو المهاجر مخلصاً وفياً شهماً غيوراً فلم يبخل بنصائحه لعقبة بالرغم ما حدث بينهما من الجفوة ومن أبرز هذه

---

(١) تاريخ المغرب الكبير ٣٨/٢، الدولة الأموية - ٢ / ٦٩.
(٢) الدولة الأموية - ٢ / ٦٩.
(٣) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٧.
(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر صـ١٣٤، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤ / ٤٥، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٦ - ٣٧، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٠ - ٢١، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٠).

النصائح إشارته على عقبة بإكرام زعيم البربر كسيلة، ومحاولة تأليفه ليبقى على الإسلام، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يوماً أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغضباً وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثّق من الرجل فإني أخاف فتكه ولاشك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين، ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقاءه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم، ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة، وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته وإنما كان رائدهما النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أقرب إلى الصواب في هذه القضية[١].

* * *

جهاده من القيروان إلى المحيط

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين قام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوي ودعا لها قائلاً: يا رب املأها علماً وفقهاً واملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنعها من جبابرة الأرض، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة ألف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره

---

(١) الدولة الأموية، ٢ / ٧١.

وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله ثم قال: - يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تُداينوا ولو لبستم العباء فإن الدّين ذُلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا - ثم قال: عليكم سلام الله وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا - ثم قال: اللهم تقبّل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك [(١)]. وهكذا ما إن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهيامه به قوله في وصيته لأولاده: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي{۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١} [التوبة: ١١١]. فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامي، وهو إعلاء كلمة الله في الأرض، وفي وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ - الوصية الأولى: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه، وذلك بالاهتمام أولا بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل، وما ابلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى:{وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ } [الحشر: ٧]. ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

بـ - الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذل بالنهار

---

(١)ابن عذاري، البيان المغرب ٢٣/١، الدولة الأموية، ٢ / ٧٢.

حيث يدفع المستدين إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

جـ - الوصية الثالثة: التحري في تلقي العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل. ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلمّ عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك. وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة. سار عقبة في جيش عظيم متجهاً إلى مدينة باغية [1]، حيث واجه مقاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فحاصرهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه في جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن منَّ عليهم بالصبر فكانوا في ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجؤوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة، ثم استمر غربا قاصداً بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها فقيل له (أربَه) وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم ورحل عقبة إلى (تاهرت) فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقام عقبة بن نافع في الناس خطبة فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعه الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبا لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشرو فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم على بركة

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥٨٩/٢، الدولة الأموية، ٢ / ٧٤.

الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين [١].

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع ﷺ قد اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة.. ألا وهو " التوكل على الله تعالى "، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد ﷺ، الذي كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم - من غير غرور ولا استهانة - كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأس به واتخذه له قدوة في القيادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسآمة، وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به.

هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم في مدينة (تاهرت) وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريق من الروم اسمه (جوليان) الذي: أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام، ثم سأله عن البربر والروم بقوله: دلني على رجال البربر والروم فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم في عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين [٢]..

استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربي، قاصداً بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٣/١ـ٢٧، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٥).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٥٩٠/٢)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٦).

وادي درعا، حيث بنى مسجداً في مدينة درعا ثم غادر صحاري مراكش باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة (تافللت) من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كي يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة في مدينة (اغمات)، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تفيس، حيث حاصر بها جموعاً من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصراً وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها (إيجلي) التي بنى فيها مسجداً، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة (ماسة) ومنها إلى رأس (إيفران) على البحر المحيط [١]، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب، وتشير مصادرنا التاريخية أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسي قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك. ثم قال: اللهم اشهد أني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطراً ولا أشراً وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعاً [٢].

وندرك من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسؤولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة تشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذي يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائماً فإن الجهاد لا بد أن يكون موجوداً، فالجهاد أذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/٥٩٠)، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (٢/٥٩٠)، ابن عذاري، البيان المغرب (١/٢٣-٢٧). السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).

وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسراً لكل الناس [١].

ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى، كما كان يترك نفراً من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شاكر الذي بنى رباطاً ما بين بلدتي مراكش وموجادور ولا زال موقعه باقياً إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدي شاكر، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعاً مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام، وكي يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولي عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة فقد ترك عليها أبا مدرك زرعة بن أبي مدرك، أحد رؤسائها، الذي شارك في فتح الأندلس فيما بعد، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبة على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب (عقبة) نساء لم يرى الناس مثلهن فقيل أن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر، وكان السبي أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب، والبربر أوجد صلات وروابط تجلت في الحلف والولاء في هذا الوقت المبكر. يذكر السلاوي: أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة وهذا يشعر بأن بعض زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتان للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين [٢].

* * *

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٧).

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٨، الصلابي، الدولة الأموية - (٢ / ٧٨).

استشهاد عقبة بن نافع وأبو المهاجر رحمهما الله تعالى

ويبدو أن أخبارا مقلقة من إفريقية بلغت عقبة فعجل بالعودة إلى القيروان مارا بايغران يطوف، وتارنا، ومنها إلى رباط شاكر، ودخل إقليم دكالة، حتى دخل طنجة، ومنها اتجه إلى المغرب الأوسط، ولما بلغ مدينة طبنة، أرسل أكثر فرق جيشه من طريق آخر، ولم يستبق معه سوي خمسة آلاف، وسار هو إلى مدينة تهودة ليستولي عليها، ويجعل منها قاعدة حربية لقواته في منطقة أوراس، ولكنه ما كاد يقترب منها حتى اعترضه كسيلة بن لمزم بجموع هائلة من بربر البرانس، يتجاوز عددهم خمسين ألفا، وقطع بهم علي عقبة خط الرجعة، وأحس عقبة أمام هذه الحشود المتجمعة من البربر بنهاية أجله، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من اتبعه من المسلمين إلى القيروان، ويبقي هو لقتال البربر، فأبي أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معه، فنزل المسلمون عن دوابهم، وكسروا أغماد سيوفهم، ودارت المعركة عند تهودة سنة ٦٣ هـ، فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما، واستشهد معه عدد كبير من المسلمين، وأسر الباقون، ففداهم صاحب قفصة، وبعث بهم إلى زهير بن قيس البلوي [(١)].

وعلي ما يبدو أن عقبة كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيداً في هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان في بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل... إلى أن قال: ولست أدري أترونني بعد يومي هذا أم لا، لأن أملي الموت في سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله.. اللهم تقبل نفسي في رضاك [(٢)]. نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله في الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كميناً عند تهوذة [(٣)]، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده، وترجع المصادر أمر الكارثة التي تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيسي وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة في قومه، والذي كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذي وقع فيه عقبة ولم يكتم نصيحته عنه - رغم أنه كان في حكم المعتقل - ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٣٩.

(٢) البيان المغرب، ٢٣/١، ٢٤، الدولة الأموية، ٢ / ٧٩.

(٣) تهوذة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم. الدولة الأموية، ٢ / ٧٩.

أبو المهاجر من معاشرته للبربر وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة، وهذا الإذلال الذي لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضاً وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر في غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصداً القيروان، ولما صار قريباً من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائماً وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوباً لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمراً ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد في أي عمل يتوجه إليه ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربري، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعاً لا قِبَلَ لهم به وإذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة في جمع عدته خمسون ألفاً [1]. وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فلمّا رأى الجموع تمثل بقول أبي محن الثقفي:

كفى حزناً أن تمرغ الخيل بالقنا ::: وأُترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذ قمتُ عنّاني الحديد وأُغلقت ::: مصارع من دوني تصمّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا اغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة [2]، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجاً من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعاً في بلاد (تهوذة) من أرض الزاب ويَذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها [3].

---

(١) البيان المغرب (٢٥/١)، الدولة الأموية - ٢ / ٨٠.
(٢) الكامل في التاريخ، ٥٩١/٢، الدولة الأموية، ٢ / ٨١.
(٣) البيان المغرب ٢٨/١، الدولة الأموية، ٢ / ٨١.

وهكذا تحقق أمل عقبة في أبو المهاجر ونالا الشهادة في سبيل الله بعد ما قاموا بالواجب الذي عليهم، واستقبلوا الشهادة في سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه في هذا الجزء من العالم الذي سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عاماً قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وإنتهاء بالمغرب الأقصى (١).

* * *

أثر معركة تهوذة على المسلمين ٦٣هـ

ودوي خبر مقتل عقبة في إفريقية والمغرب، وكان له أثر عميق في نفوس المسلمين، وكان وقع هذا الخبر شديدا علي الحكومة المركزية في دمشق، التي كانت مشغولة آنذاك بالحرب مع ابن الزبير والخوارج، فمضت أعوام أخري قبل أن تتمكن من العناية بشؤون إفريقية، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير وجه عبد الملك بن مروان عنايته بأمر إفريقية واستعادة أملاك المسلمين فيها،... كانت معركة تهوذة مصيبة على المسلمين، فقد استشهد القائد المجاهد عقبة بن نافع وصحبه وكان لاستشهاده وقع أليم على المسلمين، وانتابتهم حالة من الهلع والفزع، فمع أن العدد الذي استشهد مع عقبة كان قليلاً - قيل حوالي ثلثمائة جندي - وأن معظم الجيش كان قد سار متقدماً ونجا من المعركة، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقاوم، حتى يحتفظ بوجوده في القيروان، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك، وقد حاول زهير بن قيس البلوي خليفة عقبة على القيروان أن ينفخ في الجنود روح المقاومة والتصدي لكسيلة عندما زحف على القيروان، وهتف قائلاً: يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقدمنّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، أو يفتح الله عليكم دون ذلك، ولكن صيحة زهيرة هذه لم تجد استجابة، بل لقيت معارضة وتثبيطاً، حيث تصدى له حنش الصنعاني وقال له: لا والله ما نقبل قولك ولا لك علينا

---

(١) الدولة الأموية، ٢ / ٨١.

ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم.

ثم قال: يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقة فليتبعني فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في أثره، ولحق بقصره ببرقة وأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان، وأما كسيلة فاجتمع إليه جميع أهل إفريقية، وقصد القيروان، وبها أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم، ودخل القيروان، واستولى على إفريقية وأقام بها غير مدافع إلى أن قوى أمر عبد الملك بن مروان [1]، ولئن أخرجت إفريقية من يد المسلمين فإنها لم تخرج عن الإسلام، فقد أسلمت قبائل من البربر وثبتت على إسلامها وكان تعيش بالقيروان وكان كسيلة يحسب حسابها ويتفادها لشدة باسها فقد اعترف كسيلة بذلك حين اقترح على جيشه الخروج من القيروان واختيار موضع آخر لمواجهة جيش زهير الذي أمده به عبد الملك بن مروان قال كسيلة: إني أردت أن أرحل إلى ممس فأنزلها، فإن هذه المدينة (يعني القيروان) فيها خلق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونحن نخاف إذا التحم القتال أن يثبتوا علينا [2]. هذا وقد بقيت القيروان بيد كسيلة مدة تقارب خمس سنوات من عام ٦٤هـ - ٦٩هـ حتى خلصها زهير البلوي من قبضته بعد أن أمده عبد الملك بن مروان بجيش كبير يأتي الحديث عن زهير بإذن الله في عهد عبد الملك بن مروان.

وفي مقتل عقبة رحمه الله درس بليغ وهو: أهمية الحذر من العدو فقد أرسل جنوده وبقي في مجموعة قليلة من المقاتلين رغباً في الشهادة وهذا مطلب سامي وكبير إلا أن استشهاده كان له آثار سيئة على الفتوحات في شمال إفريقيا وضاعت القيروان من أيدي المسلمين لمدة خمس سنوات وتأخرت الدعوة الإسلامية لذلك يجب على القادة أن يوازنوا بين مصالح الأمة الكبرى وحرصهم على الشهادة.

ولما تولي الخلافة عبد الملك بن مروان سنة ٦٥هـ عزم أن يعمل علي إستعادة إفريقية، فولي عليها زهير بن قيس البلوي، وكان منذ سقوط القيروان يتولي الدفاع عن برقة، وأمده بجيش ضخم، فزحف زهير علي القيروان سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨م والتقي علي مقربة منها بجيش كسيلة، فهزم البربر بعد معركة شديدة، قتل فيها كسيلة

(١) أبو المحاسن بن تغربردي، النجوم الزاهرة، ١٦٠/١، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٠، الدولة الأموية، ٢ / ٨٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٠، الدولة الأموية، ٢ / ٨٢.

وكثير من أصحابه، ودخل زهير القيروان وترك فيها حامية للدفاع عنه، وفرق جنده لإخضاع الثوار في مختلف الأنحاء، ولكن الروم انتهزوا فرصة توغل المسلمين غربا، وأمدهم قيصر قسطنطينية بأسطول صقلية، فنزلوا في قرطاجنة ثم زحفوا علي برقة في جموع عظيمة، وعلم زهير بتلك المفاجأة، فارتد للدفاع عن برقة، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون، وقتل زهير ومعظم قواده، في مدينة درنة بشرق ليبيا ودفن مع أصحابه، وقبورهم هناك معروفة إلى اليوم تسمى مقبرة الشهداء وكان ذلك ٧١هـ [١].

ولما استشهد زهير ببرقة اضطربت بلاد المغرب من بعده وأضطرمت بها نار الفتن، وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم، وكان من أعظم هؤلاء الرؤساء وقتئذ الكاهنة الزناتية الجراوية، صاحبة جبل أوراس، وانقضت بعد ذلك أربعة سنوات توقف فيها لافتح، لانشغال عبد الملك بن مروان بالقضاء علي ثورة عبد الله بن الزبير والخوارج، والحقيقة أن وقع استشهاد زهير بن قيس البلوي ورفاقه كان عظيماً على الخليفة عبد الملك بن مروان لذلك ما إن انتهى من حربه مع ابن الزبير حتى أولى اهتماماً خاصاً إلى الوضع في شمال إفريقيا، لذلك نراه يجهز جيشاً كبيراً قوامه نحو أربعين ألف مقاتل غالبيتهم من أهل الشام، وعهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغساني الذي كان رجلاً ورعاً تقياً يدل على ذلك تسميته بـ (الشيخ الأمين)، وقد أقر الخليفة حسان بن النعمان أن يقيم بمصر استعداداً لإنجاز مهمته وكتب إليه: إني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك من الناس، وأخرج إلى جهاد إفريقيا على بركة الله. وقد وصف ابن الأثير عظمة هذا الجيش من حيث تعداده وعدته بقوله: لم يدخل إفريقيا جيش مثله، وكان بداية الغزو في عام ٧٤هـ، وقد تمكن هذا الجيش من فتح المناطق التي مر بها وكان على مقدمته كل من محمد بن أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي ووجود هذا الأخير كقائد على مقدمة الجيش حسان يشير إلى مشاركة البربر بشكل كبير في هذه الحملة [٢].

* * *

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢١، مصر في العصر الأموي صـ١٤٠.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٤٢، الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ١٣٠.

فتح قرطاجنة

... وصل حسان القيروان ودخلها دون أن يواجه أي مقاومة ثم توجه بعد ذلك إلى الشمال حيث قرطاجنة القاعدة البيزنطية على الساحل، وسار حسان إلى قرطاجنة وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة، ولم تطل المعركة مع البيزنطيين ودخل حسان قرطاجنة عنوة، ولم يكد حسان ينصرف منها عائداً إلى القيروان حتى عاد أهلها للاعتصام بها مرة أخرى، مما اضطر حسان لفتحها مرة الثانية، فهدم المسلمون ما أمكنهم منها، لكي لا يعود إليها من يطمع بالتحصن بها. ثم أعقب حسان حملته هذه بحملة على ططفورة وبنزرت فافتتحها ولم يتبع المنهزمين من الروم الذين تحصنوا في مدينة باجة ولا البربر الذين تحصنوا في مدينة بونة. وعاد حسان إلى القيروان، لأن الجراح قد كثرت في أصحابه فأقام بها حتى صحوا [(١)].

* * *

هزيمة حسان أمام الكاهنة

وما كاد حسان يفرغ من الروم حتى واجهته مشكلة البربر البتر الذين اجتمعوا حول زعيمة لهم تعرف بالكاهنة يقال لها داهية بنت ماتية بنت تيغان ملك جبل أوراس، وكان علي حسان أن يواجه زعيمة البربر، فقال: دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقية؟ فدلوه على إمرأة تملك البربر وتعرف بالكهانة، فزحف حسان قرب باغية، وسبقته الكاهنة إلى هناك فهدمت المدينة بعد أن أخرجت الروم منها ثم اشتبك الجيشان في موضع يسمي نهر البلاء، فانهزم حسان بن النعمان هزيمة منكرة، وانتصرت الكاهنة وقتل من المسلمين خلق كثير وانسحب حسان إلى قابس، وقامت الكاهنة بالهيمنة على المغرب كله بعد حسان خمس سنين، وهكذا خرجت إفريقية للمرة الثانية من أيدي العرب، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلا آخر الدهر، واستجاب لها قومها من جراوة الذين كان يغلب عليهم الطابع البدوي فذهبوا إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون.. فكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلا وقرى متصلة فأخرجت جميع ذلك، وقد أضر هذا التخريب بالبرانس والأفارقة حتى ألجأهم إلى الفرار وطلب المساعدة، وخرج

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٤٣، الصلابي، الدولة الأموية، ٣ / ١٣٠.

يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فيتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية، وهرع الكثير منهم إلى حسان يستنصرونه عليها، وملكت الكاهنة إفريقية وأساءة السيرة في أهلها وعسفتهم وظلمتهم [(١)].

* * *

استعادة البيزنطيين قرطاجنة وانسحاب حسان إلى سرت بليبيا

... كان لسقوط قرطاجنة بيد المسلمين أثر بالغ على البيزنطيين ووجدوا في خروج حسان من إفريقية والفوضى التي عمّت البلاد مجالاً لإعادة نفوذهم في الشمال الإفريقي، فجهز الإمبراطور ليونتوس - الذي خلف جستنيان الثاني - سنة ٦٩٥م حملة كبيرة بقيادة البطريق يوحنا إلى إفريقية وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إليها، فتمكنت القوة البيزنطية من استعادة قرطاجنة سنة ٧٨هـ، دون مقاومة تذكر واضطر أبو صالح نائب حسان عليها أن ينسحب منها مع من كان معه من المسلمين ودخلها البطريق يوحنا [(٢)]، ويتضح من دراسة حركة الفتح أن مصير المغرب كان مرتبطاً إرتباطاً وثيقاً بالأوضاع في المشرق وأقام حسان في منطقة طرابلس قرب سرت في المكان المسمى قصور حسان خمس سنين، وحين استقرت الأوضاع في المشرق سارع عبد الملك بإرسال المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى إفريقية في أواخر سنة ٨١هـ [(٣)].

* * *

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٣، الصلابي، الدولة الأموية - (٣ / ١٣٣).
(٢) حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، صـ٣٧٠، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٣، الصلابي، الدولة الأموية - (٣ / ١٣٣).
(٣) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٣، الصلابي، الدولة الأموية - (٣ / ١٣٣).

مقتل الكاهنة ٨٢هـ

أقام حسان بن النعمان ببرقة ما يقرب من أربعة سنوات يترقب النجدة التي وعد بها عبد الملك بن مروان، وأقام هناك قصورا كانت تسمي في القرن الثاني عشر الميلادي باسم قصر حسان. فلما كانت سنة ٨١ هـ وصلته الإمدادات وتوافت عليه فرسان العرب ورجالها، من قبل عبد الملك بن مروان وزحف حسان بكامل قواته لمقاتلة الكاهنة، وتكاثف جيشه بمن انضم إليه من البربر الموالين له، فأخذت الكاهنة تتراجع موغلة في جبال أوراس، وبعثت إبنيها إلى حسان ليطلبا الأمان لنفسيهما، فأمنهما، أما هي فقررت أن تحارب حتى الموت... كان خالد بن يزيد العبسي أسيراً عند الكاهنة، فأرسل إلى حسان: إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأي عندهم فأطوي المراحل وجد في السير. وما زال حسان يطاردها حتى إلتقي بجيشها سنة ٨٢هـ / ٧٠١م عند بئر الكاهنة، وقيل عند طبرقة، فهزمها هزيمة شنعاء وسحق جيشها وقتلها، واستقامت بلاد إفريقية لحسان، وبعد هذا الانتصار عاد حسان إلى القيروان في سنة ٨٢هـ، ومنها زحف إلى قرطاجنة وأعاد فتحها. وبهذا النصر المزدوج خلصت أرض إفريقية للمسلمين، تلت ذلك فترة استقرار ثم انطلاق لفتح ما تبقى من المغرب [1].

* * *

سياسة حسان مع البربر

أ - إدخالهم في قيادة الجيوش

... نهج حسان نفس السياسة التي سار عليها أبو المهاجر وهي تأليف البربر وإشراكهم في الفتوح ولعله توسع في ذلك بإدخالهم في الجيش على نطاق واسع، فكانت سياسته خطوة كبيرة في اكتساب ولاء البربر وإخلاصهم، ففي حملته الأولى عين هلال بن شروان اللواتي قائداً على مقدمته مع اثنين من العرب هما محمد بن بكير وزهير بن قيس، كما استعان بالبربر كعيون فقد أرسل أحد رجالهم الذي أسلم طوعاً ليأتيه بالأخبار عما يجري في معسكر الكاهنة، ورحب بولدي الكاهنة وولى أكبرهما قيادة الجيش في منطقة الأوراس واثقاً بإخلاصه وحسن إسلامه مما أدى إلى إسلام نفر كبير من البتر، ويبدو نجاح سياسته من استغاثة أهل قابس وقفصه وأهل نقراوة به فسره ذلك.

* * *

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٤، الصلابي، الدولة الأموية - (٣ / ١٣٣).

ب – المساواة بين البربر والعرب المسلمين

... حين جند حسان البربر ساوى بينهم وبين العرب المسلمين وذلك وفقاً لمبادئ المساواة في الإسلام، ففرض لهم ومنحهم نصيبهم من الغنائم، ثم خطا خطوة كبرى بأن قسم المغرب خططاً للبربر. ويبدو أن حساناً اعتبر أرض المغرب أرضاً أسلم عليها أهلها[١].

* * *

ج – الاهتمام بالتنظيم الإداري

... كان حسان قد اعتنى بالتنظيم الإداري في المغرب خلال مدة إقامته (٨٢هـ - ٨٦هـ). فقد أنشأ الديوان أو ديوان الجند، وهو سجل يحفظ فيه أسماء المقاتلين وأنسابهم وصفاتهم ومقدار أعطياتهم، ونظم ديوان الخراج بأن عني بتحديد الجزية والخراج. يقول ابن عذاري: فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية، وكان عامتهم من البرانس إلا قليلاً من البتر.

... وقام حسان ببناء دار لصناعة السفن، وأنشأ مدينة إسلامية ثانية وهي تونس أصبحت رباطاً يحمي القيروان ومحرساً للبحر وميناء جديداً للبلاد. وصارت تونس ثانية العواصم الإفريقية حين أولاها حسان اهتمامه، واهتم بالقيروان فجدد بناء مسجدها أحسن مما كان عليه أيام عقبة، واهتم بتعليم البربر مبادئ الإسلام، وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم، وبث الدعاة في مختلف القبائل لنشر الإسلام بين البربر، فبنوا المساجد، واستلموا المنابر ومن ذلك بناؤهم لمسجد أغمات سنة ٨٥هـ، وانتشرت الكتاتيب لتعليم أولاد المسلمين مبادئ القراءة والكتابة [٢].

* * *

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٤، ٤٥، الصلابي، الدولة الأموية - (٣ / ١٣٤).
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٤، ٤٥، الصلابي، الدولة الأموية - (٣ / ١٣٥).

عزل حسان عن ولاية إفريقية

ويبدو أن نزاعا حدث بين حسان وعبد العزيز بن مروان والي مصر من قبل الوليد ابن عبد الملك، فأخذ عبد العزيز يضيق عليه ويحد من سلطاته، ويكف يده عما بدأه من إصلاحات، ثم عزله عن ولاية إفريقية في أوائل سنة ٨٦ هـ، ويبدو أن المشكلة هي أن حسان رأى أنه تابع للخليفة مباشرة وأن إفريقية ولاية، بينما رأى أمير مصر أنها تابعة له وأن حسان يجب أن يراجعه ولذلك أخذ أغلب الغنائم والهدايا الثمينة التي كان حسان ينوي أن يحملها إلى الخليفة في دمشق، فحين وصل حسان إلى دمشق شكاه للخليفة وأعطاه ما تبقى من الغنائم، وواضح من شكوى حسان أنه يرى أن عبد العزيز يتهمه بالخيانة المالية ظلماً، فحين أراد الخليفة مكافأته برده إلى ولاية إفريقية رفض حسان وأقسم أنه لا يولى لبني أمية أبداً، ولا يستبعد أن عبد العزيز كان يرغب أن تدار إفريقية من قبل أحد رجاله وإصرار عبد العزيز لتولية موسى بن نصير دليل على ذلك.

... قال الذهبي عن حسان بن النعمان الغسّاني: من ملوك العرب ولي المغرب فهذّبه وعَمَره وكان بطلاً شجاعاً، مجاهداً لبيباً، ميمون النقيبة كبير القدر، وجهه معاوية في سنة ٥٧هـ فصالح البربر، ورتب عليهم الخراج وانعمرت البلاد، وله غزوات مشهودة بعد قتل الكاهنة وكان يدعى الشيخ الأمين، توفي سنة ٨٠هـ [١].

* * *

فتوحات موسى بن نصير ٨٥هـ

لما عزل حسان بن النعمان، تولي موسي بن نصير علي إفريقية بامر عبد العزيز بن مروان، وكان موسي هذا من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وإخلاصا لها، وكان موسي بن نصير قائما في حرس معاوية بن أبي سفيان، وقيل إنه كان وصيفا لعبد الملك بن مروان فأعتقه، وأصبح موسي مولي عبد العزيز بن مروان، وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملا علي العراق مع بشر بن مروان ولكن الخليفة أخذ عليه بعض المآخذ، وأراد قتله فافتداه منه عبد العزيز بن مروان عامل مصر بمال، وأجاره ثم ولاه إفريقية [٢]،... لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتوليه موسى بن نصير في سنة ٨٥هـ، قبيل وفاة عبد العزيز بن مروان والذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان

(١) سير أعلام النبلاء (٤/١٤٠)، الدولة الأموية - (٣ / ١٣٦).
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٥.

وتولية موسى، وبعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية ولـيَّ مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية وعندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطؤون، أصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ماعز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية وساوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهاً إلى الغرب وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقية برز موسى بن نصير قائداً منتصراً في فتح المغرب ويرجع ذلك إلى السياسة التي اتبعها مع الأهالي وهي سياسة التعاون والاندماج الكلي مع البربر، فحين كان يقدم على موسى وفود القبائل ليعلنوا ولاءهم كان يولي عليهم رجلاً منهم ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة ومع وفد مصمودة وغيرهم، ولكن ما أن يعتنق البربر الإسلام، كان موسى يقر زعمائهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كان من المقاتلين للانضمام للمقاتلة العرب. وأعطت سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند أعداداً كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصمودة، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراوة الذين كانوا قد جندوا في عهد حسان، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذي وليها سنة ٩٠ هـ من قبل موسى بن نصير، ومن الوسائل التي استخدمها موسى في تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

١ - عتق بعض السبايا: كان موسى بن نصير يعتق بعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنه أن يقبل الإسلام.

٢ - تطبيق مبدأ المساواة: في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلائهم وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي.

٣ - التنظيم الإداري: ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقية وجدها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحيتها واستبدت بها دون أن تخضع لولاة أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى

الحكم الإسلامي فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحي الداخلية وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

٤ - تكوين القوة البحرية: أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

٥ - سك النقود: ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقية، إذ يرى حسن حسني عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقية، هو موسى بن نصير سنة ٩٥هـ.

... وتتلخص أعمال موسى بن نصير في حرصه على نشر الإسلام بين البربر ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة [١]، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام، القرآن ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وذكر ابن عذارى: أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب في طنجة يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان. وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى. واستطاع موسى بن نصير بعد حملات جهادية منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقية من برقة إلى المحيط الأطلسي وأصبح سيد إفريقية بدون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط ومن أشهر تلك الحملات ما سمي بحملة الأشراف بسبب اشتراك أشراف الناس فيها وكانت وجهتها جزيرة صقلية حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذي حقق نصراً حاسماً حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة دينار ذهب. هذا ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقية بل شملت دعم الحملات البحرية في ولاية مصر، هذا وقد توجت هذه الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها الأسطول الإسلامي بفتح بلاد الأندلس الذي خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد وتم بشكل نهائي بتوفيق الله ثم جهود هذين القائدين العظيمين [٢].

* * *

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٦، الصلابي، الدولة الأموية، (٣ / ١٣٩).

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٤٦ - ٤٧، الصلابي، الدولة الأموية، (٣ / ١٣٩).

نظرة جغرافية علي الأندلس

تقع شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) في الجنوب الغربي من القارة ألأوربية مقابل السواحل الشمالية للمغرب، يفصلها من الشمال عن جنوب فرنسا جبال البرتات (البرت) أو البرانس، تقع سواحلها الشمالية والشمالية الغربية علي المحيط الأطلسي عند خليج بستاية الذي تقع عليه مدينة خيخون، وتقع سواحلها الغربية علي المحيط الأطلسي، وتقع سواحلها الشرقية والجنوبية الشرقية علي البحر المتوسط [(١)].

وأطلق علي شبه الجزيرة اسم " أيبيرية " نسبة إلى أمة قديمة يقال لها الأيبير [(٢)]، أما لفظة " الأندلس " فهي مشتقة من اسم " الفاندالس (vandali) أو " الوندال " [(٣)] ولما جاء العرب إلى تلك البلاد وافتتحوها عربوا هذا الاسم وأطلقوا عليها اسم " أندلس " [(٤)].

وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس سنة ١٤٩٢ م أطلق الأسبان اسم الأندلس علي الولايات الأسبانية الجنوبية، وهي المنطقة التي تشمل اليوم ولايات قرطبة وأشبيليه وغرناطة [(٥)].

* * *

---

(١) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ٥ - ٦، الحميري، الروض المعطار، ص ٢، البكري، جغرافية الأندلس وأوربا، ص ٨٥، ١٢٩، الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣٦، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٦ - ١٧.

(٢) هي أقدم أمة عمرت بلاد إسبانيا والبرتغال. الحميري، الروض المعطار، ص ٥، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٧.

(٣) وهم من الشعوب الذين استوطنوا ألمانيا ثم زحفوا من الشمال إلى الجنوب وعبروا مضيق جبل طارق إلى شمال إفريقيا والمغرب، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٧.

(٤) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٢٧ - ١٣٩، ابن عذاري، البيان المغرب، ١ / ١ - ٣، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٧.

(٥) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ط دار النهضة ببيروت، ١٩٧٢ م، ص ٢٢٧، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٧.

إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي

سكان أسبانيا في الأصل خليط من: الكلتيين والأيبيريين والوندال والألان والسويف والقوط الشرقيين والقوط الغربيين والفينيقيين والرومان، فهم في حقيقة الأمر خليط من عناصر فينقية ورومانية وجرمانية وإغريقية ويهودية، ثم جاءت العناصر الإسلامية التي يمثلها العرب والبربر (١).

وكان الفينيقيون قد أسسوا علي سواحل إسبانيا عدة مستعمرات لهم، كما أسس الإغريق منذ القرن الخامس قبل الميلاد بعض المراكز الاستعمارية في شبه الجزيرة الأيبيرية وأطلقوا علي سواحلها اسم أيبيريا، وما لبث هذا الاسم أن أطلق علي الجزيرة بأسرها، ثم خضعت شبه الجزيرة الأيبيرية للقرطاجانيين منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وازدهرت مدينة قرطاجنة الجديدة في عهدهم واتخذوها في حاضرة لهم. وهكذا تلقت شبه جزيرة أيبيريا منذ سنة ٥٣٥ ق. م حتى سنة ٢٠٥ ق. م تأثيرين هامين: أحدهما أوربي وهوالتأثير الكلتي واليوناني، والآخر تأثير آسيوي إفريقي أو سامي هو التاثير القرطاجني، ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتيني أوربي عقب الغزو الروماني عام ٢٠٥ ق. م، إذ اصبحت أيبيريا إقليما رومانيا نشروا فيه الحضارة الرومانية والقانون والفن الروماني، وقضوا علي نفوذ القرطاجانيين. وأسس الرومان مدينة طالقة وجعلوها من أهم مراكزهم العرمرانية في جنوب أيبيريا (٢).

ثم مع ضعف الدولة الرومانية الغربية، اجتاحتها قبائل جرمانية في موجات متتابعة، وكان القوط الغربيين أحد فروع الجرمان الذين استقروا في شبه الجزيرة الأيبيرية في أواخر القرن الرابع الميلادي وهم أعظم فروع الجرمان الشرقيين، وقد استقر القوط في منطقتي أربونة وطركونة من شبه الجزيرة الأيبيرية، لم تلبث تلك المنطقتان أن أصبحتا نواة لدولة القوط الغربيين، التي اتسعت جنوبي غالة وشمال إسبانيا (٣).

وقد تمكن القوط الغربيين من طرد عناصر الوندال من إسبانيا إلى إفريقية سنة

---

(١) حسان حلاق، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، الأندلس / صقلية الشام، ط الدار الجامعية ببيروت، ١٩٨٦ م، ص ١٥ - ١٦، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٨.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس وآثارهم، ص ٥١.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس وآثارهم، ص ٥٢.

٤٥٦ م واستطاعوا بسط سلطانهم علي الأندلس كلها نهاية القرن الخامس الميلادي، واتخذ القوط من طليطلة عاصمة لدولتهم، وتأثروا بالحضارة والنظم الرومانية في قوانينهم ونظمهم، واعتنقوا المسيحية وظلوا يحكمون الأندلس حتى مجيء المسلمون إليها، وتغلبوا عليهم سنة ٩٢هـ / ٧١١م، وقد ساد البلاد خلال حكمهم وضع شاذ من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية حيث كان المجتمع مقسما إلى طبقات يتحكم بعضها في البعض الآخر بعنف وقسوة [١].

وفي تلك أثناء كانت المملكة القوطية تجوز دور إنحلالها قبيل الفتح الإسلامي بأمد بعيد، وكان المجتمع الأسباني يعاني صنوف الشقاء والبؤس، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق، ولم يكن القوط في الحقيقة أمة موحدة بمعني الكلمة، فإنهم لم يمتزجوا بسكان البلاد، ذلك الامتزاج الذي يجعل الغالب والمغلوب، الحاكم والمحكوم أمة واحدة، بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف، أما سواد الشعب الأعظم فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضياع، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة للسيد حتى الموت، وإلي جانب السادة والأشراف يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ، ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم، وكان للأحبار عليهم أيما تأثير، واستطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية، وفقا لمثل الكنيسة وغاياتها، ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثروات، واقتناء الزراع والأرقاء، وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع في أيدي فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين، واختصت بترف العيش، ومتاع الحياة، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار.

أما الشعب فقد كان في حالة يرثي لها من الحرمان والبؤس، يعاني أمر ضروف العسف والظلم والإرهاق، ويخص وحده دون الطبقات الممتازة بأعباء المغارم والضرائب الفادحة، ومشاق العمل، والسخرة في ضياع الأشراف ورجال الدين، وتسلبه فروض العبودية والرق، كل شعور بالعزة والكرامة، ولم يكن الشعب كما قدمنا سوي كتلة مهيضة من طبقة فقيرة وسطي، ومن جمهرة من الزراع شبه

(١) محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ط دار الوفاء للطباعة، القاهرة ١٩٨٤ م، ص ١٤٩، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٨، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٢٩.

الأرقاء والأرقاء، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض المغارم الفادحة، عبء الحرب والدفاع عن الوطن، وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام، قد فقدت وحدتها وروحها لاقومي وقوتها المعنوية، لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة، فكذلك كان الجيش الإسباني منذ العهد الروماني، قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود، فلما حل القوط في إسبانيا وذاقوا نعم السلم، بعد مشاق التجوال والغزو وتبوؤا مركز السيادة والغلبة، إعتمدوا في الدفاع عن مملكتهم الجديدة علي هذا الجيش الذي تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة علي سادتها، ولا ريب أن شبه الأرقاء كانوا في الجيش أكثر بكثير من الأحرار، وهذا ما يعني أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى هؤلاء الذين يؤثرون ممالأة العدو علي الذود عن ظالمهم، أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ أمد بعيد صفاتهم الحربية القوية، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة، وفتت في عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط، بل كان خلفاء الأريك يحتمون بصخور البرنية غارقين في سبات السلم، لا يعنون بتحصين مدينة، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف[(١)].

وكان يهود الجزيرة الأيبيريةكتلة كبيرة عاملة، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل، يعانون أشنع أنواع الجور والاضطهاد، وكانت الكنيسة منذ أن اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة، ففي عصر الملك سيزوت فرض التنصير أوالنفي أو المصادرة علي اليهود، فاعتنق النصرانية كثير منهم رياء وكرها سنة ٦١٦ م، ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطاد والمحن، فركنوا إلى التأمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب علي المؤازرة والتعاون، ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها، سنة ٦٩٤م وكان ذلك في عهد الملك إيجيكا، فقرر أن يشتد في معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الأحبار في طليطلة للنظر في ذلك، وأجاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج علي الدولة يأتمرون بسلامتها، ولأنهم ارتدوا علي النصرانية التي اعتنقوها من قبل، وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية، وأن تحول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضي عليهم بالرق الأبدي للنصاري، وأن يهبهم الملك عبيدا لمن يشاء، وأن لا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٣٠ - ٣١، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٨ - ١٩.

بقوا علي اليهودية، وأن يحرر أرقائهم من النصاري ويمنحون بعض أملاكهم، وأن ينزع أبنائهم منذ السابعة ويربون علي دين النصرانية، وأن لا يتزوج عبد يهودي إلا بجارية نصرانية، ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني.

وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف، فكانوا قبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلم لا يطاق، وكانوا كبقية طوائف الشعب المهيضة، يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر، ويرون في أولئك الفاتحين الجدد الذين يتركون لهم حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين [(١)].

هكذا كانت أحوال إسبانيا حينما افتحح العرب إفريقية واقتربوا من شواطيء الأندلس، وكان علي عرش إسبانيا يومئذ الملك وتيزا (غيطشة)، خلف الملك إجيكا والده، وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعب أضناه العسف، وتصف المصادر الإسبانية القديمة الملك وتيزا (غيطشة) بأنه كان ملكا خليعا فاجرا، مغرقا في شهواته، وأنه كان علي رأس بلاط منحل وضيع الخلال، في حين يقو ل البعض منها: أنه كان بالعكس ملكا فاضلا حسن السيرة، وافر الحكمة والعدالة، وأنه عمل علي رد المظالم وإقامة العدل، والمرجح أنه أحسن السيرة في بداية عهده ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم، ولكنه حاول أن يحد من نفوذ وسلطة الأشراف والأحبار، وأن يجمع السلطة في يد العرش، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة، ولكنه أخمدها جميعا، وهدم جميع الحصون والمعاقل الداخلية لكي يحطم سلطان خصومه، ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلا ظمأ للخروج والثورة، وكان في مقدمة خصومه الذين يخشي بأسهم دوق تيودور فريد الذي نفاه أبوه الملك إيجيكا إلى قرطبة، وزاد علي ذلك أن سمل عينيه مبالغة في النكاية به، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس والد فافيلا دوق كانتابريا، ولكنه استطاع الفرار من نقمته. كان الشعب من جهة أخري يرزح تحت نير الجور والإرهاق فقد كان البلاط القوطي يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط [(٢)].

ومع اقتراب المسلمون من شواطيء إسبانيا كان يقود الثورة الداخلية عندئذ زعيم قوي جريء هو ردريك دوق تيودور فريد الذي سمل وتيزا (غيطشة) عيني والده،

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٣٢.

(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ٣٣.

فكان يحفزه باعث الانتقام أيضا، وكان يتزعم حزبا قويا، والتف حوله رجال الدينوالأشراف والأسر الرومانية، فجمع جيشا كبيرا ونادي بنفسه ملكا، ووقعت بين الفريقين حرب أهليه شديدة. وهنا تختلف الروايات فيقال أن وتيزا قتل في النضال وخلص الملك لمنافسه، وفي رواية أخري أن ردريك ظفر به وسمل عينيه انتقاما لأبيه، ويقال أيضا أنه ارتد إلى إحدي الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته، وتختلف المصادر أيضا حول تاريخ ولاية ردريك الملك، في حين استمرت الحرب والخلاف بين ردريك وولدي وولدي وتيزا (غيطشة) وهما إيفا وسيزبوت، وقد لقيا المعاونة الكبيرة من عمهما أوباس أسقف طليطلة وإشبيليه ورأس الكنيسة، والتفت حولهما رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم، وكان ردريك قوي الجانب وافرالشجاعة والعزم، فاستطاع أن يخمد الثورة في كل ناحية، واستتب له الأمر حينا، ومع ذلك فقد بقي عرش القوط مضطربا يهتز في يد القدر، وكان الخطر يجثم في ناحية أخري.

ذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة، وكان الكونت يوليان حاكم سبته والمضيق محط أنظارهم ومساعيهم (١).

فقد كان يوليان أصلا عاملا من عمّال دولة الروم، وحكم إقليم مرطانية الطنجية بحكم كونه قائدا عامّا مفوّضا من قبل الامبراطور، وتولّى يوليان إدارة هذا الإقليم وهو صغير السن، ثم طال به الزمن دون أن تتمكن دولة الروم من عزله أو استبدال غيره به؛ بسبب انشغالها بالحروب ضد العرب المسلمين الفاتحين في شمال أفريقيا، وأصبح يوليان مطلق التصرف في ولايته، وله صلات ودّية كثيرة مع أهلها من البربر وزعماء القبائل المجاورة له؛ حتى صار خبيرا بتقاليدهم وعاداتهم، وأجاد القيام بها إلى درجة جعلته يبدو كأحد أبناء البلاد الأصليين، لا تابعا لإمبراطورية الروم، ولا يمكن كشف حقيقة لونه السياسي في سهولة ويسر؛ فقد رأى يوليان حاكم سبتة أن الحكمة تفرض عليه التقرّب من القوة الإسلامية الجديدة التي صارت تجاور أملاكه مباشرة، وأن يقيم معها علاقات ودّية تعوّضه عن الضعف الذي دبّ إلى سلطانه في سبتة.

فاختلط على كثير من المؤرخين أمر يوليان حتى ذكر البعض أنه من البربر، على حين قال البعض الآخر: إنه من القوط دون أن يفطنوا إلى تبعيّته أصلا لإمبراطورية الروم، ولما انهار سلطان الروم في إفريقية بعد الفتوح العربية أخذ

(١) محمد عبد الله عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ١ / ٣٤.

يوليان يعمل على تقوية روابطه بدولة القوط في أسبانيا على نحو ما فعل مع جيرانه من البربر؛ ليدعم مركزه ويحفظ أملاكه، ورحّب ملك القوط إذ ذاك - واسمه غيطشة - بولاء يوليان؛ بسبب أهمية سبتة لحماية دولته؛ فهي تتمتع بمركز جغرافي فريد يجعلها مفتاح أسبانيا والحارس الذي يحميها من هجوم قد يشنّ عليها من الجانب الإفريقي؛ فهي قبالة الجزيرة الخضراء من أرض أسبانيا، وتسيطر على المياه التي بينها وبين تلك الرقعة الأسبانية،

هذا وتتمتع أسبانيا بموقع طبيعي يجعلها حصنا منيعا في استطاعته أن يقاوم زمنا طويلا أيّ هجوم مفاجئ قد تتعرض له؛ فيوجد على بعد ميلين منها جبل موسى (نسبة إلى موسى بن نصير)، كما يحيط ماء البحر بها من ثلاث جهات مما زاد في مناعتها وقوتها، هذا إلى أنه قام على مقربة منها دار لصناعة السفن التي استخدمت في العبور إلى الأندلس.

ورأى يوليان على الرغم من دعم صلاته بدولة القوط في أسبانيا أنّ تطوّر الأوضاع في بلاد المغرب واستقرار الفتوح الإسلامية بها يفرض عليه حسن الجوار مع الإدارة العربية الجديدة وتجنّب الاصطدام بها؛ ولذا رحّب يوليان بسياسة موسى بن نصير الذي آثر عدم الاستمرار في الاستيلاء على سبتة، وكان موسى قد ترك لقائده طارق بن زياد في طنجة مهمة تنظيم علاقة الجوار مع حاكم هذه المدينة الهامّة الذي يعتبر مفتاح بلاد الأندلس، ونجح طارق في دعم صداقته ليوليان، وبدأ يطلّ من هذه المدينة على أسبانيا ويدرس أحوالها دون أن يثير مخاوف القوط أو يبعث الريبة في نفوسهم باستعدادات المسلمين الحربية، وسارت الأمور بعد ذلك في سبتة بما ساعد موسى بن نصير على أن يكمل دراسته الخاصة بفتح أسبانيا ويعرف المزيد من الأخبار التي تهيّئ للمسلمين القيام بفتوحهم في هذا الميدان الجديد؛ وسبب ذلك أن دولة القوط في أسبانيا تعرّضت لاضطرابات شديدة تردّد صداها في مدينة سبتة، ودفعت بحاكمها يوليان إلى الانتقال من سياسة حسن جواره للمسلمين إلى سياسة التحالف والاتفاق على تحقيق المصالح المشتركة بينهما، ذلك أن رودريك، وهو الذي عرفه العرب باسم لوذريق - استطاع أن يطيح بالملك الحاكم وهو غيطشة، ثم اعتلى العرش.

ولم يكتف لوذريق بذلك وإنما أخذ يعمل على إنزال أشدّ ألوان الأذى بأبناء غيطشة وسائر آل بيته، وآتت هذه السياسية الخرقاء من جانب لوذريق ثمرة لم يكن يتوقعها على الإطلاق؛ ذلك أن أبناء غيطشة حين اشتدت بهم المتاعب وسدّت في وجوههم السبل أخذوا يلجؤون إلى جهة أخرى يستمدون منها العون والمساعدة على

استرداد حقهم المسلوب، وكان موسى بن نصير قد بدأ يتطلع إلى أسبانيا عن طريق نافذة سبتة، ولم تلبث الأحداث أن جعلت سبتة تقوم بدور مباشر في نقل صورة كاملة عن تلك الأحوال السائدة في أسبانيا إلى موسى بن نصير، فضلاً عن قيامها بدور الوساطة بين أبناء غيطشة وموسى بن نصير، ووجد أبناء غيطشة من يوليان حاكم سبتة رسولا إلى موسى بن نصير، وساعِدا ومعاضدا لمشاريعهم؛ بسبب سوء العلاقات التي وقعت إذ ذاك بين هذا الحاكم وبين لوذريق [١].

وتذكر المراجع أن سبب سوء العلاقات يرجع إلى اعتداء لوذريق على شرف ابنة يوليان التي كانت تتعلّم في طليطلة، وكانت العادة قد جرت على أن يبعث كبار رجال الدولة من القوط بأبنائهم إلى طليطلة ليتأدّبوا بآداب البيت المالك، وليكون ذلك سبيلا لتأليف القلوب.

وأسهبت المراجع في قصة ابنة يوليان؛ فوصفتها بأنها بارعة الجمال، فلما صارت عند لوذريق وقعت عينه عليها فأعجبته وأحبّها حبّا شديدا، ولم يملك نفسه حتى أكرهها، فاحتالت حتى أعلمت والدها بذلك سرّا بمكاتبة خفيّة؛ فأحفظه شأنها جدّا واشتدّت حميّته وقال: ودين المسيح لأزيلنّ ملكه وسلطانه، ولأحفرنّ تحت قدميه! ورأى يوليان أن يحتال أوّلا لاستدعاء ابنته من بلاط لوذريق؛ فخرج بنفسه في يوم من أيام الشتاء البارد دون أن يأبه بمخاطر الطريق، وعندما وصل إلى طليطلة أوجس منه لوذريق خيفة بسبب حضوره في ذلك الوقت غير الملائم، وسأله عمّا لديه، وما جاء فيه، ولِمَ جاء في مثل وقته؟ فأجاب يوليان بأن سبب حضوره هو أن زوجته مريضة مرض الموت، وأنها في شدّة شوقها لرؤية ابنتها التي هي عنده، وتمنّيها لقاءها قبل الموت وإلحاحها عليه في إحضارها، وأنه أحبّ إسعافها ورجا بلوغ أمنيتها منه، وانخدع لوذريق بهذه الحجّة وسمح لابنة يوليان بالعودة إلى أبيها بعد أن استوثق منها بألا تطلعه على ما حدث بينهما[٢].

وبعد أن استقرّ يوليان ومعه ابنته في سبتة بدأ يكشف نواياه صراحة، وأخذ يساعد أبناء غيطشة والعناصر المناوئة للوذريق في أسبانيا، فأعدّ يوليان حملة نزلت بأسبانيا، واشتركت مع الثوّار في أعمالهم الحربيّة، لكن قوّات لوذريق استطاعت الحصول على النصر، ودمرت حملة يوليان واضطرّتها للعودة إلى سبتة، وما أن

---

(١) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٥٥.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٩، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٩٠، المقري، نفح الطيب، ٢٣٦.

انتهت هذه الحروب في أسبانيا عن فوز لوذريق حتى أيقن يوليان أنه لم يعُد أمامه مفرّ من الاتجاه نحو السلطات العربية في القيروان وطلب مساعدتها ضدّ لوذريق، واتصل يوليان بطارق بن زياد طالبا مساعدة العرب له ضدّ لوذريق، ونقل طارق أخبار المفاوضات التي دارت بينه وبين يوليان إلى موسى بن نصير الذي وجد أن الوقت قد حان لفتح الأندلس، ثم تحقق موسى من صدق ما نقله إليه طارق حين ذهب يوليان نفسه إلى القيروان ليعرض وجهة نظره على السلطات العربية هناك؛ إذ أكد يوليان لموسى بن نصير الخير الوافر الذي سيعود على العرب من القيام بغزو الأندلس ومساعدتهم له ضدّ لوذريق، ووجد موسى ابن نصير أن كلّ الظروف قد أصبحت سانحة للانتقال إلى ميدان جديد حافل بالمجد والفخار، وأعلن موافقته على مساعدته ضدّ لوذريق، واستطاع بذلك أن يستفيد من الموقف السياسي الذي ساد حكام الأندلس، وأن يسخره لخدمة الجيوش الإسلامية المجاهدة.

وكتب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح تلك البلاد، ويشرح له اضطراب أحوالها وأنّ الفرصة غدت مواتية بعد مؤامرة يوليان ضدّ لوذريق، غير أن الخليفة أمر موسى بأن يختبر الأندلس ويدرس أحوالها بنفسه بإرسال حملات استطلاعية إليها، وعهد موسى بن نصير إلى يوليان نفسه القيام بإغارة على جنوب أسبانيا ليتحقق بذلك من أمرين: أولهما: أن يوليان جادّ في دعواه ضدّ لوذريق، وكراهيته له ولحكومته في أسبانيا، وثانيهما: أن يعرف مِن المقاومة التي يتعرض لها يوليان مدى قوّة القوط وما لديهم من استعداد حربي، وقام يوليان فعلا بإغارة سريعة على جنوب أسبانيا، ورجع منها محمّلا بالكثير من الغنائم والسبي.

* * *

فتح جزيرة طريف

وأراد موسى بن نصير أن يقف بعد ذلك بنفسه على أحوال أسبانيا؛ فأعدّ حملة من المسلمين جعل على رأسها أحد قادته المشهورين بالمغامرة والشجاعة، وهو أبو زرعة طريف بن مالك؛ فبعث هذا القائد إلى الأندلس في أربعمائة من خيرة الفدائيين، وذلك على سفن قدّمها لهم يوليان، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة اسمها بالوماس، وهي التي صارت تحمل بعد ذلك اسم القائد المسلم وعرفت بجزيرة طريف، وبادرت قوّة مكونة من أبناء غيطشة التي اشتركت في الحملة إلى مساعدة المسلمين وحراسة المضيق، وذلك في شهر رمضان عام ٩٢هـ يوليو ٧١١م، وشنّ طريف من مركزه بتلك الجزيرة عدّة حملات استطلاعية على سواحل أسبانيا

الجنوبية، حيث درس تحصيناتها وعرف الكثير من أحوال أهلها ومدى علاقتهم بحكامها من القوط، وأخيرا عاد طريف إلى بلاد المغرب [١].

فقدّم تقريرا مفصّلا عن إغاراته إلى موسى بن نصير، وشرح له في إسهاب أحوال أسبانيا، وقد أكدت غارة طريف لموسى بن نصير صدق الأقوال التي نقلها إليه يوليان عن انهيار الأحوال في أسبانيا وافتقارها إلى أسباب الدفاع؛ بسبب انشغال القواد بملاذهم وانصرافهم إلى أعمال الطغيان وسلب ثروات البلاد لأنفسهم؛ فلم يلق طريف نوعا من أنواع المقاومة، كما لم يقابل قوّة من قوات القوط أثناء استطلاعه لأحوال جنوب أسبانيا، هذا إلى أن مبادرة أفراد بيت غيطشة إلى مساعدته وحراستهم لخطوط مواصلات المسلمين جاء دليلا واضحا على الانقسام الذي ساد الطبقة الحاكمة من القوط، وأن لوذريق لا يحكم إلا بالعنف والقسوة، وهو أمر لن يكفل له مقاومة المسلمين طويلا عندما يبدأ الفتح الإسلامي للبلاد.

هذا إلى أن يوليان برهن مرة أخرى بما قدّمه من مساعدات لحملة طريف على أنه كاره فعلا للوذريق، وأن المؤامرة التي دبّرها مع أبناء غيطشة ضدّ هذا الحاكم المستبدّ مؤامرة لها خطرها، وأن خيوطها صحيحة وسليمة.

وبعودة حملة طريف انتهى موسى بن نصير من دور الحملات الاستطلاعية، وبدأ الإعداد الفعلي للفتح المنظّم لأسبانيا، وأثبت موسى بن نصير مقدرة حربية فائقة في هذا السبيل؛ إذ دارت الاستعدادات الحربية التي قام بها دون أن يتسرّب أمرها إلى القوط، ودون أن يتنبّه يوليان نفسه إلى حقيقة أهدافها وجوهر مراميها؛ فقد استطاع موسى بن نصير أن يوهم يوليان بأن استعداداته الواسعة النطاق التي أعقبت حملة طريف ما هي إلا حملة قوية لمساعدة أبناء غيطشة ضدّ لوذريق، وأخفى عنه تماما أنها ستكون الحلقة الأولى في سلسلة الفتح المنظّم لأسبانيا، وأعدّ موسى بن نصير حملة مكوّنة من خمسة آلاف جندي حتى لا يثير كثرة عددها ريبة يوليان أو مخاوفه، وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير في ذلك الإعداد على النهج الذي سارت عليه الفتوح الإسلامية الكبرى في شتىّ الجهات، وهو القيام أوّلا بإرسال حملة صغيرة العدد يتبعها إمدادات لا تنتهي - سواء من حيث الكثرة أو حسن الاستعداد - حتى يتم تحقيق الأهداف الحربية، وانتدب موسى لقيادة هذه الحملة الأولى على الأندلس أحسن قادة المسلمين إذ ذاك وأشدّهم ثقة به وهو: طارق بن زياد.

* * *

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢١٦.

الفصل الأول
الفتح العربي الإسلامي لبلاد الأندلس

فكرة الفتح:

الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن:

الدروس المستخلصة من معركة وادي لكّة:

عبور موسى بن نصير إلى الأندلس:

فتح إشبيلية وماردة:

مقتل لذريق:

استعادة طليطلة:

الزحف شمالا نحو البرانس:

ارتياح أهالي الأندلس للحكم الإسلامي:

موسى وطارق يقابلان الوليد في عاصمة الأمويين:

سبب رجوع موسى إلى عاصمة الخلافة دمشق:

– خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى:

* * *

... كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الايبيريَّة (أسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المدُّ الإسلامي ما دامت فيه القوة على الاستمرار، وبعد أن أرسى موسى بن نصير، ومن معه، كلمة الإسلام بجهودهم في المغرب الكبير، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس وقد عمل موسى على إكمال جهود من سبقه من الجند الدعاة - قادة وجيشاً - في ترسيخ قدم الإسلام في الشمال الإفريقي، فقد عمل على تثبيت الإسلام في قلوب الناس ونشط في تعليمهم وتربيتهم على مبادئ الدين الحنيف، وآتت جهوده الدعوية ثمارها الزكية فقد أصبح البربر في تلك الديار من أخلص الناس للإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيل نشر تعاليمه، ولقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الأيبيريَّة من المسلمين البربر، الذين تحمسوا لدعوة الإسلام، حباً لها وتضحية من أجلها، لا طمعاً في مغنم أو حرصاً على جاه، فهذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية التي يكفي الاطّلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الإدعاءات وإسقاط المفتريات المزوّرة، التي تشير - تلميحاً أو تصريحاً - إلى إعتبار الغنائم سبب هذا الفتح، وهو أمر عاري من الحجج والبراهين والأدلة، وإنما هي أوهام لا تحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي [1].

* * *

فكرة الفتح

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الأيبيريَّة هي فكرة إسلامية تماماً. بل يُروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان عقبة بن نافع الفهري يفكر في إجتياز المضيق إلى أسبانيا لو استطاع وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ أسبانيا الشرقية وبعض الجزر القريبة منها، وهي مَيورْقة ومَنورقة، واليابسة، يذكر الذهبي أنه في سنة ٨٩هـ: جهز موسى بن نصير ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي مَيورْقة ومَنورقة [2]، أما الاتصال بيوُليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الأسبان فإنها جاءت مواتية على ما يبدو وفي الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح.

---

(١) التاريخ الأندلسي صـ ٤٣، ٤٤، الصلابي، الدولة الأموية - (٣ / ١٣٩).

(٢) العبر في خبر من غبر (٣٠٤/١).

على كل حال فإن اتصالات الجانب الأسباني بموسى ومساعداتهم - أثناء عمليات الفتح - ربما كانت عاملاً مساعداً سهّل سير الفتح أو عجّل به. لكن المبادأة ومردّ العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة معتمداً على الله في تحقيق ما يصبوا إليه من هداية الناس وقد استشار موسى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ) قبل اتصالاته بلِيُليان، أو اتصال هذا الأخير بموسى. وقد ترددت الخلافة - بادئ الأمر - بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك، ولكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تمّ الاتفاق على أن يَسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية (١).

جاء اختيار موسى بن نصير لطارق بن زياد لقيادة هذه الحملة خطوة موفقة، وأكد بُعد نظر موسى وسعة خبرته الحربية؛ فطارق من البربر الذين عرفوا أرض الأندلس معرفة وثيقة؛ لأنهم يرونها امتدادا لبلادهم لا فارق بين بيئتها وبيئتهم، يضاف إلى ذلك أن طارقا هو الذي تولى بنفسه جمع المعلومات عن بلاد الأندلس، وتولّى مفاوضات يوليان، وصار خبيرا بالميدان الجديد في سائر نواحيه الحربية والسياسية، وعمل موسى ابن نصير على أن يشدّ أزر طارق الذي عهد إليه بالقيادة العليا للحملة؛ إذ ضم إليه هيئة من كبار رجال الحرب من العرب والبربر ليكونوا بمثابة مجلسه الاستشاري ومساعديه في إدارة المعارك، ومن أولئك القادة العرب: عبد الملك بن أبي عامر المغافري، وعلقمة اللخمي، وأحد موالي الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه مغيث الرومي، وكان القائد الأخير يعتبر مندوب الخلافة الحربي في تلك الحملة التي أعدّها موسى بن نصير، وحلقة الاتصال بين السلطات المركزية في دمشق ومقرّ القيادة الإسلامية في القيروان، وكلّف موسى بن نصير بعد ذلك يوليان بأن يقدّم للقوات الإسلامية السفن اللازمة لنقلها إلى أسبانيا، كما يتولى حراستها ويقوم بمهمة الدليل لها، وكان السبب في إصرار موسى بن نصير على الاعتماد في نقل الجند بسفن يوليان هو حرصه الشديد على إخفاء تحركات هذه الحملة عن العيون والجواسيس؛ فالأسطول الإسلامي كان قد تمّ إعداده على عهد موسى بن نصير وصارت له قاعدة هامة في تونس، كما ظهر نشاطه في السيطرة على الجزر الهامة في غرب البحر المتوسط، ولذا كانت تحركات هذا الأسطول محطّ أنظار الجميع ولا يمكن إخفاء أمرها، ولما كان موسى بن نصير يستهدف مفاجأة

---

(١) التاريخ الأندلسي، صـ٤٥.

القوط بالأندلس لم يكن أمامه سوى الاعتماد على سفن يوليان التي لا تثير الريبة في نفوس من يشاهدها وهي تعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وكان لدى يوليان أربع سفن لا تتّسع لنقل أفراد الحملة مرّة واحدة، ولذا تمت عملية عبور بحر الزقاق على دفعات، وأخذت كل جماعة يتمّ نقلها تختفي في جهات خصّصت لها على الشاطئ الأسباني، حتى انتهى الجميع من العبور وذلك عام ٩٢ هـ (٧١١م) (١).

وبادر طارق بن زياد بتحصين القاعدة الأولى التي استولى عليها في جنوب أسبانيا قبل التوغّل في داخل البلاد، ثم استولى على بلدة الجزيرة الخضراء قبالة جبل طارق، وصار بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في قبضة المسلمين وعلى اتصال وثيق بسبتة قاعدة الاتصال الأولى ببلاد المغرب.

وتمت المرحلة الأولى بذلك من نزول الحملة الإسلامية في أسبانيا دون مقاومة تذكر، وكان السبب في ذلك هو أن موسى بن نصير اختار وقت قيام حملة طارق وفق أدقّ المعلومات التي وصلته، وكانت المخابرات الإسلامية تتبع حركات لوذريق وتتحيّن الوقت المناسب لبدء الحملة، وسرعان ما سنحت الفرصة حين ذهب لوذريق إلى أقصى شمال أسبانيا ليخمد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفة باسم القبائل البسقاوية، وكانت تلك الجموع القبلية مشهورة بالمراس وقوة الشكيمة، مما جعل لوذريق يأخذ معظم جيشه معه، وأصبح جنوب أسبانيا خاليا تماما من أسباب الدفاع عنها، ولذلك لم تشعر سلطات القوط بنزول المسلمين في جنوب البلاد إلا بعد أن استقرّت دعائمهم ومكّنوا لأنفسهم على بحر الزقاق، فعبأت قوات سريعة وأرسلتها على عجل للهجوم على المسلمين تحت قيادة (بنج) المعروف باسم (بنشو) في المراجع الأسبانية، ولكن القوط لقوا هزيمة فادحة لم ينج منهم إلا واحد استطاع الهرب والذهاب إلى معسكر لوذريق في أقصى الشمال، ونقل إليه أنباء تلك الكارثة وهجوم المسلمين على البلاد، وكان لوذريق يقيم في مدينة بنبلونة بأقصى الشمال حيث يدير الحرب ضد القبائل البسقاوية، ولذا صمّم العودة سريعا إلى الجنوب والهجوم على المسلمين قبل أن يتوغّلوا في داخل البلاد، وكان لوذريق من أشهر رجال القوط في ميدان الحروب؛ إذ قدّر تماما الخطر الذي أحاط بدولته بسبب نجاح المسلمين في اتخاذ قاعدة لهم عند جبل طارق، وأدرك أنهم جاؤوا للفتح وليس للإغارة من أجل السلب والنهب والحصول على المغانم كما راجت الإشاعات بذلك،

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٨٨ - ٩٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨.

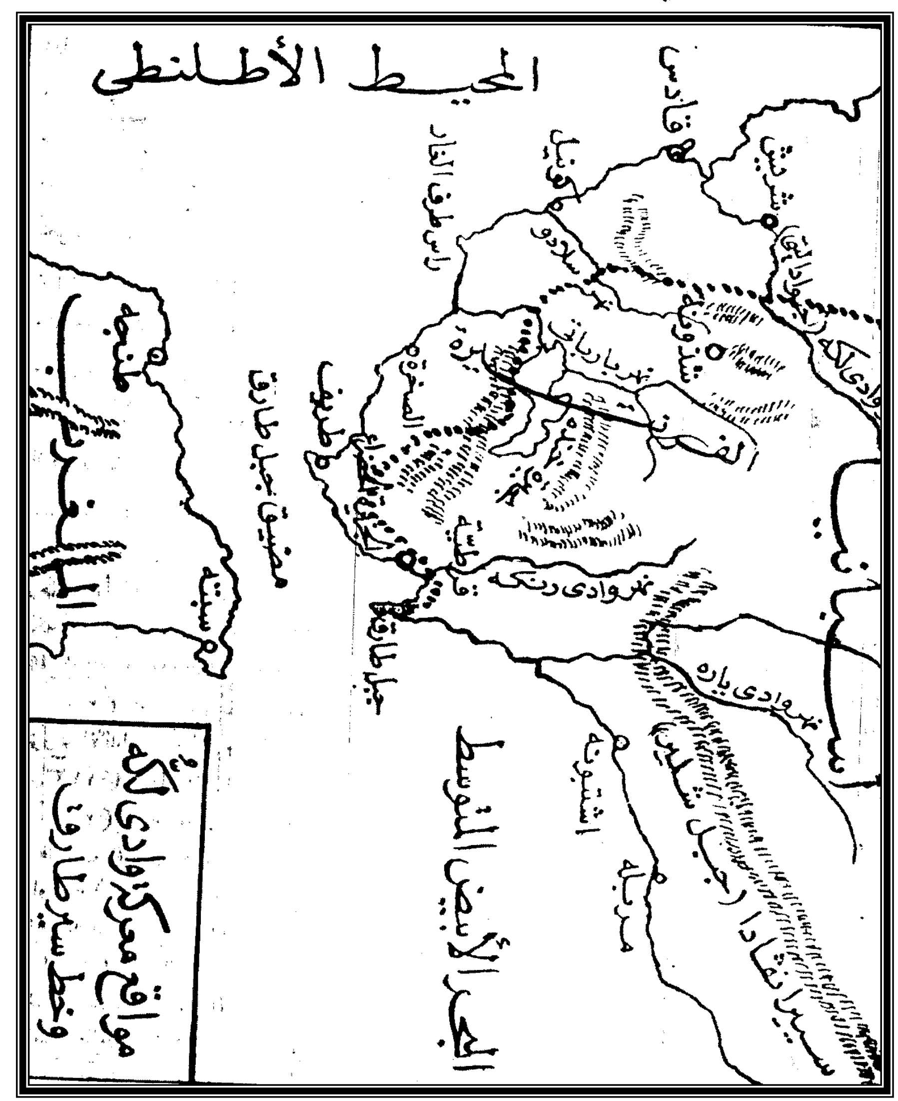
ومن ثم عمد إلى جمع صفوف القوط لمواجهة المسلمين؛ فاتصل بأبناء غيطشة وصالحهم ليكونوا جميعا يدا واحدة، ولكن أعمال لوذريق في تلك السبيل جاءت متأخرة؛ لأن بيت غيطشة ظلّ على ولائه سرّا للخطة التي وضعها يوليان، ولم ينس ما حلّ به من أذى واضطهاد وتشريد على يد لوذريق، وفي الوقت نفسه ظلّ أبناء هذا البيت في اعتقادهم أن المسلمين لم يأتوا للفتح ولكن للحصول على المغانم مقابل مساعدتهم في القضاء على لوذريق، وزحف لوذريق بجيشه سريعا واحتلّ قرطبة؛ ليحول بين المسلمين وبين الاستيلاء عليها؛ لأنها المفتاح الذي يسيطر على سهول الأندلس الجنوبية الشرقية، ويمكن لصاحبها من الاستقرار في البلاد [(١)].

وكان طارق بن زياد يريد فعلا الاستيلاء على قرطبة؛ فقد زحف على هذه المدينة بعد انتصاره في جنوب أسبانيا، وسلك الطريق المارّ بجزيرة طريف (الجزيرة الخضراء) ثم زحف شمالا بعد ذلك حتى اقترب من بحيرة الخندق التي يخترقها نهر صغير يسمى البرباط، وفي ذلك المكان مدينة صغيرة سمّاها المسلمون (بكة) ونسبوا إليها النهر الذي صار يعرف باسم وادي بكة، وحرف بعض المسلمين هذه التسمية إلى وادي لكة، وعند وادي بكة عرف طارق ابن زياد عن طريق عيونه أن لوذريق علم بنبأ الحملة الإسلامية وأنه وصل إلى قرطبة واستولى عليها، كما أنه تابع زحفه جنوبا واتخذ معسكره عند بلدة شذونة في سهل البرباط، وأنه صار بذلك على أهبة القتال، وذكرت بعض المراجع أن جيش القوط بقيادة لوذريق بلغ عدده مائة ألف مقاتل وضمّ عددا عظيما من الفرسان، ويرجح أن هذا العدد مبالغ فيه، وأدرك طارق بن زياد أن العدد الذي معه من جند المسلمين لا يكفي لقتال قوات لوذريق الهائلة؛ ولذا أرسل إلى موسى بن نصير يشرح له الموقف ويطلب إليه إرسال الإمدادات بسرعة، فأمدّه موسى بن نصير بحملة عددها خمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك الذي قاد أول حركة استطلاعية في أرض أسبانيا، ونقل هؤلاء الجنود مرّة واحدة على سفن الأسطول العربي إلى أسبانيا، ووصلت الإمدادات الإسلامية إلى طارق في اللحظة الحاسمة التي كان القوط على وشك شنّ الهجوم على المسلمين، وأعدّ طارق بن زياد قواته للمعركة، ثم وقف بين جنده خطيبا يحثّهم على الاستبسال في القتال، شأنه في ذلك شأن قادة الفتوح العربية الذين دأبوا على رفع روح جندهم المعنوية بإلقاء خطاب حماسي بينهم قبل نشوب المعركة، وتعتبر خطبة

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٣٩.

طارق من روائع الأدب العربي، ومما جاء في هذه الخطبة: " أيها النـاس! أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمـامكم، وليس لكم والله إلا الصبر والصـدق، واعلموا أنكم فـي هذه الجزيـرة أضـيع مـن الأيتـام فـي مأدبـة اللئـام، وقـد اسـتقبلكم عـدوكم بجيوشـه وأسـلحته وأقواتــه موفـورة، وأنــتم لا وزر لكـم إلا سـيوفكم ولا أقـوات لكـم إلا مــا تستخلصونــه مـن أيـدي



عـدوّكم، وإن امتـدّت بكـم الأيـام علـى افتقـاركم ولـم تنجـزوا لكـم أمـرا ذهبـت ريحكـم وتعوّضـت القلـوب عـن رعبهـا فـيكم الجـرأة علـيكم، فـادفعوا عـن أنفسـكم خـذلان هـذه العاقبـة مـن أمـركم بمنـاجزة هـذا الطاغيـة؛ فقـد ألقـت بـه إلـيكم مدينتـه الحصـينة، وإن انتهـاز الفرصـة فيـه لممكـن إن سـمحتم لأنفسـكم بـالموت، وإنـي لـم أحـذركم أمـرا أنـا عنـه بنجـوة، ولا حملـتكم علـى خطـة أرخـص متاعـا فيهـا للنفـوس أبـدأ بنفسـي، واعلمـوا أنكـم إن صـبرتم علـى الأشـقّ قلـيلا اسـتمتعتم بالأرفـة الألـذّ طـويلا، فـلا ترغبـوا بأنفسكم عـن نفسـي؛ فمـا حظّكـم فيـه بـأوفى مـن حظّـي، وقـد بلغكـم مـا أنشـأت هـذه الجزيـرة مـن الحـور الحسـان مـن بنـات اليونـان الـرافلات فـي الـدرّ والمرجـان والحلـل المنسـوجة بالعقبـان، المصـورات فـي قصـور الملـوك ذوي التيجـان، وقـد انتخـبكم الوليـد بـن عبـد الملـك أميـر المـؤمنين مـن الأبطـال عربانـا، ورضـيكم لملـوك هـذه الجزيـرة أصـهارا وأختانـا؛ ثقـة منـه بارتيـاحكم للطعـان واسـتماحكم بمجالـدة الأبطـال والفرسـان؛ ليكـون حظّـه مـنكم ثـواب الله علـى إعـلاء كلمتـه وإظهـار دينـه بهـذه الجزيـرة، وليكـون مغنمهـا لكـم مـن دونـه ومـن دون المـؤمنين سـواكم، والله تعـالى ولـي أنجـادكم علـى مـا يكـون لكم ذكرا في الدارين.

أيهـا النـاس: مـا فعلـت مـن شـيء فـافعلوا مثلـه؛ إن حملـت فـاحملوا، وإن وقفـت فقفـوا، ثـم كونـوا كهيئـة رجـل واحـد فـي القتـال، وإنـي عامـد إلـى طـاغيتهم بحيـث لا أنهيـه حتـى أخالطـه وأمثـل دونـه؛ فـإن قتلـت فـلا تهنـوا ولا تحزنـوا ولا تنـازعوا فتفشـلوا وتـذهب ريحكـم وتولـوا الـدبر لعـدوكم فتبـدوا بـين قتيـل وأسـير، وإيـاكم إيـاكم أن ترضـوا بالدنيـة، ولا تعطـوا بأيـديكم وارغبـوا فيمـا عجـل لكـم مـن الكرامـة الراحـة مـن المهانـة والزلـة، ومـا قـد أجـل لكـم مـن ثـواب الشـهادة فـإنكم إن تفعلـوا - والله معكـم ومفيـدكم - تبـوؤوا بالخسـران المبـين وسـوء الحـديث غـدا بـين مـن عـرفكم مـن المسـلمين، وهاأنـذا حامـل حتـى أغشـاه؛ فاحملوا بحملتي "[1].

وفـي الوقـت الـذي أثـرت فيـه خطبـة طـارق تـأثيرا كبيـرا فـي نفـوس جنـوده ورفعـت مـن روحهـم المعنويـة كانـت العناصـر الحانقـة علـى لوذريـق تحـدث أعمالهـا وتـدفع بكثيـر مـن أولئـك الغاضـبين إلـى الانضـمام إلـى جـيش طـارق، ووقـف الفريقـان علـى ضـفتي النهـر أخيـرا اسـتعدادا للقتـال، وكـان المسـلمون ببسـاطتهم ويقظـتهم موضـع الهيبـة فـي النفـوس، علـى حـين كـان منظـر القـوط يـدعو إلـى السـخرية والازدراء؛ إذ جلـس لوذريـق فـي عربـة مطهمـة يجرهـا

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٢٥.

جوادان وعليه أثواب الحرير البراقة، وهو يحاول عبثا بثّ روح الحماسة في جنده، وكان في جيشه اثنان من إخوة غيطشة، وهما: أبه وششبرت اللذان صالحهما بغية توحيد صفوف القوط، وجعل أحدهما على الخيالة التي كانت عماد جيش القوط، وفي يوم الأحد ٢٨ من رمضان عام ٩٢هـ (١٩ يوليو ٧١١م) بدأت المناوشات بين الجانبين على وادي البرباط بالقرب من بلدة شذونة، واستمرت المناوشات ثلاثة أيام أظهر فيها كل من الجانبين الكثير من ضروب الشجاعة والبسالة دون أن يحصل أحدهما على نصر يذكر، غير أن أتباع يوليان نشطوا في أثناء القتال وبثوا رجالاتهم وسط جند لوذريق ليصرفوهم عنه ويؤكدوا لهم أن المسلمين لم يأتوا إلى الأندلس للفتح والاستقرار ولكن للقضاء على هذا الطاغية، وأنه إذا تمّ القضاء على حكم لوذريق عادت البلاد ملكا لهم ينعمون بخيراتها، ونجحت دعايات يوليان بين فرسان القوط، خاصة تلك التي كان يتولى قيادتها أحد إخوة غيطشة ملك القوط السابق الذي قضى عليه لوذريق.

وفي اليوم الرابع من المعركة ظهرت نتائج دعايات يوليان بين صفوف جيش لوذريق؛ فقد تخلى عنه جماعات الخيالة التي كانت العامود الفقري للعمليات الحربية، وأدى ذلك إلى وقوع الاضطراب بين سائر جند القوط وهرب الكثيرون منهم طلبا للنجاة، هذا إلى أن غالبية الجيش اشتملت على أعداد كبيرة من العبيد الساخطين على حكم القوط المتمنين زواله، ووجدوا في تلك المعركة فرصتهم للخلاص مما حلّ بهم من ظلم واضطهاد، ولما أخذت مظاهر الفوضى تسود الجيش بسبب انسحاب الخيالة تراخى العبيد عن القتال وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

وفرّ لوذريق تاركا عددا كبيرا من القتلى على أرض الميدان، وحسب البعض أن لوذريق غرق في النهر الذي دارت المعركة بقربه؛ لأن الجند وجدوا على الشاطئ بعد انتهاء القتال خفّه دون أن يعثروا له على أثر، غير أن لوذريق أبى الاستسلام بعد الهزيمة الساحقة التي نزلت به، وفرّ إلى داخل البلاد دون أن يكشف أحد أمره، مستهدفا جمع فلول القوط مرة أخرى والانتقام ممن انضمّ من رجاله إلى المسلمين، وبعث طارق بأنباء انتصاراته إلى موسى بن نصير الذي أبلغها بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبدأت راية الإسلام تعلو خفاقة فوق غرب أوربا للمرة الأولى في التاريخ[1].

* * *

(١) ابن عبد الحكم، فتوح المغرب والأندلس، ص ٩٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٠.

الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن

يعتقد كثير من المؤرخين أن طارقاً أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثم خطب بجنده الخطبة الشهيرة، أيها الناس، أين المفر البحر ورائكم، والعدو أمامك وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب من رُعْبها... وجاء في الخطبة: وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدّر والمرجان والحُلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله إلى إعلاء كلمته،.. الخ الخطبة [1]، وبالإمكان إيراد الملاحظات التالية حول الخطبة:

- لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر القرن الأول الهجري، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة. فقد تضمنت الخطبة معان سامية وتعبيرات أدبية تجعلنا نميل إلى عدم نسبتها إليه فالخطبة في اعتقادنا ليست من إنشائه وإنما نسبها إليه المؤرخون المحدثون، فقد كان طارق بن زياد كما يرجح بربريا، ولا يعقل أن يكون صاحب هذه القطعة الأدبية الفريدة، ولو أنهم نسبوها إلى موسى بن نصير لكان الأمر أقرب إلى مجال التصديق، وإن كان هذا أيضا لا يمكن الإغضاء عنه، إذ أن أسلوب الخطبة، من الأساليب الشائعة منذ القرن العاشر الميلادي، وقد يكون طارق بن زياد حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه، كما يقول ابن بشكوال [2] ولكنه لا يصل بأي حال من الأحوال إلى ارتجال خطبة أدبية رائعة، أسلوبها من النوع المتأخر في الزمن إلى عصره، ولنفترض جدلا أنها من إنشائه، فكيف يخطب بالعربية لجيش كله من البربر، وهم كما نعرف حديثوا عهد

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٢٥، وفيات الأعيان (٣٢١/٥، ٣٢٢).

(٢) نفح الطيب، ١ / ٢١٥.

بالإسلام وباللغة العربية، بل إن اللغة العربية كانت أبطأ بكثير من الإسلام [١].

- إن المعاني التي تناولتها الخطبة لا تتلاءم وروح الإسلام العالية، التي توفرت لدى الفاتحين، ومقدار حبهم للإسلام وإعلاء كلمته، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك، فهي لا تشيد بدوافع الفتح وأهدافه - وهي معروفة مألوفة - التي أنبتتها ورعتها العقيدة الإسلامية، عاملة على ابتغاء مرضات الله تعالى وحده، لتعلو راية الإسلام وتسود شريعته ويكون الدين كله لله،{ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾} [الأنفال: ٣٩].

- يلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء ويلاحظ فيها التناقض في المعاني، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تاريخية، كاستعمال (اليونان) التي ربما جاء ذكرها للسجع فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الروم [٢]، وكذلك العلوج والعجم أو المشركين والكفار [٣]، وليس لدينا نص يحتوي مثل هذا الاستعمال، غير أن ابن خلكان - وهو مشرقي - أورد هذا الاستعمال في غير الخطبة ثم. (وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين..) فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد.

ج - كان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين ﷺ، أو وصايا وأحداث ومعاني إسلامية أخرى تناسب المقام كالمعهود. وغير ذلك من الملاحظات.

... وكل ما تقدم لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام، وأنه خطب جنده يحُثهم على الجهاد، ويروي المقَّري أبياتاً قالها طارقاً بهذه المناسبة:

ركبنا سَفينا بالمجاز مُقَيَّرا ::: عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنَّة ::: إذا ما اشتهينا الشيء منها تيسَّرا
ولسنا نُبالي كيف سالت نفوسنا ::: إذا نحن أدركنا الذي كان أجْدرا [٤]

ووجهة هذه الأبيات تغاير وجهة الخطبة، فهي منسجمة والمعاني الإسلامية

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٧٨.
(٢) نفح الطيب (٢٦٤/١) التاريخ الأندلسي صـ٦٠.
(٣) نفح الطيب (٢٥٩/١، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٠).
(٤) المقري، نفح الطيب، (٢٣١/١)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (٢٢٣/٥)، الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٥١).

ومستمدة من قوله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١} [التوبة: ١١١].

وأما موضوع حرق طارق للسفن التي عبر بها المضيق، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة، فيستميت في الدفاع ذكر بعض المؤرخين ذلك.

لكن لماذا يحرق طارق السفن، سواء امتلكها المسلمون أم يُليان؟ وكان طارق وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة وإنهم في ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة، وطارق متأكد من هذه المعاني، فإذا كانت السفن ليُليان فليس من حق طارق التصرف بها، وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً أو مناسباً، ما دام يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأي غرض، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة واحتاجها فيما بعد، كما أن طارقاً كان قادراً على إعادتها إلى الساحل الأفريقي إن الدوافع الإسلامية والهدف الذي جاء الجيش من أجله أقوى في الاندفاع من أي سبب آخر، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله، بل لذلك أتوا، والمصادر الأندلسية - لاسيما الأولى - لا تشير إلى قصة حرق السفن التي لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة [1].

* * *

الدروس المستخلصة من معركة وادي لكّة

- أسلوب (الحذر واليقظة) تجاه الحلفاء: لم يكتف موسى بن نصير بقول يليان ووعده بالعون والمساعدة في فتح الأندلس بل كلفه مهمة استطلاعية في تلك البلاد ليختبر صدقه ووفاءه بعهده، وقد كان يليان صادقاً بما قال ووفياً لما تعهد به، كما كان موسى حذراً ويقظاً ونبهاً.

- أسلوب الاستطلاع قبل الانزال: أراد موسى أن يستطلع البيئة التي سوف يقتحمها والعدو الذي سوف يقاتله والبقعة التي سوف يتم النزول فيها، وذلك قبل أن يدفع بجيشه في مغامرة مجهولة النتائج، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك وما أن عادت تلك الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعدو وبقعة النزول

---

(١) التاريخ الأندلسي صـ٦٢. الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٤٥.

حتى اطمأن إلى سلامة قراره فكتب إلى الخليفة يستأذنه بالفتح [(١)].

- الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة: رغم ما سبق من اختبار سواء بواسطة الحملة التي قام بها يليان أو حملة طريف، فقد أبى الخليفة إلا أن يكرر الاختبار فقال لموسى: خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال [(٢)]. ولما لفت موسى نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصر الخليفة قائلاً: وإن كان، فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه [(٣)]. وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العملية وسلامتها وتأمين الفوز للمسلمين بدل أن يغرر بهم في بحر شديد الأهوال. وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الإنزال والاقتحام سهّل عملية الفتح إلى حد كبير وأعان المسلمين في مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمّن لهم عملية (المباغتة) لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبداً.

خ - أسلوب المباغتة: إن الأسلوب الذي اتبعه طارق في إيصال المسلمين إلى ساحل الأندلس منفذاً تعليمات الخليفة، كان أسلوباً بارعاً إلى حد كبير، فهو لم يبحر بالمسلمين دفعة واحدة بل أبحر بهم على دفعات متتالية وفي مراكب تجارية، وما أن التأم شمل المسلمين في تلك البلاد، حتى فوجئوا بالهزيمة الساحقة التي لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين ومقتل أحد أهم قادتهم (بنج) ابن أخت مليكهم لذريق، فانتزع المسلمون، بهذه المباغتة وهذا الانتصار، المبادرة من يد أعدائهم وأسقط في يد القوط، وأصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدراً محتوماً [(٤)].

- تنفيذ أسلوب (رأس الجسر): نفذ طارق، فور وصول جيشه إلى الساحل الأندلسي، أسلوب (رأس الجسر) وهو أسلوب يعمل به في الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة سوّرها وحماها وانطلق منها في فتوحاته، تماماً كما يفعل أي جيش في أيامنا هذه.

ش - اختيار ميدان القتال: لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال وفرض على العدو أن يجابهه من جهة واحدة هي جبهة الشمال، ووضعه في موضع الاضطرار والاختيار.

---

(١) الفن العسكري الإسلامي صـ ٣٤٩، الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٤٦.
(٢) المقري، نفح الطيب، ٢٥٣/١.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٥/٢.
(٤) الفن العسكري الإسلامي صـ٣٥٠. الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٤٧.

ص - المبادرة بالقتال: كان طارق في هذه المعركة هو البادئ بالقتال بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام ثم شن عليه بعد ذلك هجوماً عاماً انتهى بهزيمته.

ر - صدق المسلمين ووفاؤهم بالعهود: كان المسلمون صادقين ووفوا بعهودهم تجاه يليان وأبناء غيطشة فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم واحترموا تعهداتهم ليليان وأنصاره، وكانت نتيجة ذلك أن اعتنقت سلالة كل من يليان وأبناء غيطشة الإسلام، فكان فيها من حسن إسلامه مثل أيوب (توفي سنة٢٢٦ هـ) وسليمان (توفي سنة ٣٧٩ هـ) وأحمد (توفي سنة ٣٨٨ هـ) من سلالة يليان، ومثل أبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس وهو من سلالة سارة بنت المنذر بن غيطشة آخر ملوك القوط.

- استثمار النصر: طبق طارق بالبداهة، مبدأ من أهم المبادئ العسكرية الحديثة وهو استثمار النصر، إذ أنه ما أن هزم لذريق في وادي لكّة حتى لاحق فلول جيشه دون أن يترك لهذا الجيش مجالاً للتجمع وإعادة التنظيم من جديد، وكان طارق قد وضع لنفسه هدفاً أساسياً هو احتلال طليطلة عاصمة العدو، إذ أنه يعرف ولا شك، أنه باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيّتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه، ولكن طارقاً مع ذلك، لم ينس أن يرسل جيشه في حملات إلى مختلف أنحاء البلاد لكي يحتل المواقع الاستراتيجية فيها فيفقد القوط كل أمل بمتابعة القتال والنصر، فأرسل إحداها إلى داخل البلاد شمالاً نحو قرطبة، وكانت قصبة هامة في الأندلس، وأرسل أخرى شرقاً، على الساحل الجنوبي للبلاد، نحو ملقة، وأرسل ثالثة إلى داخل البلاد شمالاً بشرق، نحو غرناطة وكانت تشكل موقعاً استراتيجياً هاماً في البلاد، ثم توجه بنفسه شمالاً إلى العاصمة طليطلة واستولى عليها، فظل الحكم القوطي، من جراء ذلك، شديداً طريداً في أنحاء الأندلس إلى أن سقط [1].

* * *

---

(١) الفن العسكري الإسلامي صـ٣٥٢، الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٤٨.

عبور موسى بن نصير إلى الأندلس

أحدث انتصار طارق بن زياد في وادي لكة دويا هائلا في المشرق والمغرب، وازدادت قوات طارق بن زياد بعد معركة وادي بكة؛ لأن الإمدادات انهالت عليه من المغرب، وكان لابد لطارق أن يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكة، قبل أن تجتمع فلول القوط مرة أخري، فرأى طارق أن يتابع زحفه دون إبطاء ليستولي على قرطبة ويقضي على ما بها من بقايا جيش القوط، غير أنه لقي في الطريق إلى هذه المدينة مقاومة عنيفة جعلته يعدل عن خطته ويبادر بالاستيلاء على طليطلة عاصمة دولة القوط ويتوج بذلك انتصاراته في أسبانيا، وكان السبب في هذا التطوّر الجديد هو ما بلغ طارقا من أن أنصار لوذريق حين ترامت إليهم الشائعات بأن ملكهم لم يقتل بدؤوا يجمعون صفوفهم مرّة أخرى في طليطلة لمقاومة المسلمين.

ومن ناحية أخرى أخذ أنصار الملك السابق غيطشة يجتمعون في طليطلة ويتشاورون فيما بينهم لإعلان أحدهم ملكا مكان لوذريق المهزوم، ولذا عجل طارق بإرسال جزء من جيشه للاستيلاء على قرطبة ليحمي ممتلكاته بجنوب أسبانيا، على حين انطلق بنفسه سريعا إلى طليطلة قبل أن يتمكن أتباع لوذريق من تحصينها، وقبل أن يصل أبناء غيطشة أيضا إلى قرار يصعب على المسلمين مواجهته، ذلك أن بيت غيطشة ظلّ واهما حتى تلك الأحداث بأن المسلمين ما جاءوا إلا للمغانم مقابل مساعدة أبناء غيطشة للوصول إلى العرش، واستولى طارق بن زياد على مدينة طليطلة في سهولة ويسر؛ لأن القوط آثروا تجنّب لقاء المسلمين انتظارا لما تسفر عنه استعداداتهم، وحاول طارق أن يتتبع فلول القوط الهاربة من طليطلة حتى بلغ مدينة أطلق عليها (المائدة) على مقربة من هنارس، وهناك عثر المسلمون على كنز ثمين، عبارة عن مذبح كنيسة طليطلة المحلى بأغلى ما كان لدى القوط من الذهب والجواهر، غير أن طارقا اضطرّ إلى العودة إلى طليطلة لأن الصيف كان قد انقضى؛ فآثر البقاء في العاصمة دون أن يعرض جنده لبرد الشتاء القارس، وفي طليطلة بلغه أن جيشه الذي بعث به إلى قرطبة قد استولى عليها [(١)].

وقد شعر موسى بن نصير أن زحف طارق وراء فلول القوط يوشك أن يعرض الفتوح الإسلامية في البلاد الأسبانية المترامية الأطراف لخطر محقق، ذلك أن

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٤٤ - ٢٤٨، ٢٧٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٧، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٩٤، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٧٨.

خطوط مواصلات المسلمين فيما بين طليطلة والجزيرة الخضراء وبلاد المغرب صارت غير آمنة؛ لأن المعاقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين، ولم يسيطر طارق إلا على قرطبة فقط من بين تلك المعاقل المتعددة، هذا إلى أن قرطبة لم يكن بها سوى حامية صغيرة لا تستطيع أن تؤدي رسالتها كما ينبغي إذا انبعثت أية حركة مقاومة بين صفوف القوط، وأول من شعر بالخطر الذي بات يهدّد المسلمين في أسبانيا هو القائد يوليان الذي قام إذ ذاك في الجزيرة الخضراء ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين أسبانيا والمغرب، وذلك في الوقت الذي اندفع فيه طارق بن زياد إلى طليطلة عاصمة القوط، فقد بعث يوليان مجموعة من رجاله مع المسلمين عند توغّلهم في البلاد.

واستطاعت بفضل خبرتها وأهلها أن تدرك ما يدور في نفوس القوط من غدر، وأنهم يتجمّعون وفق خطة مرسومة لإنزال الهزيمة بالمسلمين، أفضى يوليان إلى طارق بما جاءه من أخبار وطلب منه القيام بعمل حاسم لتأمين ظهر جيوشه، غير أن طارقا آثر البقاء في طليطلة دون القيام بأية أعمال توسيعية، ثم كلّف يوليان بأن يتصل بموسى بن نصير في القيروان ويطلب إليه سرعة المجيء إلى أسبانيا لإنقاذ الموقف.

ولما جاءت استغاثة طارق إلى موسى بن نصير أدرك أن مخاوفه من انطلاق طارق في فتوحه بعد معركة وادي بكة لها ما يسوغها، وأسرع موسى بإعداد جيش مكوّن من ثمانية عشر ألفا من خيرة جنده، وكان معظمهم من العرب والبربر الذين عرفوا بقوّة الشكيمة وشدّة المراس، وممن اشتهروا ببلائهم في ميدان الحروب ببلاد المغرب، وغادر موسى بلاد المغرب على عجل، وقسّم موسى بن نصير جيشه بحسب القبائل ليسهل عبورها إلى الأندلس دون أن تقع فوضى في صفوف الجند، وفي رمضان عام ٩٣هـ (يونيه ٧١٢م) كان موسى ابن نصير قد غادر المغرب ووصل إلى الجزيرة الخضراء في الأندلس، وشيّد بها مسجدا وانتظر هناك حتى تمّ عبور سائر الجند واطمأنّ على سلامتهم وحسن ترتيبهم [(١)].

وفي تلك الأثناء أسرع يوليان إلى لقاء موسى بن نصير وعقد معه مجلسا حربيا للتشاور في هذا الموقف الخطير، وقرر هذا المجلس الحربي أن الضرورة تقضي بالسيطرة أوّلا على المعاقل التي تركها طارق والتي باتت خطرا يتهدد المسلمين،

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٩، ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ص ١٢٤.

وبعث موسى بن نصير عقب هذا المجلس الحربي الهام رسالة إلى طارق بن زياد يأمره فيها بالانتظار في طليطلة، وألا يقوم بعمل حربي إلا بإشعار آخر. وردّدت بعض المراجع أن موسى لم يقدم على هذا العمل والعبور إلى الأندلس إلا منافسة لطارق ورغبة استبدت به لينال بدوره نصيبا كبيرا من الغنائم، وأن الحسد كان يأكل قلبه، وأنه صمّم على محاسبة طارق على أعماله، وأنه رأى أن يتولى بنفسه فتوحا أخرى أعظم مما قام به هذا القائد.

وقد وقعت تلك المراجع في هذا الخطأ الفاحش لأنها صوّرت موسى وطارقا تصوير القائدين المختلفين، وأنّ كلا منهما كان يعمل دون علم الآخر، والمعروف أن طارقا لم يقم بما قام به من أعمال حربية إلا باسم موسى بن نصير الذي تولى القيادة العليا ورسم الخطط، وأمدّ طارقا بكل المساعدات الحربية ولا سيما في ساعة الخطر بعد معركة وادي بكة، هذا إلى أن طارق بن زياد كان يرسل إلى موسى بن نصير عن طريق يوليان أنباء تقدّم المسلمين خطوة خطوة، مما جعل القيادة العليا في القيروان تتابع الأحداث عن كثب، ومن ثمّ لم يكن هناك سبب يدعو موسى لأن يحقد أو يحسد طارقا على ما تم على يديه من فتح؛ لأنه شارك في هذا الفتح وأعدّ خططه، هذا إلى أن موسى لم يكن يتطلع بعبوره إلى الأندلس إلى الحصول على مغانم؛ لأن توزيع الغنائم وغيرها من ممتلكات القوط كان هو المرجع الأخير فيه.

والحقيقة أن موسى بن نصير باعتباره القائد الأعلى قد أفزعه زحف طارق السريع بعد معركة وادي بكة، وتعريضه خطوط مواصلات المسلمين لخطر محقق؛ بسبب تركه الكثير من المعاقل والمدن الهامة جريا وراء مطاردة القوط، ولذلك بادر موسى برسم خطة للسيطرة أوّلا على المراكز الحربية وغيرها في المدن التي كانت تهدّد خطوط مواصلات المسلمين، وليدعم فتوح المسلمين قبل الذهاب إلى طارق في طليطلة.

وتنهض هذه الخطة التي وضعها موسى دليلا على أنه لم يكن يهدف إلى القيام بفتوح جديدة تغطي أخبارها وعظمتها ما قام به طارق، وأن مجيئه إلى الأندلس كان ضرورة حربية ملحّة وإصلاح خطأ وقع فيه قائده طارق ولو كان موسي بن نصير يقص من وراء جوازه إلى الأندلس تأديب طارق لكان قد جاز إليه في رفقة عدد قليل من المسلمين، ولأسرع للقائه، ولكن موسي جاز الزقاق في جيش أضخم بكثير من جيش طارق، ومضي يفتتح مدن الغرب، ويقضي علي مراكز المقاومة طوال هذا العام، قبل أن يلتقي بطارق بن زياد، كل ذلك إن دل علي شيء فعلي أن موسي كان ينوي إتمام فتح الأندلس وفقا لخطة رسمها هو وطارق ويوليان، ولوكان موسي

يضمر في نفسه شرا لطارق، مدفوعا في ذلك بعوامل الغيرة والحسد، لما عبر الزقاق بعد عام كامل من زول طارق إلى الأندلس، ولما سلك طريقا غير الطريق الذي سلكه من قبل، ولكان أسرع إلى لقائه كف يده، بدلا من إضاعة وقته في إفتتاح مدن الغرب القوية، مثل إشبيلية وماردة، ولبلة، وباجة [1].

والحقيقة أنه إن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها، تخوفاً من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الايغال والتقحم في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وسارا بعده - سوية إخوة مجاهدين، ينشرون دين الله ويُعلون كلمته ويبلغون للناس شريعته، كما لا ننسى أن طارق جندي من جنود موسى والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية.

* * *

فتح إشبيلية وماردة

وعمد موسى بن نصير إلى تأمين خطوط مواصلات المسلمين بين الجزيرة الخضراء التي نزل فيها وبين قرطبة التي تعتبر مفتاح السيادة في جنوب الأندلس؛ فعجل بالسير في بلدة شذونة، ومنها زحف إلى قرمونة ورواق واستولى عليهما، وبذلك أصبحت المحطات الهامة على الطريق إلى قرطبة في أيدي المسلمين، وصار في استطاعتهم التقدّم من تلك القاعدة نحو الغرب، وفتح مدينة إشبيلية التي كانت أكبر مدن القوط بعد العاصمة طليطلة ومصدر الخطر المباشر على القوات التي كانت تحت قيادة طارق في داخل البلاد، وكانت إشبيلية تعتبر نقطة التقاء للطرق الهامة في جنوب الأندلس، ولا سيما التي تربط الجزيرة الخضراء بداخل البلاد، فكانت هناك طريقان يربطان إشبيلية بالجزيرة الخضراء التي جعلها موسى مركزا لالتقاء جنده في أسبانيا، وكان أحد هذه الطرق بحريا والآخر بريا، وعلى كل منهما محطات كثيرة ومعاقل.

هذا إلى أن إشبيلية اشتهرت بأسوارها الحصينة ومتاجرها الواسعة، وبهذا أصبحت قاعدة كبيرة من قواعد الفتوح الإسلامية في أسبانيا. وبعد أن استولى موسى بن نصير على مدينة إشبيلية اكتفى بوضع حامية بها، وأسرع إلى الاستيلاء على مدينة ماردة التي كانت معقلا خطيرا في أيدي القوط خلف خطوط المسلمين، ووجد

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٩٢.

موسى بن نصير مدينة ماردة قوية الحصون وأشدّ منعة من إشبيلية؛ فكان لها أسوار منيعة يعلوها الأبراج والحصون القوية، ثم إن فلول القوط وأنصار لوذريق جعلوا تلك المدينة ملجأ لهم بسبب بعدها عن طريق المسلمين، كما كانت المسالك إليها وعرة صعبة، ولذا استغرق حصار المسلمين لها آخر الصيف والشتاء التالي له دون أن يسيطروا عليها، ودار حولها قتال عنيف سقط فيه كثير من الضحايا، فقد أعدّ موسى بن نصير كمائن كثيرة أخفاها في جهات صخرية مواجهة للمدينة، أنزلت ضربات قاصمة بالقوط كلما رغبوا في الخروج إلى معاقلهم، وقتل كثير من المسلمين أيضا في محاولاتهم ثقب سور المدينة (١).

ولم يستقرّ الأمر لموسى في ماردة إلا بعد جهد شاق بذل فيه الكثير من الوعود لأهلها الذين سلموا بعدها في شوال عام ٩٤هـ (يونيو ٧١٣م) (٢).

وبعد أن غادر موسى بن نصير مدينة إشبيلية وبدأ حصار ماردة جمع القوط فلولهم في المدن المجاورة وفاجؤوا الحامية الإسلامية في إشبيلية وقتلوا منها ثمانين فردا، وأجبروا الباقين على الخروج من المدينة، وآثر موسى بن نصير الاستمرار في حصار ماردة حتى استولى عليها، ثم بعث بابنه عبد العزيز إلى إشبيلية لطرد القوط منها (٣).

واختار موسى بن نصير بعد ذلك للمدن التي استولى عليها نفرا من خيرة قادته ممن اشتهروا باليقظة والبطولة.

* * *

مقتل لذريق

واضطر موسى بن نصير أمام تلك المقاومة العنيفة التي لقيها جيشه إلى أن يريح جنده في مدينة ماردة مدة شهر تقريبا قبل أن يستأنف السير إلى طليطلة لمقابلة طارق، وأدرك موسى بن نصير أن القوط يهدفون إلى الهجوم على المدن التي يستولي عليها؛ من أجل دفع طارق بن زياد إلى مغادرة طليطلة لنجدة موسى بن نصير ثم يستردون مدينة طليطلة في غيبة القوات الإسلامية عنها، ولذا عمد موسى إلى تشتيت خطة القوط بأن يظلّ يقاومهم أطول فترة ممكنة دون أن يطلب إلى طارق

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٥٢، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢١ وما بعدها، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٥٣.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٩٧.

مساعدته.

ولكن ما كاد موسى يغادر مدينة ماردة حتى جاءته الأخبار أن لوذريق نفسه - ملك القوط الذي فرّ بعد معركة وادي بكة - بدأ ينظم فلول جيشه ويجمع أتباعه استعدادا للهجوم على المسلمين مرة أخرى، ثم إن لوذريق بعد أن آثر البقاء ساكنا ليضرب ضربته الأخيرة في عنف وشدة، اختار قوات موسى بن نصير لتكون هدفه ليهدم بذلك خطط الفتوح الإسلامية كلها في الأندلس مرة أخرى، واتخذ لوذريق مركز مقاومته في شعاب الهضاب التي تلي وادي آنه إلى الشمال في جبال سيرا دفرانشيا على أبواب قشتالة واستراما دورة في السهل المنبسط الذي يحيط بمدينة سلمنقة.

وأجاد لوذريق إخفاء قواته في تلك الجهة الوعرة حتى إن موسى بن نصير اضطرّ أن يتخلى عن خطته، وأن يطلب من طارق بن زياد الخروج من طليطلة وأن يلقاه في منتصف الطريق بين تلك العاصمة وماردة؛ لينقذ المسلمين إذا ما دهمهم خطر مفاجئ.

وسار طارق نحو مائة وخمسين ميلا، واتخذ مكانه في الجهات المعروفة باسم العرض بين التاجة ونهر التتار، وسار موسى بن نصير مع قواته في طريق روماني قديم يصل ماردة وسلمنقة، وبجوار نهر حمل اسمه فيما بعد، وهو نهر (فاموتا) أي نهر موسى، وذلك بعد أن اتخذ كل الاحتياطات حتى لا يؤخذ على غرة.

ولما وصلت القوات الإسلامية إلى منتصف الطريق السالف الذكر اعتقد لوذريق أن الوقت قد حان ليضرب ضربته الأخيرة، وأن المسلمين لن يجدوا من ينقذهم أو يبادر إلى مساعدتهم، وعند ناحية اسمها السواقي على مقربة من ثمامس شنّ لوذريق هجومه دون أن يدري أن موسى بن نصير قد اتخذ كل الوسائل ليحمي قواته ويجنبها الأخطار، ولذا صمد المسلمون لهجوم القوط وأنزلوا بهم خسائر فادحة، وقتلوا كثيرا منهم من بينهم لوذريق نفسه الذي قتله مروان بن موسى بن نصير، وصار الطريق إلى طليطلة مفتوحا أمام موسى بن نصير فسار حيث التقى بطارق بن زياد وقواته التي كانت قد غادرت تلك المدينة في سبيلها إلى مقابلته في عرض الطريق [١].

* * *

(١) ابن القوطية، تاريخ إفتتاح الأندلس، ص ١٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٥٣ - ٢٥٥، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٩٨، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٩٨، ٩٩.

استعادة طليطلة

ولما كان هجوم لوذريق على قوات موسى بن نصير شعبة من مؤامرة مزدوجة استهدف طرفها الثاني السيطرة على طليطلة وانتزاعها من المسلمين إذا ما خرج طارق منها لنجدة إخوانه؛ فإن جماعات من القوط انتهزت خلوّ العاصمة من الحامية الإسلامية واستولت عليها إكمالا لحلقة المقاومة ضدّ المسلمين، غير أن القوات الإسلامية المشتركة بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد تمكنّت من هزيمة القوط والسيطرة على طليطلة مرة ثانية، وأقام بها موسي طوال الشتاء من سنة ٩٤ هـ. يدبر أمرها ثم ضرب عملة ذهبية وأخري برونزية لصرف رواتب الجند وذلك في دار السكة القوطية في طليطلة ويعتبر سكّ هذه العملة الذهبية دلالة على سيطرة موسى بن نصير على الأوضاع في تلك البلاد الأوربية الجديدة، وعلى مهارته الفائقة في بناء إدارة عربية مستقرة الأركان في أسبانيا منذ الأيام الأولى للفتح الإسلامي بها، وكانت هذه العملة الذهبية على غرار العملة التي سكّها موسى بن نصير في بلاد المغرب؛ فكان على وجه هذه العملة اسم (محمد رسول الله)، وعلى الوجه الآخر نجمة ذات ثمانية أذرع، وإلى جانب ذلك أمر موسى بن نصير بضرب عملة برنزية صغيرة لمساعدة الناس في تسهيل عملياتهم اليومية، ثم بعث موسي رسولين من قبله إلى الوليد يخبرانه بالفتح هما: مغيث الرومي، وعلي ابن رباح التابعي [(١)].

وبذلك انتهت مقاومة لوذريق وجنده بمجيء قوات موسى بن نصير على عجل، ولولا ذلك لانهارت أعمال طارق وأصيب جنده بكارثة مروعة.

وبعد أن أتمّ موسى بن نصير تنظيماته الإدارية استأنف الجهاد، واتفق مع طارق بن زياد على الزحف معا نحو الشمال الشرقي لفتح حوض نهر الإبرو وما فيه من مدن، واشترك طارق مع موسى في هذه الحملة لأن المقاومة الشديدة التي سبق أن أظهرها القوط حملت القيادة الإسلامية على جمع جهودها وتنسيق أعمالها بما يجنب المسلمين الأخطار مرة أخرى.

---

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٢٦، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ١٠٢، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٩٩ - ١٠٠.

واستقرّ رأي كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير على القيام بمسح شامل لسائر الأراضي الأسبانية التي لم تفتح بعد، ونشر الإسلام بين ربوعها، وتطهيرها تطهيرا شاملا من جيوب القوط وفلولهم، وأثبت موسى بن نصير بذلك أنه ما زال يولي طارق بن زياد ثقته المطلقة.

وقصدت القوات الإسلامية بقيادة موسى بن نصير مدينة سرقسطة، واقتربت منها على حين غفلة من أهلها، وأراد أسقف المدينة ومن معه من الرهبان جمع دخائرهم وكتبهم المقدّسة والفرار بها، غير أن موسى بن نصير بعث إليهم رسولا من قبله أزال مخاوفهم وأعطاهم العهود والمواثيق بالأمان، وبذلك استولى المسلمون على المدينة دون قتال، وشيّدوا بها مسجدا صار فيما بعد أحد المراكز الكبرى لنشر الدين الإسلامي وحضارته في أسبانيا، وقام ببناء هذا المسجد أحد التابعين في جيش موسى بن نصير وهو حنش بن عبد الله السبئي الصنعاني [(١)].

* * *

الزحف شمالا نحو البرانس

وتابع موسى زحفه بعد ذلك، واستولى على كثير من المدن الهامة في تلك الجهات، وظلّت القوات الإسلامية تتابع زحفها حتى بلغت مشارف جبال البرت (البرانس)، وشاهد المسلمون سكان تلك الجبال من القبائل البسقاوية (البشكنس)، واستمعوا إلى لغتهم الغريبة التركيب والأصوات حيث كانو ا يتحدثون بلغة لاتينية أخري لا يفهمها الأسبان الآخرون الملازمون لموسي (وهم أدلاء يوليان)، فزهد المسلمون في في هذه البلاد التي يسكنها قوم علي حد قول ابن عذاري " كالبهائم " [(٢)]. وقيل إن موسي لما أوغل، وجاوز سرقسطة اشتد علي الناس ذلك، فقالوا: أين تذهب بنا حسبنا ما قد ملكنا بأيدينا؟ إلى أين تريد أن تمضي؟ إلى أين تسير بك همتك العظيمة وروحك المجاهدة؟ حتى قال له حنش الصنعاني: أين تمضي فتهلك القوم والناس؟ فقال - رحمه الله - مقالة مشهورة نسبت له، والتصقت بسيرته في التاريخ قال: " والله لو انقادوا إلى لقدتهم إلى رومية ولفتحها الله على يدي إن شاء الله "[(٣)].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٤ / ٦، الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ٩٧.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٤، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٣٣.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٣٧.

وفي الوقت الذي كان فيه موسى بن نصير يبذل كل ما لديه من جهد لتأمين ممتلكات المسلمين شمالي مدينة سرقسطة جاءه مندوب الخلافة وهو مغيث الرومي، ومعه أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك لكل من موسى بن نصير وطارق بن زياد بالمجيء إلى البلاط ومقابلته شخصيا في دمشق، ورأى موسى بحنكته الحربية ومقدرته السياسية أن هذا الاستدعاء جاء في وقت غير مناسب؛ لأن مطاردة القوط لم تنته بعد، كما أن فتح البلاد يتطلب السيطرة على المعاقل الشمالية الجبليةوكان شديد الحرص علي اقتحامها والسيطرة عليها، أضف إلى ذلك أن موسى أحسّ أن أمرا قد دبّر له في دمشق، ويحتمل أن هذا التدبير هو السرّ في استدعائه إلى عاصمة الخلافة [١]، ولذلك ألحّ على مغيث الروميواحتال في أن يؤجل تنفيد طلب الاستدعاء حتى ينتهي من العمليات الحربية، ومنحه قصرا في قرطبة يقيم فيه ريثما يفرغ المسلمون من مهمّتهم وعرض عليه أن يكون شريكه في الأجر والغنيمة [٢].

وتقدّم موسى بقواته نحو مدينة قشتاله؛ لأنها تعتبر المركز المباشر الذي يمكن أن يهدّد منه القوط مدينة طليطلة وغيرها من البلاد الإسلامية، ثم إن اقترابها من الجهات الجبلية الوعرة يساعد من يتحصن بها على أن يبقى على المقاومة زمنا طويلا، ولذا قسّم موسى ابن نصير قواته قسمين عهد بواحد منهما إلى طارق بن زياد وجعل مهمته السير غربا، على حين قاد هو الشطر الثاني واتجه في البلاد شرقا.

وقصد طارق بن زياد إلى جبال كنتبرية، وأخضع جماعات البسقاوية غربي نهر الأبرو، ودخل كثير من سكان تلك الجهات في الإسلام على يد طارق بن زياد، وصاروا يكوّنون نواة كثير من الأسر الأندلسية الإسلامية التي قدّر لها أن تمثّل دورا هاما في تاريخ البلاد فيما بعد. وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير على الضفة الشرقية لنهر إبرو في إقليم قشتالة، ورحّب به زعماء البلاد كذلك، ودخلوا في طاعة المسلمين، غير أن نفرا من فلول القوط آثروا الفرار أمام الزحف الإسلامي إلى المناطق الجبلية الساحلية الشمالية، واعتصموا بمكان اسمه الصخرة، فطارد موسى تلك الفلول حتى بلغ خيخوت، وجعل منها حصنا يحمي ما تم على يديه من فتوح في تلك الجهات القاصية، وصارت تلك الجهات أقصى ما وصل إليه المسلمون في منطقة اشتريس، حيث بدأ موسى بن نصير يعد العدة للعودة من تلك البلاد النائية.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٥٨.

(٢) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٥٨.

وتمّ في ذلك الوقت أيضا إخضاع المنطقة الساحلية بين مالقة وبلنسية، وإخماد الفتن التي حاول القوط القيام بها، وقام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي اشترك مع والده في إكمال الفتوح الإسلامية في أسبانيا، وسار هذا القائد على نهج والده في معاملة أهالي البلاد المفتوحة بالرفق والتسامح والعدل في فرض الضرائب، ومن ذلك ما حدث حين زحف عبد العزيز بن موسى على مالقة ثم غرناطة ثم أريوله، وهي كلها سلمت دون قتال (١).

* * *

ارتياح أهالي الأندلس للحكم الإسلامي

وقد شعر أهالي الأندلس مع امتداد الفتح الإسلامي طلائع المساواة، وخاصة في الضرائب، وهو أمر لم يألفوه منذ زمن طويل، هذا إلى احترام حرية العقيدة وإزالة الاضطهاد الديني، وردّد كثير من الباحثين في التاريخ الأوربي المظاهر الجديدة التي سادت الشطر العربي من أوربا في بلاد أسبانيا عقب الفتح الإسلامي، وسجلت بهذا الدين الحنيف مظاهر الحياة الجديدة التي نفحها في تلك البلاد، وذكروا أن الفتح العربي كان من بعض الوجوه نعمة لأسبانيا، فقد أحدث فيها ثورة اجتماعية هامة، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون، وتحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى، ووزّعت الأراضي توزيعا عادلا؛ فكان ذلك حسنة سابغة وعاملا في ازدهار الزراعة إبان الحكم الإسلامي، ثم كان الفتح عاملا في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة؛ إذ كان الإسلام أكثر معاضدة لتحرير الرقيق من النصرانية كما فهمها أحبار المملكة القوطية، وكذلك تحسّنت أحوال أرقاء الضياع؛ إذ غدوا من الزرّاع وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية.

وكان موسى بن نصير حريصا على أن يظلّ المسلمون العاملون تحت رايته - سواء من العرب أو البربر - مثلا أعلى أمام شعب أسبانيا؛ فلم يترفع أولئك الفاتحون المسلمون على أبناء البلاد، وإنما امتزجوا معهم وصاهروهم وشاركوهم أيضا في مباهج البلاد ومسرّاتها؛ يطلبون العيش في سلام جنبا إلى جنب مع أهلها، وكان شعب أسبانيا من العنصر الأيبيري المسالم المحبّ لحسن العشرة، ومن ثم أنس إلى الفاتحين الجدد سواء من العرب أو البربر، وأقبل عليهم طواعية لا عن ضغط

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٥٨ - ٢٥٩، ابن القوطية، تاريخ إفتتاح الأندلس، ص ١٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٤، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٠٤ - ١٠٥.

وإرهاب، ووجد فيهم محرّرين من بطش القوط وظلمهم الفاحش، ولم يحاول الفاتحون إدخال أبناء الشعب قسرا في الدين الإسلامي، وإنما حرصوا أوّلا على بيان فضائل هذا الدين حتى يتنبّه الناس ويدخلوا في رحابه إيمانا بأركانه وقواعده. ثم إن موسى بن نصير عمد إلى تنظيم الأحوال المالية للبلاد حتى يجنبها الاضطرابات ويهيئ لها أسباب الاستقرار، وقد طبق على أسبانيا القواعد التي اتبعها المسلمون الفاتحون في شتى الجهات التي استولوا عليها، فالأراضي التي فتحت عنوة قسمت بين الفاتحين بعد أخذ الخمس لبيت المال.

أما الجهات التي فتحت صلحا فتركت بيد أصحابها مقابل دفع العشر من نتاجها، ولا شكّ أن هذا التنظيم المالي لم يكن عملا هيّنا بالنسبة لموسى بن نصير، وبخاصة في تلك الجهات من غرب أوربا التي لم تعرف منذ زمن بعيد لونا من ألوان الإدارة العادلة؛ فالمعروف أن القوط كانوا يستبيحون لأنفسهم ثروات البلاد ويعتبرون السكان أقنانا يعملون في الأرض، ولا همَّ لهم إلا إنتاج ما يحتاج إليه سادتهم من القوط، ولذا جاءت تنظيمات موسى بن نصير في أسبانيا وسيلة جيدة لخلق الامتزاج السليم بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين؛ فالأراضي المنبسطة في الجنوب - أي جنوب الوادي الكبير - اعتبرها موسى بن نصير أرضا مفتوحة عنوة؛ فقد تم الاستيلاء عليها بعد معارك عنيفة ضد لوذريق، وقسم موسى أربعة أخماس هذه الأراضي إلى قطاعات بين الفاتحين.

على حين بقي الخمس ملكا للدولة، أما بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صلح وهي الأراضي الواقعة شمال نهر الوادي الكبير من شبه جزيرة أيبريا، فأخذ كل ناحية لأنفسهم عهدا، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة، وبذلك سار الاستقرار في بلاد أسبانيا سريعا حيث سار موسى بن نصير، وبدأ العرب والبربر ينتشرون في شتى الجهات في طمأنينة وسلام، واستقر العرب دائما في المناطق المنبسطة والمنخفضات، أي في النواحي الدافئة قليلة المطر في الجنوب والشرق والغرب وفي ناحية سرقسطة، أما البربر فاختاروا المناطق الجبلية التي سبق أن ألفوا مثلها في وطنهم ببلاد المغرب، بينما نزل العرب في المناطق الواطئة بجنوب أسبانيا مثل شذونه واستجة، فضَّل البربر منطقة رنده الجبلية واختاروها سكنا لهم، ونزل بعض البربر في مناطق متفرّقة كذلك أو في بعض الهضاب حسبما راق لهم ذلك، واستطاع كل من العرب والبربر الامتزاج بأهالي البلاد الأصليين وارتبطوا معهم برباط الزواج.

وكان للبربر خاصة أثر عظيم جدّا في انتشار الإسلام في الأندلس بسبب قرب مزاجهم وطباعهم من أولئك السكان، هذا إلى أن البربر بسبب حداثة عهدهم بالإسلام كانوا شديدي الحماسة للدين الجديد لأنه صار رمز سيادتهم وعزّهم، وحرص موسى ابن نصير على ترك حاميات من جيشه في المدن التي فتحها، وهذا هو الأمر الذي جعل معظم أرجاء أسبانيا تعمر بالفاتحين الجدد وتمهد أسبانيا في سرعة ويسر لاعتناق الدين الإسلامي الحنيف.

واستطاعت الإدارة الإسلامية التي شيّدها موسى بن نصير أن تضع الحجر الأساسي لبناء الحضارة الإسلامية في أسبانيا، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للإشعاع الحضاري في أوربا في العصور الوسطي، ومن ثم أخذت أسبانيا تخطو سريعا في مضمار الازدهار العلمي وتدخل سجل التاريخ باعتبارها الشريان الذي نقل إلى أوربا ثمار الحضارة الإسلامية ومعارفهم، وهيّأ لسكان غرب أوربا السبيل للخروج من جهالة العصور الوسطي إلى نور الإسلام وضوء الحضارة الإسلامية الساطع.

وقد استغرق الفتح الإسلامي لأسبانيا ثلاث سنوات وبضعة شهور؛ إذ بدأ الفتح الإسلامي لأسبانيا في رجب عام ٩٢هـ وتم في ذي القعدة عام ٩٥هـ.

ويلاحظ أن العرب أطلقوا اسم الأندلس على المناطق التي كانوا يسيطرون عليها من شبه جزيرة أيبريا، ولا زال اسم الأندلس يطلق على الجزء الجنوبي منها.

* * *

موسى وطارق يقابلان الوليد في عاصمة الأمويين

سبق أن ذكرنا أن الخليفة الوليد بن عبد الملك استدعى كلا من موسى بن نصير وطارق بن زياد لمقابلته شخصيا في دمشق، وأن موسى بن نصير أجّل تنفيذ هذا الطلب حتى ينتهي من عملياته الحربية، وبعد أن فرغ موسى بن نصير من إتمام الفتح اختار مدينة أشبيلية حاضرة للبلاد وعيّن ولده عبد العزيز واليا على الأندلس، واستخلف على المغرب الأقصى ابنه عبد الملك، كما استخلف على إفريقية ابنه عبد الله، ثم غادر موسى بن نصير الأندلس وبصحبته طارق بن زياد وكبار الجند في ذي القعدة عام ٩٥هـ (٧١٤م)، ويقال إن يوليان كان معهم.

وكان موكب موسى بن نصير إلى دمشق من الموضوعات التي أفاض في وصفها الرواة والإخباريون العرب، ونقلها المؤرخون مثل ابن عبد الحكم وابن قتيبة

وابن القوطية والمراكشي وابن عذارى وابن خلكان والمقري وابن الأثير، ويقال: إن موكب موسى بن نصير اشتمل فيما عدا حاشيته الخاصة على أربعمائة من أفراد الأسرة القوطية المالكة وأسر النبلاء؛ تزين رؤوسهم التيجان وتطوق أوساطهم الأحزمة الذهبية، ومعهم جموع من العبيد والأسرى يحملون نفائس الغنائم (١).

وعندما اقترب موسى من دمشق وصلته رسالتان كان لهما أكبر الأثر في اختتام حياته فيما بعد، أما الرسالة الأولى فكانت من ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب فيها من موسى بن نصير أن يبطئ في الحضور إلى دمشق لأن الخليفة الوليد بن عبد الملك مريض مرض الموت وفي أيامه الأخيرة، وبذلك يحظى سليمان عندما يعتلي العرش باستقبال أعظم موكب للنصر عرفه الإسلام، ولكن موسى بن نصير رفض الاستجابة لهذا الطلب وتابع سيره إلى دمشق، وبعد ذلك بقليل تسلم الرسالة الثانية وكانت من عند الخليفة الوليد نفسه يأمره فيها بالإسراع بالحضور إلى دمشق حتى لا تحرمه المنية من شرف مشاهدة موكب النصر القادم على عاصمة الخلافة، وليتوج أيامه الأخيرة بهذا النصر المظفر (٢).

ودخل موسى بن نصير مدينة دمشق في السادس والعشرين من يناير عام ٧١٥م جمادى الأولى عام ٩٦هـ، أي قبل وفاة الخليفة الوليد بأربعين يوما، وحرص موسى على أن يشرف بنفسه على طريقة سير الموكب وارتداء المشتركين فيه بثيابهم وبطريقة عرض الكنوز والغنائم، وأمر موسى بالأموال والجواهر واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء والكساء المنسوج بالذهب والفضة المحرشة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وضمّها إلى موكب النصر مع رجاله بأرديتهم الجميلة الزاهية، ثم أقبل موسى بالذين ألبسهم التيجان حتى دخل مسجد دمشق والوليد على المنبر يحمد الله، وكان الخليفة يعاني في تلك الأيام من وطأة المرض ومع ذلك أبى إلا أن يخرج إلى المسجد متحملا لأجل قدوم موسى بن نصير، ولما رأى الخليفة هذا الموكب استولت عليه الدهشة والعجب الشديد وصاح الحاضرون من الناس: موسى موسى!، وأقبل هذا القائد المظفّر حتى سلّم على الخليفة ووقف ثلاثون رجلا من أصحاب التيجان في موكب النصر عن يمين المنبر وشماله، على حين وقف أمام الخليفة سائر أفراد الموكب ومراكب الغنائم المقامة على عجل، وهزّ هذا المنظر الباهر قلوب

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.
(٢) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

الحاضرين ومشاعرهم كما أثار ذكرياتهم عن فتوح المسلمين الكبرى، وقالوا: إن الدولة الإسلامية لم تشهد منذ فتح فارس مثل هذا الموكب الرائع، ومثل تلك الغنائم الوافرة، وأخذ الخليفة يلقي خطبته في هذا المشهد الحافل وأكثر فيه الحمد لله والثناء عليه والشكر لما أيده الله ونصره، وأذهل موسى الناس بما أتى به من الخيرات والغنائم والأسرى، وكان موكب النصر هذا موكبا مشهودا؛ إذ لم ير الناس من قبل مثل هذا العدد من أمراء الغرب والأسرى الأوربيين، وقد جاؤوا يقدمون الولاء والطاعة لأمير المؤمنين.

وكان من أبرز ما قدّمه موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد من الغنائم التذكارية النفيسة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير، كان طارق بن زياد قد غنمها من كاتدرائية طليطلة، وكان القوط قد تفننوا في صنعها فنسبها العرب إلى سليمان بن داود، وإنما أطلق عليها هذا الاسم كناية عن قدمها وعظم شأنها.

واختلفت الروايات كذلك في وصف هذه المائدة وبيان هيئتها وسبب وجودها، فذكرت إحدى الروايات أن الأغنياء والموسرين من القوط دأبوا أن يوصلوا للكنائس بقدر معلوم من ثرواتهم عند الوفاة وكلما تجمع المال الوفير بين المشرفين على تلك الكنائس أمروا بصناعة موائد وكراسي من الذهب والفضة تضع القساوسة عليها الأناجيل في أيام الاحتفالات من أجل المباهاة والتفاخر، ونالت كنيسة طليطلة قدرا كبيرا من مال الوصايا، وخاصة أنها كانت مقرّ البيت المالك، ولذا تأنق الملوك في عمل مائدة لهذه الكنيسة فاقت كل الموائد في سائر أسبانيا؛ إذ حرص كل ملك على أن يزيد في مائدة كنيسة طليطلة إعلاء لذكره وتباهيا بعاصمة ملكه حتى صار لها مركز الصدارة في جميع البلاد وتحدث الجميع بجمالها وعلو قيمتها، فكانت مصنوعة من الذهب الخالص مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد.

ومهما يكن من أمر تلك الروايات فمما لا شك فيه أنها أجمعت على شيء واحد هو عظمة هذا الكنز الثمين الذي فاقت أخباره ما عداه في كنوز وجدها الفاتحون في سائر مدن الأندلس، ويرجح أن هذه المائدة كانت مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة، وأنها كانت على درجة خيالية من الجمال حتى تليق بعاصمة القوط، ولتكون رمزا على ثراء دولتهم وغناها الوافر.

وكان مما قدّم للخليفة الدر والياقوت أكيالا والسيوف المحلاة بالجواهر والتيجان الذهبية المرصّعة بالحجارة الثمينة وآنية الذهب والفضة، وغير ذلك مما لا يحيط به وصف.

وقد أغدق الخليفة الخلع على موسى ثلاث مرات تشريفا له، كما أغدق المنح لآل بيته، ولما انتهى الخليفة من منح موسى براءات الشرف والتكريم استأذن منه هذا القائد العظيم في تقديم المشتركين معه في موكب النصر فأدخل عليه موسى ملوك البربر وملوك الروم وملوك الأسبان وملوك الفرنجة، ثم أدخل عليه رؤوس البلاد ممن كان معه من قريش والعرب؛ فأحسن الخليفة لهم العطايا والمنح (١).

* * *

سبب رجوع موسى إلى عاصمة الخلافة دمشق

ومن الأسباب التي ذكرت في سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي أو مراكز ارتباطه واستمداده وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك حتى بين له موسى ألا داعي للخوف، ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاته عند هذا الحد وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واجتياح أوربا كلها والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد، ويؤكد المؤرخون أنه لو قد قدر لموسى بن نصير أن يمضي قدماً في مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقرائهم النظام الدولي وقتئذ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذا لم تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة وقتها بصراعاتها مع الممالك الأخرى ولم يكن هناك كيان سياسي واحد في أوربا كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها، ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه الفرصة كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول وهي معركة بلاط الشهداء، وقد تكرست الآثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

بعد ذلك بسنوات قليلة وهو ما أغلق أوربا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أغلقت أمامهم من الغرب (١).

ولقد فشل المحللون في تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير، فبعضهم قائل إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحري، وبعضهم الآخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق، هو تقويض هدف مصيري للأمة أضاعت فيه فرصة ثمينة في فتح أوربا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية (٢).

* * *

خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى

... تخبطت الروايات في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والنكران وفي هذه الروايات غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة، والصحيح أن سليمان كان عاتباً على موسى، لأمر لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ثم رضي عنه سليمان وقرّبه منه وأصبح من خاصته ولا يمكننا أن نصدق أن يعاقب سليمان تابعيا جليلا كموسي بن نصير، أسس ملكا من عدمه، وقضى سني حياته مجاهدا في سبيل الله، لمجرد قالة ظالمة أو وشاية في حقه، ولوكان سليمان فعل ذلك لكان أولي به أن يعاقبه بعزل أبنائه الثلاثة عن المغرب والأندلس، ولكن شيئا من هذا لم يحدث، بل إن سليمان بن عبد الملك كان يصطحب موسي بن نصير معه في نزهاته (٣)، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات فقد قال له سليمان يوماً: ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال الدعاء والصَّبْر، قال: فأي الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشُقْر، قال: فأي الأمم أشدُّ قتالا؟ قال: هم أكثر من أن أصف، قال: قال: فأخبرني عن الرُّوم، قال: أُسْدٌ في حصونهم عِقبان على خيولهم، نساء في مَراكبهم، إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوْا غلبة، فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية، غير أنهم أغدر الناس قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (٥٤/١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز - (٣ / ١٥٩).
(٢) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦١).
(٣) ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص ١٧٨، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٠٧.

يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس، قال: فكيف كانت الحرب بينكم وبينهم؟ قال: أمَّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط ولا بُدّد لي جمع، ولا نُكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور [(١)] زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء ثم أخذ يُعدِّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد حتى تحير سليمان، وقد وصف الذهبي موسى بن نصر بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم المغرب، وفاتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم، وكان من اصحاب الهمم الكبيرة فقد قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أُوقعهم على رُومية ثم ليفتحنها الله على يدي، وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل على الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة [(٢)].

وقد توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى وهو متجه للحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة - على سكانها أفضل الصلاة والسلام - أو في وادي القرى (العُلا، حاليا) أواخر سنة ٩٧هـ وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (في سنة ٩٧هـ)، وقال صاحب معالم الإيمان: توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج وكان قد سأل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاءه، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك [(٣)].

لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة ولا قيمة لها عند موسى بن نصير ويرجع الفضل في ذلك إلى الله ثم نصيحة العالم الجليل أبو عبد الله علي بن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب كتاب رياض النفوس أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى القيروان قعد يوماً في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إلى يهنئني في كتابه وأمر بقراءة الكتاب، فهنيء بذلك وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم علي بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم، وأمر بالكتاب فقرئ فهنيء بذلك، وكان علي بن

---

(١) التور: الإناء.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٤/٤٩٩).

(٣) المقري، نفح الطيب، (١١/٤)، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٨٤.

رباح ساكت فقال له موسى: مالك يا علي لا تتكلم؟ فقال: أصلح الله الأمير، قد قال القوم فقال: وقل أنت أيضاً. فقال: أنا أقول - وأنا أنصح القائلين لك - إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يرجع بك، فانكسر موسى ابن نصير وخشع وفرق جواري عدة.. وقال صاحب الرياض: ونفعه الله عز وجل بموعظة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة، فرضي الله عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه دعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده - بقيادة المد الإسلامي المبارك - وديان المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي والأندلسي) وجباله وسهوله وهضابه ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معي موسى وهو يجوب الصحاري والوديان والسهول والجبال وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة ممتطياً جواده يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وأحكام أمور الدولة رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاد لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتي، التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين [١].

... أما عن البطل الكبير طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله دمشق غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في تولية طارق الأندلس، وبعد ذلك قضى آخر أيامه مغموراً، فهل عاد إلى المغرب والأندلس أم بقي في دمشق؟ ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو المغرب [٢]، كان طارق من البربر وعامّة جنوده كذلك، فيهم شجاعة وإقدام، فقد تربوا في أحضان الإسلام وعلى تعاليم القرآن الكريم وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا في سبيل دينهم وعقيدتهم الغالي والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالأسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل

(١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦٤).

(٢) المقري، نفح الطيب، ١٣/٣ - ١٤، فاتح الأندلس طارق بن زياد صـ٤٥، ٤٦. الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٦٥.

هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في رحاب الإسلام العظيم.

ولكن إهمال المؤرخين لطارق بن زياد لم يحرمه نصيبه من الخلود، فقد شاءت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة في الأندلس وطئتها قدماه وهي جبل طارق، كما سمي بحر الزقاق باسم مضيق جبل طارق، وانتقلت هذه التسمية إلى اللغات الأوربية جميعها بصيغها محرفة تحريفا بسيطا.

ولم تشر الروايات العربية إلى مصير يوليان الذي مهّد لفتح الأندلس، وتذكر بعض الروايات أنه عاد إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأرض، وظل أميرا على سبتة نظير خدماته، ولكنه بقي نصرانيا هو وبنوه الأقربون، أما ذريته فيقال إنها دخلت الإسلام بعد ذلك، أما أبناء غيطشة فقد أقطعوا ما كان لأبيهم، وعامل العرب ابني غيطشة (إيفا وسيزبوت) معاملة حسنة فعينوا أوباس ابنه مطرانا علي طليطلة والأندلس، وتوفي إيفا عن ابنة تدعي سارة وطفلين صغيرين فاغتصب عمهما سيزبوت ميراثهم، فرحلت سارة إلى دمشق مع أخويها، وشكت أمرها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأنصفهما وأمر والي الأندلس أبا الخطار برد ميراثهما إليهما، وفي دمشق تزوجت من عيسي بن مزاحم، وعادت إلى الأندلس مع زوجها، ورزقت بولدين إبراهيم وإسحاق اللذين أحرزا مكانة عالية. وإلي سارة ينسب مؤرخ الأندلس الشهير ابن القوطية [1].

* * *

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤ / ٢١٣، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٤٥.

الفصل الثاني
عصر الولاة (٩٥ ـ ١٣٨ هـ / ٧١٤ ـ ٧٥٥ م)

عصر الولاة:

عبد العزيز بن موسي بن نصير (٩٥ – ٩٧ هـ / ٧١٤ – ٧١٦ م):

أيوب بن حبيب اللخمي:

ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفي (٩٧ – ١٠٠ هـ / ٧١٦ – ٧١٩ م)

ولاية السمح بن مالك الخولاني (١٠٠ – ١٠٢ هـ / ٧١٩ – ٧٢١ م):

ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولي (١٠٢ هـ / ٧٢١م):

ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٣ – ١٠٧ هـ / ٧٢٢ – ٧٢٦ م):

ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية (١١٢ – ١١٤ هـ / ٧٣١ – ٧٣٢ م):

معركة بواتييه أو بلاط الشهداء (رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢م):

وقفة مع بلاط الشهداء

ولاية عبد الملك بن قطن الفهري الأولي (١١٤ – ١١٦ هـ):

ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (١١٦ – ١٢٢هـ):

ولاية عبد الملك بن قطن الفهري ثانية (١٢٢ – ١٢٣ هـ / ٧٣٩ – ٧٤٠ م):

ولاية بلج بن بشر القشيري (١٢٣ هـ / ٧٤٠ م):

ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي ١٢٤ هـ / ٧٤٢م:

ولاية أبي الخطار بن ضرار الكلبي (١٢٥ – ١٢٨ هـ / ٧٤٢ – ٧٤٥ م):

ولاية ثواب بن سلامة الجزامي (١٢٨ هـ / ٧٤٦م):

ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري (١٢٩ – ١٣٨هـ / ٧٤٧ – ٧٥٥م):

* * *

عصر الولاة

بعودة القائدين موسي بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق، يبدأ في الأندلس ما يعرف بعصر الولاة (٥٩ - ١٣٨ هـ / ٧١٤ - ٧٥٥ م) الذي استمر حتى وصول عبد الرحمن الداخل (الأول) ابن معاوية بن هشام، وما ترتب بعده. وفي هذا العصر كانت الأندلس ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية في دمشق.

لقد تولي الأندلس بعد فتحها إلى أن دخلها عبد الرحمن الداخل حوالي عشرين أميرا في فترة قاربت قاربت نصف قرن من الزمان، وكان أولهم عبد العزيز بن موسي بن نصير، وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وقد استمر بعضهم في الحكم عدة أشهر والبعض الآخر بضعة سنوات، وليس المهم معرفة أسماء الولاة ومدة حكمهم إنما المهم معرفة الأعمال المهمة التي قاموا بها والتي حدثت في عهدهم، والنتائج التي ترتبت عليها، ومدي تأثير ضعفهم وتمزيق شملهم. ثم إلقاء نظرة علي النزاع المستمر بين العرب بعضهم مع البعض، وبين العرب والبربر، وأخيرا التوصل إلى معرفة أسباب وقوف المد الإسلامي في أوربا والنتائج التي ترتبت علي ذلك [1].

* * *

عبد العزيز بن موسي بن نصير
(٩٥ - ٩٧ هـ / ٧١٤ - ٧١٦ م)

... تولى الأندلس منذ عودة موسى بن نصير إلى دمشق وحتى قيام الإمارة الأموية سنة ١٣٨ حوالي عشرين أميراً، كان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ألقى أبوه بزمام الأندلس بين يديه، وكان خير خلف لخير سلف، فقط ضبط الأمور وسد الثغور وافتتح مدائن كثيرة وكان من خيرة الولاة وكان كأبيه في جهاده وتقواه وورعه، كان يقول عنه أبوه موسى بن نصير: عرفته صوّاما قوّاما. فحكم الأندلس ووطّد فيها الأركان بشدة، وتوالى من بعده الولاة [2]. حيث لم يكن المسلمون قد أتموا فتح بلاد الأندلس، وبقيت في البلاد مناطق لم تكن أيديهم إليها، كما تألفت في بعض المناطق مراكز للمقاومة القوطية ضد المسلمين، الذين أخذوا يفدون غلي الأندلس من بلاد المغرب والمشرق، واقتضي الأمر إخماد هذه المراكز وإتمام الفتح، وأخذ عبد العزيز علي عاتقه هذا العبيء، ولقد ورث عبد العزيز عن أبيه صفات العزم والقوة، وكان مثل أبيه قائدا مظفرا، شارك في فتح الأندلس، وقام باسترداد

---

(١) علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٦١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، (٢٤/٢).

أشبيلية بعد ان إنتقض أهلها ومن انضم إليهم من بقايا جيش القوط القادمين من باجة وأكشونبة ولبلة [(١)].

وقد جعل عبد العزيز أشبيلية قاعدة بلاد الأندلس في عهده ووجه همته نحو جنوب شرق الأندلس تلك المناطق التي كانت قد أفلتت من موجات الفتح الإسلامي، فطارق تمكن من السيطرة علي البلاد في الوسط، في حين إفتتح موسي غرب الأندلس وشماله، أما شرق الأندلس وجنوبه الشرقي فكان من نصيب عبد العزيز بن موسي بن نصير، فأسرع عبد العزيز لفتح مالقة وغرناطة وعنوة، وضم يهودها إلى القصبة، ومن هناك اتجه عبد العزيز إلى شرق الأندلس فدخل كورة تدمير (إقليم مرسية) وحاضرته أريولة وسميت هذه الكورة كذلك، نسبه لملكها تدمير ابن عبدوش وفي قصة فتح عبد العزيز لتدمير يقول الحميري: " وبقرطاجنة هذه، هزم عبد العزيز بن موسى بن نصير تدمير عبدوس، الذي سميت به تدمير؛ هزمه وأصحابه، ووضع المسلمون فيهم السيف، يقتلونهم كيف شاؤوا، حتى نجا تدمير في شرذمةٍ من قلال أصحابه إلى حصن أوريولة، وكان مجرباً بصيراً ذاهية؛ فلما رأى قلة أصحابه، أمر النساء فنشرن شعورهن، وأمسكن القصب بأيديهن فيمن بقى من الرجال، وقصد بنفسه كهيئة الرسول واستأمن، فأمن، وانعقد الصلح له ولأهل بلده، وفتحت تدمير صلحا؛ فلا نفذ أمره عرفهم بنفسه وأدخلهم المدينة، فلم يروا بها إلا نفراً يسيراً من الرجال، فندم المسلمون على ما كان منهم؛ وكان ما انعقد من صلح تدمير مع عبد العزيز على إتاوةٍ يؤديها، وجزيةٍ عن يدٍ يعطيها، وذلك على سبع مدائن: منها أوريولة، ولقنت، وبلانة، وغيرها. وتاريخ فتحها سنة٩٤... " [(٢)] وقد نص الصلح علي: " ... بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير ابن عبدوش، أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته، وذمة نبيه " صلعم "، ألا يقدم له ولا لأحدٍ من أصحابه، ولا يؤخر، ولا ينزع من ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهوا على دينهم، ولا تحرق كنا ئسهم، ولا ينزع عن كنائسه ما يعبد، وذلك ما أدى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن: أرويولة، وبلنته، ولقنت، ومولة، وبلانة، ولورقة، وأله، لا يأوى لنا آبقاً، ولا يأوى لنا عدوا، ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم خبر عدو علمه، وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طلاء، وأربعة أقساط خلٍ، وقسطى عسلٍ، وقسطى زيتٍ،

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٠٩.

(٢) صفة جزيرة الأندلس، ص ١٥١.

وعلى العبد نصف ذلك، وكتب في رجب سنة ٩٤ من الهجرة.... " [(١)].

ولكن لم تطل مدة عبد العزيز في حكم الأندلس، فقد أخذ خصومه يعملون على النيل منه، ويشيعون أنه يسعي إلى الاستقلال بالأندلس، وأثاروا ريبة الخلافة من أعماله خاصة وأن الأندلس كانت تتمتع بحضارة تفوق حضارة الشعوب التي أخضعها المسلمون في الغرب، فثار عليه الجيش، وقتله بعض جنده غيلة، وكان ذلك في مستهل رجب سنة ٩٧هـ [(٢)].

يقول ابن الأثير في سبب مقتل عبد العزيز بن موسي بن نصير: "... وكان سبب قتله أن أباه استعمله على الأندلس، كما ذكرنا، عند عوده إلى الشام، فضبطها وسدد أمورها وحمى ثغورها، وافتتح في إمارته مدائن بقت بعد أبيه، وكان خيراً فاضلاً، وتزوج امرأة رذريق، فحظيت عنده وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يفعل لزوجها رذريق. فقال لها: إن ذلك ليس في ديننا. فلم تزل به حتى أمر ففتح باب قصير لمجلسه الذي كان يجلس فيه، فكان أحدهم إذا دخل منه طأطأ رأسه فيصبر كالراكع، فرضيت به، فصار كالسجود عندها، فقالت له: الآن لحقت بالملوك وبقي أن أعمل لك تاجاً مما عندي من الذهب واللؤلؤ، فأبى، فلم تزل به حتى فعل. فانكشف ذلك للمسلمين فقيل تنصر، وفطنوا للباب فثاروا عليه فقتلوه في آخر سنة سبع وتسعين. وقيل: إن سليمان ابن عبد الملك بعث إلى الجند في قتله عند سخطه على والده موسى بن نصير، فدخلوا عليه وهو في المحراب فصلى الصبح وقد قرأ الفاتحة وسورة الواقعة فضربوه بالسيوف ضربة واحدة وأخذوا رأسه فسيروه إلى سليمان، فعرضه سليمان على أبيه، فتجلد للمصيبة وقال: هنيئاً له بالشهادة فقد قتلتموه والله صواماً قواماً. وكانوا يعدونها من زلات سليمان. وكان قتله على هذه الرواية سنة ثمان وتسعين في آخرها [(٣)].

ويقول أبو المحاسن بن تغربردي عن سبب قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير: "... وكان أبوه استعمله على الأندلس لما قدم الشأم. وكان سببه أنه تزوج بامرأة رذريق فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له عند الدخول عليه كما كان يفعل لزوجها، فقال: إن ذلك ليس في ديننا، وكان ديناً فاضلاً، فلم تزل به حتى أمر بفتح باب قصير، فكان أحدهم إذا دخل عليه طأطأ رأسه فيصير كالراكع له، فرضيت به وقالت له: الآن لحقت بالملوك، وبقي أن أعمل لك تاجاً مما عندي من الذهب

(١) صفة جزيرة الأندلس، ص ١٥١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب (٢٤/٢).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ - (٢ / ٣٥٧).

واللؤلؤ فأبى، فلم تزل به حتى فعل، فانكشف ذلك للمسلمين، فقيل: إنه تنصر. فثاروا عليه وقتلوه بدسيسة من عند عبد الملك هذا بآمر سليمان بن عبد الملك، فدخلوا عليه، وهو يصلي الصبح في المحراب وقد قرأ الفاتحة وسورة الواقعة، فضربوه بالسيوف ضربة واحدة واحتزوا رأسه وسيروه إلى سليمان، فعرضه سليمان على أبيه فتجلد للمصيبة وقال: هنيئاً له الشهادة، فقد قتلتموه والله صواماً قواماً. فعد الناس ذلك من زلات سليمان بن عبد الملك... " [١].

والحقيقة أن الأسباب التي ساقها بعض المؤرخين لمقتل عبد العزيز بن موسي بن نصير تبدو كلها ملفقه ولا يقوم أيا منها دليلا أو حجة لإزهاق روح، وأغلب الظن أنها وضعت خصيصا لتبرير مقتل عبد العزيز بن موسي بن نصيرليس إلا.

وقد حمل بعض المؤرخين الخليفة سليمان بن عبد الملك مسئولية مقتل عبد العزيز بن نصير مع أن هذه القضية قد رفضها الكثير من المؤرخين النصفين سلفاً وخلفاً ولم يقل بها سوى فئة من مؤرخي الأندلس المتأخرين، وممن رفضها من المؤرخين ابن عبد الحكم[٢]، وابن القوطية [٣]، وصاحب أخبار مجموعة [٤]، والحميدي [٥]، والضبي [٦]، وغيرهم.

والحقيقة أن عبد العزيز بن موسي بن نصير لقي مصرعه بإشبيلية علي أيدي كبار الجند، وعلي رأسهم حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة، الذي كان موسي قد أقامه وزيرا لابنه، وأيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسي بن نصير، وزياد بن عذرة البلوي، وغيرهم، ولكن لم يكن لسليمان يد في مقتله، علي الرغم مما زعمه المؤرخون من أنه كان المتسبب في قتل عبد العزيز، وأنه أمر بطرح رأسه أمام موسي بن نصير، ذلك لأن سليمان غضب لمقتل عبد العزيز بن موسي وأرسل إلى الأندلس عاملا من قبله للتحقيق في مقتل عبد العزيز بن موسي والقبض علي قتلته وإرسالهم إليه. يقول صاحب أخبار مجموعة: "... ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسي شق عليه ذلك فولي إفريقية عبد الله بن يزيد لقريش، وإلي والي إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية، وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (١ / ٩١).
(٢) فتوح أفريقيا والأندلس ص٨٥.
(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ص٣٦.
(٤) أخبار مجموعة ص١٩.
(٥) جذوة المقتبس ص٢٧١.
(٦) بغية الملتمس ص٢٧٣.

أبي عبيدة، وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز بن موسي بأن يتشدد في ذلك وأن يقفلهما إليه، ومن شاركهما في قتله من وجوه الناس، ثم مات سليمان فسرح عبد الله بن بن يزيد والي إفريقية علي الأندلس، الحر بن عبد الله الثقفي، وأمره بالنظر في شأن من قتل عبد العزيز... " [١].

وقد حقق سليمان في قضية عبد العزيز بن موسي فوجد أنه بريء مما نسبوه إليه " فألفي ذلك باطلا، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم علي الطريقة " [٢].

والذي يمكن أن نقوله في سبب مقتل عبد العزيز بن موسي هو أن عبد العزيز بن موسي قد أظهر أمام أحد قواده شيئا من الامتعاض من تصرف الخليفة سليمان عبد الملك نحو أبيه، أو أنه أضطر رغما عنه إلى التنفيس عن نفسه بكلام خفيف أساء إلى الخليفة [٣] فتناقل الناس هذا لاكلام محرفا مشوها، فوصل إلى رؤساء الجند وعلي رأسهم حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة، فأجمعوا علي قتله غيرة علي الخلافة الأموية، ثم أبلغوا الخليفة بمقتله بسبب خروجه عليه، بعد أن أقاموا علي أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي مؤقتا حتى أرسل إليهم عبد الله بن يزيد، والي إفريقية واليا عليهم من قبله وهو الحر بن عبد الرحمن الثقفي سنة ٩٩ هـ، ولو كان سليمان بن عبد الملك هو المدبر لهذه الجريمة لكان قد بادر بتنصيب وال مكانه، ولما مكث أهل الأندلس شهورا لا يجمعهم وال، حتي اجتمعا علي أيوب بن حبيب اللخمي [٤] ولما شق علي الخليفة نبأ مقتله، ولما أسف علي قتله بعد أن ثبتت براءته مما أتهم به [٥].

* * *

---

(١) أنظر: أخبار مجموعة، ص ٢٢.
(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٧٦.
(٣) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، ص ١٧٠.
(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٢.
(٥) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٧٦.

ولاية السمح بن مالك الخولاني
(١٠٠ – ١٠٢ هـ / ٧١٩ – ٧٢١ م)

ثم ولى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ﷺ السمح بن مالك على الأندلس، وأمره "... أن يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها... فقدم السمح الأندلس، وامتثل ما أمره به عمر ﷺ من القيام بالحق، وإتباع العدل والصدق؛ فانفرد السمح بولايتها؛ وعزلها عمر عن ولاية إفريقية، اعتناء بأهلها، وتهمما بشأنها. " [١].

ولقد قام السمح بأعمال جليلة لعل أهمها هو بناؤوه القنطرة علي نهر الوادي الكبير في قرطبة، والتي ما تزال آثارها قائمة إلى اليوم، "... وكان المسلمون، إذ فتحوا قرطبة، وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها، على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الدائرة، قد هدمها مدود النهر على مرّ الأزمان. فتقدم إلى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز ﷺ عندما اتصل به خبرها؛ فأمر السمح بابتنائها؛ فصنعت على أتمَّ وأعظم مما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة... وفي سنة ١٠١ هـ، ورد كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على السمح بن مالك بالأندلس، يأمره ببناء القنطرة بصخر السور، وبناء السور باللبن، ويأمره بإخراج خمس. قرطبة. فخرج من الخمس البطحاء المعروفة بالربض. فأمر الخليفة عمر أن يتخذ بها مقبرة للمسلمين؛ فتمَّ ذلك... " [٢]

وكان عمر بن عبد العزيز يخشي علي المسلمين في الأندلس لانقطاعهم عن الأراضي الإسلامية، وكان يري أنه من الأفضل للمسلمين أن يعودوا إلى ديارهم التي خرجوا منها، وكل ذلك خشية عليهم "... وكان رأيه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها، لانقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار؛ فقيل له: (إنّ الناس قد كثروا بها، وانتشروا في أقطارها؛ فأضرب عن ذلك) [٣].

وفي ربيع سنة ١٠٢هـ / ٧٢١م خرج السمح بالصائفة ليغزو فيما وراء البرتات " البرنية.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ١ /٤٩.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ١ /٤٩.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ١ /٤٩.

" فاستشهد - رحمه الله - في طرسونة في يوم عرفة؛ من العام نفسه فكانت ولايته سنتين وأربعة أشهر. وقيل: ثمانية أشهر؛ وقيل: ثلاث سنين [(١)].

وفي هذه الغزوة استطاع السمح اجتياز ": أربونة " مخترقا بلاد الغال (فرنسا) حتى وصل إلى مقاطعة " أكيتانيا " وقد وقع علي عاتق دوقها " أودو " عبء الدفاع عنها، حيث كان يقود جيشا كبيرا من الجرمان والفرنجة، وكاد العرب أن ينتصروا علي أعدائهم في المعركة التي دارت بينهم حول مدينة " تولوز " لولا أن الفرنجة علموا بمكان السمح فتكاثروا عليه وأصابوه إصابات أودت بحياته، فانتشرت الفوضى بين الصفوف العربية فضلوا العودة علي إثرها إلى قاعدتهم في أربونة، لتنظيم صفوفهم من جديد وإعادة الكرة علي تلكم المقاطعة وكان لابد للجيوش الإسلامية من قائد يقودها ويتولي أمرها ويعود بها نحو الجنوب، فأجمع الجند علي اختيار عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، لقيادتهم في خلال المرحلة [(٢)] الإسلامية.

وفي الحقيقة أن من حسنات الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز ﷺ: ولاية السَّمْح ابن مالك الخولاني رحمه الله على الأندلس، فقد حكم عمر بن عبد العزيز ﷺ المسلمين سنتين ونصف على الأكثر، من سنة تسع وتسعين إلى سنة واحد ومائة من الهجرة، وفي هذه الفترة الوجيزة عمّ الأمن والرخاء والعدل كل بلاد المسلمين، اختار عمر بن عبد العزيز رحمه الله السمح بن مالك الخولاني، ذلك القائد الربّاني المشهور في التاريخ الإسلامي، وهو القائد الذي انطلق إلى بلاد فرنسا مجاهدا، كان بفرنسا مدينة إسلامية واحدة هي مدينة أربونة، تلك التي فتحها موسى بن نصير رحمه الله بسرية من السرايا، لكن السمح بن مالك الخولاني فتح كل منطقة الجنوب الغربي لفرنسا، ثم أسّس مقاطعة ضخمة جدا وهي مقاطعة سبتمانيا، وتسمى الآن بساحل الريفييرا، وتعد من أشهر المنتجعات السياحية في العالم.

أخذ السمح الخولاني في استكمال الفتوح في جنوب غرب فرنسا، وفي ذات الوقت أرسل يعلم الناس الإسلام، سواء في فرنسا أو في الأندلس إلى أن لقي ربه شهيدا يوم عرفة سنة اثنتين ومائة من الهجرة.

* * *

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ١ /٤٩.

(٢) علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٦٦.

ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى

(١٠٢ هـ / ٧٢١م)

عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغافقي، أبو سعيد: أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق (من قبيلة عك، في اليمن) رحل إلى إفريقية. ثم وفد على سليمان بن عبد الملك الأموي، في دمشق. وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس. وولي قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس. وكثرت جموعه بعد مقتل السمح بن مالك (سنة ١٠٢ هـ فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون فيها أميرا، وأقره والي إفريقية، ولكن لم تدم ولاية عبد الرحمن الغافقي طويلا، حيث بقي أقل من شهرين، ولم يستطع خلال هذه الفترة القصيرة أن يقوم بأي يعمل يذكر، حيث قام يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية عنبسة بن سحيم الكلبي [(١)].

* * *

ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي

(١٠٣ – ١٠٧ هـ / ٧٢٢ – ٧٢٦م)

تولي عنبسة الأندلس يعيش فترة من الإضطرابات الشديدة بسبب الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في قرقشونة وأودت بحياة السمح بن مالك الخولاني، وبسبب النزاع بين القبائل العربية الذي استفحل أمره في الأندلس في ذلك الوقت، وكان العرب قد انشغلوا بتصفية ثاراتهم القبلية القديمة عن القضاء علي بقايا القوط في الأندلس، وعن إتمام إخضاع البربر في إفريقية، ولذلك قضي عنبسة أربع سنوات من ولايته في تنظيم أمور دولته، وكان من الشخصيات الكبيرة في عصر الولاة في الأندلس، فقد سلك نفس الطريق الذي سلكه السمح من قبل، وكان يري مواصلة غزو بلاد إفرنجة، فما كادت أمور ولايته تستقر حتى بادر بإعداد جيوشه للسير شمالا في بلاد غالة، وفكر بادئ ذي بدء في تدعيم خط الدفاع أمام أربونة، فافتتح مدينة قرقشونة عنوة [(٢)] ثم استولي علي مدينة نيمة دون مقاومة، وأخذ من أهلها رهائن ونقلهم إلى برشلونة،

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٦، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٣٨.

وعامل هؤلاء معاملة حسنة [(١)].

ومن مدينة نيمش تابع عنبسه سيره حتى وصل إلى نهر ردونة " الرون " فسار حذاؤوه بخطى سريعة دون أن يلقي مقاومة تذكر، إلى أن وصل نهر " السون " وتمكن من التوغل في منطقة بورغونية والاستيلاء علي مدينة أوتون التي غنم الجند العرب كل ما فيها، وكان ذلك في أواخر سنة ١٠٦ هـ/ ٧٢٥م، ولم تقف الجنود العربية عند هذا الحد بل تابعت سيرها إلى أن وصلت مدينة لوكسوي المتقدمة في موقعها شمالاواجتاحت جيوشه مدينة أوزة وفيفييه وفالانس، وتدفقت الموجة إلى ليون وماسون وشالون، حتي إذا رأي عنبسة بأن حملته قد تقدمت جندا، أمر جيوشه المظفرة بالعودة نحو الجنوب، وقد أستشهد عنبسة في أثناء بعض المناوشات التي حصلت مع الأعداء وهو في طريق عودته وذلك في شهر شعبان عام ١٠٧ هـ / مطلع عام ٧٢٦ م، فكانت مدة ولايته أربع سنوات وثمانية أشهر [(٢)].

لقد كان عنبسة قائدا تقيًا ورعًا، وهو الإداري العسكري المشهور، كان مجاهدًا حق الجهاد، وقد حكم بلاد الأندلس من سنة ثلاث ومائة إلى سنة سبع ومائة من الهجرة، وقد وصل عنبسة في جهاده إلى مدينة سانس، وهي تبعد عن العاصمة باريس بنحو ثلاثين كيلو مترا، وباريس هذه ليست في وسط فرنسا وإنما تقع في أقصى الشمال منها، وهذا يعني أن عنبسة بن سحيم قد وصل إلى ما يقرب من سبعين بالمائة من أراضي فرنسا، ويعني هذا أيضا أن سبعين بالمائة من أراضي فرنسا كانت بلادًا إسلامية.

بعد استشهاد عنبسة رحمه الله إنسحب الجيش الإسلامي إلى أربونة، ثم بدأت الأمور في التغير؛ فقد تولى حكم الأندلس من بعده مجموعة من الولاة على غير عادة السابقين، كان أولهم عذرة بن عبد الله الفهري، ويبدو أن عذرة كان ينوي مواصلة الجهاد في بلاد غالة بعد إستشهاد عنبسة، ولكنه شغل في ذلك الوقت بالخلافات التي نشبت بين المسلمين في الأندلس، ولم يقم بعمل جهادي أو إداري كبير، وإن لم تخل فترة ولايته من هجمات لبعض المجاهدين علي حصون وقلاع النصاري [(٣)].

---

(١) خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص ٢٢٥.
(٢) خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص٢٢٤.
(٣) خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الإمارة)، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

وبعد عزل عذرة عن ولاية الأندلس، تولي الأندلس بعده عدة ولاة لم يغز أحدهم غالة، وهم يحيى بن سلمة الكلبي فقدمها في شوال ١٠٧هـ / ٧٢٦م وأقام عليها مدة سنتين وستة أشهر، لم يقم حلالها بأية غزوة بنفسه، ثم ولي بعده حذيفة بن الأحوص القيسي في عام ١١٠ هـ / ٧٢٨م. فكانت ولايته أقل من سنة، ثم عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، وبقي في ولاية الأندلس ما بين خمسة أو ستة أشهر، ثم الهيثم بن عبيد الكناني، وكانت ولايته نحو عشرة أشهر، ثم محمد بن عبد الله الأشجعي لمدة شهرين، حتى أسندت إلى عبد الرحمن الغافقي إمارة الأندلس [(١)].

* * *

ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية

(١١٢ - ١١٤ هـ / ٧٣١ - ٧٣٢م)

يعتبر عبد الرحمن الغافقي من أعظم قواد المسلمين في الأندلس، وعرف بحسن القيادةوالشجاعة وقوة الشكيمة، وكان قد أبلي بلاءا حسنا في معارك المسلمين منذ فتح الأندلس لا سيما معركة طولوشة التي قتل فيها السمح، فتركت هزيمة المسلمين أثرا عميقا في نفسه، ولذلك كان تواقا لمواجهة الفرنجة، راغبا في الجهاد والانتقام منهم، وجاء تقليده ولاية الأندلس في وقت إنبعثت فيه الفتنة بين العرب في هذه البلاد بسبب العصبية القبلية، وكان عبد الرحمن إلى جانب صفاته السابقة معروفا بنزاهته وحياده لا يتحيز لفريق علي آخر، ولا يتعصب لعنصر علي آخر، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمت قلوب أهل الأندلس، واستبشر الناس لولايته، وشرع عهده برفع المظالم عن الناس، وكان يطوف المدن يتحقق من شكايات الرعية، لا يميز بين مسلم ومسيحي، وعزل كثيرا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية [(٢)].

* * *

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٨، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤٠، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٦٩.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٤٠ - ١٤١.

معركة بواتييه أو بلاط الشهداء
(رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢م)

وكان عبد الرحمن يري أولا ضبط البلاد ثم السير بعد ذلك للغزو، وقضى عبد الرحمن الغافقي ما يقرب من عام نظم خلالها شئون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته، وتكون من هذه الحشود جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفا ومائة ألف، جلهم من البربر، إذ أن العرب في ذلك الوقت كانوا مشغولين بمنازعاتهم القبلية [١].

جرت أحداث معركة بلاط الشهداء [٢] - التي استمرت حوالي عشرة أيام - في رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢م واستشهد الغافقي نفسه في موضع يقع بين مدينتي تور [٣] وبواتييه [٤] حوالي ٣٢٣ كم جنوبي باريس، وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها، وتتلخص أحداث المعركة في الآتي:

بعد أن أتم عبد الرحمن الغافقي استعداداته عام ١١٤هـ / ٧٣٢م أمر بالمسير نحو بلاد الفرنجة، مخترقا ممر رونسفال ومتجها إلى مدينة بوردو [٥]، وفي أثناء ذلك حاول دوق أكيتانيا أودو اعتراض زحفهم والتصدي لهم، فالتقي الجمعان علي

(١) السيد عبد العزيز سالم، الميسلمون في الأندلس، ص ١٤١.

(٢) بلاط الشهداء.
هو السهل الواقع بين مدينتي (تور) و(بواتية) في الشمال الغربي من فرانسا قرب نهر (اللوار) وفيه وقعت المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي وبين الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) سنة ١١٤هـ
(٧٣٢م) والبلاط لغة هو الطريق المبلط وبلاط الشهداء نسبة إلى طريق روماني قديم دارت عنده المعركة.

(٣) تور tours.
مدينة تقع جنوبي غربي باريس على نهر اللوار غزاها المسلمون في القرن الثامن الميلادي.

(٤) بواتيه poitiers.
مدينة تقع جنوبي غربي باريس وقعت فيها الوقعة المشهورة، وفيها أوقف شارل مارتل الزحف العربي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م.

(٥) بوردو bordeaux.
مدينة فرنسية يطلق عليها في المصادر العربية (برديل) أو (بردال) هي قاعدة إقليم (جيروند) في فرانسا تقع عند مصب نهر (الجارون (lajaranne الذي يصب في المحيط الأطلسي. احتلها العرب في الحملة التي قادها عبدالرحمن الغافقي غازيا فرنسا سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) والتي انتهت بمصرعه في (بلاط الشهداء) وانسحاب الجيش العربي إلى إسبانيا.

نهر الدردون غير بعيد من التقاء هذا النهر بنهر الجارمون، وهزم الدوق ومن معه شر هزيمة وقتل من جيشه أعداد كبيرة وطارد الجيش الإسلامي جيش أودو حتى عاصمته بوردو واستولوا عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق مع عدد من أصحابه نحو الشمال وسقطت مقاطعة أكيتانيا كلها بيد الجيوش الإسلامية. ثم تابعت هذه الجيوش زحفها نحو الشمال مجتاحة كل ما قابلها، حتى امتلأت أيدي المسلمين بالثروات والغنائم من كل الحصون والأماكن التي افتتحوها، واستمروا في زحفهم حتى وصلوا مدينة بواتييه ففتحوها، واتجهوا إلى مدينة أخري قريبة منها هي مدينة تور، التي كانت تعتبر من أهم مدن بلاد الفرنجة، أو تتمتع بمكانة دينية خاصة، لكونها كانت تضم رفات القديس مارتين. أما الدوق أودو الذي فر بعد هزيمته فقد استنجد بعد ذلك بخصمه شارل مارتل محافظ القصر في بلاط الأسرة الميروفنجية الحاكمة في بلاد الفرنجة، موضحا له مدي الخطر الذي تتعرض له البلاد بأسرها إذا هو لم يقبل أن يهب لنجدته، وإلي إيقاف الجيوش الإسلامية عند حدها[(١)].

أخذ شارل مارتل يحشد كل ما استطاع من الإمكانات البشرية والمادية لمقابلة الجيوش الإسلامية، ولم يكتف بحشد كل المقاتلة الذين يستطيع حشدهم من قبائل الفرنجة، بل لجأ أيضا إلى حشد القبائل الجرمانية النصف متوحشة، التي كانت تسكن فيما وراء الراين، وكل جموع المرتزقة الذين استطاع أن يأتي بها لمساعدته في المعركة، ثم انحدر بعد ذلك من الشمال نحو مدينة تور وقد اصطدمت القوات المسيحية بالجيوش الإسلامية في أول لقاء علي ضفاف نهر اللوار، ولكن هذا الاصطدام لم يسفر عن أي نتيجة تذكر، إذ أن عبد الرحمن الغافقي فضل علي إثر ذلك أن يتقهقر نحو الجنوب إلى السهل الممتد بين تور وبواتييه لينظم صفوفه ويعد عدته للقاء العدو [(٢)].

وفي ذلك الوقت كان الجيش الإسلامي قد إستولي عليه التعب من جراء المسافة الطويلة التي قطعها منذ الخروج من قرطبة، ونقص عدده بسبب ترك بعض الحاميات في المدن المفتوحة، وقد امتلأت أيدي الجند بالغنائم والثروات التي غنموها وحملوها معهم، والتي لا يقبلون التخلي عنها مطلقا. وكان هذا العامل الأخير له الأثر

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، علي حسين الشطشاط، تاريخ الأسلام في الأندلس، ص ٧٢.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٤٢، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٢ - ٢٣٣، علي حسين الشطشاط، تاريخ الأسلام في الأندلس، ص ٧٢.

السيئ علي الجيش الإسلامي، وكان أحد أسباب الهزيمة في هذه المعركة.

بدأت المعركة في سهل تور أو بواتييه في رمضان سنة ١١٤هـ / نوفمبر ٧٣٢ م، بمناوشات استمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة استمرت إلى أن أرخي الليل سدوله، واستراح الجمعان، ثم أستؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم علي جيش الفرنجة حتى كادوا يقطفوا ثمار النصر، غير أن أودو عرف نقطة الضعف في جيش المسلمين لعلاقته السابقة بهم، فقد كان يعرف أن من عادة المسلمين أن يتركوا غنائمهم في مؤخرة الجيش، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته، وبلغ هذا الهجوم أفراد الجيش الإسلامي فتراجع الكثير منهم إلى المعسكر لاستخلاص الغنائم من يدي الفرنجة، فأخذ هذا التراجع بنظام الجيش، وحاول عبد الرحمن الغافقي عبثا أن يعيد إلى الجيش تنظيمه، غير أن سهما أصابه من الأعداء فسقط شهيدا في أرض المعركة، ولما رأي المسلمون قائدهم صريعا اضطربت نفوسهم، وارتبكت صفوفهم، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان، وراحوا يعملون فيهم السيف، وقد صمد المسلمون علي مدافعة الفرنجة حتى أقبل الليل وأرخي سدوله، فحال بين الجيشين وعاد كل جيش إلى موقعه، واجتمع كبار رجال الجيش وتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون، ثم أجمعوا علي الرجوع إلى ديار الإسلام متجهين إلى سبتمانيا، أربونة، في ظل الليل مخلفين خيامهم وغنائمهم، وقد بات الفرنجة ليلتهم وهم ينوون القضاء علي المسلمين في صباح اليوم التالي، فلما أدركهم الصباح نظروا إلى معسكر المسلمين فوجدوه خاليا من أصحابه، ولم يحاول الفرنجة تتبع فلول المسلمين لأنهم خافوا أن يكون من وراء تراجعهم كمينا نصبوه لجيشهم، أو لأنهم لقوا صعوبة في قتال المسلمين، فآثر قائدهم شارل مارتل العودة بجيشه نحو الشمال معتزا بما أحرزه من انتصار علي المسلمين، وقد سمي المسلمون هذه الموقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء الرجال مع عبد الرحمن الغافقي [1].

في الحقيقة أنه علي الرغم من ضخامة حملة عبد الرحمن الغافقي تلك إلا إنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدنا

---

(١) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٧٥، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٤٣ - ١٤٤، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٢٣٥ - ٢٣٦، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢١٠، علي حسين الشطشاط، تاريخ الأسلام في الأندلس، ص ٧٣ - ٧٤.

كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه، ومن ثم فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثقل في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المجاهدون ينظرون إلى هذه الغنائم ويفتتنون بهذه الأموال الضخمة التي حصّلوها.

ونتيجة هذا فقد اشتهر بين الناس فكرة العودة إلى بلاد الأندلس لحفظ هذه الغنائم هناك حتى لا يحصل عليها الفرنسيون، لكن عبد الرحمن الغافقي رحمه الله جمع الناس وقال مخاطبا إياهم: ما جئنا من أجل هذه الغنائم، وما جئنا إلا لتعليم هؤلاء الناس هذا الدين، ولتعبيد العباد لرب العباد سبحانه وتعالى، وأخذ يحفزهم على الجهاد والموت في سبيل الله، ثم انطلق بالجيش إلى بواتيه رغما عن أنف الجنود.

عندما وصل عبد الرحمن الغافقي بالجيش إلى بواتيه ظهرت ثمة أمور أخرى جديدة؛ فقد تجددت العصبيات التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والبربر من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه معروف ومتفق عليه، أخذ كلّ ينظر إلى ما بيد الآخر، وكلّ يريد الأكثر، يقول العرب أنهم أحق لأفضليتهم، ويقول البربر نحن الذين فتحنا البلاد، ونسي الجميع أن الفاتحين الأوائل ما فرقوا أبدًا بين عرب وبربر، بل وبينهم وبين من دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك،

وإضافة إلى العصبية وحب الغنائم والحرص عليها فقد اجتمع إلى جوارهما الزهو والاغترار بالكثرة والعدد الضخم، فخمسون ألفا من المجاهدين عدد لم يسبق في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزة، وظنوا أنهم لن يغلبوا بسبب كثرتهم هذه، ومن بعيد تلوح في الأفق حُنينًا جديدة{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥] فالمسلمون لم ينتصروا أبدًا بعدتهم ولا عتادهم، وإنما كانوا ينتصرون بطاعتهم لله ومعصية عدوهم له سبحانه وتعالى، وللأسف الشديد فرغم وجود هذا القائد الرباني التقي الورع إلا أن عوامل الهزيمة داخل الجيش الإسلامي كانت كثيرة وأقوى منه.

ولم تذكر الروايات الإسلامية حصرا دقيقا لشهداء المسلمين في بلاط الشهداء، إلا أن بعض الروايات الأوروبية بالغت كثيرًا في أعداد قتلى المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شك رقم مبالغ فيه جدًا؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يتعد حاجز الخمسين ألفا.

وفي رواياتهم يقول: الأوروبيون متخوفين أنه لو كان انتصر المسلمون في بلاط الشهداء على الفرنسيين لفتحت أوروبا جميعا، ولدُرِّس القرآن في جامعات أوكسفورد وغيرها من الجامعات الأوروبية، ووالله إنها لتعاسة لهم وخسران أن لم ينتصر المسلمون، فلو انتصروا لكان قد انتشر الخير في هذه البلاد، لكنهم ظلوا في ضلالتهم وظلوا في غيهم يعمهون ويعبدون غير الله سبحانه وتعالى ويشركون به.

بعد هذه المعركة انسحب المسلمون إلى الداخل، ومع أنهم هُزموا وانسحبوا إلا أنها لم تكن هزيمة ساحقة كما صورها الأوربيون، بدليل أن جيش النصارى لم يتبع جيش المسلمين حيث انسحبوا، وكان من عادة الجيوش أنها تتتبع الجيش الفار، بل اكتفى النصارى بما أخذوه من غنائم وما قتلوه من قتلى من المسلمين.

* * *

وقفة مع بلاط الشهداء

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥} [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن المسلمين قد اغتروا بهذه الدنيا التي فتحت عليهم فتنافسوها، وقد جاء عن رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ» (١).

فسنة لله تعالى في خلقه أنه إن فتحت الدنيا على المسلمين وتنافسوها كما تنافسها من كان قبلهم من الأمم السابقة، فإنها ستهلكهم أيضا كما أهلكت هذه الأمم السابقة {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا} [فاطر: ٤٣].

أمر آخر كان في جيش المسلمين وكان من عوامل الهزيمة وهو العنصرية والعصبيّة القبليّة التي كانت بين العرب والبربر في هذه الموقعة، ولقد شاهد الفرنسيون أثر هذا الذي نشأ بين العرب وبين البربر، ووعت الكتب الفرنسية هذا الأمر جيدا، وظل في ذاكرتها على مدار التاريخ حتى مرت الأيام ومرت السنوات ودخلت فرنسا بلاد الجزائر واحتلتها من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين، وحتى سنة ألف وتسعمائة وستين ميلادية، فحين قامت الحركات الاستقلاليّة منذ سنة ألف وتسعمائة وعشرين وما بعدها، وحين فكرت فرنسا في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة لم تجد أمامها إلا إشاعة الفتنة بين العرب والبربر وضربهم ببعضهم البعض، فكانت تشيع داخل البربر أنهم قريبون من العنصر الآري (وهو العنصر الأوروبي)، وبعيدون عن العنصر السامي (وهم العرب)، أي أنتم منا ونحن منكم والعرب بيننا غرباء؛ وذلك للتشابه الكبير بين البربر والأوروبيين في الشكل الخارجي الأمر الذي لا يعترف به الإسلام ولا يقره على الإطلاق فالمعيار الوحيد في التفاضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكتف فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق البربر، ومنعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق أصلا؛ وذلك حتى يتم فصل البربر عن العرب تماما في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض الشيء إلا إنها لم تفلح على الإطلاق في تحويل ديانة البربر الإسلامية إلى

---

(١) قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: ١٠٣٦ في صحيح الجامع.

النصرانية، فظل البربر على إسلامهم وإن كانت لغتهم قد تغيّرت، في بادئ الأمر كان البربر الذين يعيشون في منطقة الجزائر تسمى قبائل الأمازيغ، وكانوا يمثلون خمسة عشر بالمائة من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية إلا أنهم كانوا يتمسكون بالعربية، لكن حين قامت فرنسا بهذا الأمر بدأت تُذْكي الروح البربريّة في اللغة المنفردة لهذه القبائل؛ فبدأت تعلم اللغة الأمازيغية، حتى إنها أنشأت في فرنسا عام سبعة وستين وتسعمائة وألف أكاديمية خاصة لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية رغم أنها كانت لغة منطوقة وليست مكتوبة، قامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة البربرية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من البربر لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا، حتى إنه في عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف أنشأت ما يسمى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تجمع البربر من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقيا وتعلمهم اللغة الخاصة بهم، وكل ذلك لفصل العرب عن البربر، تلك الجموع التي ما هي إلا جموع إسلامية ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في وادي برباط وما تلاها فلم تتوان، وفي ذات الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد عربي، كانت هي فرنسا التي رفضت المشروع الذي تقدم به جوسبان رئيس وزرائها إلى شيراك سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي رد عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تريد بلقنة فرنسا، أي تجعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العرق وبحسب العنصر، حلال على الجزائر حرام على فرنسا.

* * *

ولاية عبد الملك بن قطن الفهري الأولى

(١١٤ - ١١٦ هـ)

كانت لموقعة بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقي نتائج سلبية خطيرة علي المسلمين في الأندلس، فقد أحدثت تلك الموقعة دويا هائلا في المغرب والأندلس، فقد حدث للمسلمين هناك نوع من الهزيمةالنفسية والإحباط وخيبة الأمل، فأسرع والي إفريقية بتعيين وال من قبله علي الأندلس هو عبد الملك بن قطن الفهري، الذي أدرك صعوبة الموقف وأحوال المسلمين النفسية بعد بلاط الشهداء، فأراد أن يعيد إليهم شيئا من روحهم المعنوية فغزا أرض البشكنس سنة ١١٥هـ، فاوقع بهم الهزيمة النكراء

(١).

ثم عبر جبال البرت إلى بلاد لانجدوك، وعمل على تحصين المدن والمعاقل التي كانت في أيدي المسلمين، وكانت الفوضى مستحكمة وقتئذ ببلاد سبتمانيا وبروفانس على إثر هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء، وكان أمرائها قد انتهزوا فرصة تقهقر جيوش المسلمين من بروفانس إلى أربونة وانشغال شارل مارتل ببسط سلطانه على برغندية وشمالي بروفانس، وهي المناطق التي غزاها المسلمون أيام عنبسة، ثم اضطروا للجلاء عنها، وانشغاله بعد ذلك بإخضاع الفريزون وهم أهل الرين الأدني، ثم توزعوا البلاد فيما بينهم، وعمد بعضهم إلى محالفة المسلمين في أربونة لاتقاء خطر شارل مارتل، ومن أمثال هؤلاء مورونت دوق مارسيليا، الذي كان قد إقتطع لنفسه معظم إقليم بروفانس، وتمكن هذا الحاكم الإفرنجي مع حاكم أربونة المسلم، واتفق معه على مهاجمة وادي ردونة واستوليا على مدينة آرل، ونهبا أديرة سان أبوتر ودير العذراء وهدم ضريح سان سيزير، ووصل المسلمون بعد ذلك حتى أعالي نهر دورانس وتمكنوا من إحتلال بلاد بروفانس زهاء أربع سنوات أي حتي سنة ٧٣٨م، ثم أرغموا شارل مارتل بعد ذلك علي العودة إلى أربونة [٢].

* * *

ولاية عقبة بن الحجاج السلولي

(١١٦ – ١٢٢هـ)

وعلي ما يبدو أن عبد الملك بن قطن قد أساء السيرة وركن إلى ظلم الناس، مما عجل بنهاية ولايته الأولي حيث تم عزله في رمضان سنة ١١٦هـ / ٧٣٤ م، وتولي بدلا منه عقبة بن الحجاج السلولي من قبل عبيد الله بن الحبحاب [٣].

وكان عقبة محمود السيرة مجاهدا يقول عنه ابن عذاري [٤]: "... ثم ولي عقبة بن الحجاج السلولي في شوال سنة ١١٦. وقالوا: في ولايته كان عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر وإفريقية؛ فقدم عليه عقبة بن الحجاج، وكان مولاه؛ فأكرمه، وبرّه، ورفع شأنه وقدره، وأنزله في مكانه، وخبره في ولاية ما شاء من سلطانه.

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٢٠.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٣) المقري، نفح الطيب، ٢ / ٢٢٠.
(٤) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - (٢ / ٢٢٠).

وكان الحجاج أبو عقبة قد أعتق الحبحاب أبا عبيد الله؛ فولى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب مصر وإفريقية والأندلس؛ فكان له من العريش إلى طنجة إلى السوس الأقصى إلى الأندلس وما بين ذلك؛ وكان أحد بنيه بمصر، والثاني بالسوس وطنجة، والثالث بالأندلس؛ وكان عبيد الله بإفريقية. فلما شرف عبيد الله، وعلت منزلته، وانتشر ذكره، وفد عليه مولاه عقبة؛ فأجلسه معه على فراشه، وأدناه من نفسه، وقربه، حتى عظمت منزلته في الناس؛ فكان يقصده الطالبون وذوو الحاجات، يتوسلون به إلى عبيد الله. فغص به بنو عبيد الله، وقالوا لوالدهم:) اصرفه عنا لئلا يكسر شرفنا! (فما زاده ذلك عنده إلا تعظيما وتكريما، وخبره في ولاية ما شاء من سلطانه؛ فاختار الأندلس؛ فولاه عليها. وكان يجاهد المشركين في كل عام، ويفتتح المدائن. وهو الذي فتح مدينة أربونة، وافتتح جليقية وبنبلونة، وأسكنها المسلمين. وعمت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة؛ فإنه لجأ إليها ملك جليقية، وكان بها في ثلاثمائة راجل. فما زال المسلمون يضيقون عليهم، حتى صاروا ثلاثين رجلا، وحتى فنيت أزودتهم، ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه في خروق الصخرة. وأعيى المسلمين أمرهم؛ فتركوهم. وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها، وأعظم طريقة وأعدلها، إلى أن غزا أرض إفرنجة؛ فلقيته جيوش الأعداء؛ فقتل هو ومن معه ببلاط الشهداء. وذكر عنه أنه كان صاحب بأس ونجدة، ونكاية للعدو وشدة. وكان إذا أسر الأسير، لم يقتله حتى يعرض عليه دين الإسلام، ويفتح له عبادة الأصنام. فيذكر أنه أسلم على يديه بهذا الفعل ألف رجل. وكانت ولايته خمسة أعوام وشهرين. وقيل: إن أهل الأندلس شاروا على عقبة بن الحجاج وخدموه... ".

وفي عهد عقبة أغار المسلمون علي منطقة دوفينة وخرب عقبة بلدة سان بول المعروفة بالقصور الثلاثة، ومدينة دونزير واستولي علي مدينة فالنس الواقعة علي نهر ردونة، وخرب كنائس منطقة فيين (علي نهر ردونة)، وأقام مجاهدا فاتحا حتى بلغ أربونة (Narbonne) وفتح معها جليقية وبنبلونة (Pampelune) ، وبلغ توسع المسلمين في الأندلس فيهده حتى أربونة شمالا وصار رباطهم علي نهر ردونة (١).

* * *

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٢٠، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٨٠ وما بعدها.

ولاية عبد الملك بن قطن الفهري ثانية
(١٢٢ - ١٢٣ هـ / ٧٣٩ - ٧٤٠ م)

وبالرغم من أن عقبة بن الحجاج السلولي قد أحسن إلى الناس، وعاملهم بالحسني، وأعاد للمسلمين في الأندلس هيبتهم بعد بلاط الشهداء، ولكن وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهري سنة سنة ١٢١هـ ومن معه من اليمنية علي ولاية الأندلس واغتصبها من الحجاج بن عقبة السلولي، واستبد بالبلاد، واشتعلت علي يديه نار الفتنة بين العصبيتين اليمنية والمضرية في الأندلس، إذ أنه إستعان بالعرب الشاميين بزعامة بلج بن بشر - الذين كان يحاصرهم البربر في سبتة - لإخماد ثورة البربر البلديين في شمال الأندلس بجليقية والدروب واسترقة وطليطلة.

وكانت الأمور قد اضطربت في المغرب الأقصي، وكان يشهد ثورة البربر بزعامة ميسرة المدغري ضد الحكام المسلمين العرب، فقتلوا حاكم طنجة عمر بن عبد الله المرادي، وحاكم السوس إسماعيل بن عبد الله بين الحبحاب - وهو ابن والي إفريقية - ونادوا لميسرة بالخلافة، وقاتلهم والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب، الذي جعل علي رأس جيشه خالد بن حبيب الفهري، وقد التقت الجيوش العربية مع الجيوش البربرية بالقرب من طنجة في معركة كبيرة اشتد فيها القتال، وكان النصر فيها حليف البربر، وقتل في هذه المعركة التي دارت رحاها سنة ١٢٣هـ / ٧٤٠م نفرا عظيما من أشراف عرب إفريقية، ولذلك سميت بمعركة " الأشراف " (١).

ولي الخليفة هشام بن عبد الملك علي إفريقية كلثوم بن عياض القشيري في جمادي الآخرة سنة ١٢٣هـ وبعث معه جيشا قوامه ثلاثون ألفا، وذلك لضبط إفريقية والقضاء علي الثورات بها، وكان كلثوم قد اصطحب معه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري، وقد التقت الجيوش العربية مع جيوش خوارج البرب - الذن كانوا تحت قيادة خالد بن حميد الزناتي - بوادي سبو، ودارت بين الطرفين معركة رهيبة رجحت فيها كفة البربر واستشهد كلثوم بن عياض، فتولي بعده ابن أخيه بلج بن بشر ولاية إفريقية، حيث سبق أن عهد له بها، وقد تشتت جموع العرب بعد هذه المعركة، فلحق بعضهم بالقيروان، ولجأ بلج بن بشر في عشرة الآف من أهل الشام إلى سبتة فتحصنوا بها فحاصرهم البربر وشددوا عليهم الحصار فطلبوا من عبد الملك بن قطن أن يساعدهم في العبور إلى الأندلس فماطلهم في البداية خوفا منهم علي مركزه وسلطانه (٢).

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٠.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٠.

وفي الوقت الذي كاد اليأس أن يستحوذ علي تفكير هؤلاء المحاصرين، ويطرد كل آمالهم في الحياة، إذا بالطريق إلى الأندلس تصبح ممهدة، بعد اندلاع ثورة البربر بالأندلس وعدم استطاعة عبد الملك بن قطن في إخمادها (١).

لما رأي والي الأندلس اتساع ثورة البربر وازدياد نفوذهم في الأندلس اضطر إلى السماح لبلج وأصحابه العبور إلى الأندلس، فكاتبهم بذلك واشترط عليهم، أن لا يقيموا أكثر من سنة في الأندلس، وأن يحاربوا معه البربر الثائرين ضد الحكم الإسلامي، كما اشترط عليهم أن يأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم (٢).

عبر بلج ومن معه الأندلس سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م وقدم لهم عبد الملك ما يحتاجون إليه من الطعام واللباس وانضموا إلى جيشه، ثم اتجهوا بحو البربر المتجمعين في وادي الفتح بشذونه فهزموا البربر، وغنم بلج وأصحابه منهم غنائم كثيرة، ثم اتجهوا إلى قرطبة حيث ردوا جموع البربر عنها بعد قتال عنيف، ثم ساروا بأجمعهم نحو طليطلة وقد اجتمع هناك معظم البرب، فكانت هزيمتهم العظمي هناك، بوادي سليط بالقرب من طليطلة، بعد أن زحف عبد الملك وبلج إليهم بعرب الأندلس، وزحف البربر بأجمهم، فهزمهم العرب، وقتلوا منهم في هذه الموقعة الآلاف، وبذلك قضي علي فتنة البربر في الأندلس، وفي نفس الوقت اشتد ساعد بلج وأصحابه (٣).

ثم أراد عبد الملك بن قطن أن يخرجهم من الأندلس إلى حيث كانوا بسبتة، مدفوعا في ذلك بعصبيته ضد الشاميين، وكان قد شهد موقعة الحرة وهو صغير السن ولم ينس أهوالها، فأخرجوه من قصره إلى داره وكأنه " فرخ نعامة لكبر سنه " وهم ينادونه: " أفلت من سيوفنا يوم الحرة فطلبت بثارنا في أكل الدواب والجلود، ثم أردت إخراجنا إلى القتل "، ثم قتلوه وصلبوه وصلبوا خنزيرا عن يمينه وكلبا عن شماله " (٤).

---

(١) علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٧٧.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٠.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٠.
(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٤٥.

ويقول ابن عذاري عن أحداث ولاية عبد الملك بن قطن الثانية: ".. وفي سنة ١٢٢، ولي عبد الملك بن قطن ثانية، حتى كان من أمر البربر وبلج بن بشر، ابن أخي كلثوم ابن عياض عامل إفريقية، ما أذكره. قال ابن القطان: وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد ندب كلثوما لقتال البربر، وولاه إفريقية، وبعث معه ثلاثين ألف فارس: عشرة آلاف من صلب بني أمية؛ وعشرين ألفا من العرب؛ وعهد إليه في سد إفريقية وضبطها، إذ كانوا يجدون في الروايات أن ملكهم يزول، وأن ملك بني العباس لا يجاوز الزاب. فتوحمته بنو أمية زاب مصر، وإنما كان زاب إفريقية. فأمره بالجد في أمر إفريقية، ليلجؤوا إليها إذا ذهب ملكهم؛ وعهد، إن حدث بكلثوم حدث، أن يكون ابن أخيه بلج مكانه؛ فدارت بينه وبين البربر حروب عظيمة، هزموا في بعضها كلثوما وقتلوه. وصار أمر العرب بإفريقية إلى بلج بالعهد المذكور.

ولجأ فلهم إلى سبتة، حتى ضاق عليهم الأمر ضيقا عظيما؛ فكاتب بلج وأصحابه عبد الملك بن قطن صاحب الأندلس، وسأله إدخاله وإدخال من معه من الجند. وذكروا له ما صروا إليه من الجهد، وأنهم قد أكلوا دوابهم. فأبى عبد الملك من إدخالهم، ولم يأمنهم، ومطلهم بالميرة والسعن. واتفق أن تطاولت البربر أيضا بالأندلس، وفاضحوا العرب، وظهروا على الساكنين منهم بجليقية وغيرها؛ فقتلوهم، وطردوهم. فلما ورد فل العرب على عبد الملك بن قطن، ورأى عادية البربر، اضطر لأجل ذلك إلى إدخال بلج وأصحابه؛ فكاتبهم، وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس، ثم يخرجون عنها؛ فرضوا بذلك. فأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم، وهي على الخضراء. ثم أدخل بلجا وأصحابه عراة، لا يواريهم إلا دوابهم، وقد بلغ بهم الجهد غايته. وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام. فلما دخلوا، كساهم عرب الأندلس على قدر أقدارهم؛ قرب رجل يكسو مائة رجل، وآخر عشرة، وآخر واحدا، إلى ما بين ذلك.

فلما حلوا بالخضراء، اجتمع بهم عبد الملك بن قطن؛ وكان بشذونة جمع من البربر، عليهم رجل زناتي؛ فبدأ عبد الملك بمقاتلتهم في وادي الفتح من شذونة، فلم يكن العرب فيهم إلا نهضة، حتى أبادوهم، وأصابوا أمتعتهم ودوابهم. فاكتسى أصحاب بلج، وانتعشوا، وأصابوا الغنائم. ثم نهضوا مع عبد الملك إلى قرطبة؛ ثم ساروا بأجمعهم إلى جهة طليطلة، وقد اجتمع هنالك معظم البربر؛ فكانت هزيمتهم العظمى هنالك بوادي سليط من حوز طليطلة، بعد أن زحف عبد الملك وبلج إليهم بعرب الأندلس، حاشا عرب سرقسطة وثغورها. وزحف البربر بأجمعهم، فهزمهم

العرب، وقتلوا منهم في الهزيمة آلافا.

... ولما أباد ابن قطن البربر بالأندلس، بمن كان معه من العرب، وبأصحاب بلج، قال لبلج وأصحابه: (اخرجوا من الأندلس على ما شورطتم عليه! فقال بلج: احملنا إلى ساحل البيرة أو ساحل تدمير!) فقال لهم عبد الملك: ليست لنا مراكب إلا بالجزيرة! فقالوا له: إنما تريد أن تردنا إلى البربر ليقتلونا في بلادهم! فلما ألح عليهم في الخروج، نهضوا إليه؛ فأخرجوه من قصر قرطبة إلى داره بالمدينة. ودخل بلج القصر عشية يوم الأربعاء في صدر ذي قعدة من السنة. وكان بلج، وقت جوازه عن سبتة، قد أعطى رهائن لابن قطن، جعلهم ابن قطن بجزيرة أم حكيم؛ فضاعوا مدة الفتنة بين بلج وابن قطن، والجزيرة المذكورة دون ماء؛ فمات رجل من غسان عطشا، وكان من الرهائن، من أشراف دمشق... ولما ملك بلج الأندلس، واستولى عليها، طلب منه الجند أن يعطيهم ابن قطن في الغسانيّ المذكور؛ فتوفق بلج؛ فألحّ الجند، وثارت اليمن كلها على كلمة واحدة. وكان ابن قطن شيخا هرما، قد بلغ التسعين؛ وكان قد حضر يوم الحرَّة، ومنها فرَّ إلى إفريقية؛ وكان يومئذ بداره بقرطبة؛ فأخرجه الجند منها، كأنه فرخ نعامة من الكبر، وهم ينادونه: (أفلت من سيوفنا يوم الحرة؛ فطلبنا بثأرنا في أكل الدواب والجلود! ثم أردت إخراجنا إلى القتل!) ثم قتلوه، وصلبوه، وصلبوا خنزيرا عن يمينه، وكلبا عن شماله [1].

* * *

ولاية بلج بن بشر القشيري

(١٢٣ هـ / ٧٤٠ م)

لم يكن مقتل عبد الملك بن قطن إلا حلقة في سلسلة من الفتنة والحرب الأهلية التي يشهدها الأندلس، ذلك أن أمية وقطن ابني عبد الملك بن قطن قد فرا إلى الشمال، وحشدا جموعهما في سرقسطة وآزرهما البلديون (العرب المحليون) والبربر، وانضم إليهما جماعة من الزعماء الذين أنكروا فعلة بلج بعبد الملك بن قطن، مثل عبد الرحمن ابن حبيب الفهري كبير لالجند، وكان من أنصار بلج، وبعبد الرحمن بن علقمةاللخمي، حاكم أربونة (فارس الأندلس في عصره) وكان قوي البأس كثير الأتباع، وانقسمت بذلك الأندلس إلى معسكرين كبيرين: معسكر الشاميين المتغلبين علي الحكم، ومعسكر البربر والعرب المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٤٥.

غاصبين، فعظمت الفتنة واشتد الاضطراب، وسار أمية وقطن وأنصارهما إلى قرطبة لقتال الشاميين في جيش قيل أنه بلغ نحو مائة ألف، وتأهب بلج وأنصاره للدفاع في نحو عشرين ألفا، والتقي الفريقين علي مقربة من قرطبة في شوال سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م، ونشبت بينهما معركة عنيفة، أسفرت عن إنهزام إبنا عبم الملك بن قطن وأنصارهما، وأصيب بلج بجراح خطيرة توفي علي إثرها بعد ذلك بأيام (١).

يقول ابن عذاري عن تلك الفتنة: "... ثم إن أمية وقطنا ابني عبد الملك بن قطن حشدا في جهة سرقسطة. وكانا قد هربا من قرطبة وقت إخراج أبيهما منها، وجاءا إلى بلج طالبين يثأرهما، وهما في نيف على مائة ألف من العرب القدماء والحدث؛ فخرج إليهما بلج، وهو في أقل من خمس عددهما؛ فاقتتلوا قتالا شديدا. ثم انهزم ابنا عبد الملك ومن معهما هزيمة عظيمة؛ وانصرف أصحاب بلج ظافرين، وقد امتلأت أيديهم وأنفسهم غنما ونصرا وسرورا، إلا أن بلجأ أميرهم وفيه من جراحة أصابته في المعركة، ومات بعد أيام. وكانت مدة إمارته اثني عشر شهرا. واختلف في ذلك. فقال أبو عمر السالمي: إن تلك المعركة انجلت عن أحد عشر ألف قتيل، وإن عبد الرحمن بن علقمة فوق سهما إلى بلج؛ فأصاب مقتله... (٢).

* * *

ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي

(١٢٤ هـ / ٧٤٢م)

بعد إنتصار الشاميين وعودتهم إلى قرطبة ظافرين، بعد وفاة بلج، قدم عليهم الشاميين ثعلبة بن سلامة العاملي، بموجب عهد من الخليفة هشام بن عبد الملك الذي أمر ان يتولي أمر الجيش - وقت خروجه من الشام - كلثوم بن عياض فإن أصيب فابن أخيه بلج، فإن أصيب فثعلبة بن سلامة العاملي، فتولي ثعلبة إمرة الأندلس في شوال من عام ١٢٤ هـ / ٧٤٢م، وكان من أصحاب بلج الذين عبروا معه إلى الأندلس (٣).

وحاول ثعلبة أن يضبط ألأمور والأمن في الأندلس في بداية عهده ولكن سلطان

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٢ / ٥٩ - ٦٠، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥ / ٩٥.

(٢) البيان المغرب، ٢ / ٣٢٣.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٢ - ٣٣، المقري، نفح الطيب، ٢ / ٥٩ - ٦٠، ابن الأثير، الكامل، ٥ / ٩٥.

الحكومة المركزية كان قد تضعضع وانقسمت الأندلس إلى مناطق عديدة النفوذ، وآلت الغلبة في الأقاليم الوسطي والشمالية لجماعة من من الزعماء الخارجين علي حكومة قرطبة، مثل أمية وقطن ابني عبد الملك، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري، وعبد الرحمن اللخمي حاكم أربونة، واستمر يؤاذر هذا الفريق سواد العرب المحليين والبربر، ولم تمض أشهر قلائل حتى اضطرمت الحرب مرة أخري بين الفريقين المتنازعين، ونشبت بينهما مواقع عديدة علي مقربة من ماردة، فهزم الشاميون أولا واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة، ولكنه عاد فكر علي خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة، وأسر وسبي منهم جموعا كبيرة، وعاد ظافرا إلى قرطبة، وقرر إعدام الأسري ليلقي خصومه درسا قاسيا، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ عزمه، وكان يبيع ذراري أهل البلد ويحملهم أسري ويحملهم من أمرهم ما لا يطيقون، واستمر ثعلبة علي هذا الحال حتى ورد عليه أبو الخطار بن حسام الكلبي واليا من قبل حنظلة بن صفوان والي إفريقية [١].

يقول ابن عذاري: "... وفي سنة ١٢٣، في شوال، ولي الأندلس ثعلبة بن سلامة، ولاه أهل الشام؛ وذلك أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى أمر الجيش، إذ جهزه من الشام، كلثوم بن عياض؛ فإن أصيب، فأين أخيه بلج؛ فإن أصيب، فثعلبة. فأقعد أصحابه ثعلبة بن سلامة بما عهد به هشام إليهم، وبايعوه. وثار من بقى من البربر بماردة في أيامه؛ فغزاهم، وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر منهم نحو الألف؛ وانصرف إلى قرطبة... وكانت ولايته عشرة أشهر... وكان يبيع ذراري أهل البلد، ويحملهم أسرى، ويرهقهم من أمرهم عسرا. فكان ثعلبة معهم على هذه الحال، إلى أن ورد أبو الخطار [٢].

* * *

(١) المقري، نفح الطيب، ٢ / ٥٩ - ٦٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٢.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٢.

ولاية أبي الخطار بن ضرار الكلبي

(١٢٥ – ١٢٨ هـ / ٧٤٢ – ٧٤٥م)

بعد أحداث الفتنة السابقة كتب وجوه أهل الأندلس إلى حنظلة بن صفوان الكلبي والي إفريقية أن يرسل إليهم يجمع الكلمة خوفا من أن يهاجمهم نصاري الشمال ويغيروا علي أراضي المسلمين، وقيل: أن الذي اختار أبو الخطار لولاية الأندلس هو هشام بن عبد الملك الخليفة، اختاره قبل وفاته بقليل، إذ توفي في في ربيع الثاني سنة ١٢٥ هـ، وقدم أبو الخطار إلى الأندلس في رجب ودخل قرطبة وتسلم مقاليد الأمور، فقبض في الحال علي زمام السلطة، وأفرج عن الأسري والسبايا، لذين كان ثعلبة ينوي إزهاق أرواحهم، واهتم برد السكينة والنظام، وإخماد ثورة الزعماء الخارجين، ففرق الشاميين في مختلف الكور تمزيقا لعصبيتهم، وأنزل جند الشام بالبيرة، وجند الأردن برية، وجند قنسرين بجيان، وجند مصر بعضهم في أكشوبية وباجة والبعض الآخر في تدمير، وتتبع أبو الخطرا الزعماء الخارجين، فقبض علي ثعلبة ونفاه إلى إفريقية مع نفر من زملاؤه، وأعلن أمية وقطن إبنا عبد الملك بن قطن الطاعة وتفاهما مع أبي الخطار، فولاهما الحكم في بعض الولايات الشمالية، أما عبد الرحمن بن حبيب فاستطاع أن يتقي المطاردة وفر إلى تونس، وهنالك أقام حينا يرقب الحوادث حتى سنحت له الفرصة والوثوب وانتزاع إمارة إفريقية من حنظلة بن صفوان، أما عبد الرحمن اللخمي فلبث مستقلا برباط الثغر في أربونة وما جاورها.

وسلك أبو الخطار في البداية سبيل الحزم والاعتدال وسوي بين جميع القبائل في المعاملة فرضي الجميع واجتمعت الكلمة علي تأييده وطاعته، وسكنت الفتنة واستقر النظام حينا، ولكن نزعة العصبية ما لبثت أن حملته - كما حملت أسلافه من قبل - فمال إلى قومه اليمانية وتنكر لخصومه المضرية، واضطرمت الأحقاد والمنافسات القديمة، وحدث أن اعتدي أبوالخطار علي زعماء المضرية بالضرب والإهانة لأنه تدخل لحماية رجل من بني قومه، وهذا الزعيم هو الصميل بن حاتم بن شمر الكلابي وجده شمر بن ذي الجوشن من أشراف الكوفة وكان قد اشترك ي قتل الحسين بن علي في كربلاء، ثم نزح بأسرته إلى الشام خوفا من الانتقام، فلما أهين الصميل من أبو الخطار أرسل إلى خيار قومه فشكا لهم ما حل به من هوان فثاروا معه وأيدته لخم وجذام من اليمنية، وقدموا عليهم ثوابة بن سلامة الجذامي اليمني، واتجهوا نحوا قرطبة فخرج إليهم أبو الخطار فهزموه وأسروه واتجه ثوابه ومن معه نحو قرطبة فدخل قصر الإمارة وأعلن اختيار ثواية أميرا علي الأندلس سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٥ م

بدلا من الخطار ووافق علي ذلك والي إفريقيةالجديد عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة ١٢٩ هـ الذي انتزع ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان، فقام ثوابة بضبط الأمور في الأندلس بمعاونة الصميل واجتمع عليه جند الأندلس [(١)].

يقول ابن عذاري: "... وفي سنة ١٢٥، ركب أبو الخطار البحر من ناحية تونس في المحرم، وحل بقرطبة؛ فألقى ثعلبة بن سلامة بالمصارة، ومعه الأسرى والسبي من عرب قرطبة، قد اشتبك في الحبال الولد بالوالد؛ فأمر أبو الخطار بإطلاقهم، وحلهم من وثاقهم؛ وجمع الناس بعد افتراقهم، وصرفهم إلى معهود إيقافهم؛ فدانت له جماعتهم، وفرق أهل الشام على الكور، ونظر لسواهم أيضا بأحسن النظر؛ فأنزل أهل دمشق بالبيرة، أهل الأردن برية، وأهل فلسطين بشذونة، وأهل حمص بإشبيلية، وأهل قنسرين بجبان، وأهل مصر بباجة، وبعضهم بتدمير. وكان إنزالهم على أموال العجم من أرض ونعم. ودخل في ذلك الوقت الصُّميل بن حاتم... وكان لما هزم ثعلبة البربر، سبي ذراريهم، ولم يكن قبل بلج ولا غيره يتعرض للذرية بسباء. فأقبل إلى قرطبة بعدد من السبي كثير، حتى نزل طرف المصارة من قرطبة، ومعه الأسرى والسبي من عرب البلد والبربر، وهو يبيع السبي في النداء، ويعبث ويبطر؛ فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص، لا ممن يزيد، وكان فيهم عليٌّ بن الحصين، والحارث بن أسد من أهل المدينة، فابتدأ المنادي عليهما بعشرة دنانير؛ فلم يزل ينادي:) من ينقص؟ (حتى باع أحدهما بعتود، والآخر بكلب. فبينا هو على هذه الحال من العبث والبغي، وقد أوقف رجالهم، وأبرزهم للقتل، وذلك يوم جمعة، إذ قدم أبو الخطار؛ فألقاهم بهذه الحال. فأمر بإطلاقهم؛ فسمى ذلك العسكر عسكر العافية. وكان أهل الأندلس طلبوا من صاحب إفريقية حنظلة بن صفوان عاملا يجمع كلمتهم، إذ كانت الكلمة مفترقة، والقتل ذريعا، ولا يأمنون تغلب العدو عليهم؛ فأرسل إليهم أبا الخطار هذا. واجتمع على أبي الخطار أهل الشام وعرب البلد، ودانت له الأندلس. ثم أنه أمن ابني عبد الملك بن قطن، وأنزل أهل الشام في الكور، وتعصب لليمانية، واعتزل قيسا؛ فكان ذلك سبب توثب الصميل بن حاتم عليه مع مضر، بعد أن ولي سنتين؛ وقيل: وتسعة أشهر؛ وقيل: ثلاث سنين... وكان الصميل بن حاتم هذا جده شمر قاتل الحسين ☺ وهو من أهل الكوفة؛ فلما قتله، تمكن منه المختار بن أبي عبيد؛ فقتله، وهدم داره؛ فارتحل مع ولده من الكوفة، وصاروا بالجزيرة؛ ثم صاروا في جند

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٤ - ٣٥، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٣٧ - ٢٣٨، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٢٧.

قنسرين. فرأس الصميل بالأندلس، وفاق بالنجدة والسخاء. فاغتم أبو الخطار به؛ فدخل عليه يوما، وعنده الجند؛ فأحب كسره؛ فأمر عليه؛ فشتم، ولكز؛ فخرج عنه مغضبا، وأتى داره؛ ثم بعث إلى خيار قومه؛ فشكا إليهم ما لقى؛ فقالوا:) نحن تبع لك! (فقال:) والله ما أحب أن أعرضكم للقضاعية ولا لليمانية! ولاكني سأتلطف، وأدعو إلب مرج راهط، وأدعو لخما وجذاما، وتقدم رجلا يكون له الاسم ولنا الحظ. (فكتبوا إلى ثوابة بن سلامة الجذامي من أهل فلسطين؛ ثم وفدوا عليه؛ فأجابهم، وأجابتهم لخم وجذام. فبلغ ذلك أبا الخطار؛ فغزاهم؛ فلقيه ثوابة، وأسره. وسار ثوابة حتى دخل قصر قرطبة، وأبو الخطار معه في قيوده... " [1].

* * *

ولاية ثواب بن سلامة الجزامي

(١٢٨ هـ / ٧٤٦م)

بعد دخول ثوابة قرطبة إرتضته المضرية أميرا لللأندلس مكان أبو الخطار، ووافق عبد الرحمن بن حبيب علي هذا الاختيار، وكان قد نجح في الاستيلاء علي ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان، ولكن أبا الخطار استطاع أن يفر من سجنه بمساعدة أصحابه، فذهب باجة وحشد جموعه وقصد إلى قرطبة، فلقيه الصميل في المضرية وثوابة في أنصاره من اليمنية، ووقعت بينهما معركة غير حاسمة، وعندئذ دعا بعض اليمنية من فريق ثوابة إلى وقف القتال، ونعي علي أنصار أبي الخطار أنهم يقاتلون ثوابة، مع أنه يمني منهم، وقد عفا عن أبي الخطار وعف عن دمه حين كان في قبضته، فأحدثت تلك الدعوة أثرها، وانفض عن أبي الخطار جنده، وأضطر إلى أن يعود إلى باجة، وهناك لبث ينتظر مجري الحوادث [2].

وبعد هذه الحادثة بقليل توفي ثواة، ولانستطيع أن نحدد بشكل قطعي المدة التي قضاها في الولاية، ولكن من المرجح أنها لم تقل عن عام، ولم تزد عن عامين في أرجح الأقوال [3].

* * *

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٤ - ٣٥.
(٢) المقري، نفح الطيب، ٤ / ٢٣،.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٥.

ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري
(١٢٩ - ١٣٨هـ / ٧٤٧ - ٧٥٥م)

وبعد وفاة ثوابة عادت الحرب إلى ما كانت عليه، فقد أراد اليمانيون إعادة أبي الخطار إلى إمارة الندلس، ورفض ذلك المضريون بزعامة الصميل بن حاتم وحدث بين الفريقين صراع وقتال ظلت بسببه الأندلس أشهرا بدون أمير يتولي شؤونها، إلا أنهم قدموا عليهم عبد الرحمن بن كثير اللخمي للنظر في الأحكام، وعلي الرغم من أن النظر في الأحكام لا يعني الولاية بل القضاء، فإن تسليمه ذلك المنصب كان يعتبر نوعا من الاعتراف بسلطته، كي لا تظل الأمور فوضى لا ناظم لها، وظل ذلك الإنقسام واقع بين أطراف الساسة في الأندلس حتى ظهر رأي جديد يقتضي بأن يرتضي القيسيون واليمنيون فيما بينهم فيقتسمون الإمارة بحيث تكون عاما لقيسي وآخر ليمني، فوافق الجميع علي ذلك الرأي، واعتقدوا أن فيه نهاية للنزاع بينهم، وقد اتفقوا علي أول وال هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري، علي أن يعود الفريقان إلى الاجتماع بعد عام من ذلك التاريخ ١٢٩ هـ /٧٤٧م ليقرروا من هو اليماني الذي سيلي يوسف في الولاية[١].

ولي يوسف بن عبد الرحمن الفهري إمارة الأندلس دون مصادقة الحكومة المركزية في دمشق أو إفريقية، وكانت حكومة دمشق قد اضطربت شؤونها يومئذ أشد الاضطراب، وأخذت نذر السوء تلوح في الأفق، وكانت مصاير الخلافة الأموية يومئذ تهتز في يد القدر، وقد شغلت بما يواجهها من خطر الفناء الداهم عن حوادث الأندلس، فلم تحاول تدخلا أو اعتراضا علي ما يحدث في الأندلس، ذلك القطر النائي عنها، ولم يكن يوسف في حاجة إلى مراجعة أو مصادقة، وكان المتفق عليه بين اليمنية والمضرية أن يتعاقبا في الولاية فيمكث يوسف عاما فقط ثم يرد الأمر إلى اليمنية، ولكن المضرية بزعامة يوسف ابن عبد الرحمن الفهري والصميل بن حاتم، لم تكن لديهم الرغبة في تنفيذ هذا الاتفاق، ولم يجل بخاطرهم أن يتولي الأمر بعد يوسف أحدا من اليمنية أو أن يتنازل يوسف عن الإمارة مختارا، وعملوا جاهدين علي أن لايتولي الأمر بعد يوسف يمنيا أبدا، وعمل يوسف منذ البداية علي استخلاص جميع السلطات لنفسه، وعمل علي التخلص من منافسيه في اليمنية، فنزع ولاية رية من يحيى بن حريث الجزامي أحد الزعماء اليمنية، وأحد كبار المنافسين له علي مرسي الإمارة، فلما نزعت رية من يد يحيى بن حريث ثار ضد يوسف وأيده بني جلدته اليمنية، والتفوا حوله، وبدأ يشكل حزبا ضد يوسف، فاتصل بأبو الخطار

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٥.

الذي كان يقيم في باجة بغرب الأندلس، ولكن الرجلان اختلفا بسبب رغبة كل منهما في تولي إمرة الأندلس - بعد التخلص من يوسف بن عبد الرحمن - بيد أنهما إجتمعا علي مقاتلة يوسف بن عبد الرحمن، وأيدهما اليمنية واجتمع لهما أعدادا غفيرة، في حين ساند الصميل والمضرية يوسف بن عبد الرحمن، والتقي الفريقان في شقندة بالقرب من قرطبة سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧م ونشبت بينهما معركة هائلة، انتهت بهزيمة اليمنية ومقتل أبي الخطار وابن حريث، وكثير من زعماء اليمنية، واستقر الأمر ليوسف، ولكنه كان يخشي الصميل، لأنه كان بنفوذه وكثر عصبته يقبض علي زمام الأمور، فرأي أن يبعده عن قرطبة وأقطعه ولاية سرقسطة وأعمالها سنة ١٣٢هـ، واستقل يوسف بالأمر [١].

وقد وجه يوسف الفهري جهوده إلى إصلاح شؤون الأندلس بعد هذه الفتن التي مرت بها وأدت إلى ضعف السلطة المركزية وكادت تذهب بريحها، وقد حاول يوسف الفهري جاهدا ضبط أمور البلاد فطاف علي القري والمدن وتفقد أحوالها بنفسه، وعزل المقصرين وحاسب العابثين، وقمع المظالم والفوضي ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأعاد تنظيم الطرق الحربية، وعدل نظام الضرائب ومراجعة السجلات القديمة واستبعاد الأموات منها، وأعاد تنظيم الأقاليم الإدارية في الأندلس وجعلها خمسة أقاليم رئيسية هي:

- ولاية الأندلس: وهي ولاية باطقة القديمة وتقع بين وادي نهر يانة والبحر المتوسط، وأشهر قواعدها قرطبة وقرمونة واستجة وأشبيلية وشذونة ولبلة ومالقة، والبيرة وجيان.

- ولاية طليطلة: وهي ولاية قرطاجنة القديمة وتمتد من جبال قرطبة في شمال شرقي ولاية الأندلس حتى نهر دويرة (الدورو) وجبال وادي الحجارة شمالا، وأشهر قواعدها طليطلة ومرسية ولورقة وأريولة وشاطبة ودانية ولقنت وبلنسية وشقوبية، ووادي الحجارة وقونقة.

- ولاية ماردة وهي ولاية لوجداني أو جليقية القديمة، وتمتد فيما وراء نهر وادي يانة شرقا حتى المحيط، وأشهر قواعدها ماردة وباجة وأشبونة وأسترقة وسمورة وشلمنقة.

ولاية سرقسطة، وهي ولاية كانتبريا القديمة، وتمتد من منابع نهر التاجة شرقا، علي ضفتي نهر أيبرو حتى جبالالبرنية وبلاد البشكنس، وأشهر قواعدها سرقسطة

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٣٦، ٢٣٧.

وطركونة، وجيرندة وبرشلونة وأرقلة ولاردة وطرطوشة وشقة.

ولاية أربونة: وهي ولاية الثغر، وتقع شمال شرقي البرنية حتى البحر، وتشمل مصب نهر الرون، وأشهر قواعدها أربونة ونيمة وقرقشونة وأجدة وبزييه وماجلونة (١).

وبالرغم من جهود يوسف الفهري ومحاولاته ضبط الأمور في الأندلس ولكن كانت أيام الدولة الأموية ككل كانت مدبرة، واستغل كثير من العمال المحليين ضعف السلطة المركزية واستقلوا بولاياتهم، كما استغل نصاري الولايات الشمالية تلك الفتنة والحرب الأهلية التي نشبت بين المسلمين في الأندلس وبدأوا يتحركون جنوبا صوب قلاع المسلمين، وزاد الطين بلة حالة القحط والمجاعة التي عصفت بالأندلس واستمرت زعاء أربعة أعوام من عام ١٣١ هـ إلى ١٣٥هـ، حيث فتك الجوع بالناس، مما حمل كثير من الناس علي الهجرة من الأندلس والنزوح إلى ولايات الشمال الإفريقي، فكان ذلك مشجعا للنصاري لاستغلال حالة الوهن التي يعيشها المسلمون في الأندلس، فتوالت هجماتهم علي ديار وسواحل المسلمين ناهبة كل ما وجدته في طريقها، واستولوا علي كثير من القلاع والحصون ووصلوا في تقدمهم حتى ضفاف نهر دويرة (الدورو) وثار البشكنس والقوط فيما وراء البرنية، واستولي أنزيموند علي قواعد المسلمين في سبتمانيا المسلمة، وهي نيمة وأجدة وماجلونة وبزييه وما حولها، وأنشأ منها مملكة صغيرة، والتف حوله السكان النصاري، واستطاع بمؤازرة الزعماء المحليين أن يقضي علي سلطان المسلمين في تلك النواحي (٢).

وفي تلك الأثناء كان ببين قد خلف أباه شارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجي، وانتزع العرش الميرفونجي من آخر الملوك شلدريك الثالث، وتعاون مع أنزيموند في محاولة إجلاء المسلمين من غاليس، وغزو لانجدوك، وهاجما المواقع الإسلامية وفتكا بالمسلمين في تلك الأنحاء سنة ٧٥٣ م وقاومته الحاميات الإسلامية أشد مقاومة، ولكنها سرعان ما انهارت لعزلتها أولا ثم حرمانها من كل مدد أو معونة تنقذها ثانيا، واستولي الفرنج علي تلك القواعد كلها عدا أربونة، فإنها لبثت في أيدي المسلمين أعواما أخري، ولم يستطع الجيش الذي سيره يوسف إلى الشمال أن يحقق الغاية المنشودة، بل رد علي عقبيه بخسارة فادحة وقتل قائده سليمان بن شهاب، ونجا الحصين العقيلي وفرسانه بصعوبة. وترك الشمال لمصيره، واستغرقت الحروب

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ١ / ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٣٢، ١٣٣.

والفتن الداخلية إهتمام يوسف وكل نشاطه وموارده [(١)].

وبالإضافة الي المشاكل والصعوبات التي كان يواجهها يوسف الفهري مع نصاري الشمال، فقد قامت ضده ثورات أخري كثيرة في الداخل منهاتلك الثورةالتي قام بها عبد الرحمن بن علقمة اللخمي الذي كان حاكما لأربونة فأرسل إليه يوسف جيشا حاربه ولم يمكث في حربه إلا يسيرا حتى انتصر عليه وقتله وحمل رأسه إلى يوسف الفهري في قرطبة، وقامت عليه ثورة أخري في باجة وتزعمها رجل اسمه عروة اعتمد علي عدد من العرب، وعدد آخر من أهل البلد الذين لا زالوا علي دينهم المسيحي، فأرسل إليه يوسف جيشا هزمه وقتل عددا كبيرا منأتباعه، وثار عليه كذلك في سرقسطة رجل اسمه تميم بن معبد سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م وتحالف مع عامر بن عمرو بن وهب في سنة ١٣٧هـ / ٧٥٤م فتولي الصميل محاربتهما، فحاصرهما في سرقسطة وتمكن من الانتصار عليهما وقتلهما، وبذلك إستطاع يوسف القضاء كل الثورات التي قامت ضده في الأندلس، ولكنه لم يكد ينتهي من إخماد تلك الثورات حتى فوجيء بخطر شديد جاءه من المشرق وهو خطر الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الملقب بصقر قريش) وذلك في غرة ربيع الأول سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥ م، حيث إستطاع نزع الإمارة منه وإنهاء عصر الولاة [(٢)].

يقول ابن عذاري - مجملا - أحداث ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري: "... لما تفاقم الأمر، وكثر الاختلاف بين أهل الأندلس، تراضوا واتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وعلى أن يدعوا ليحيى بن حريث كورة رية؛ فتركت له طعمة. وقد كانت قضاعة اجتمعت قبل ذلك، وقدموا على أنفسهم عبد الرحمن بن نعيم الكلبي؛ فجمع مائتي راجل وأربعين فارسا؛ فبيت القصر بقرطبة، وقاتل الأحراس، وهجم على السجن؛ فأخرج أبا الخطار، وهرب به إلى لبلة؛ فأقام في كلب وقبائل من حمص؛ فاكتنفوه ومنعوه، ولم يحدث شيئا حتى اجتمع الناس على يوسف. فلما استقام له الأمر، غدر يحيى بن حريث، وعزله عن كورة رية؛ فغضب ابن حريث، وكاتب أبا الخطار حينا. فقال أبو الخطار: أنا الأمير المخلوع! فأنا أقوم بالأمر! وقال ابن حريث: بل أنا أقوم به، لأن قومي أكثر من قومك! فلما رأت جذام ما يدعو إليه ابن حريث، قدموه وأجابوه؛ فأصفقت يمن الأندلس

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٣٣، ١٣٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٨، خالد الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ص ٣٠٢، علي حسين الشسطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٨٤.

وحميرها وكندتها على تقديمه والطوع له، وانحازت مضر وربيعة إلى يوسف بقرطبة حضرة الملك. وأقبلا حتى نزلا شقندة.

وكان الصميل مع يوسف الفهري، وهو الذي سأله الناس أن ينظر لهم في وال يلي عليهم، لشغل أمير المؤمنين مروان بن محمد بالمشرق عنهم وبعده عنهم. فاختار لهم يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري؛ وكان يومئذ بالبيرة؛ فرضيه الناس كما ذكرنا. ووقع اختلاف بعد ذلك في أمره بين مصر واليمن؛ فانضوت اليمن إلى أبي الخطار، من جميع البلاد والأقطار، وزحف بهم إلى يوسف الفهري بقرطبة؛ فكره يوسف الفتنة، وخاف البغضاء والشحناء. فنزل الصميل بن حاتم بالمحلات، وشك السلاح والآلات؛ وأقبل أبو الخطار بمن معه، ونزل موضعه؛ فالتقت بشقندة الفئتان، وتصادمت الفرقتان؛ فلا تسمع إلا صهيلا وصليلا، ولا ترى إلا قتيلا، حتى تكسرت الخطية وتفللت المشرقية، والتفت الساق بالساق، وانضمت الأعناق إلى الأعناق؛ فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين، بعد حرب الجمل وصفين، إلى أن انهزمت اليمانية مع أبي الخطار بعد حين. وهرب أبو الخطار، وركب ظهر الفرار؛ واستتر في رحى للصميل هنالك؛ فظفر به وقتل إذ ذلك. فرأس الصميل بن حائم في الناس، وشهر بالنجدة والبأس؛ وصرف يوسف الفهري إليه الأمور، وأوقف عليه الرياسة والتدبير. فكان ليوسف الاسم، وللصميل الرسم... ولما أخذ أبو الخطار، وأرادوا قتله، قال: (ليس على فوت! ولكن دونكم ابن السوداء! (يريد ابن حريث). فدل عليه، وقتلا جميعا. وكان ابن حريث يقول: (لو أن دماء أهل الشام سقيت، لشربتها في قدح!) فلما استخرج من تحت الرحى ليقتل، قال له أبو الخطار: (يا ابن السوداء! هل بقى في قدحك شيء لم تشربه؟) ثم قتلا. وأتى بالأسرى؛ فقعد لهم الصميل، وضرب أعناقهم جميعا.

ثم أتبع الله الأندلس بعد ذلك بالوباء والموت في السنة الثانية، حتى كاد الخلق أن ينقرض منها.

وولي يوسف عن (رضى من) عامة الجند من مضر ويمن والشام؛ فصفت له الأندلس بعد يوم شقندة، وخلصت له القلوب والأنفس. وعاد الصميل بن حاتم قائده الأعلى، وقدحه المعلى، يقرب منه ما شاء، ويدفع عنه ما ساءه، إلى أن تمكن بالدولة، وتملك رقاب تلك الجملة. فشرق به يوسف وقلق، وخشي من جانبه وأرق؛ فرأى أن يبعده من مكانه، ويوليه بعض

سلطانه؛ فولاه سرقسطة وبلادها سنة ١٣٣؛ فكان فيها إلى أن قام عليه فيها الحباب بن رواحة من بني زهرة بن كلاب؛ فحاصره مدة من سبعة أشهر. وقعد يوسف عن إغاثته، واعتذر بشدة الأندلس في ذلك الوقت ومجاعته، رغبة في تلافه وهلاكه، وحرصا على الراحة منه لاستحواذه واستملاكه، إلى أن اجتمع قومه بالبيرة وجيان، وساروا إلى نصرته، وتفريج كربته.

وقيل: إن الذي قام على يوسف بسرقسطة تميم بن معبد الزهري وعامر العبدري. فغزاها يوسف في سنة ١٣٨؛ فكان عليها، إلى أن دخل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس.

وفي سنة ١٣٠، كانت وقعة شقندة، واجتمع على يوسف. وكان يوم ولايته ابن خمس وسبعين سنة؛ وملك تسع سنين. وكان قبل ولايته معتزلا في بادية، من أهل الديانة والإظهار للخير.

وفي سنة ١٣١، أمحلت الأندلس، وعم المحل، وتمادى إلى سنة ١٣٨ وذلك سنة محل وسنة غيث. وأتصل المحل الشديد سنة أو اثنتين؛ ثم سقى الناس سنة ١٣٣، وعادت إلى بعض الصلاح.

وفي سنة ١٣٣، ثار أهل جليقية، وترددت الغارات عليها. ثم استحكم الجوع والقحط في سنة أربع وثلاثين وسنة خمس وبعض سنة ١٣٦؛ فخرج أكثر الناس إلى طنجة وزويلة وريف البحر في العدوة؛ وكانت إجازتهم من وادي شذونة، وهو المعروف بوادي برباط؛ وبه سميت السنة.

و ممن ثار على يوسف بن عبد الرحمن الفهري بالأندلس، منهم: عبد الرحمن بن علقمة اللخمي، ثار عليه بأربونة؛ فحاربة، ولم يمكث في حربه إلا يسيرا حتى أمكنه الله منه وثار عليه عروة بباجة؛ فوجه إليه يوسف من هزمه وقتل أصحابه. وثار عليه تميم بن معبد سنة ١٣٦. وفي سنة ١٣٧، اجتمع تميم بن معبد وعامر بن عمرو بن وهب بسرقسطة؛ فتولى محاربتهما الصميل ابن حاتم. وفي سنة ١٣٨، خرج يوسف بنفسه إلى تميم بن معبد وعامر ابن عمرو بسرقسطة؛ فحاصرهما؛ ثم ظفر بهما وقتلهما. وفي هذه السنة، انقضت أيام يوسف بن عبد الرحمن الفهري... " [1].

* * *

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٨.

الفصل الثالث
قيام الدولة الأموية في الأندلس

* * *

كانت سيطرة الدولة الأموية علي الأندلس خلال فترة الولاة سيطرة إسمية فقط، إذ لم يصل إلى بيت مال الدولة الأموية شيء مما يجتبي من موارد تلك البلاد، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الولاة قتلوا أو عزلوا بدون أمر الخلافة الأموية في المشرق، كما أن بعض الولاة تسلموا زمام الأمور والحكم في الأندلس بدون أمر منها، أيضا جرت أحداث كثيرة بدون علمها، وعندما سقطت الخلافة الأموية في المشرق وانتقلت إلى بني العباس في سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م خرجت الأندلس وشمال إفريقية من قبضة الخلافة رسميا [١].

وبعد سقوط الدولة الأموية، وانتصار العباسيين علي الأمويين في موقعة الزاب في ١١ من جمادي الآخرة سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩ م، أخذ العباسيون يتعقبون أمراء بني أمية حيثما وجدوا وحلوا، وأعملوا السيف قتلا وتنكيلا لكل من كان مؤهلا من الأمويين لتولي الخلافة، فقتلوا الأمراء وأبناء الأمراء وأبناء أبناء الأمراء (الأحفاد) إلا قلة ممن لم تصل إليه سيوفهم، فقد أمر الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ / ٧٤٩ - ٧٥٣م) بتتبع بني أمية وقتلهم والقضاء عليهم، ولذلك تفرقوا في أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم من بطش بني العباس لهم.

ولكن هذه المطاردة الدموية لم تجتث الشجرة من أصلها، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من أيدي الجناة، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ في أرض أخري، وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتي من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك كان من القلة التي لم تصلهم سيوف العباسيين، وكان عمره وقت حدوث النكبة تسع عشرة سنة فقط، وكان يقيم مع أهله وإخوته في قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين، وفيها مولده في سنة ١١٣هـ / ٧٣١م، وقيل: بل مولده بالعليا من أعمال تدمير، وتوفي أبوه معاوية شابا فتي أيام أبيه هشام بن عبد الملك في سنة ١١٨هـ فكفله وإخوته جدهم هشام [٢]، ولما انهار صرح الخلافة الأموية، وأمعن الظافر في مطاردة بني أمية، فر عبد الرحمن وأخ صغير له لم يتجاوز عمره الثالثة عشرة، وكلاهما مطلوبي الرأس من قِبَل العباسيين.

في العراق كان عبد الرحمن بن معاوية يجلس في بيته إذ دخل عليه ابنه ابن الأربع سنين يبكي فزعًا، وكان عبد الرحمن بن معاوية مريضا معتزلا في الظلام في

---

(١) خير الله، حضارة العرب في الأندلس، ص ٦٢، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٨٧.
(٢) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٥٦.

ركن من البيت من أثر رمد في عينه، فأخذ يسكن الطفل بما يسكن به الأطفال إلا أن الطفل ظل فزعًا مرعوبًا لم يسكن، فقام معه عبد الرحمن بن معاوية فوجد الرايات السود خارج البيت (رايات الدولة العباسية)، وكانت تعم القرية جميعها، فعلم أنّه مطلوب، رجع عبد الرحمن بن معاوية وأخذ أخاه الوليد بن معاوية وما معه من نقود، وترك النساء والأطفال وكل شيء؛ لأن العباسيين لم يكونوا ليقتلوا النساء ولا الأطفال، ولكن كانوا يقتلون كل من بلغ وكان مؤهلاً للخلافة.

يقول المقري: "... إنه لما وقع الاختلال في دولة بني أمية والطلب عليهم، فرّ عبد الرحمن، ولم يزل في فراره منتقلاً بأهله وولده إلى أن حلّ بقرية على الفرات ذات شجرٍ وغياضٍ، يريد المغرب، لما حصل في خاطره من بشرى مسلمة [١]، فمما حكي عنه أنه قال: إني لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه لرمدٍ كان بي، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدّامي، وهو يومئذٍ ابن أربع سنينٍ أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه إلى ما كان بي ويأبى إلا التعلق، وهو دهشٌ يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة، وأخ لي حديث السن كان معي يشتد هارباً ويقول لي: النجاء يا أخي، فهذه رايات المسودة [٢]، فضربت بيدي على دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن... " [٣].

ثم فرعبد الرحمن هاربا إلى ناحية الفرات، وحل هناك ببعض القري واختفى بها حينا يدبر أمره، ولكن دل عليه رجل، مما جعل جنود الدولة العباسية تستقصي خبره وتحاول القبض عليه، فبادر عبد الرحمن بالفرار هو وأخوه باتجاه نهر الفرات، وعند الفرات وجد عبد الرحمن بن معاوية وأخوه القوات العباسية تحاصر النهر، فألقيا

---

(١) نسب إلى مسلمة بن عبد الملك أنه كان يخبر بأمور من الحدثان والملاحم، وكان يرى أن نهاية بني أمية في المشرق قد اقتربت ويتنبأ بظهور عبد الرحمن بن معاوية وأنه محيي دولة بن أمية في الأندلس بعد زوالها في المشرق يقول ابن عذاري: "... حدث عبد الرحمن قال: دخلت الأندلس وأنا أضبط جلية مسلمة بن عبد الملك، فإنه أتي جدي هشاما يوما، فوجدني صبيا عنده، فأمر جدي بتنحيتي عنه، فقال له مسلمة: دعه يا أمير المؤمنين، فإنه صاحب بني أمية ومحيي دولتهم بعد زوالها، فلم أزل أعرف لي مزية من جدي بعد. " البيان المغرب، ٢ / ٦١، وراجع أيضا: أخبار مجموعة: ص ٥١ - ٥٢ وسيأتي شيء من ذلك في هذا الكتاب.

(٢) الرايات السود: شعار الدولة العباسية الجديدة.

(٣) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٥٦.

بأنفسهما فيه وأخذا يسبحان، ومن بعيد ناداهما العباسيون أن ارجعا ولكما الأمان، حينها كان الوليد بن معاوية أخو عبد الرحمن بن معاوية قد أجهد من السباحة، فأراد أن يعود، فناداه أخوه الأكبر أن لا تعد يا أخي وإلا فسيقتلوك، فرد عليه إنهم قد أعطونا الأمان، ثم عاد راجعا إليهم، فما أن أمسك به العباسيون إلا أن قتلوه أمام أعين أخيه، عَبَر عبد الرحمن بن معاوية النهر وهو لا يستطيع أن يتكلم أو يفكر من شدة الحزن على أخيه ابن الثالثة عشرة.

يقول المقري - علي لسان عبدالرحمن بن معاوية -: "...، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً ومضيت ولحقني بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري، فدلّ علي عبد سوء له العامل، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا فاشتددنا في الهرب، فسبقناها إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حاثاً لنفسي وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تقتل ياأخي، إلى إلى، فلم يسمعني، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشي الغرق، فاستعجل الإنقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد هم بالتجرد للسباحة في أثري، فاستكفه أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ملأني مخافة، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساع على قدمي، فلجأت إلى غيضةٍ أشبة، فتورايت فيها حتى انقطع الطلب... " [(١)].

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر، ولحق به مولياه بدر وسالم، أنفذتهما إليه أخته أم الأضبع بشيء من المال والجوهر، ثم جاز إلى برقة والتجأ غلي أخواله بني نفزة، وهم من برابرة طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعي راح، وأقام لديهم طويلا يرقب الأحداث، وقد كانت إفريقية في ذلك الوقت مطمح الخوارج والمغامرين، وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد انتزعها لنفسه سنة ١٢٧هـ، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبني العباس ودخل في طاعتهم، وكان عبد الرحمن بن حبيب يخشي علي سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية فطارد اللاجئين منهم إليها،

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٥٦.

وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك كانا قد استجارا به، واعتقل آخرين وصادر أموالهم، خوفا من نبوءة يهودي قد تنبأ بظهور دولة أموية في الأندلس، وكان في بلاط عبد الرحمن بن حبيب يهودي عالم بالحدثان، قد صحب مسلمة بن عبد الملك، قد ذكر لابن حبيب أنه يغلب علي الأندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن له ضفيرتان ولما ظهر عبد الرحمن حاول القبض عليه وقتله حتي لا تتحقق النبوءة [١]، لا سيما وأن عبد الرحمن بن معاوية من أمراء بني أمية أصحاب الحسب والنسب وسادة العرب وأشرافهم، الذين أخذوا يفدون إلى إفريقية لتطرفها وبعدها عن الخلافة العباسية وهو يخاف علي إمارة إفريقية والأندلس من أمراء بني أمية، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصي، وتجول حينا في تلك الأنحاء، ولقي كثيرا من الصعاب والخطوب، وكان يري الموت والأسر ينذرانه في كل خطوة. وأقام حينا مختفيا عند شيخ من شيوخ البربر يدعي وانسوس، كانت له فيما بعد لديه حظوة، ثم نزل عند قوم من زناته علي شاطيء البحر، ولحق حينا بمليلة وغيرها، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها، ويرقب فرص العبور إليها [٢].

يقول المقري - علي لسان عبد الرحمن بن معاوية -: "... ثم خرجت أؤم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية... وسار حتى أتى إفريقية وقد ألحقت به أخته شقيقته أم الأصبغ مولاه بدراً، ومولاه سالماً، ومعهما دنانير للنفقة، وقطعة من جوهر، فنزل بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من فل بني أمية، وكان عند واليها عبد الرحمن بن حبيب الفهري يهودي حدثاني صحب مسلمة بن عبد الملك، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك القوم، واسمه عبد الرحمن، وهو ذو ضفيرتين يملك الأندلس ويورثها عقبه، فاتخذ الفهري عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر إلى ضفيرتيه قال لليهودي: ويحك، هذا هو، وأنا قاتله، فقال له اليهودي: إنك إن قتلته فما هو به، وإن غلبت عن تركه إنه لهو. وثقل فل بني أمية على ابن حبيب صاحب إفريقية، فطرد كثيراً منهم مخافة، وتجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا

---

(١) أغلب الظن أن أمثال هذه القصص ملفقة، وأن الغرض الأساسي منها هو تمجيد البطل، ونسب قصص ونبوءات خارقة له لتمجيده وإعلاء شأنه. انظر ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٠.

(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٥٠، ١٥١، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ١٧٧، ١٧٨.

به فقتلهما، وأخذ مالاً كان مع اسماعيل ابن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه، وطلب عبد الرحمن فاستخفى،...

وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفياً خمس سنين، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط، وتقلب في قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قومٍ من زناتة، وأخذ في تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالي بني أمية وشيعتهم بها (١).

وظل عبد الرحمن بن معاوية يتحين الفرص للعبور إلى الأندلس والسيطرة عليها، حتى واتته الفرصة بالصراع الذي دب بين اليمنية والمضرية، فبعث بدرا مولاه إلى الأندلس لسبر غور شئونها ودراسة أحوالها وكيفية الولوج إليها والسيطرة علي مقاليد الأمور بها، وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام، فنزل بدر بساحل البيرة (كورة من كور غرناطة) وكانت منزل جند الشام، وفيها تجتمع عصبة بني أمية، وكانت رياسة الأمويين (او المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالي بني أمية هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد، فاجتمع بدر بأبي عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن وناشده العمل لنصرته، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته، ولاسيما بين اليمنية، وهم خصوم يوسف الفهري ومنافسوه، فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة، وكانت بينه وبين الصميل مودة وصداقة، فكر في التماس عونه في ذلك المشروع، وسار إليه مع عبد الله بن خالد في طليطلة، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزما عن سرقسطة وفي نفسه مراره من يوسف لأنه قصر عن غوثه وإنجاده، ففاوضاه في أمر عبد الرحمن وطلبا منه العون والتأييد، ولكن الصميل أبدي فتورا وترددا، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف، وأن ينزل آمنا في ظله، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة، وكان الصميل في الواقع يحرص علي أن تبقي السلطة ليوسف، لأنه مستأثر في ظله بالنفوذ والسلطان، ويشاركه في تدبير الأمر وحكم الأندلس، فعاد أبو عثمان وزميله إلى البيرة ونشطا في بث دعوتهما فيها، وحث اليمنية علي القيام للأخذ بالثأر، وبث دعاتهما في أنحاء الأندلس، يدعون إلى تأييد عبد الرحمن بن معاوية. وعاد بدر إلى عبد الرحمن الأموي علي مركب خاصة جهزها له أبوعثمان ومعه عدة من أنصار الأموية، وأفضي إليه بنتائج الرحلة، فاستبشر عبد الرحمن وعبر

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ١٥٦ - ١٥٧.

البحر معهم إلى الأندلس، ونزل بساحل البيرة في ثغر المنكب [١]، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨هـ / سبتمبر ٧٥٥م فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه في طرش [٢]، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خططه. وقد أعد للأمير مايصلحه من المركب والملبس والمنزل فغلظ أمر ابن معاوية وأقبل الناس من كل مكان إليه [٣].

يقول المقري عن تلك الأحداث: "... كانت الموالي المروانية المدونة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمائة والخمسمائة، ولهم جمرة، وكانت رياستهم إلى شخصين: أبي عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، وهما من موالي عثمان، رضي الله تعالى عنه، وكانا يتوليان لواء بني أمية يعتقبان حمله ورياسة جند الشام النازلين بكورة إلبيرة، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبي عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية وسببه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله، إذ كان الأمر لجده هشام فهو حقيقٌ بوراثته، ويسأله القيام بشأنه وملاقاة من يثق به من الموالي الأموية وغيرهم، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليبلي عذراً في الظهور عليها، ويعده بإعلاء الدرجة، ولطف المنزلة، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه، ويرجو قيامه معه، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحنق على المضرية لما بين الحيين من التراث، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه، وبانت له فيه طماعية، وكان عند ورود بدر قد تجهزإلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصميل بن حاتم وجه دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور: لو كنا ذاكرنا الصميل خبر بدرٍ وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا، وكانا على ثقةٍ في أنه لايظهر على سرهما أحداً لمروءته وأنفته، فقال له: إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا، قال أبو عثمان: فنمسح إذاً على أمره، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها، لا يريد غير ذلك، فاتفقا على هذا. فلما ودعا الصميل خلوا به في ذلك،

---

(١) المنكب ALMEUNECAR.
ميناء على الساحل الجنوبي الشرقي من الأندلس، نزل فيها الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (عبد الرحمن الداخل) عند دخوله الأندلس، وهي الآن مصيف مدينة غرناطة.

(٢) وهي قرية تقع غربي المنكب علي مقربة من البحر.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٤٦، المقري، نفح الطيب، ٢ / ٦٥، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٥٢.

وقد ظهر لهما منه حقدٌ على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سرقسطة، فقال لهما: أنا معكما فيما تحبان، فاكتبا إليه أن يعبر، فإذا حضر سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له، ويزوجه بابنته، فإن فعل وإلا ضربنا صلعته بأسيفنا، وصرفنا الأمر عنه إليه، فشكراه وقبلا يده ثم ودعاه، وأقام بطليطلة وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر، وانصرفا إلى وطنهما بالبيرة، وقد كانا لقيا من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم، فطارحاهم أمر ابن معاوية، ثم دسّا في الكور إلى ثقاتهما بمثل ذلك، فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر، وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس... وفي رواية أن الصميل لان لهما في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبر ذلك لما انصرفا، فتراجع فيه، فردهما، وقال: إني روّيت في الأمر الذي أدرته معكما فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قومٍ لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، وهذا رجلٌ نتحكم عليه، ونميل على جوانبه، ولا يسعنا بدل منه، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لئلا أغركما من نفسي، فإني أعلمكما أن أول سيف يسلّ عليه سيفي، فبارك الله لكما في رأيكما، فقالا له: ما لنا رأي إلا رأيك، ولا مذهب لنا عنك. ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان، وانصرفا عنه إلى إلبيرة عازمين على التصميم في أمره، ويئسا من مضر وربيعة، ورجعا إلى اليمانية، وأخذا في تهييج أحقاد أهل اليمن على مضر، فوجداهم قوماً قد وغرت صدورهم عليهم، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم، واغتنما بعد يوسف صاحب الأندلس في الثغر، وغيبة الصميل، فابتاعا مركباً ووجها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بدر الرسول، وفيهم تمام بن علقمة وغيره، وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه إلى مواليه، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر، فبثوا من ذلك في الجهات مادبّ به أمرهم، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشطٌ مغيلة من بلاد البربر، وهو يصلي، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله، فبشره بدر بتمكن الأمر، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيره، فقال له عبد الرحمن: ما اسمك؟ قال: تمام، قال: وما كنيتك؟ قال: أبو غالب، فقال: الله أكبر! الآن تمّ أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك، ولم يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمن. وبادر عبد الرحمن بالدخول إلى المركب، فلما هم بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه، ففرقت فيهم من مال كان مع تمام صِلاتٌ على أقدارهم، حتى لم يبق أحد حتى

أرضاه، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بحبل الهودج يعقل المركب، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف، فقطع يد البربري، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم، حتى حلوا بساحل إلبيرة في جهة المنكب، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد، فنقلاه قرية طرش [(١)] منزل أبي عثمان، فجاءه يوسف بن بخت، وانثالت عليه الأموية، وجاءه جدار بن عمرو المذحجي من أهل مالقة، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبي من إشبيلية فاستوزره، وانثال عليه الناس انثيالاً، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام، وأمده الله تعالى بقوة عالية، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر... [(٢)].

وفي تلك الأثناء كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري المتغلب علي الأندلس قد انتصر علي الثائرين عليه في سرقسطة عامر العبدري، والحباب الزهري، فلما تم له الأمر بالاستيلاء علي سرقسطة والقبض علي الزعيمين الثائرين وإعدامهما، وبدأ يتخلص من خصومه الذين كانوا يعارضون بعض تصرفاته حتى تكون الأندلس خالصة له ولذريته من بعده، ولكنه فوجيء بقدوم عبد الرحمن بن معاوية الأموي إلى الأندلس وتأييد موالي الأمويين والقبائل اليمنية له، يقول المقري: "... وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة، وعلى عامر العبدري الثائر معه، فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من طليطلة وقد ضرب عنق عامر العبدري وابن عامر برأي الصميل إذ جاءه قبل أن يدخل رواقة رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق، واجتماع الموالي المروانية إليه، وتشوف الناس لأمره، فانتشر الخبر في العسكر لوقته، وشمت الناس بيوسف لقتله القرشين عامراً وابنه، وختره بعدهما، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل، وتنادوا بشعارهم، وقوضوا عن عسكره، واتفق أن جادت السماء بوابلٍ لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصميل قيس وأتباعه... " [(٣)].

---

(١) طرش (Torrox) على الساحل الشرقي، وهي تعد اليوم في مديرية مالقة.

(٢) نفح الطيب، ٢ / ٦٥.

(٣) نفح الطيب، ٢ / ٦٥.

لهذا بدأ يضع يوسف الفهري الخطط للتخلص منه، وقد شاور الصميل في أمره فأشار عليه بالمكر والخديعة ومخادعته وهون عليه أمره، لحداثة سنه، وقال: " هو قريب عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعو إليه، ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه والذين سعوا له بما تحب " [1] وأشار عليه بإغرائه وأن يعرض عليه مصاهرته، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرش يعرض عليه أن يزوجه بابنته ويقطعه كورة البيرة (غرناطة) أو كورة رية أو يقطعه ما بينهما، وبعث إليه هدية وشيئا من المال وكتابا طويلا يرغبه فيه بمحالفته. يقول فيه: "... أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتأبش من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها وكذبونا! وبه - جل وعلا! - نستعين عليهم، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية غبش، حتى عصموا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفا، وجنحوا إلى النقض! والله من ورائهم محيط! فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى لك ممن لجأت إليه! أكنفك، وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت وبحيث تريد! ثم لك عهد الله وذمته في ألا أغدر بك، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره! [2].

ولكن من عبد الرحمن الأموي نصحوه بعدم الاغترار بتلك الوعود الزائفة، قال ابن عذاري: "... قال ابن عيسى: فحدثني تمام بن علقمة أن عبد الرحمن، لما أتاه كتاب الفهري بما فيه وبتزويجه ابنته، أشار عليه كل من أتاه من العرب والأمويين ألا يقبل ذلك منه، إلا أن يعتزل له عن الملك ويبايعه، وإلا حاكمه إلى الله؛ وقالوا له: إنما يمكر بك، ولا يفي لك بشئ، لأن وزيره ومالك أمره الصميل، وهو غير مأمون!... " [3].

وفي تلك الأثناء قوي ساعد عبد الرحمن الأموي بعد توافت عليه وفود القبائل اليمنة مؤيدة مبايعة له، من أرجاء الأندلس "... ثم انتقل من البيرة إلى كورة رية، إلى شذونة، إلى مورور، إلى كورة إشبيلية، والناس يتلقونه بالبشر والترحيب، ويعطونه من الانقياد والطاعة أوفى نصيب... " [4].

* * *

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٤٥، المقري، نفح الطيب، ٢ / ٦٥.
(٢) البيان المغرب، ٢ / ٤٧.
(٣) البيان المغرب، ٢ / ٤٧.
(٤) البيان المغرب، ٢ / ٤٧.

موقعة المصارة والاستيلاء على قرطبة

وفي الوقت الذي كانت دائرة التأييد تزداد اتساعا في بقاع الأندلس لعبد الرحمن الأموي، وبدأت جموع المؤيدين والمتطوعين تلتف حوله، كانت القبائل العربية والبربرية تنفض من حول يوسف الفهري والصميل، وقد وهن جيشه وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموي فزادته تفرقا وضعفا، وبدأ عبد الرحمن الأموي يتحرك بقواته باتجاه قرطبة، وخرج يوسف بقواته إلى المصارة [١] في ظاهر قرطبة من الغرب علي ضفة نهر الوادي الكبير، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه علي ضفة النهر الجنوبية، في قرية مقابلة تسمي " بلة نوبة " ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة، فلم يأت الضحي حتى مزقت خيل يوسف، وهزم جيشه هزيمة شديدة ونهبت أسلابه، وقتل كثير م وجوه القيسية والفهرية، وفر يوسف صوب طليطلة، حيث كان ولده عبد الرحمن، وفر الصميل صوب جيان، ودخل عبد الرحمن ا لأموي وصحبه قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع علي الاعتدال والقناعة، وحمي أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من العبث، وصلي الجمعة في الجامع، ثم نزل بالقصر، وبويع في الحال بالإمارة، وذلك في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ/ ١٣ مايو سنة٧٥٦م [٢].

* * *

---

(١) المصارة: تنطق في المصادر الأوربية alameda ألاميدة وأصل هذه الكلمة لاتيني وهو almeo أي شجر الصفصاف أو الحور وهو شجر طويل عريض الأوراق، والمكان الذي يكثر فيه يسمى (الأميدية) وهذا الاسم منتشر في إسبانيا ويطلق على المكان الممتد في جنوب غرب قرطبة على الوادي الكبير، وتسميه المصادر العربية المصارة أو المسارة وفيه حدثت الوقعة الفاصلة التي انتصر فيها عبدالرحمن الداخل الأموي على يوسف الفهري وأسس على أثرها الدولة الأموية الأندلسية.

(٢) البيان المغرب، ٢ / ٤٨، ٤٩، نفح الطيب، ٢ / ٦٥، ٦٦.

ولاية عبد الرحمن الداخل

بدأ عبد الرحمن الداخل ينظم الأمور في بلاد الأندلس، كانت هناك ثورات كثيرة جدا في كل مكان من أرض الأندلس، وبصبر شديد وأناة عجيبة أخذ عبد الرحمن الداخل يراوض هذه الثورات الواحدة تلو الأخرى، وبحسب ما يتوافق معها أخذ يستميل بعضها ويحارب الأخرى.

وفي فترة حكمه التي امتدت أربعة وثلاثين عاما متصلة، من سنة ثمان وثلاثين ومائة وحتى سنة اثنتين وسبعين ومائة كانت قد قامت عليه أكثر من خمس وعشرين ثورة، وهو يقمعها بنجاح عجيب الواحدة تلو الأخرى، ثم تركها وهي في فترة من أقوى فترات الأندلس في التاريخ بصفة عامة.

وكان أول ما عني به عبد الرحمن الأموي بعد المصارة، هو القضاء علي خطر يوسف والصميل، وكان يوسف قد فر عقب الموقعة إلى طليطلة، وفر الصميل صوب جيان معقل قومه، وأخذا في تجميع القوات والاستعداد لمواجهة عبد الرحمن الأموي، وسارا بجيشيهما باتجاه البيرة - التي كانت تحت سيطرة عبد الرحمن - ففر عامله منها، واجتمع أهل تلك الأنحاء علي يوسف ونزل يوسف بالبيرة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن، ولكنه ماكاد يستقر بالبيرة حتى بادر عبد الحمن بالمسير إليه، وترك حامية علي قرطبة لحليفه وقائده أبي عثمان، وسار بالجيش باتجاه البيرة حيث يتحصن يوسف الفهري والصميل وأتباعهما، ولما دنا من معسكرهما شعرا بأن لا قبل لهم بمواجهة، فعرضا عليه الصلح علي أن يدع لهما ما كان لهما من الأموال والأملاك، وأن يؤمنهما في النفس والمال والأهل، وأن يسمح لهما بسكني قرطبة تحت رعايته ورقابته، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح علي ذلك، وعلي أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمدا أبا الأسود رهينة لديه، يعتقلهما في قصر قرطبة برفق وكرم، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور، وتم عقد الصلح بين الجانبين في صفر سنة ١٣٩هـ، وتم تبادل الأسري بين الفريقين، وانفض جندهما، وتصافي الفريقان، ونزل يوسف بشرقي قرطبة بقصر الحر الثقفي، أحد الولاة السابقين، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) وأبدي عبد الرحمن نحوهما عطفا ولينا، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة، ويحرص علي تجريدهما من كل سلطة وقوة [1].

* * *

---

(١) نفح الطيب، ٢ / ٦٦، البيان المغرب، ٢ / ٥٠، محمد عبد الله عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ١ / ١٥٨.

ثورة يوسف الفهري
على ابن معاوية ومقتله هو والصميل

ونتيجة لتسامح عبد الرحمن مع خصومه وعدم معاقبتهم وإنزال العقاب بهم، وسياسته الحكيمة، فقد أقبل عليه من المشرق في سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م الكثير من بني أمية ومواليهم فاستقبلهم الأمير استقبالا حسنا، وأكرمهم وأحسن جوائزهم، وأسند إلى كثير منهم بعض المناصب والولايات [١].

وقطع بعد الرحمن أعوامه التالية في كفاح مستمر، يتلقي وثبات الخوارج عليه من كل صوب، وكان أول الخوارج عليه يوسف الفهري الذي لم يطمئن لأمان عبد الرحمن ابن معاوية وظلت المخاوف تساوره من ناحيته، وشعر أنه في شبه اعتقال، وأن
عبد الرحمن يضيق عليه الخناق، ويؤلب عليه صنائعه ينازعونه في أملاكه وأمواله أمام القضاء، والقضاء يميل إلى غبنه وإعناته، حتي ذهبت معظم أملاكه، ووهو يشعر أن عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد، فلم يزل يتحين الفرص للفرار، وأخذ يكاتب أنصاره في ماردة وطليطلة، وانتظر حتى وافته الفرصة للفرار وفر من قرطبة في سنة ١٤١هـ وحاول أن يستميل الصميل والشامية إلى جانبه فلم يوفق إلى ذلك، فمضي إلى جماعات من البلديين في لقنت وماردة وطليطلة، وكان بها معظم أصهاره وأنصاره وما زال بهم حتي أغراهم بالانضمام إليه، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر، واجتمع له زهاء العشرين ألفا، فثاروا ضد عبد الرحمن في المناطق المحيطة بهم، واستبعد عبد الرحمن أن يكون يوسف الفهري قد قام بذلك العمل من تلقاء نفسه وأتهم الصميل بالتدبير لذلك التمرد معه، وعبثا حاول الرجل تبرئة ساحته من هذه التهمة، وانتهي أمره أن ألقي به في السجن وسجن معه ابني يوسف وكانا عند عبد الرحمن رهينتين [٢].

وبينما كان عبد الرحمن يحشد قواته، سار يوسف بقواته إلى إشبيلية، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمرواني، فحاصره في إشبيلية حتى أتاه ابنه عبد الله بالمدد، ثم وقعت بينهما معارك شديدة قتل فيها كثير من الفريقين، وارتد يوسف منهزما بفلوله، وكان عبد الرحمن الأموي يرابط عندئذ بقواته في حصن

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٤٩.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ٢ / ٤٩، علي حسين الشطشاط، تاريخ الأسلام في الأندلس، ص ٩٣.

المدور، والواقع علي مقربة من غربي قرطبة، علي نهر الوادي الكبير، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره، فتوقف عن مطاردته، وظل يوسف هائما علي وجهه مترددا في إتخاذ قراره حتى تأمر عليه بعض مواليه واغتالوه علي مقربة من طليطلة، وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن بن معاوية في قرطبة سنة ١٤٢هـ / ٧٥٩م، ثم مالبث عبد الرحمن بن معاوية أن قتل عبد الرحمن بن يوسف الفهري المعتقل لديه، ورفع رأسيهما فوق الرماح علي أمام القصر ليلقي الرعب في قلوب الخوارج والمخالفين. (١)

أما ولد يوسف الثاني وهو محمد أبو الأسود فقد استطاع أن يفر من سجنه وقصد توا إلى طليطلة معقل عصبة أبيه وتحصن بها، فبعث عبد الرحمن في أثره جيشا بقيادة تمام بن علقمة وعينه واليا علي طليطلة، فحاصرها حتى سلمت، وأسر محمد بن يوسف ثانية وجيء به إلى قرطبة واستولت جنود عبد الرحمن علي طليطلة في ذي الحجة سنة ١٤٢هـ وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية، وزج محمد إلى السجن ثانية وادعي العمي حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة، وعاد يرفع علم الثورة كما سيأتي، واستطاع أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متنكرا قبل سقوطها، وأما الصميل فلبث يرسف في سجنه مدي أسابيع أخري حتى دس عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقا أواخر سنة ١٤٢هـ (٢).

هكذا صفا الجو لعبد الرحمن وصار له أمر الأندلس كله دون منازع، وانتهي علي يديه العصر الأول من أعصر الأندلس وهو عصر الولاة، واختفي من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان هذا العصر في الأندلس، اختفيا حاملين معهما ثارات العصبية وأوضار القبلية، وخلفا الأندلس لتقوم فيه دولة إسلامية واحدة تقيم شأن الأندلس الإسلامي بعد أن كاد أن ينهار، وكان من حسن حظ بلاد الأندلس أن اختفي ذلك العصر المضطرب، ولو استمر لكان في ذلك بوار أمر الأندلس الإسلامي جملة، ولو لم تطأ قدم عبد الرحمن أرض هذه البلاد لصار تاريخ الإسلام فيها علي إختلاف وتفرق وحروب بين المسلمين، ثم يكتسحهم أعداؤهم وينتهي أمر الإسلام في أقل مما إنتهي إليه فيما بعد(٣).

* * *

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٥١، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٥٩.
(٢) نفح الطيب ٢/ ٦٧، البيان المغرب ٢/ ٤٩، ٥٠، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس ١/ ١٥٩.
(٣) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٦٩٠.

ثورات عربية ومؤمرات إفرنجية

ثورة رزق بن النعمان الغساني سنة ١٤٣هـ

بالرغم من نجاح عبد الرحمن بن معاوية في القضاء علي يوسف الفهري والصميل، وبالجملة القضاء علي عهد الولاة، وماكان به، إلا أن المتاعب توالت عليه متمثلة في الثورات الي قامت ضده، والمؤامرات الإفرنجية التي افتعلت له، وكانت أولي الثورات التي قامت ضد عبد الرحمن بن معاوية تلك التي قام بها رزق بن النعمان الغساني وحليفه القاسم بن يوسف الفهري سنة ١٤٣هـ، وكان القاسم حينما فر من طليطلة - كما قدمنا - قد سار إلى الجزيرة الخضراء، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه، الذي تعاطف معه وأيده، وامده بالعدة والعتاد وخرج معه بالأنصار والمرتزقة واستولي علي شذونة، ثم استولي علي إشبيلية، فأسرع إليه عبد الرحمن بن معاوية وأوقع به الهزيمة النكراء قتل علي إثرها رزق بن النعمان وتمزق جيشه، أما القاسم فقد فر إلى شذونه، ولكن عبد الرحمن ظل يتعقبه حتى ألقي القبض عليه ومزق قواته. يقول ابن الأثير: "... وفيهاثار بالأندلس رزق بن النعمان الغساني على عبد الرحمن، وكان رزق على الجزيرة الخضراء، فاجتمع إليه خلق عظيم، فسار إلى شذونة فملكها ودخل مدينة إشبيلية، وعاجله عبد الرحمن فحصره فيها وضيق على من بها، فتقربوا إليه بتسلمي رزق إليه فقتله فأمنهم ورجع عنهم.. "[1].

* * *

(١) الكامل في التاريخ، ٣ / ٢١، وانظر أيضا: أخبار مجموعة، ص ١٠١، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٦٠.

ثورة عبد الغافر اليماني: سنة ١٤٤ هـ

ولم يكد عبد الرحمن بن معاوية يفرغ من ثورة رزق بن النعمان الغساني حتى ثار عليه عبد الغافر اليماني زعيم اليمانية، واستولي علي القري المحيطة بقرطبة وأيدته في ثورته جموع كثيرة من البربر، فالتقي به عبد الرحمن بوادي قيس علي مقربة من قرطبة واقتتل الفريقان قتالا شديدا فهزم عبد الغافر وانفض أتباعه من حوله ففر إلى لقنت فطارده عبد الرحمن حتى قتل أولوفا من أتباعه. يقول ابن عذاري: "... وثار على الأمير عبد الرحمن عبد الغافر اليماني بإشبيلية، وتغلب على ما جاور قرطبة؛ فخرج إليه الأمير؛ فخالفه عبد الغافر ونهض يريد قرطبة، رجاء أن يجدها خالية، والإمام عبد الرحمن في الثغر يسدُّ خلله، ويحسم علله؛ فقدم مسرعا حين وافاه الخبر، ولم يلو على ما تعذر، ومحلة عبد الغافر على وادي قيس قد ملأت السهل والوعر. فداخل الإمام عبد الرحمن البربر؛ وكانوا العدد الوافر الأكبر؛ فنزع الأكثر منهم إليه، وصاروا في حزبه ولدبه. ووقعت الهزيمة على عبد الغافر، وأخذ من معه في الفرار والنفار؛ فلم يرفع الإمام عنهم سيفا، وقتل منهم ثلاثين ألفا. وكانت هزيمة هي مدّ الدهر مذكورة، والحفرة التي جمعت رؤوسهم بذلك المكان مشهورة... " [١].

* * *

ثورة حيوة بن ملامس الحضرمي: سنة ١٤٤ هـ

ورفع لواء الثورة بعده في إشبيلية أيضا، حيوة بن ملامس الحضرمي كبير زعمائها، وتغلب علي إشبيلية واستجة وكثير من نواحي الغرب، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره، فسار إليه عبد الرحمن، ونشبت بينهما معارك عنيفة علي مدي أيام، ودافع الثوار عن أنفسهم بمنتهي البسالة، حتى كادت الدائرة تدور علي عبد الرحمن، ولكن التفرق دب أخيرا في صفوف الثوار، ولحقهم الإعياء والملل، فوقعت عليهم الهزيمة، وفر زعيمهم حيوة، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس العفو والأمان سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م [٢].

* * *

---

(١) البيان المغرب، ٢ / ٥٣.

(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٦١.

ثورة العلاء بن مغيث الجذامي
(أو اليحصبي أو الحضرمي)

ثم كانت الثورة التي قام بها العلاء بن مغيث الحضرمي باجة سنة ١٤٦هـ / ٧٦٣م بباجة، ودعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور والعباسيين ونشر الأعلام السوداء، ويقال أن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور قد راسل العلاء بن مغيث الحضرمي كي يقتل عبد الرحمن بن معاوية، ومن ثم يضم الأندلس إلى أملاك الخلافة العباسية فجاء العلاء بن مغيث الحضرمي من بلاد المغرب العربي وعبر بلاد الأندلس، ثم قام بثورة ينادي فيها بدعوة العباسيين، ويرفع الراية السوداء التي أرسلها له الخليفة أبو جعفر المنصور.

لم يتوان عبد الرحمن الداخل، فقامت لذلك حرب كبيرة جدا بين العلاء بن مغيث الحضرمي وعبد الرحمن بن معاوية، وكعادته في قمع الثورات انتصر عليه عبد الرحمن بن معاوية، ووصلت الأنباء إلى أبي جعفر المنصور، وكان في الحج بأن عبد الرحمن الداخل قد هزم جيش العلاء الحضرمي هزيمة منكرة، وأن العلاء بن مغيث الحضرمي قد قُتل وهنا قال أبو جعفر المنصور: قتلنا هذا البائس - يعني العلاء بن مغيث الحضرمي - يريد أنه قتله بتكليفه إياه بحرب عبد الرحمن بن معاوية، ثم قال ما لنا في هذا الفتى من مطمع (يعني عبد الرحمن بن معاوية)، الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر يقول ابن عذاري: "... وفي سنة ١٤٦، ثار العلاءبن مغيث الجذامي بباجة، ودعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السود؛ فاتبعه الأجناد، وتطلعه العباد، إلى أن كادت دولة الأمير أن تنصرم، وخلافته أن تنخرم. فخرج إليه من قرطبة، وصار بقرمونة؛ فتحصن بها مع مواليه وثقات رجاله؛ فنازله العلاء بن مغيث منازلة شديدة، وحاصره بها أياما عديدة؛ فلما طال الحصار هنالك، وتخلخل عسكر العلاء لذلك، وعلم عبد الرحمن ما هم عليه من الانزعاج، وأنهم قد هموا بالإلجام والإسراج، أمر بنار، فأوقدت، ثم أمر بأغمدة سيوف أصحابه، فأحرقت؛ وقال لهم: اخرجوا معي لهذه الجموع، خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع! وكانوا نحو سبعمائة مفحصين إلى أعاديهم. فدارت الحرب بينهم طويلا، إلى أن صنع الله جميلا؛ وزلزل قوم العلاء وأصحابه، فولوا منهزمين، وصار أمرهم آية للعالمين؛ وقتل العلاء فيمن قتل من أولئك الأقوام، وطيف برأسه في ذلك المقام.

وقيل إن أبا جعفر المنصور كان أرسل إلى العلاء بن مغيث بولاية الأندلس. فنشر الأعلام السود، وقام بالدعوة العباسية بالأندلس؛ فانحشر إليه

الناس. ولما ظفر به الإمام على ما تقدم، أخذ رأسه، وفرغ وحشي ملحا وصبرا، وجعل معه لواء أبي جعفر المنصور، وأدخل في سفط؛ وبعثه مع رجال، وأمرهم أن يضعوا السفط بمكة؛ فوافقوا المنصور بها حاجا في تلك السنة؛ فجعل السفط عند باب سرادقه. فلما نظر إلى ما فيه، قال: إنا لله! عرضنا بهذا المسكين للقتل! الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان! يعني عبد الرحمن... " [(١)].

لم يحاول المنصور العباسي أن يُعيِّن على الأندلس أحدًا بعد هذا الذى قُتل، ولم يحاول أن يرسل جيشًا لحربه، بل فضَّل أن يقر بالأمر الواقع ويعترف له بلقب: " صقر قريش "، فقد أطلق عليه أبوجعفر المنصور هذا اللقب لاعترافه بشجاعته وقوته، فيروى أن أبا جعفر قال يومًا لبعض جلسائه: " أخبروني من صقر قريش من الملوك؟ قالوا ذلك أمير المؤمنين الذى راضى الملوك، وسكن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء (يقصدون أبا جعفر المنصور). قال: ما قلتم شيئًا. قالوا: فمعاوية؟قال: لا. قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال ما قلتم شيئًا. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال صقر قريش عبدالرحمن بن معاوية الذى عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميّا منفردًا بنفسه فمصَّر الأمصار، وجنّد الأجناد، ودَوَّن الدواوين، ونال ملكًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته، إن معاوية نهض بمركب حمله عمر وعثمان عليه وذلَّلا له صعبه، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد بأمره مستصحب لعزمه، فمد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين " [(٢)].

وَكَانَ المَنْصُوْرُ يَقُوْلُ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بن مُعَاوِيَةَ: ذَاكَ صَقرُ قُرَيْش، دَخَلَ المَغْرِبَ وَقَدْ قُتِلَ قَوْمُهُ، فلَمْ يَزَلْ يَضربُ العَدْنَانِيَّةَ بِالقَحْطَانِيَّةِ حَتَّى مَلَكَ. [(٣)] لرقي همته وبعد مطمحه.

* * *

(١) البيان المغرب، ٢ / ٥٢.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق الناشر دار إحياء التراث العربي، سنة النشر ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، مكان النشر بيروت /لبنان، ٤ / ٤٤٨، أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت، ٣ / ٣٣.
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٥ / ٢٥٢، الذهبي، تاريخ الإسلام، ١١ / ٢٤١.

ثورة المطري بمدينة لبلة
وغياث بن علقمة اللخمي بمدينة شذونه
وعبد الله بن خراشة الأسدي بجيان (سنة ١٤٩ هـ / ٧٦٦م)

وفي أوائل سنة ١٤٩ هـ / ٧٦٦م خرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بمدينة لبلة، مطالبا بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء، فهرعت إليه اليمانية وقوي جمعه، ثم سار إلى إشبيلية واستولي عليها، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المرواني لقلة جنده، ولبث ينتظر المدد، فسار عبد الرحمن إلى إشبيلية، وخرج في نفس الوقت غياث ابن علقمة اللخمي بمدينة شذونه، ناكثا لعهده، فسار عبد الرحمن أولا إلى إشبيلية، ففر المطري إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها، فحاصره عبد الرحمن وقطع له كل علاقة بأنصاره، وضيق عليه الخناق، حتى ضاق المطري ذرعا بالحصار فحاول الخروج من حصاره ومقاتلة قوات عبد الرحمن بن معاوية فقتل، بعد معركة عنيفة، وارتد أتباعه إلى القلعة من جديد وأختاروا خليفة بن مروان ليخلف المطري عليهم، ولكن المحاصرين راسلوا عبد الرحمن وطلبوا منه الأمان مقابل تسليمه قائدهم، وسلموا له قائدهم فقتله، واستولي عبد الرحمن علي القلعة وهدمها، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان [١].

يقول ابن الأثير: "... وخرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بالأندلس بمدينة لبلة. وسبب ذلك أنه سكر يوماً فتذكر من قتل من أصحابه اليمانية مع العلاء، وقد ذكرناه، فعقد لواء، فلما صحا رآه معقوداً فسأل عنه فأخبر به، فأراد حله ثم قال: ما كنت لأعقد لواء ثم أحله بغير شيء؟! وشرع في الخلاف، فاجتمعت اليمانية إليه وقصد إشبيلية وتغلب عليها وكثر جمعه، فبادره عبد الرحمن صاحب الأندلس في جموعه، فامتنع المطري في قلعة زعواق لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فحصره عبد الرحمن فيها وضيق عليه ومنع أهل الخلاف من الوصول إليه.

وكان قد وافقه على الخلاف غياث بن علقمة اللخمي، وكان بمدينة شذونة، وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل يريدون إمداد الطري، وهم في جمع كثير.

فلما سمع عبد الرحمن ذلك سير إليهم بدراً مولاه في جيش، فحال بينهم وبين الوصول إلى المطري، فطال الحصار عليه وقلت رجاله بالقتل، ففارقه بعضهم، فخرج يوماً من القلعة وقاتل فقتل وحمل رأسه إلى عبد الرحمن.

فقدم أهل القلعة عليهم خليفة بن مروان، فدام الحصار عليهم، فأرسل أهلها

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣ / ٤٨، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٦٣ - ١٦٤.

يطلبون الأمان من عبد الرحمن ليسلموا إليه خليفة، فأجابهم إلى ذلك وآمنهم، فسلموا إليه الحصن وخليفة، فخرب الحصن وقتل خليفة ومن معه، ثم انتقل إلى غياث، وكان موافقاً للمطري على الخلاف، فحصرهم وضيق عليهم، فطلبوا الأمان فآمنهم إلا نفراً كان يعرف كراهتهم لدولته، فإنه قبض عليهم، وعاد إلى قرطبة، فلما عاد إليها خرج عليه عبد الله بن خراشة الأسدي بكورة جيان، فاجتمعت إليه جموعٌ، فأغار على قرطبة، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً، فتفرق جمعه، فطلب الأمان، فبذله له عبد الرحمن ووفى له... " [١].

* * *

ثورة أبو الصباح بن يحيى اليحصبي سنة ١٥٠ هـ

وفي العام التالي عدت الثورة فاضطرمت في إشبيلية، ومدبرها وزعيمها في تلك المرة هو أبو الصباح بن يحى اليحصبي، صديق عبد الرحمن وحليفه، وكان أبو الصباح زعيم اليمنية في إشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس، فكان في طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته، وقاتل معه يوم المسارة، وغدا من خاصة أعوانه وأركان دولته، ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه، لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهري، ورد الأمر إلى اليمنية، أوكان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية، ثم عزله عنها لما ظهر له ضعفه وعجزه عن قمع الفتنة، فغضب أبو الصباح وأظهر الفتنة والخلاف، واجتمع إليه أنصاره، ورأي عبد الرحمن أن يأخذه باللين والملاطفة، فبعث إليه تمام بن علقمه يدعوه إلى قرطبة للتفاهم، ويبذل له ما يشاء من الوعود، فسار أبوالصباح إلى قرطبة في أربعمائة من رجاله واستقبله عبد الرحمن بالقصر، وعاتبه علي ما كان منه، فأغلظ أبو الصباح في الجواب، ولامه علي النكث بالوعود التي بذلها له، فأمر الفتيان بقتله، فقتل طعنا بالخناجر وانفض جمعه سنة ١٥٠ هـ [٢].

* * *

---

(١) الكامل في التاريخ، ٣ / ٤٨.

(٢) نفح الطيب، ٢ / ٦٦، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٦٤.

ثورة البربر في شمال الأندلس
بزعامة شقنا بن عبد الواحد سنة ١٥١هـ

ولم يمض وقت قليل علي القضاء علي فتنة أبو الصباح واليمنية حتى نشبت فتنة جديدة، شغلت بال عبد الرحمن عدة سنوات، وكان نشوبها في شمال شرق الأندلس بين البربر، وزعيمها ومثير ضرامها داعية بربري خطر يدعي شقنا بن عبد الواحد، وأصله من بربر مكناسة، وكان فقيها يعلم الصبيان، فزعم ذات يوم أنه سليل النبي ﷺ ومن ولد فاطمة والحسين ﷺ، وتسمي عبد الله بن محمد، فذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة وكانوا أكثرية في تلك المنطقة، والتف حوله الكثير من الأتباع وأصبح غصة في حلق عبد الرحمن الأموي، وظل يقاتله منذ بداية تمرده ودعوته الباطلة في سنة ١٥٢هـ / ٧٦٩م، وهذا الدعي يماطله ويخاتله، حتى تمكن عبد الرحمن من القضاء علي ثورته وقتله في سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦م [١].

يقول النويري: "... كان خروجه بشرق الأندلس في سنة إحدى وخمسين ومائة وكان من بربر مكناسة يعلّم الصبيان وكانت أمّه تُدعى فاطمة فادّعى أنه من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها وأنه من ولد الحسين، وتُسمّى بعبد الله بن محمد وسكن شنتبرية واجتمع عليه خلق كثير من البربر وعظُم أمرُهُ فسار إليه عبد الرحمن فلم يقف له وزاغ في الجبال، فكان إذا أمن انبسط وإذا خاف صعد الجبال حيث يصعُب طلبه. فاستعمل عبد الرحمن على طليطلة حبيب بن عبد الملك، واستعمل حبيب على شنتبرية سليمان بن عفان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وأمر بطلب شقنا فنزل شقنا إلى سليمان فقتله. واشتدّ ذِكر شقنا وطار اسمه، وغلب على ناحية قورية. وأفسد في الأرض، فعاد عبد الرحمن وغزاه في سنة اثنتين وخمسين ومائة بنفسه، فلم يثبت له شقنا، فأعياه أمره فعاد عنه، وسير إليه في سنة ثلاثٍ وخمسين بدراً مولاه، فهرب شقنا وأخلى حصنه شيطران، ثم غزاه عبد الرحمن بنفسه في سنة أربع وخمسين فلم يثبت له، فعاد عنه وبعث لحرْبه أبا عثمان عبد الله بن عثمان فخدعه شقنا وأفسد عليه جنده. فهرب عبد الله وغنم شقنا عسكره، وقتل جماعة من بني أمية كانوا في العسكر وذلك في سنة خمس وخمسين ومائة. وسار شقنا إلى حصن الهواريين وبه عامل لعبد الرحمن فمكر به شقنا حتى خرج إليه، فقتله وأخذ خيله وسلاحه وما كان معه. ولم يزل شقنا كذلك وعبد الرحمن يغزوه تارة بنفسه وتارة بجيوشه إلى سنة ستين ومائة فاغتاله أبو معْن وأبو خريَم وهما من أصحابه، فقتلاه

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٥٦ - ٥٧.

وأخذا رأسه ولحقا بعبد الرحمن واستراح الناس من شره... " (١).

يقول ابن الأثير: "... وفيها ثار في الشرق من الأندلس رجل من بربر مكناسة كان يعلم الصبيان، وكان اسمه شقنا بن عبد الواحد، وكانت أمه تسمى فاطمة، وادعى أنه من ولد فاطمة، عليها السلام، ثم من ولد الحسين، عليه السلام، وتسمى بعبد الله بن محمد، وسكن شنت برية، واجتمع عليه خلق كثير من البربر، وعظم أمره، وسار إلى عبد الرحمن الأموي فلم يقف له وراغ في الجبال، فكان إذا أمن انبسط، وإذا خاف صعد الجبال بحيث يصعب طلبه.

فاستعمل عبد الرحمن على طليطلة حبيب بن عبد الملك، فاستعمل حبيب على شنت برية سليمان بن عثمان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان وأمره بطلب شقنا. فنزل شقنا إلى شنت برية وأخذ سليمان فقتله، واشتد أمره، وطار ذكره وغلب على ناحية قورية وأفسد في الأرض... فعاد عبد الرحمن الأموي فغزاه في سنة اثنتين وخمسين ومائة بنفسه، فلم يثبت له فأعياه أمره، فعاد عنه وسير إليه سنة ثلاث وخمسين بدراً مولاه، فهرب شقنا وأخلى حصنه شطران، ثم غزاه عبد الرحمن الأموي بنفسه سنة أربع وخمسين ومائة، فلم يثبت له شقنا، ثم سير إليه سنة خمس وخمسين أبا عثمان عبيد الله بن عثمان، فخدعه شقنا وأفسد عليه جنده، فهرب عبيد الله، وغنم شقنا عسكره وقتل جماعة من بني أمية كانوا في العسكر.

وفي سنة خمس وخمسين أيضاً سار شقنا بعد أن غنم عسكر عبيد الله إلى حصن الهواريين المعروف بمدائن، وبه عامل لعبد الرحمن، فمكر به شقنا حتى خرج إليه، فقتله شقنا وأخذ خيله وسلاحه وجميع ما كان معه... وفيها (١٦٠ هـ) أرسل عبد الرحمن الأموي بالأندلس أبا عثمان عبيد الله بن عثمان، وتمام بن علقمة، إلى شقنا، فحاصراه شهوراً بحصن شبطران، وأعياهما أمره، فقفلا عنه، ثم إن شقنا، بعد عودهما عنه، خرج من شبطران إلى قرية من قرى شنت برية راكباً على بغلته التي تسمى الخلاصة، فاغتاله أبو معن وأبو خزيم، وهما من أصحابه، فقتلاه، ولحقا بعبد الرحمن، ومعهما رأسه، فاستراح الناس من شره... (٢).

* * *

---

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٢٣ / ٢٠١.

(٢) الكامل في التاريخ، ٣ / ٥٣، ٦٩.

المؤامرة الكبري ضد عبد الرحمن بن معاوية

أما أعظم المشاكل التي صادفت عبد الرحمن بن معاوية فهي مؤامرة كبري دبرها بعض ثوار الأندلس من العرب المعارضين لدولته في شمال الأندلس، وذلك سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨م وما يليها بالاتفاق مع الخليفة العباسي محمد المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥م) ومستعين في ذلك بقارلة (شارلمان بن بيبان) ملك الفرنجة الذي كان علي علاقة من الصداقة والمودة مع الخليفة العباسي بدافع من المصلحة المشتركة. ونلاحظ وجود تقارب بين الدولة العباسية والدولة الإفرنجية بسبب عدائهما المشترك للدولة الأموية في الأندلس، وكذلك وجود تقارب بين الدولة الأموية بالأندلس والدولة البيزنطية بسبب عدائهما المشترك للدولة العباسية وبسبب العداوة بين البابوية والدولة البيزنطية، وتعضيد الفرنجة للسياسةالبابوية.

هؤلاء الثوار العرب هم: عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي، أحد أصهار يوسف الفهر، ولقب بالصقلبي لأنه كان طويلا أشقرا، أزرق، أمعر، وقد ثار ابن حبيب سنة ١٦٢ هـ. كذلك ثار عليه سليمان بن يقظان الأعرابي والي برشلونة، وثار معه بسرقسطة حسين بن يحيى الأنصاري من ولد سعد بن عبادة، وأخيرا ثار عليه الرحامس بن عبد العزيز الكناني، والي الجزيرة الخضراء سنة ١٦٤ هـ [1].

وكان سليمان بن يقظان الأعرابي والي برشلونة وجيرونة والحسين بن يحيي الأنصاري والي سرقسطة تحالفا علي قتال عبد الرحمن بن حبيب وخلعه وكان استمرار الثورة في الجنوب وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته، مما يذكي عوامل الثورة في الولايات الشمالية، ويشجع مشاريع الزعماء والخوارج، مستغلين انشغاله بمحاربة الفاطمي، فأرسل إلى الشمال جيشا بقيادة ثعلبة الجذامي فهزمه سليمان وأسره وتفرق جيشه سنة ١٥٨هـ / ٧٧٥م، ولكن زعماء الثورة وعلي رأسهم سليمان بن يقظان لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه ورعة انتقامه، ففكروا في الانتصار بملك الفرنج، وسار سليمان مع نفر من صحبه الخوارج إلى لقاء شارلمان في ربيع سنة ٧٧٧م / ١٦٠ هـ، والتقوا به في بادربورن (شمال غرب المانيا) وعرض عليه التحالف في مقاتلة عبد الحمن بن معاوية، واقترح عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية، وتعهد بمعاونته، وبأن يسلمه المدن التي يحكمها هو وصحخبه من قبل أمير

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨٣، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢٠١.

قرطبة ولا سيما سرقسطة، وأخيرا بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد [١].

ولم يكن شارلمان يزهد في إمتلاك الأندلس، فقد كان قد فرغ من حروبه في الجزء الأعظم من أوربا، وضم غلي ملكه لمبارديا وسكسونيا وبافيير وبلاد الأفاريين وامتد ملكه حتى الدانوب، وكان يحلم بطرد المسلمين من الأندلس، ويطمع في ضم مملكةالقوط القديمة إلى إمبراطوريته. ويبدو أن المؤامرة قد دبرت بعلم محمد المهدي العباسي وموافقته وليس أدل علي ذلك من التجاء الرحامس إليه بعد أن فشلت ثورته علي ابن معاوية في الجزيرة الخضراء [٢].

ولبي ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق علي عروضهم، وبعث إلى سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن، دليلا علي الثقة والتحالف، فسجن في إحدي القلاع الفرنسية. وقيل أنه أنه سلمه له عقب مقدمه إلى إسبانيا، وعلي أي حال فقد كان حصول علي هذا الأسير وهو من خاصة عبد الرحمن وأكابر وزرائه في يد ملك الفرنج ضربة لعبد الرحمن ورهينة قيمة يمكن إستغلالها [٣].

بدأ عبد الحمن بن حبيب الفهري الصقلبي بالعبور إلى إفريقية مث عاد بجيش كبير من البربر نزل به في مدينة تدمير، وكنت مهمة سليمان بن يقظان الأعرابي الذهاب إلى سرقسطة وإعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب هو حسين بن يحيي الأنصاري، وكان علي الرحامس أن يعلن الثورة في جنوب الأندلس في نفس الوقت، وكان علي عبد الرحمن أن يحارب هؤلاء الثوار الواحد بعد الآخر، فبدأ بأخطرهم وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي هرب وتعلق بالوعر، وتمكن عبد الرحمن من إحراق سفن ابن حبيب الراسية في ساحل البحر بالقرب من بلنسية، فأرسل ابن حبيب إلى سليمان بن يقظان الأعرابي ببرشلونة يدعوه للدخول في أمره ويسأله أن يمده بمعونته، ولكن سليمان لم يجبه إلى طلبه، فامتعض الفهري وغزاه، ولكه انهزم وفر إلى تدمير والتجأ عند رجل من بربر البرانس يقال له مشكار البربري، فصار مشكار المذكور من ثقات أصحابه واطمأن إليه ابن حبيب، فقتله البرانسي في أواخر سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م [٤].

ثم وجه عبد الحمن بن معاوية همه بعد ذلك لمقاتلة الرحامس فأرسل إليه وزيره

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ١ / ١٦٩.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢٠٣.
(٣) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٧٠.
(٤) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢٠٢.

عبد الله بن خالد علي رأس جيش، ففر الرحامس علي مركب جاز به البحر حتى قدم على الخليفة العباسي.

وكان سليمان الأعرابي قد ثار بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيي الأنصاري، فبعث إليهما ابن معاوية قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي في جيش، غير أن سليمان نجح في هزيمة هذا الجيش وأسر ثعلبة وقدمة لشارلمان كمقدم إتفاق للتعاون والتحالف فيما بينهما في مواجهة عبد الرحمن الأموي (كما أسلفنا) ووجد شارلمان في ذلك فرصة مواتية لغزو الأندلس، فخرج علي رأس جيوشه في ربيع سنة ٧٧٨ م متجها نحو جبال البرتات، وهاجم بنبلونة واستولي عليها، ثم تقدم باتجاه سرقسطة وهو يعتقد أنها سوف تفتح له أبوابها، إذ كان ابن الأعرابي قد مهد السبيل أمامه لدخولها، ويبدوأن حسين بن يحيي طمع في الانفراد بولاية سرقسطة، فأغلق أبوابها أمام جيوش شارلمان، وصم أذنيه عن توسلات ابنالأعرابي، وطال حصار شارلمان للمدينة عبثا حتي يئس من فتحها، وكانت الأنباء قد وصلته بحدوث إضطرابات في بلاده، فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة والعودة إلى بلاده، وقد أرغم يسليمان علي التراجع معه لعجزه عن تحقيق وعده لشارلمان بإدخاله سرقسطة.

انسحب شارلمان بجيوشه نحو غالة، ولما وصل بنبلونة سحب حاميتها الإفرنجية وهدم أسوار المدينة، ولكن عبد الرحمن بن معاوية لم يتركه يرحل في سلام فقد أثار عليه قبائل البشكنس، وكانو يحقدون علي شارلمان لتخريبه بنبلونة، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير وهو يجتاز أحد دروب شعب رنسفالة، وأمطروها وابلا من السهام وكتل الحجارة، حتى قضوا علي مؤخرة هذا الجيش قضاء مبرما وقتل في رنسفالة عدد كبير من أعاظم قواده، وفي أثناء المعركة تمكن مطروح وعيشون ولدا سليمان بن الأعرابي من تخليصه ورجعا به إلى سرقسطة.

وهكذا انتصر الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأموي علي المتآمرين عليه، واضطر شارلمان إلى مادنته حتي يتفرغ لمشاكله الداخلية، وفي ذلك يقول المقري: ".. وخاطب عبد الرحمن قارله ملك الإفرنج، وكان من طغاة الإفرنج، بعد أن تمرّس به مدة، فأصابه صلب المكسر، تامّ الرجولية، فمال معه إلى المداراة، ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه للسلم، ولم تتم المصاهرة... " [١].

وبينما كان شارلمان يتراجع عن سرقسطة كان جيش عبد الرحمن بن معاوية يتأهب للسير نحو سرقسطة للقضاء علي الثوار، وقبل أن يصل الأمير عبد الرحمن

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٣٣١٠، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢٠٣.

إلى سرقسطة أوعز حسين بن يحيي الأنصاري إلى أحد أتباعه بقتل الأعرابي في المسجد الجامع سنة ١٦٤هـ / ٧٨٠م حتى ينفرد بحكم سرقسطة، أما عيشون بن سليمان فقد فر بعد مصرع أبيه إلى ربونة ثم عاد إلى سرقسطة عندما بلغه قدوم الأمير عبد الرحمن واليها وفاتحها، وتمكن أخيرا من اصطياد قاتل أبيه وقتله، وانضم إلى جيش الأمير وساهم في حصار حسين بن يحيي، فلما ضاق حسين بهذا الحصار، أرسل إلى الأمير يطلب الصلح وأرسل إليه ابنه سعيد رهينة، فقبل الأمير ذلك وفك الحصار عن سرقسطة ومضي إلى بنبلونة وقلنيرة، وكر علي البشقنس ثم علي بلاد الشرطانيس، ولكن سعيدا تمكن من الفرار وعاد إلى سرقسطة، وهنا نكث عهده مع الأمير، فسير عبد الرحمن قائده غالب بن تمامة بن علقمة علي رأس جيش حاصر به المدينة، ثم أدركه الأمير في العام التالي ١٦٦هـ / ٧٨٢م وقد عزم عزما صادقا علي إفتتاح المدينة، فشدد عليها الحصار، ونصب عليها ستة وثلاثين منجنيقا من كل جانب، فترامي القوم إليه وأسلموا له حسينا فقتله الأمير عبد الرحمن بن معاوية. وبذلك انتهت ثورة حسين بن يحيي [(١)].

وكانت آخر حلقة من سلسلة هذه الثورات، ثورة المغيرة بن الوليد بن معاوية، ابن أخت الأمير عبد الرحمن بن معاوية الذي قام بثورته سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م بالرصافة وقد ساعده فيها هذيل بن الصميل بن حاتم، واستطاع الأمير عبد الرحمن القضاء عليهما ثم قتلهما [(٢)].

ثم كانت مؤامرة محمد بن يوسف الفهري المعروف بابي الأسود، الذي أعلن ثورته علي الأمير عبد الرحمن بمدينة قسطلونة بشرق الأندلس، فهزمه عبد الرحمن في مخاضة الفتح في مستهل ربيع الأول سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م ففر إلى قورية فطارده الأمير عبد الرحمن وأرغمه علي الفرار إلى المفاز في أقصي شمال الأندلس، وكان ذلك آخر ما قام به عبد الرحمن بن معاوية من حروب إذ مات في جمادي الأولي سنة ١٧٢هـ / أكتوبر سنة ٧٨٨ م ودفن بالروضة من قصر الإمارة بقرطبة [(٣)].

* * *

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢٠٥، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١ / ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ١ / ٥٦ - ٥٧، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢٠٥.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٥٧، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢٠٥، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ٩٧.

بعض مظاهر الحضارة في عهد عبد الرحمن

حين استتب الأمر لعبد الرحمن الداخل في أرض الأندلس، وبعد أن انتهى نسبيا من أمر الثورات بدأ يفكر فيما بعد ذلك، فكان أن اهتم بالأمور الداخلية للبلاد اهتماما كبيرا، فعمل على ما يلي:

أولا: بدأ بإنشاء جيش قوي:

اهتم عبد الرحمن ببناء جيش قوي وحشد له المتطوعة والمرتزقة من كل صوب، وقد بلغت قواته نحو مائة ألف مقاتل عدا حرسه الخاص من المولي والبربر والرقيق ويبلغ قرابة الأربعين ألفا واعتمد في تكوينة جيشه على العناصر التالية:

أ - اعتمد في الأساس على عنصر المولّدين، وهم الذين نشؤوا - كما ذكرنا - نتيجة انصهار وانخراط الفاتحين بالسكان الأصليين من أهل الأندلس، وكانوا يمثلون غالبية بلاد الأندلس.

ب - اعتمد على كل الفصائل والقبائل الموجودة في بلاد الأندلس، فضم إليه كل الفصائل المضرية سواء أكانت من بني أمية أو من غير بني أمية، وضم إليه كل فصائل البربر، كما كان يضم إليه رؤوس القوم ويتألفهم فيكونون عوامل مؤثرة في أقوامهم، بل إنه ضم إليه اليمنيين مع علمه بأن أبا الصباح اليحصبي كان قد أضمر له مكيدة، الأمر الذي جعله يصبر عليه حتى تمكن من الأمور تماما ثم تخلص منه - كما ذكرنا - بعد إحدى عشرة سنة كاملة من توليه الحكم في البلاد.

ج - كذلك اعتمد على عنصر الصقالبة، وهم أطفال نصارى كان قد اشتراهم عبد الرحمن الداخل من أوروبا، ثم قام بتربيتهم وتنشئتهم تنشئة إسلامية عسكرية صحيحة.

وبرغم قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وحيدا، فقد وصل تعداد الجيش الإسلامي في عهده إلى مائة ألف فارس غير الرجّالة، مشكّل من كل هذه العناصر السابقة، والتي ظلت عماد الجيش الإسلامي في الأندلس لدى أتباع وخلفاء وأمراء بني أمية من بعده [١].

أنشأ رحمه الله دورا للأسلحة، فأنشأ مصانعا للسيوف وأخرى للمنجنيق، وكان من أشهر هذه المصانع مصانع طليطلة ومصانع برديل.

---

(١) محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

أنشأ أيضا أسطولا بحريا قويا، بالإضافة إلى إنشاء أكثر من ميناء كان منها ميناء طرطوشة وألمرية وأشبيليّة وبرشلونة وغيرها من الموانئ [1].

كان رحمه الله يقسم ميزانية الدولة السنوية إلى ثلاثة أقسام قسم ينفقه بكامله على الجيش، والقسم الثاني لأمور الدولة العامة من مؤن ومعمار ومرتبات ومشاريع وغير ذلك، والقسم الثالث كان يدخره لنوائب الزمان غير المتوقعة.

ثانيا: أولى العلم والجانب الديني اهتماما بالغا:

أعطى عبد الرحمن الداخل العلم والجانب الديني المكانة اللائقة بهما، فعمل على الآتي:

- نشْر العلم وتوقير العلماء.
- اهتم بالقضاء وبالحسبة.
- اهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- كان من أعظم أعماله في الناحية الدينية بناء مسجد قرطبة الكبير، والذي أنفق على بنائه ثمانين ألفا من الدنانير الذهبية، وقد تنافس الخلفاء من بعده على زيادة حجمه حتى تعاقب على اكتماله في شكله الأخير ثمان خلفاء من بني أميّة.

ثالثا: العناية الكبيرة بالجانب الحضاري:

ويبرز ذلك في الجوانب التالية:

- اهتمامه الكبير بالإنشاء والتعمير، وتشييد الحصون والقلاع والقناطر، وربطه أول الأندلس بآخرها.
- إنشائه أول دار لسك النقود الإسلامية في الأندلس.
- إنشائه الرصافة، وهي من أكبر الحدائق في الإسلام، وقد أنشأها على غرار الرصافة التي كانت بالشام، والتي أسسها جده هشام بن عبد الملك رحمه الله وقد أتى لها بالنباتات العجيبة من كل بلاد العالم، والتي إن كانت تنجح زراعتها فإنها ما تلبث أن تنتشر في كل بلاد الأندلس.

رابعا: حماية حدود دولته من أطماع الأعداء:

بالإضافة إلى إعداده جيشا قويا - كما وضحنا سابقا - وتأمينا لحدود دولته

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٢ / ٦٧، محمد زيتون، المسلمون في المغرب الأندلس، ص ٢٦٧، ٢٦٨.

الجديدة قام عبد الرحمن الداخل بخوض مرحلتين مهمتين:

المرحلة الأولى: كان عبد الرحمن الداخل يعلم أن الخطر الحقيقي إنما يكمن في دولتي ليون في الشمال الغربي، وفرنسا في الشمال الشرقي من بلاد الأندلس، فقام بتنظيم الثغور في الشمال، ووضع جيوشا ثابتة على هذه الثغور المقابلة لهذه البلاد النصرانية، وأنشأ مجموعة من الثغور كما يلي:

- **الثغر الأعلى:** وهو ثغر سراقسطة في الشمال الشرقي في مواجهة لفرنسا.
- **الثغر الأوسط:** ويبدأ من مدينة سالم ويمتد حتى طليطلة.
- **الثغر الأدنى:** وهو في الشمال الغربي في مواجهة مملكة ليون النصرانية.

المرحلة الثانية: كان رحمه الله قد تعلم من آبائه وأجداده عادة عظيمة جدا، وهي عادة الجهاد المستمر وبصورة منتظمه كل عام، فقد اشتهرت الصوائف في عهده، حيث كان المسلمون يخرجون للجهاد في الصيف، وبصورة منتظمة وذلك حين يذوب الجليد، وكان يتناوب عليهم فيها كبار قواد الجيش، وأيضا كان يُخرج الجيوش الإسلامية إلى الشمال كل عام بهدف الإرباك الدائم للعدو، وهو ما يسمونه الآن في العلوم العسكريه بالهجوم الإجهاضي المسبق.

* * *

عبد الرحمن الداخل.. الأمير الفذ

لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام من الأندلس بالكلية، هكذا قال المؤرخون عن عبد الرحمن بن معاوية، وإنا لتعلونا الدهشة ويتملكنا العجب حين نعلم أن عمره حينذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين عاما، أي في سن خريج جامعة في العصر الحديث.

ملك من السماء، أم ماذا هو؟! لن نذهب بعيدا، وسنترك الحديث عنه إلى ابن حيّان الأندلسي، ولنعي ما يقوله عنه، يقول ابن حيان مستعرضا بعضا من صفات عبد الرحمن الداخل:

ألفى الداخل - عبد الرحمن - الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً، فأرهف أهلها بالطاعة السلطانية، وحنّكهم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب فأكسبهم عمّا قليلٍ المروءة، وأقامهم على الطريقة، وبدأ فدوّن الدواوين، ورفع الأواوين، وفرط الأعطية، وعقد الألوية، وجنّد الأجناد، ورفع العاد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدّته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه، وتحاموا

حوزته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقلّ له الأمر فيها. فلذلك ما ظلّ عدوّه أبو جعفر المنصور - بصدق حسّه، وبعد غوره، وسعة إحاطته - يسترجح عبد الرحمن كثيراً، ويعد له بنفسه، ويكثر ذكره، ويقول: لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذيّ الفذ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونشبه، وتسلّيه عن جميع ذلك ببعد مرقى همّته، ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لا بتناء مجده، فاقتحم جزيرةً شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيّهم، وذلّ له أبيّهم، فاستولى فيها على أريكته، ملكاً على قطعته، قاهراً لأعدائه، حامياً لذماره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه، إن ذلك لهو الفتى كلّ الفتى لا يكذب مادحه. وجعل ابن حيّان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصّرامة، والاجتراء... على الكبائر والقساوة، وأنّ أم كل واحد منهما بربرية.

وكان الداخل يقعد للعامة، ويسمع منهم، وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصل إليه من أراده من الناس، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه، ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه.

وفي كتاب ابن زيدون أنّه كان أصهب، خفيف العارضين، بوجهه خالٌ، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيرتان، أعور أخشم؛ والأخشم: الذي لا يشم، وكان يلقب بصقر قريش لكونه تغرّب وقطع البر والبحر، وأقام ملكاً قد أدبر وحده.

ولمّا ذكر الحجاري أنّه أعور قال: ما أنشد فيه إلا قول امرئ القيس:

لكــــــن عـــــوير وفى بذمّتـــــــه ::: لا عـــــورٌ شـــــانه ولا قصـــــر

وقال ابن خلدون: وفي " سنة ست وأربعين سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى الأندلس، ونزل بباجة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خلق، فسار عبد الرحمن إليه ولقيه بنواحي إشبيلية، فقاتله أيّاماً، ثمّ انهزم العلاء، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكّة، فألقيت في أسواقها سرّاً، ومعها اللواء الأسود، وكتاب المنصور للعلاء، فارتاع المنصور لذلك وقال: ما هذا إلا شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، أو كلاماً هذا معناه، وقد مرّ ذكر ذلك... وكثرت ثورة رؤساء العرب

بالأندلس على عبد الرحمن الداخل، ونافسوه ملكه، ولقي منهم خطوباً عظيمة، وكانت العاقبة له، واستراب في آخر أمره بالعرب، لكثرة من قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم، واتخاذ الموالي، ثم غزا بلاد الإفرنج والبشكنس ومن وراءهم، ورجع بالظفر، وكان في سنته أن يجدّد دولة بني مروان بالمشرق، فمات دون ذلك الأمل، وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة، ومات سنة اثنتين وسبعين، وقيل: إحدى وسبعين ومائة، في خلافة الرشيد، وأمّه أم ولد بربرية اسمها راح، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة، بدير حنا من أرض دمشق، وقيل: بالعلياء من تدمر، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثماني عشرة عن إحدى وعشرين سنة، وكفله وإخوته جدّهم هشام، ووهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعه إيّاها، ووجّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى، وقيل: إنّه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة: بدر مولى أبيه، وأبو شجاع، وزياد، وعمرو، وقيل: إن بدراً لحقه ولم يخرج معه، فالله أعلم، وخلف من الولد عشرين، ومنهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث.

وحكى غير واحد أنّه لما هرب من الشام إلى إفريقية قاصداً الأندلس نزل بمغيلة، فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس، ويكنى أبا قرّة، فاستتر عنده وقتاً، ولحق به بدر مولى أبيه بجوهرٍ وذهبٍ أنفذته أخته إليه، فلمّا دخل الأندلس واستتبّ أمره به سار إليه أبو قرة وانسوس البربري، فأحسن إليه وحظي عنده وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعباً حين استظلت بظلّه في الأندلس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا تكفات على ما كان بي من الخوف، وسعطتني بأنتن من ريح الجيف، فكان جوابها له مسرعة: بل ذلك كان والله يا سيدي منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك، فاستظرف جوابها، وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك، وهذا من آفات المزاح... " [1].

كان عبد الرحمن الداخل راجح العقل، راسخ الحلم، واسع العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئا من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، بعيد الغور، شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بليغا مفوّها، شاعرا محسنا، سمحا سخيا، طلق اللسان، وكان قد أعطي هيبة من وليّه وعدوّه، وكان يحضر الجنائز ويصلي عليها، ويصلي بالناس الجمع والأعياد إذا كان حاضرا،

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٣٣١.

ويخطب على المنبر، ويعود المرضى.

شخصية تُشخِص الأبصار وتبهر العقول، فمع رجاحة عقله وسعة علمه كان لا ينفرد برأيه، فإذا اجتمعت الشورى على رأي كان نافذ العزم في تطبيقه رحمه الله، ومع شدته وحزمه وجهاده وقوته كان رحمه الله شاعرا محسنا رقيقا مرهف المشاعر.

ومع هيبته عند أعدائه وأوليائه إلا أنه كان يتبسط مع الرعية، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويصلي بهم ومعهم، ومع كونه شديد الحذر قليل الطمأنينه، فلم يمنعه ذلك من معاملة الناس والاختلاط بهم ودون حراس، حتى خاطبه المقربون في ذلك وأشاروا عليه ألا يخرج في أوساط الناس حتى لا يتبسطوا معه، ولكن كيف يمتنع عن شعبه وهو المحبوب بينهم والمقرّب إلى قلوبهم؟! ولقد صدق من قال: حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر.

ومن شعره قوله، وقد نظر إلى نخلة بمنية الرصافة، مفردة، هاجت شجنه إلى تذكر بلاد المشرق:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ::: تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ::: وطول التنائي عن بنيي وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ::: فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ::: يسح ويستمرئ السماكين بالوبل
وغمر الهول كقطع الليل ::: بفتنة الفهري والصميل
وجلت الفتنة في أندلس ::: فأصبحت فريسة المفترس
فأسرع السير إليها وابتدر ::: وكل شيء بقضاء وقدر
صقر قريش عابد الرحمن ::: باني المعالي لبني مروان
جدد عهد الخلفاء فيها ::: وأسس الملك لمترفيها
ثم أجاب داعي الحمام ::: وخلف الأمر إلى هشام
وقام بالأمر الحفيد الناصر ::: والناس محصور بها وحاصر
فأقبل السعد وجاء النصر ::: وأشرق الأمن وضاءت القصر
وعادت الأيام في شباب ::: وأصبح العدو في تباب
سطى وأعطى وتغاضى ووفا ::: وكلما أقدره الله عفا
فعاد من خالف فيها وانتزا ::: وحارب الكفار دأبا وغزا
وأوقع الروم به في الخندق ::: فانقلب الملك بسعي مخفق
واتصلت من بعد ذا فتوح ::: تغدو على مثواه أو تروح

فــاغتنموا الســلم لهــذا الحــين ::: ووصــلت إرســال قســطنطين
وســاعد الســعد فنــال واقتنــا ::: ثم بــني الزهــرا فيمــا قــد بنــا
حــتى إذا مــا كملــت أيامــه ::: سبحان من لا ينقضــي دوامــه [(١)]

فكان له حقا أن يأتي إلى هذه البلاد وحيدا مطاردا مطلوب الرأس، تجري وراءه قوى الأرض جميعا، فعباسيون في المشرق، وخوارج في المغرب، ومن بعدهم نصارى في الشمال، وثورات في الداخل، ثم هو يقوم وسط هذه الأجواء بتأسيس هذا البنيان القوي، وهذه الدولة الإسلامية ذات المجد التليد.

ونستطيع أن نفهم شخصيته بصورة أوضح حين نعلم كيف كان في معاملته للناس، فقد قال الرازي: "... قام بين يديه رجل من جند قنسرين، يستنجد به، وقال له: يا ابن الخلايف الراشدين والسادات الأكرمين، إليك فررنا، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قل المال، وذهب الحال، وصير إلى بذاك المنال، فأنت ولي الحمد، وربي المجد، والمرجو للرفد. فقال له ابن معاوية مسرعاً: قد سمعنا مقالتك، فلا تعودن ولا سواك لمثله، من إراقة وجهك، بتصريح المسلة، والإلحاف في الطلبة، وإذا ألم لك خطب أو دهاك أمر، أو أحرقتك حاجة فارفعه إلينا في رقعة لا تعدو ذكياً، تستر عليك خلتك، وتكف شماتة العدو بك، بعد رفعها إلى مالكنا ومالكها، عن وجهه، بإخلاص الدعاء، وحسن النية. وأمر له بجائزة حسنة. وخرج الناس يعجبون من حسن منطقه، وبراعة أدبه... " [(٢)].

إنها لتربية ربانية لشعبه، كل شعبه، فهو يريد رحمه الله أن يربط الناس بخالقهم، يريد أن يعلمهم أن يرفعوا حاجتهم إليه أولا سبحانه وتعالى، يريد أن يعلمهم أنه سبحانه وتعالى يملكه ويملكهم جميعا، ثم مراعاة لعواصف النفس الداخلية، وحفظا لماء وجه الرعية عند السؤال قال له: فارفع إلينا حاجتك في رقعة كي نستر عليك ولا يشمت أحد فيك.

* * *

(١) أبو عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني (لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ٢٠٠٣ هـ - ١٤٢٤ هـ، تحقيق: د. يوسف علي طويل، ٣ / ٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣ / ٣٥٧.

الفصل الرابع

أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الداخل

الأمير هشام بن عبد الرحمن – الرضا – (١٧٢ – ١٨٠ هـ / ٧٨٩ – ٧٩٦ م):

الحكم الأول بن هشام – الربضي – (١٨٠ – ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ – ٨٢١ م):

الثورات الداخلية في عهده:

ثورة عميه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن بن معاوية:

ثورة طليطلة سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧:

ثورة إصبغ بن وانسوس:

ثورة الربض:

الحروب الخارجية:

وا حكماه!!!

عبد الرحمن الثاني الحكم " الأوسط " (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ / ٨٢١ – ٨٥٢ م):

الثورات والفتن الداخلية في عهده:

الحروب الخارجية في عهد عبد الرحمن الأوسط:

محمد بن عبدالرحمن بن الحكم (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ/ ٨٥٢ – ٨٨٦ م):

الثورات الداخلية في عهده:

ثورة طليطلة:

ثورة ماردة:

ثورة سرية:

ثورة عمر بن حفصون ٢٦٧ هـ / ٣١٦ م:

الحروب الخارجية في عهده:

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣ – ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ – ٨٨٨ م):

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ – ٩١٢ م):

الثورات في عهده:

* * *

الأمير هشام بن عبد الرحمن - الرضا -

(١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٩ - ٧٩٦ م)

هو أبو الوليد هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل، ولد عام ١٣٩هـ وارتقي عرش الحكم في أول يوم من جمادي الأولي عام ١٧٢هـ / ٧٨٨م وامتد حكمه أكثر من سبع سنين، إذ توفي في الثالث من شهر صفر عام ١٨٠ هـ / ٧٩٦م، واشتهر بثقافته العالية وعلمه الواسع وتقواه التي أهلته لينال لقب الرضا، وفي عهده بدأ المذهب المالكي ينتشر، وبدأ فقهاء هذا المذهب يلبون دورا بارزا في السيطرة علي أمراء الحكم وتوجيه شؤون الدولة [(١)].

خلف عبد الرحمن الداخل ولده هشام بعهد منه، ولم يكن أكبر ولده، بل كان أكبرهم سنا سليمان والي طليطلة، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد، بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور، حقا مفوضا للأمير أو الإمام، يجريه وفقا للمصلحة العامة، ولم يكن انحصاره في ولد الأمير أو أسرته، سوي تقليد من تقاليد السياسة والعصبية، وسارت عليه الدولة الأموية، فوضعت بذلك الدولة الأموية أسس الأسر المملوكية، والعروش المتوارثة، وكان من الطبيعي بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموي، بإحياء تراث أسرته المندثر في المشرق، أن يصل ما انقطع، وأن تقوم من هذا الفرع الأموي أسرة مملوكية جديدة تتعاقب في العرش، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب [(٢)].

ولا شك أن عبد الرحمن كان يفضل هشاما علي سليمان مع أن هذا الأخير كان يكبر هشاما في السن بل كان أكبر أبناء عبد الرحمن في السن، وكان هشام رجلا فاضلا كريما كما كان عاقلا حسن التدبير، بينما كان سليمان أهوجا سيئ التصرف، ولا شك أن عبد الرحمن كان يدرك ذلك حق الإدراك فكان يضع هشاما في المحل الأول وولاه ماردة موطن الثورات. قال المقري: "... وكان أبوه يوليه في صباه ويرشحه للأمر، وكان الداخل كثيراً ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام، فيذكر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال، وما أشبه ذلك، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً، فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر سليمان، وقال يوماً لهشام: لمن هذا الشعر:

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ::: ومن خاله أو من يزيد ومن حجر

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦١، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٧١، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٠٩.
(٢) محمد عبد الله عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ١ / ٢٢٤.

سماحـــة ذا، وبــــرّ ذا، ووفــــاء ذا ::: ونائـــل ذا، إذا صـــحا وإذا ســـكر

فقال لـه: يـا سيدي لامرئ القيس ملك كندة، وكأنّه قاله في الأمير أعزّه الله؛ فضمّه إليه استحساناً بما سمع منه، وأمر له بإحسان كثير، وزاد في عينه. ثم قال لسليمان على انفراد: لمن هذا الشعر؟ وأنشده البيتين، فقال: لعلهما لأحد أجلاف العرب، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب؟ فأطرق عبد الرحمن، وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية... " [(١)].

وكانت بين هشام وسليمان جفوة ومباعدة من أجل تفضيل عبد الرحمن هشاما علي سليمان، فلما دخل هشام القصر بايعه الخاصة والعامة، فلما علم سليمان بذلك حشد الحشود وجند أجناد وبايعه أهل طليطلة وما جاورها، ثم زحف نحو قرطبة، والتقي مع أخيه هشام في جيان، بجهة بلج فانهزم سليمان وعاد إلى طليطلة [(٢)].

ولما عاد سليمان إلى طليطلة دعا لنفسه فيها وما جاورها، ولحق به أخوه عبد الله المعروف بالبلنسي في طليطلة، مما حمل هشاما علي أن يذهب بجيش لحصارهما في طليطلة، ولكن سليمان خرج مستخفيا إلى قرطبة ليستولي علي مقاليد الأمور بها، وقد فشل في ذلك لأن هشاما أرسل إليه ابنه عبد الملك في جيش لمطاردته ففر إلى ماردة فطارده عامل هشام فلجأ إلى تدمير (مرسية)، بعد حصار دام شهرين لطليطلة، عاد هشام إلى قرطبة وشعر عبد الله بفشل الثورة فقدم غلي هشام في قرطبة يلتمس الصفح، فعفا عنه وأكرم مثواه، وأرسل هشام جيشا بقيادة ابنه معاوية إلى تدمير (مرسية) لتعقب أخيه سليمان وضيق عليه الحصار مما جعل سليمان يطلب الأمان علي شريطة أن يعبر سليمان وولده وأهله إلى المغرب، وقد أعطي الأمير هشام أخاه سليمان ستين ألف دينار مقابل ذلك، وسار معه أخوه عبد الله وأقاما بعدوة المغرب وانتهت بذلك ثورة الأخوين سنة ١٧٤ هـ / ٧٩٠م [(٣)].

وكان سعيد بن الحسين بن يحيي الأنصاري قد فر بعد مقتل أبيه في سرقسطة إلى شاغنت في إقليم طرطوشة واجتمع حوله حشد هائل من اليمينيين الموتورين، وتمكن بمساعدتهم من السيطرة علي مدينة طرطوشة، وكان يحكم الثغر الأعلي

---

(١) نفح الطيب، ١ / ٣١٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٩٢، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢١٤.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦١ - ٦٣، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٧٢، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٠٩ - ١١٠.

موسي بن فرتون القومس، وكان قد بايع هشام في ذلك الوقت، فهاجم موسي سعيدا وهزمه وقتل سعيد، واستولي موسي علي سرقسطة، ولكنه قتل بيد جحدر مولي حسين بن يحيى الأنصاري، فخرج مطروح بن سليمان الأعرابي من مدينة برشلونة حيث أقام منذ مقتل أبيه، فملك مدينة سرقسطة ووشقة والثغر الأعلي كله، في الوقت الذي كان هشام مشغولا بقتال أخيه سليمان. فتركه هشام ريثما يفرغ من القضاء علي فتنة أخيه سليمان، وما أن فرغ هشام من فتنة أخيه حتى أرسل إليه جيشا بقيادة عبد الله بن عثمان فضيق عليه الحصار في سرقسطة، حتى ضاق أهلها ذرعا بالحصار، فخرج مطروح في بعض الأيام متصيدا فاغتاله أحد أصحابه وذلك في سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١م وبذلك انتهت الثورة في الشمال [١].

أما الثورة الثالث التي قامت في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، فقد تمثلت في الثورة التي قام بها البربر في منطقة رندة المعروف بإقليم تاكرنا [٢] سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٥م حيث خلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد فأعادهم هشام إلى الطاعة فلم يمتثلوا فسير إليهم جيشا كبيرا بقيادة عبد القادر بن أبان مولي معاوية بن أبي سفيان فشتت جموع البرب روقتل كثيرا منهم وخرب ديارهم.

يقول ابن الأثير: "... وفيها (١٧٨ هـ / ٧٩٥م) هاجت فتنة تاكرنا بالأندلس، وخلع بربرها الطاعة، وأظهروا الفساد، وأغاروا على البلاد، وقطعوا الطريق، فسير هشام إليهم جنداً كثيفاً عليهم عبد القادر بن أبان بن عبد الله، مولى معاوية بن أبي سفيان، فقصدوها وتابعوا قتال من فيها إلى أن أبادوهم قتلاً وسبيًا وفر من بقي منهم فدخل في سائر القبائل، وبقيت كورة تاكرنا وجبالها خالية من الناس سبع سنين [٣].

وبالقضاء علي تلك الثورة استقرت الأمور الداخلية في البلاد.

وكان ميل هشام الفطري إلى الورع والدين والتقوي سببا من أسباب إقباله علي الخير وإيثاره له، كما كان سببا في قضائه سني حكمه في الجهاد ضد النصاري بشمال أسبانيا، فبينما كانت أيامه كلها تتميز بالدعة والهدوء في الدادخ، نراه من وجهة السياسة الخارجية مجاهدا من خير المجاهدين، وثاغرا من خير المثاعرين، فقد أعلن الجهاد وعبأ جيشا كبيرا في سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١م وجعل علي رأسه قائده عبيد

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٤، السيد عبد العزيز سالم، المسلمين في الأندلس، ص ٢١٤، ٢١٥، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٠٠.

(٢) تاكرنا tacorona.
هي المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي شبه جنوب الأندلس والمعروفة الان باسم فيلالي (de sierra ronda).

(٣) الكامل، ٣ / ٩٦، وانظر أيضا: ابن عذاري، البيان المغر ب، ٢ / ٦٣.

الله بن عثمان، وسيره إلى ألبة والقلاع [١] حيث اصطدم بالنصاري فانتصر عليهم وشتت جموعهم، وقتل منهم تسعة آلاف، كما سير في نفس العام جيشا آخر بقيادة يوسف بن بخت إلى بلاد جليقية وأشتوريش والتقي هذا لاجيش بجيش الملك برمود الكبير ملك أشتوريش علي نهر بوربيا فهزمه جيش يوسف وانتهب المسلمون معسكره، وقتل من النصاري ما يزيد علي عشرة آلاف وغنموا مغانم كثيرة [٢].

وفي سنة ١٧٦ هـ / ٧٩٢ م بعث هشام قائده ووزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو فبلغ ألبة والقلاع فأثخن في نواحيها وكان برمود قد مات إذ ذاك وخلفه ألفونسو العفيف (٧٩١ - ٨٤٢م) الذي نقل حاضرته إلى أبيط [٣].

وفي سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣م أعد الأمير هشام جيشا كبيرا بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواح بن مغيث فتوجه إلى الشمال حيث وصل إلى جرندة، وكان بها حامية الفرنج، فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها، ثم استولي علي عدد من المعاقل والحصون، ونفذ إلى سبتمانيا وزحف علي أربونة قاعدة الثغر الإسلامي القديم، فاستولي عليها، وبقي الجيش الإسلامي شهورا يجوس في بلادهم، ثم عاد الجيش إلى قرطبة منتصرا محملا بالغنائم الكثيرة، وتعد هذه الغزوة من أهم وأشهر غزوات المسلمين في الأندلس، وأرغم أسري النصاري علي حمل وجر أحجار من سور أربونة حتى قرطبة، حيث بني من هذه الأحجار جزءا من جامع قرطبة تخليدا لهذه الغزوة [٤].

وفي سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥م أرسل الأمير هشام جيشا كبيرا بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية، فتوغل فيها حتى بلغ أسترقة، وكان أذفونش ملك جليقية قد استعد للقاء المسلمين، واستعان بحلفائه م البشكنس وأهل تلك النواحي، وأمر سكان السهل بالصعود إلى الجبال ووضع كمائن ضخمة من فرسانه في قمم الجبال حتي تأخذ المسلمين علي حين غرة ولكن قائد المسلمين أدرك خطة العدو فقدم قائده فرج ابن كنانة

---

(١) ألبة والقلاع.
علمان جغرافيان يستعملان معا عادة في النصوص العربية أما ألبة فهي alava وهي الإقليم الواقع عند نهر أبرو على الضفة اليمنى الشمالية للنهر وأما القلاع فيراد بها المنطقة التي تعرف بقشتالة القديمة vieja la castilla سماها العرب بذلك لكثرة قلاعها.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٣، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٧٤، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢١٦.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢١٦.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٤، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٧٤، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١١١.

في أربعة الآف فارس وسار علي غثره فالتقوا بكمين الجلالقة وتمكنوا من هزيمته، وبثوا الخيل في القري، ثم تقدموا إلى وادي كوثية فالتقوا بكمين آخر، من ثلاثة آلاف فارس بقيادة غند مارة فانتصر المسلمون عليهم وأسروا قائدهم، ثم تتبعوا أذفونش ملك جليقية حتى وصل عاصمة ملكه، فتبعه فرج بن كنانة في عشرة الآف فارس، فلما قرب منه انهزم وأسلم جميع عدته وذخائره، فغنمها المسلمون ثم عادوا إلى قرطبة بعد أن مزقت قوي الجلالقة، وقد حققت هذه الغزاة الغرض منها ببث الرعب في نفوس الجلالقة فسكنوا إلى حين، وساد ألأمن في الولايات الشمالية. (١) ولم يطل العهد بهشام فقد توفي في صفر سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م ودفن بقصر قرطبة، وتولي إبنه الحكم الأول الربضي الحكم من بعده (٢).

لقد كان الأمير هشام من أولئك الرجال القلائل الذين أعلوا راية الجهاد في سبيل، وعاشوا لها وفي ظلها، وعمل علي حماية حدوده مع أعدائه نصاري الشمال، وتميز عن غيره بالعدل مع خصومه في الداخل، فساد أمن والاستقرار في فترة حكمه القصيرة.

كما أن الأندلس في عهده شهد نهضة كبيرة علي جميع الأصعدة، ففي المجال الديني شهد عهده انتشار المذهب المالكي بعد المذهب الأوزاعي - نسبة إلى الإمام الأوزاعي الشامي المتوفي سنة ١٥٧هـ / ٧٧٤م - وكان أول من أدخل المذهب المالكي وعني بنشره في الأندلس هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد الخمي المعروف بشبطون، كما رحل عدد كبير من فقهاء المشرق إلى الأندلس في عهد هشام بن عبد الرحمن (٣).

وفي مجال العمارة اهتم الأمير هشام ببناء المساجد وتعمير المباني ذات المنفعة العامة، فقد أكمل سقائف جامع قرطبة، وأسس ممنارته القديمة وبني الميضائه في صحنه، وكانت قنطرة قرطبة قد تهدمت في حياة عبد الرحمن الداخل بسبب السيل فعمل هشام علي بنائها وأنفق في إصلاحها أموالا طائلة وتولي بنائها بنفسه، وكان يعطي الأجرة للعمال بنفسه (٤).

* * *

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٤ - ٦٥، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٧٤ - ٢٧٥، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١١٢.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٦.

(٣) المقري، نفح الطيب، ٢ / ٢١٦ - ٢١٧، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٨.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٦، محمد زيتون، المسلمون ي المغرب والأندلس، ص ٢٧٦.

الحكم الأول بن هشام - الربضي -
(١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م)

بويع أبو العاصي الحكم بن هشام بعد وفاة أبيه بليلة واحدة يوم ٨ من صفر سنة ١٨٠هـ، وهو ابن ٢٦ سنة، وكان أبوه قد عهد إليه بولاية العهد، دون أكبر أبنائه عبد الملك.

وكان الحكم شديد العزم والحزم، ماضي العزيمة، عظيم الصولة، حسن التدبير، كان يسلط قضاته وولاته علي نفسه فضلا عن ولده وخدمه [(١)].

ويعدالحكم أول من جند الأجناد واتخذ العدة، وكان أعظم بني أمية في الأندلس وأشدهم إقداما ونجدة، وقد تشبه بأبي جعفر المنصور، من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء، وقد عمل علي حماية الدولة ونشر الأمن فيها فحارب الثوار في الداخل ودافع المهاجمين من الخارج بجيش عظيم قوي أعده لذلك، وحرص علي العدل والإحسان والإنصاف بين الرعية، حتى أذعنت له معظم بلاد الأندلس بالطاعة. يقول المقري: "... إنّه أوّل من جنّد بالأندلس الأجناد... والمرتزقة، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الخدم والحواشي والحشم، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم، وحكى في عدّتهم ما تقدم، ثم قال: وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس، وكان يباشر الأمور بنفسه، ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين، وهو الذي وطّأ الملك لعقبه بالأندلس،... وكان له - فيما حكى غير واحد - ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبليّ قصره يجمعها داران[(٢)].

* * *

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٨، المقري، نفح الطيب، ١ - ٣٣٤ - ٣٣٨.

(٢) المقري، نفح الطيب، ١ - ٣٣٨.

الثورات الداخلية في عهده

ثورة عميه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن بن معاوية

وبدأ الحكم عهده بمحاربة بعض أقربائه الطامعين في افمارة فقد كان عماه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن الداخل قد نفيا في عهد أبيه إلى المغرب، فأقام سليمان بطنجة بينما كان عبد الله يمضي وقته متجولا في بلاد المغرب، فزار إبراهيم بن الأغلب في القيروان، كما زار الإمام عبد الوهاب بن رستم الإباضي في تاهرت، وهناك علم بوفاة أخيه هشام وتولية ابنه الحكم، فأسرع بالجواز إلى الأندلس، عله يسبق أخاه سليمان، فنزل بالثغر الأعلي إذ كان يعلم كراهية سكان هذا الثغر للأمير الجديد ونزل بسرقسطة عند بهلول بن مرزوق الثائر علي الأمير الحكم في ناحية الثغر، وقد حدث ذلك سنة ١٨١هـ / ٧٩٧ م ولكنه لم يجد هنك من يؤيده في توليته الإمارة بدلا من ابن أخيه، وباءت جهوده بالفشل فرحل مع ولديه عبيد الله وعبد الملك لمقابلة شارلمان في إكس لا شابل، وهناك قابله وحثه علي مهاجمة الأندلس (١).

أما سليمان فقد عبر إلى الأندلس فس ينة ١٨٢هـ / ٧٩٨ م واستطاع أن يجمع جيشا ليهاجم به قرطبة ولكن الحكم استطاع التغلب عليه فعاود سليمان القتال والتقي جيشه مع جيش الحكم في بنجيطة فانهزم سليمان وجيشه، ولكنه مع ذلك عاد للقتال للمرة الثالثة، وجمع جيشا من البربر سنة ١٨٣هـ / ٧٩٩ م وتوجه إلى استجة فسار إليه الحكم بجيشه فدارت بينهما حروب شديدة لعدة أيام، ثم دارت الدائرة علي سليمان وجنوده، ثم عاود سليمان الكرة في نفس العام ولكنه انهزم أيضا، وفي سنة ١٨٢هـ / ٨٠٠ م حشد سليمان جيشا من المشرق فاستولي به علي جيان ثم البيرة، فانضم إليه أعداد من سكانهما، فتوجه إليه الحكم بجيشه ودارت معركة بين الفريقين استمرت عدة أيام، كادت الدائرة فيها تدور علي الحكم ن إلا أنه إستطاع في النهاية التغلب علي عمه سليمان الذي فر من المعركة، بعد أن ترك علي أرض المعركة أعدادا هائلة من القتلي من أنصاره، زبعث الحكم في إثره إصبغ بن عبد الله فلحقه بجهة ماردة فقبض عليه وأتي به إلى الحكم فأمر بقتله، وبعث برأسه إلى قرطبة (٢).

أما عمه عبد الله فبعد عودته من بلاد الفرنجة توجه إلى بلنسية وهناك وجد تأييدا

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢٢٠.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٧٠، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٧٨ - ٢٧٩، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١١٥.

كبيرا له من أهاليها، وقام بها شبه مستقل عن الإدارة في قرطبة بعد أن أرسل إلى الحكم يطلب منه الأمان والتصالح معه، فأمنه وصالحه وأجري عليه الأرزاق، وكفل له ألف دينار كل شهر، وعفا عنه الحكم وصالحه سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م مقابل بقائه طوال حياته ببلنسية، وبالفعل قضي عبد الله بقية حياته في بلنسية حتي عرف بعبد الله البلنسي وهوالذي أقام ربض الرصافة ببلنسية، وبعث عبد الله إلى الحكم بابنيه فزوج أحدهما وهو عبيد الله أخته (أخت الحكم) وولاه قيادة جيوشه، فعرف لذلك بصاحب الصوائف، وبذلك إستطاع الحكم التخلص من أولي الثورات المعارضة لحكمه [1].

* * *

ثورة طليطلة سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧

في عام ١٨١ هـ / ٧٩٧ م قام المولدون في طليطلة بالثورة، وذلك أنهم كانوا يستخفون بولاتهم ويميلون إل الثورة علي أمراء بني أمية، والانفصال عن سلطان قرطبة، وعرف الحكم كيف يوقع بهم، إذ استقدم عمروس المولد من وشقه، واختصه وقربه إليه، وولـه علي طليطلة حتى يطمئن إليه سكانه المولدون، وأخذ عمروس يتظاهر هذا يتظاهر أمامهم بكراهيته للأمير، وبغضه له، حتى أنسوا له أمنوه، فبني قصبه بالقرب من جسر طليطلة، أقام فيها حفلا دعا إليه وجوه أهل طليطلة وزعمائها وكبار رجالها، فحضروا وأوهمهم أنهم إذا انتهوا من تناول الطعام والشراب انصرفوا من باب غير الباب الذي دخلوا منه، ووقف السيافون علي شفير حفرة بداخل القصبة، وأخذوا يتلقون كل من دخل منهم فيضربون عنقه، حتي بلغ عدد القتلي خمسة الآف وثلثمائة - وقيل سبعمائة - فلانت بعد ذلك شوكة أهل طليطلة طوال عهده وعهد ابنه من بعده[2].

* * *

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٧٠ - ٧١، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٢١، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١١٦.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٩ - ٧٠، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٦ / ١٩٩ - ٢٠١.

ثورة إصبغ بن وانسوس

ومن الثورات التي قامت ضده ثورة إصبغ بن عبد الله بن وانسوس في ماردة سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م بسبب وشاية قام بها أحد أعداء إصبغ بين الحكم وبينه فخاف إصبغ وتوقع العقوبة والسطوة من الحكم، فدخل ماردة وثار بها والتف حوله من البربر الكثير، فخرج إليه الحكم وحاصره ولكه اضطر لفك الحصار والعودة إلى قرطبة لفتنة قامت فيها، ثم تابع الحكم حملاته علي ماردة لمدة سبع سنوات، وأخيرا استمال جماعة من أهل ماردة وبعض ثقاة إصبغ فمالوا إلى الحكم وفارقواإصبغ مما دعاه إلى طلب الأمان والصلح مع الحكم، فأمنه وخرج من ماردة وأقام عند الحكم في قرطبة. يقول ابن عذاري: "... وفي سنة ١٩٠، خرج الأمير الحكم غازيا إلى ماردة. فلما وصلها، احتلها وحاصرها وكان بها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ثائرا (وإذا بالخبر وصله أن سواد أهل قرطبة أعلنوا بالنفاق، وتداعوا إلى صاحب السوق بالسلاح؛ وكتب المخلفون إلى الحكم بما حدث بعده وبما ظهر من ضمائر السفلة؛ فصدر قافلا، وطوى المراحل، وقطع الطريق في ثلاثة أيام، ودخل القصر. فهدأ الناس، وسكنت الأحوال، وصار الناس في هدوء وسكون من سنة ١٩٠ إلى سنة ٢٠٢، والتزموا الدعة اثني عشر سنة.

وترددت الغزوات سبعة أعوام إلى ماردة، وبها أصبغ بن عبد الله ثائرا متمنعا. وكان سبب ثورته أن عدوا لأصبغ طالبه عند الحكم وأغراه عليه. ثم مشى إلى أصبغ بمثل ذلك، وروعه منه؛ فتوقع العقوبة والسطوة به. فكان ذلك سبب دخوله ماردة وقيامه بها. وتكررت الغارات عليه سبعة أعوام؛ فافتتحت في العام السابع بمحاولة انجلت عن طلب الأمان لأصبغ فأمن، وخرج من ماردة، وصار في مصف الحكم؛ فسكن قرطبة... " [١].

* * *

---

(١) البيان المغرب، ٢ / ٧٧.

ثورة الربض

كان الأمير هشام بن عبد الرحمن قد أحاط نفسه بالعلماء والفقهاء واستسلم لهم، وعظم بذلك شأنهم، وتجاوزوا حدودهم، فلما تولي الحكم الإمارة حاول أن ينتزع منهم سلطتهم، ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به أيام أبيه، ويكف أيديهم عن التدخل في شئون الدولة، فانقلبوا عليه وسخطوا من تصرفاته، واستغلوا نفوذهم الروحي في إثارة الناس ضد الأمير، وحاول الفقهاء أن يغدروا به سنة ١٨٩هـ فانكشف أمرهم وقبض عليهم الأمير وصلبهم وكانوا ٧٢ رجلا بقرطبة، منهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسي، وكان قدوة في الورع والتقوي وغيره كثير. يقول ابن عذاري: "... وفي سنة ١٨٩، صلب الإمام الحكم اثنين وسبعين رجلا بقرطبة، منهم أبو كعب بن عبد البر، ويحيى بن مضر، ومسرور الخادم. وكان السبب في ذلك أنهم أرادوا الغدر به، وهموا بالخلاف عليه؛ وطلبوا رئيسا يقومون به. فوقع الخبر علي محمد بن القاسم عم هشام بن حمزة، وأطلعوه على أمرهم، ودعوه للقيام معهم؛ فخذلهم، وأفشى سرهم، وتقرب إلى الحكم بدمائهم. فتثبت الحكم... فلما صح عند الحكم أمرهم بشهادة الأمناء عليهم، أخذهم وصلبهم جميعا بمردة واحدة... " (١).

وبلغ من تبرم أهل الربض بقرطبة من أعمال الحكم بن هشام أنهم كانوا ينادونه ليلا من أعالي الصوامع " الصلاة الصلاة يامخمور " وامتلأ الجو بالسخط بعد مقتل الثوار، وأنكر الناس عليه إطلاقه يد ربيع القومس متولي المعاهدين بالأندلس من النصاري، وكان حظيا في رجاله، سوغه فرض المغارم علي المسلمين، وحدث في رمضان سنة ٢٠٢ هـ / مارس ٨١٨ م حادث بسيط أشعل - كاشرارة التي تحدث أشد الحرائق - نيران الفتنة بين سكان الربض بقرطبة، فقد قتل أحد مماليك الأمير غلاما، فغلت مراجل غضبهم، وانفجرت براكين أحقادهم علي الأمير، وكأنما كانوا يترقبون هذا الحادث، فهبوا مرة واحدة، وتجمعوا علي مملوك الأمير فقتلوه، وخرجوا يهتفون بخلع الأمير.

ثار العامة بقرطبة واجتمع أهل الأرباض بالسلاح وكان أشدهم هياجا أهل الربض الجنوبي في الضفة الأخري من النهر وهي ضاحية قرطبة الجنوبية المسماه شقندة وزحف الثوار إلى قصر الأمير من كل ناحية واجتمع الجند وألأمويون والعبيد بالقصر وفرق الحكم الخيل والأسلحة وجعل أصحابه كتائب ووقع القتال بين الفريقين

---

(١) البيان المغرب، ٢ / ٧١.

فغلبهم أهل الربض، ولم يجد الحكم بدا من استعمالا لحيلة، فأرسل عبيد الله بن عبد الله البلنسي المعروف بصاحب الصوائف، واسحاق بن المنذر القرشي، ففتح في السور فتحة وخرجا منها ومعهما قوة من الجيش وأتوا الربض فأشعلوا فيه النار، وما كادت ألسنةاللهب تظهر حتى هرع الكثير من أهل الربض إلى ديارهم لحماية أولادهم وأهلهم وأموالهم، فأخذتهم السيوف من أمامهم ومن خلفهم، وقتلوا قتلا ذريعا، وطاردوهم في كل مكان، ونجا منهم العدد القليل، وأسر منهم عددا كبيرا انتقي منهم الحكم ثلاثمائة رجل من وجوههم فقتلهم وصلبهم علي الوادي صفا واحدا من المرج إلى المصارة. وقد استمر النهب والقتل والحريق في أرباض قرطبة ثلاثة أيام، ثم أمر الحكم جنوده الكف عنهم، ونودي بالأمان علي أن يرحلوا عن قرطبة، ومن بقي بعد ثلاثة أيام قتل وصلب، وتفرق أهل الربض في جميع أقطار الأندلس، فعبر جماعة منهم إلى المغرب بالأهل والولد، فأقاموا في مدينة فاس، وتوجهت جماعة كبيرة منهم قوامها خمسة عشرة ألفا في عدد من السفن إلى مدينة الإسكندرية واستقروا فيها، وبعد عشر سنات غادروا الإسكندرية وتوجهوا جزيرة أقريطش (كريت) وأسسوا دولة استمرت زهاء قرن وثلث، حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م، وهرب مجموعة كبيرة أخري من علمائهم إلى ناحية طليطلة ثم أمنهم الحكم وأباح لهم التفسح في البلدان حيثما شاءوا وأحبوا من أقطار مملكته، ماعدا قرطبة أو ضواحيها وبذلك استطاع الحكم التخلص من هذه الثورة التي كادت تقوض عرش حكمه (١).

يقول ابن عذاري - عن فتنة الربض -: "... كان من أهل ربض قرطبة في هذه السنة ما نستعيذ بالله من الخذلان في مثله، وذهاب التوفيق. وقد اختلفت الروايات في سبب قيام الناس وهيجهم؛ فمنهم من يقول إن ذلك الهيج كان أصله الأشر والبطر، إذ لم يكن ثم ضرورة من إجحاف في مال، ولا انتهاك لحرمة، ولا تعسف في ملكة، والحال تدل على صحة ذلك: فإنه لم يكن على الناس وظائف، ولا مغارم، ولا سخر، ولا شئ يكون سببا لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشرا وبطرا، وملالا للعاقبة، وطبعا جافيا، وعقلا غبيا، وسعيا في هلاك أنفسهم - أعاذنا الله من الضلال والخذلان، وأسباب البوار والخسران! ولما اهتاجوا وقاموا على السلطان، ناصبهم الحكم القتال، وواضعهم الحرب. وانحاش إليه حاشيته وجنده، وتألب من كل وجه

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٧٦ - ٧٧ / محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٨٣، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١١٨، ١١٩.

رجاله. وقامت الحرب بين الجند وعامة قرطبة على ساق. ثم تكاثرت العامة، وهاجت الدهماء السوداء؛ فلم يزيدوا على أن ظهروا في ذلك الحين ظهروا لم يبلغهم إلى أمل فلما اشتغلوا بالقتال، احتيل عليهم بمثل حيلة يوم الحرة، وهم لا يشعرون لاشتغالهم بالقتال؛ فخرج عبيد الله بن عبد الله البلنسي المعروف بصاحب الصوائف، وإسحاق بن المنذر القرشي إلى باب الجسر، مع من أمكنهما من الفرسان والرجالة، والتقوا مع العامة، وجالدوهم حتى أزاحوهم وأدخلوهم الجسر؛ وفتح باب المدينة عند الجسر، ودخل الذين سمينا على باب الحديد؛ ثم اقتحموا على الزقاق الكبير، وخرجوا على الرملة إلى مخاضة هناك، وجازوا النهر، واجتمعوا مع من توافى عليهم من حشود الكور، إذ كانوا قد أنذروا قبل ذلك بما كان بدا منهم، وظهر من علاماتهم. فلما اجتمعوا، أقبل بعضهم من وراء الربض، وشرع بعض في طرح النار في الدور، ودسوا من أخبر العامة بما نزل بهم في دورهم وذراريهم وعيالهم؛ فلم يبق أحد منهم دون أهله ومنزله، وانصرفوا راجعين نحوها. فأخذتهم السيوف من أمامهم وورائهم؛ فقتلوا قتلا ذريعا، وتتبعوا في الأزقة والطرق، يقتلون؛ ونجا منهم من تأخر أجله، ففرَّ، فلم يلو على أهل ولا ولد. وأخذ منهم ثلاثمائة رجل؛ فصلبوا على الوادي، صفا واحدا من المرج إلى المصارة. وكان الحكم قد عزم على تتبعهم بالأندلس، وقتلهم حيث وجدوا؛ فكسر عليه بعض أصحابه، وذكره صنع الله له فيهم؛ فارعوى وكف. فخرجوا أفواجا بأهاليهم وأولادهم. ولم يعرض لأحد منهم في شئ من بلاد الأندلس، وهي طاعته وملكه، ولا نالهم ضر بعد وقت المعركة وغليان الحال، كرما وعفوا من الأمير الحكم - رحمه الله! - وعف الحكم عن الأموال والحرم. وتفرق أهل الربض في جميع أقطار الأندلس؛ ومنهم من جاز البحر إلى العدوة بالأهل والواد؛ فاحتلوا بعدوة فاس، فهم عدوة الأندلس منها؛ فصيروها مدينة. ومنهم أهل جزيرة إقريطش؛ فذكر أنه لم يخرج منهم طائفة بناحية من نواح الدنيا إلا وتغلبوا عليها، واستوطنوها على قهر من أهلها. وأكثر من هرب من أهل العلم والخير ممن اتهم أو خاف على نفسه إلى ناحية طليطلة، ثم أمنهم الحكم، وكتب لهم أمانا على الأنفس والأموال، وأباح لهم التفسح في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته، حاشى قرطبة أو ما قرب منها... " (١).

* * *

---

(١) البيان المغرب، ٢ / ٧٧.

الحروب الخارجية

لقد قضي الأمير الحكم سنين طويلة في إخماد الثورات والفتن، مما أتاح الفرصة للممالك المسيحية بشمال الأندلس أن تعبث في ثغور المسلمين، ففي سنة ١٨٥هـ / ٨٠١ استولي الفرنجة علي برشلونة، لوما أرسل الأمير حملة لغزو ألبة والقلاع بقيادة أخيه معاوية بن هشام، انهزم المسلمون هزيمة نكراء علي فج أرغنصون عند التقاء وادي زادورا بوادي إبره، وقتل في هذه المعركة عدد كبير من قواد المسلمين. ومضي وقت طويل قبل أن يبعث الحكم ابنه هشاما سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨م علي رأس جيش إلى قليقية وكانت هذه الحملة موفقة إذ عاد هشام منتصرا مظفرا، ومضت ثمان سنوات أغزي الحكم وزيره عبدالكريم إلى أشتوريش، إذ أن سكان هذه البلاد انضموا إلى الملك ألفونسو الثاني، وكان بنبلونة قد خرجت علي طاعة المسلمين سنة ١٨٢هـ وكان أهلها قد قتلوا عامل المدينةالمسلم وهو مطرف بن موسي بن قسي، وأقاموا واحدا منهم هو فلاسكو ونح عبد الكريم في غزوته إذ اصطدم مع ألفونسو الثاني علي نهر أرون وانتصر علي قواته إنتصارا حاسما فقتل من قواد جيشه عددا كبيرا، وكان من بين القتلي جروسيه بن لب خال ألفونسو الثاني، وشانجة أحد زعماء البشكنس (١).

وأخيرا يذكر المؤرخون العرب ا، لذريق بن قارلة ملك الفرنج (وهو لويس بن شارلمان) جمع جموعه سنة ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م وزحف بها لحصار طرطوشة، فأغزي الحكم ابنه الأمير عبد الرحمن في جيش كثيف، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملي الثغر بالغزو معه، فجمع أهل الثغر، وتقدم الأمير عبد الرحمن بالجيش وانضمت إليه قوات المطوعة، واشتبك المسلمون مع لويس ودارت بين الفريقين حرب شديدة انتهت بانتصار المسلمين انتصارا حاسما علي جيش الفرنجة (٢).

وهكذا انهزمت قوات الفرنجة، ول يعاود لويس الكرة مرة أخري علي طرطوشة، ومع ذلك فقد حاول الفرنجة بعد ذلك بسنوات الاستيلاء علي وشقة ولكن هذه المحاولات لم تأت بنتيجة، ولكن الفرنجة ظلوا يعيثون في الثغور بسبب انشغال الأمير بالخارجين عليه، مما دعا الحكم إلى الخروج بنفسه لملاقاة الفرنجة سنة ١٩٧هـ فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحي، وأثخن في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافرا. "

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٩، ٧١، ٧٢، السيد عبد العزيز، سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٢٦.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٧٢، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٢٦.

(١) وفي سنة ١٩٩ هـ / ٨١٥ م أغزي الحكم ابن عمه عبيد الله بن عبد الله البلنسي الغزوة المشهورة إلى برشلونة فانتصر على الفرنجة وهزمهم وقتل عامتهم وفرق جموعهم، ولما انجلت الحرب نصب قناة طويلة وأمر بالرؤوس فجمعت وطرحت حول القناة حتي غابت القناة فيها (٢).

وتوفي الحكم في ذي الحجة من سنة ٢٠٦ هـ بعد أن وطد ملك بني أمية، وقضى علي أعدائه لقد كان الحكم عكس أبيه رجلا شديد البأس قوي الشكيمة، استعمل العنف والشدة في مواجهة خصومه، كما اهتم بنشر لعدل وسيادةالإنصاف بين الرعية. وقد أجمع المؤرخون العرب حزمه وقوته وتقواه باستثناء ابن احزم الذي قال عنه "... إنّه كان من المجاهرين بالمعاصي، السافكين الدماء، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء. وقال غيره: إنّه تنصّل أخيراً، وتاب، سامحه الله.. (٣).

يقول ابن عذاري عن صفات الحكم بن هشام: "... كان الحكم - رحمه الله! - شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تتقى. وكان حسن التدبير في سلطانه، وتوليه أهل الفضل والعدل في رعيته؛ وكان مبسوط اليد. وكان له قاض كفاه بورعة وعلمه وزهده؛ فمرض مرضا شديدا؛ فاغتم الحكم لمرضه؛ فذكر بعض خاصته أنه أرق ليلة أرقا شديدا، وجعل يتململ على فراشه؛ فقيل له: أصلح الله الأمير! ما الذي عرض؟ فقال: ويحكم! إني سمعت في هذه الليلة نادبة، وقاضينا مريض، وما أراه إلا وقد قضى نحبه. فأين لي بمثله، ومن يقوم بالرعية مقامه؟ فمات القاضي في تلك الليلة، وهو المصعب بن عمران قاضي أبيه. فولى بعده محمد بن بشير.

فكان أقصد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأنقذهم بحكم. ورفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عاملا للحكم اغتصبه جارية، وصيرها إلى الحكم؛ فوقعت من قلب الحكم كل موقع؛ فأثبت الرجل أمره عند القاضي، وأتاه بينة تشهد على معرفة ما تظلم منه ويملكه للجارية وبمعرفتهم بها. فأوجبت السنة أن تحضر الجارية؛ فاستأذن القاضي على الحكم؛ فأذن له؛ فلما دخل عليه، قال له: أيها الأمير! أنه لا يتم عدل في العامة دون إقامته في الخاصة! وحكى له أمر الجارية، وخيره بين إبرازها للبينة ليشهد على عينها، أو عزله. فقال له الحكم: أولا. أدعوك إلى خير من ذلك! تبتاع الجارية من صاحبها بأبلغ ما يطلب فيها. فقال القاضي: إن الشهود قد شهدوا من كورة جبان، وأتى الرجل يطلب الحق في

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٣١٨.
(٢) ابن عذاري ن البيان المغرب، ٢ / ٧٤، السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٢٦.
(٣) المقري، نفح الطيب، ١ / ٣١٨.

مظامه؛ فلما صار ببابك، تصرفه دون إنفاذ الحق له؛ ولعل قائلا يقول: باع ما لا يملك بيع مقور! فلما رأى عزمه على ذلك، أمر بإخراج الجارية من قصره؛ فشهد الشهود عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها. وكان هذا القاضي محمد ابن بشير، إذا خرج للمسجد، وجلس للأحكام، جلس في رداء معصفر، وشعر مفرق؛ فإذا طلب ما عنده، وجد أفضل الناس وأورعهم.

وكان الحكم يقول: ما تحلى الخلفاء بمثل العدل! وكانت فيه بطالة، إلا أنه كان شجاع النفس، باسط الكف، عظيم العفو. وكان يسلط قضاته وحكامه على نفسه، فضلا عن ولده وخاصته. وكانت للحكم ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرة من العرفاء، تحت يد كل عريف مائة فرس؛ فإذا بلغه عن ثائر ثار في أطرافه، عاجله قبل استحكام أمره؛ فلا يشعر حتى يحاط به. وجاءه الخبر يوما أن جاب ابن لبيد محاصر لجيان، وهو يلعب بالصولجان في القصر؛ فدعا بعريف من أولئك العرفاء، وأسر إليه أن يخرج بمن تحت يده إلى جابر بن لبيد؛ ثم فعل كذلك مع أصحابه من العرفاء. فلم يشعر ابن لبيد حتى تساقطوا عليه مسربلين في الحديد؛ فلما رأى العدو ذلك، سقط في يده، وظن أن الدنيا قد حشرت إليه؛ فولى بمن معه منهزما.

وكان الحكم فصيحا بليغا شاعرا مجيدا. فمن شعره - رحمه الله! - يتغزل، وذلك أنه كان له خمس جوار قد استخلصهن لنفسه وملكهن أمره؛ فذهب يوما إلى الدخول عليهن؛ فأبين عليه، وأعرضن عنه. وكان لا يصبر عنهن. فقال:

قُضْب من الباز مَلسَت فَوقَ كُثْبـانِ ::: أعْرَضْنَ عَنّي وقد أزْمَعْنَ هِجْرانـي
ناشَدتُّهَنَّ بحِقِّـي فـاعْتزَمْن علـي ::: الهِجْرانِ حتَّى خَلا مِـنْهنَّ هيْمـاني
مَلكنني مُلكَ مَـنْ ذَلَّـتْ عَزِيمَتُـهُ ::: للحـبِّ ذُلَّ أسِـير موثَّـقٍ عـاني
مَنْ لي بُمغْتَصباتِ الرُّوح من بَـدني ::: عصبنب في الهوى عِزّي وسـلطاني

ثم إنهنَّ عدن عليه بالوصل؛ فقال:

نلْتُ كُـلّ الوصـال بعـد البعَـادِ ::: فكـأني مَلكْـتُ كُـلّ العِبـادِ
وَتَنَاهَى السُّرُور إذْ نلـتُ مَـا لَـمْ ::: يُغـنِ فيـه تَكاشُـفُ الأجْنَـادِ

ومن مليح قوله فيهن - رحمه الله! -:

ظَـلّ مِـنْ فَـرْطِ حُبِّـهِ مَمْلوكـا ::: ولقـد كـان قَبْـلَ ذَاكَ مَليكـا
إن بكَى أو شَكَا الهَوى زِيـدَ ظُلمـاً ::: وبعـاداً يُـدنِى حمامـاً وشَـيكا

تَرَكَتــه جــاذر القصــر صَــبًّا ::: مُســتهاما علــى الصَّــعِيدِ تَرِيكَــا
يَجْعَل الخَــدَّ مــاثلاً فــوق تُــرب ::: وَهْــوَ لا يرتَضِــي الحَرِيــرَ أريكــا
هكــذا يَحْسُــنُ التــذَلُّلُ للحُــرِّ ::: إذا كـــان في الهَـــوَى مُمْلُوكـــا

وله - رحمه الله! - أشعار كثيرة في الربضيين القائمين عليه، منها:

رأيتُ صُدُوعَ الأرضِ بالسيفِ رافِعاً ::: وقِدماً لأمتُ الشعثَ مُذْ كُنتُ يافعاَ
فَسَائلْ ثغوري هل بِهـا الآن ثُغْـرةٌ ::: أبادرها مستنْضِيَ السـيف دارعـاَ
وشَافِه على الأرض الفضاء جماجمـاً ::: كأقحاف شـريان الهبيـدِ لَوامِعـاَ
تُنَبئك أني لم أكُـن عـن قـراعِهم ::: بوانِ وأني كنتُ بالسـيف قارِعَـا
فإني إذا حادوا جزاعا عـن الـرَّدَى ::: فلم أكُ ذا حيدٍ عن المـوت جازِعَـا
حَمَيتُ ذماري وانتهكتُ ذِمـارَهم ::: ومَنْ لا يحامي ظلَّ خزيـان ضَـارِعَا
ولمـا تسـاقينا سِـجالُ حُروبنَـا ::: سقَيْتُهُمُ سَـمًّا مـن المـوت ناقِعَـا
وهل زدتُ أن وفَّيتُهُمْ صاعَ قرضِهم ::: فوافوا مَنَايـاَ قُـدِّرَت ومَصَـارِعَا
فَهَاكَ بـلادي إنّـني قـد تركتُهـا ::: مِهَـاداً ولم أتْـرُكْ عليهـا مُنَازِعَـا

ولما دنت وفاته، عتب نفسه فيما تقدم منه عتابا، وتاب إلى الله متابا، ورجع إلى الطريقة المثلى، وقال: إن الآخرة هي الأبقى والأولى؛ فتزين بالتقوى، واعتصم بالعروة الوثقى؛ وأقر بذنوبه واعترف، وأنس إلى قوله تعالى إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف. وكان من عباد الله المتقين، إلى أن أتاه من ربه اليقين. فتوفي - رحمه الله! - سنة ٢٠٦ (١).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٦٩ - ٧٤.

واحكماه!!

يقول المقري: "... ومن بديع أخبار الحكم أن العباس الشاعر وتوجّه إلى الثغر، فلمّا نزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول: واغوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتى كلب العدوّ علينا، فأيّمنا وأيتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت: كنت مقبلة من البادية في رفقة، فخرجت علينا خيل عدو، فقتلت وأسرت، فصنع قصيدته التي أوّلها:

تململت في وادي الحجارة مسهرا ::: أراعي نجوماً ما يردن تغوّرا

إليك أبا العاصي نضيت مطيّتي ::: تسير بهم سارياً ومهجّرا

تدارك نساء العالمين بنصرة ::: فإنّك أحرى أن تغيث وتنصرا

فلمّا دخل عليه أنشده القصيدة، ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، فخرج بعد ثلاث إلى وادي الحجارة ومعه الشاعر، وسأل عن الخيل التي أغارت من أيّ أرض العدوّ كانت، فأعلم بذلك، فغزا بتلك الناحية وأثخن فيها، وفتح الحصون، وخرب الديار، وقتل عدداً كثيراً، وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد، فأحضر، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها، وقال للعباس: سلها: هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة، وكانت نبيلة: والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدوّ، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله، وأعزّ نصره " [1].

* * *

(١) نفح الطيب، ١ / ٣٣٢٠.

عبد الرحمن الثاني الحكم " الأوسط "

(٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م)

هو الأمير أبو المطرف غبد الرحمن، الابن الأكبر للحكم بن هشام، ولد بطليطلة في شعبان سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م وعني أبوه بتعليمه وتخريجه في العلوم الحديثة والقديمة، وعهد إليه بولاية العهد باعتباره أكبر أبنائه، ثم لأخيه المغيرة من بعده فلما توفي الحكم عام ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م خلفه ابنه الأمير عبد الرحمن وهو في سن الثلاثين، وعرف بعبد الرحمن الأوسط لأنه ثاني ثلاثة سموا بهذا الاسم، وقاموا بأمر الأندلس، واكتسب عبد الرحمن كثيرا من صفات أبيه وجده ولكنه كان أكثر منهما لينا ورقة، فكان وسطا بين العنف واللين، وقد أثرت نشأته وتربيته الأولى في تكوين شخصيته،: فكان رجلا علي مستول عال من الثقافة والعلم، وكان عالما متبحرا في أمور الشريعة والفلسفة، كما كان شاعرا أديبا ذا همة عالية، وفنانا يقدر الفن ويرفع منزلة أصحابه، فاحتضن العلماء ورجال الفن والأدباء، ممن ضاق الشرق بمواهبهم، فكان يرحب بهم في بلاطه، ويحسن إليهم ويكرمهم، ولذا كانت أيامه أيام هدوء وسكون، وكان عهده عهد سلم ورخاء بعد عهد الفتن والثورات التي اتسم بها عصر عبد الرحمن الداخل والحكم الربضي، وكثرت الأموال لديه " فاتخذ القصور والمتنزهات وجلب إليها الماء، وجعل له - لقصره - مصنعا - حوض للسقيا - اتخذه الناس شريعة، وزاد في جامع قرطبة رواقين، ومات قبل أن يستتمه، فأتمه محمد ابنه من بعده، وبني بالأندلس جوامع كثيرة، ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة، وهو الذي أسس مدينة مرسية، ورتب رسوم المملكة، واتخذ للوزراء قصرا داخل قصره، وكان يجتمع بهم متي أراد ذلك.، وعبد الرحمن أول من فخم السلطنة بالأندلس، وأول من جري علي سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وكسا الخلافة أبهة الجلال، وأول من أحدث بقرطبة دار السكة وضرب النقود باسمه، ولم يكن فيها منذ افتتحها العرب، ولذلك عرفت أيامه بأيام العروس لكثرة الخيرات فيها [1].

وهكذا سمت الحياة في الأندلس وتألقت الحضارة، وأصبحت الأندلس في عداد الدول العظمي في العالم الإسلامي والمسيحي علي حد سواء، وتحول المجتمع

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٣٢٥، ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨٠، ٩١، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين ص ٢٢٨ - ٢٢٩، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس ص ١٢٢، ١٢٣.

الأندلسي الذي كان يقوم على أخلاط بشرية غير منظمة إلى مجتمع منظم مظهره، مصقولة صورته، وتأثر هذا المجتمع في عصره بالتقاليد العراقية التي أخذت تغزو الأندلس وتمتزج بالتقاليد الشامية، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا أصيلا تميزت به الأندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله حتى سقوط الخلافة [١].

* * *

الثورات والفتن الداخلية في عهده

في أوائل عهده خرج عليه عم أبيه عبد الله البلنسي، وكان لم يزل يطمع في الظفر بالإمارة، وسار إلى تدمير يريد قرطبة والتف حوله جمهور، فتجهز عبد الرحمن للقائه، ولكن عبد الله اضطر للعودة إلى بلنسية حيث وافته المنية في سنة ٢٠٨هـ / ٨٢٣ م، فنقل عبد الرحمن أولاده وأهله إلى قرطبة إلى جواره، وعادت قرطبة من جديد إلى حظيرة الحكومة المركزية في قرطبة - فتم تعيين والي عليها من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط. وخلصت إمارةالأندلس لولد هشام بن عبد الرحمن [٢].

ولم يقطع السكون الذي كان يسود عهد عبد الرحمن سوي فتنة قامت في تدمير سنة ٢٠٧هـ / ٨٢٣هـ بين المضرية واليمنية، ودامت سبع سنين، حتي سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ - ٨٢٩م بسبب قتل يماني لمضري أخذ ورقة دانية من جنان يماني فقتله اليماني، فقامت الحرب بين العصبيتين، واضطر الأمير عبد الرحمن أن يتدخل في هذه الحرب، فأغزي إلى الفريقين المتقاتلين سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م قائده يحي بن عبد الله بن خلف، فالتقي في موقعة تعرف بوقعة المصارة أو بلورقة، قتل منهم حوالي ثلاثة آلاف، وكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى تفرقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والقتال، وقد تزعم اليمنية أبو الشماخ، واستمرت الفتنة مدة سبع سنوات، وكادت الدائرة تدور علي الينية والقتلي منهم حتي فني من المسلمين عدد كبير، ولم تهدأ الفتنة إلا في سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨ م عندما أرسل الأمير قائده أمية بن معاوية بن هشام فتغلب عليهم وخضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة، وصار أبو الشماخ من ولاة الأمير عبد الرحمن وثقاته، وقد أمر الأمير بهدم " إلة " حاضرة تدمير التي انبعثت منها الفتنة وصارت مرسية مقرا

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٢٢٩.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ن ٢ / ٩١، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٣٠.

لوالي تدمير وذلك بعد بنائها في سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م (١).

يقول ابن عذاري: "... وفي سنة ٢٠٧، ثارت بتدمير فتنة بين مضر ويمن، ودامت سبع سنين؛ فأغزى إليهم الأمير عبد الرحمن في هذا العام يحيى بن عبد الله بن خلف؛ ثم كان يبعث إليهم المرة بعد المرة بالقواد؛ فيفترقون؛ فإذا قفلوا، عادوا إلى الفتنة. وكانت بينهم وبين يحيى بن عبد الله وقيعة تعرف بوقعة المصارة بلورقة، انتهى مبلغ القتلى فيهم إلى ثلاثة آلاف... " (٢).

وفي سنة ٢١١هـ / ٨٢٦ م ثار طوريل البربري بتاكرنا، ولكن الأمير بعث إليه بقائده عبد الحمن بن معاوية بن غانم فظفر به، وقطع عاديته (٣) يقو ابن عذاري: "... وفي سنة ٢١١، ثار طوريل بتاكرنا؛ فأخرج إليه الأمير عبد الرحمن معاوية ابن غانم في حشد؛ فظفر به، وقطع عاديته.. (٤).

وفي سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م ثار هاشم الضراب بطليطلة، فأرسل إليه الأمير عامله علي الثغر محمد بن رستم لمحاربته، ولكنه لم يفلح في هزيمته واستفحل أمر الضراب وتغلب علي جانب من الثغر، وفي سنة ٢١٤ هـ حدثت معركة بين محمد بن رستم وبين الضراب انتهت بهزيمة الضراب هزيمة شنيعة، وقتل هو وكثير من أتباعه، ومع ذلك ظلت طليطلة خارجة علي طاعةالأمير، فأرسل إليها أمية بن الحكم سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م فحاصرها وأتلف زرعها وقطع ثمارها، وترك أمية علي قلعة رباح أحد قواد المسلمين وهو ميسرة الفتي لمحاصرة طليطلة، أما هو فعاد إلى قرطبة وتشجع أهل طليطلة علي مهاجمة قلعة رباح، فلما خرجوا لمهاجمة المدينة، أعد لهم ميسرة كمينا، وعندما إقتربوا منها خرج لهم ميسرة ورجاله فأوقعوا بهم القتل، ولما مات ميسرة تولي بعده أبو الشماخ اليماني، ولم يتم فتح طليطلة إلا في سنة ٢٢٢هـ /٨٣٧ م وكان السبب في ذلك أن رجلا من طليطلة اسمه ابن مهاجر خرج عنها، وتوجه إلى قلعة رباح حيث استدعي القوات، ونهض بهم إلى طليطلة، فحاصروا أبوابها، فلما قدم القائد عبد الواحد الإسكندراني الذي بعثه الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة لمحاصرتها، وجد أهلها قد بلغ بهم الجهد مبلغا عظيما، ففتتحها قهرا في

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨٢.
(٢) البيان المغرب، ٢ / ٨٢.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨٢.
(٤) البيان المغرب، ٢ / ٨٢.

شهر رجب سنة ٢٢٢ هـ [١].

وفي سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م ثار أهل ماردة علي الأمير عبد الرحمن، إذ أشعل نيرانالثورة فيها رجل بربري اسمه محمود بن عبد الجبار، وانضم إليه أحد المولدين واسمه سليمان بن مرتين ويعرف باسم قعنب، واستقل هذان الثائران بالمدينة، وشقا عصا الطاعة علي الأمير عبد الرحمن الأوسط، وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقي. فاضطر الأمير إلى إرسال فرقة حاصرت ماردة سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م تمكنت من تدمير سهولها، وقطع الأقوات عن المدينة، إلا أن تلك الحملة لم تأت بنتيجة تذكر، وفي سنة ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م حاصر الأمير عبدالرحمن ماردة حصارا شديدا أدي إلى استسلام حاكمها حارث بن بزع، غير أن إخضاع ماردة لم يتم إلا في عام ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م، وقد سجل عبد الحمن الأوسط إخضاعه لثورة ماردة ببنائه قصبتهاالتي تعرف اليوم لدي العامة بالدير، وبها نقش عربي محفوظ اليوم بمتحف القصبة يحمل تايخ سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م [٢].

وفي سنة ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م ثار أحد البربر واسمه حبيب البرنسي بجبال الجزيرة الخضراء، والتف حوله جماعة من أهل الفساد، فأخرج إليه ألأمير الأجناد، ففرقوا جموعه وقتلوا عددا كبيرا من أتباعه [٣].

* * *

الحروب الخارجية في عهد عبد الرحمن الأوسط

قام الأمير عبد الرحمن بعدة غزوات خارجية، وذلك تأمينا لحدود الدولة ودفعا للطامعين فيها، والتي أجملها بن عذاري بقوله: "... وفي سنة ٢٠٨، كانت الغزاة المعروفة بغزاة ألبة والقلاع، غزاها عبد الكريم ابن عبد الواحد بالصائفة، واحتل بالثغر؛ وتوافت عليه عساكر الإسلام، واختلفوا في الدخول على أي باب يكون إلى دار الشرك؛ ثم اجتمعوا على أن يكون من باب ألبة، إذ كان ذلك الباب أنكى للعدو وأحسم لدائه؛ فاقتحموا من فج يقال له جرنيق؛ وكان وراءه بسيط للعدو، فيه خزائنه وذخره. فوقع أهل العسكر على تلك البسائط، فاستصفوها، وعلى ذخر تلك الخزائن،

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨٢ - ٨٣، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٣٠.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨٣ - ٨٤، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٣١ - ٢٣٢، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٩٢.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨٣ - ٨٤، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٣١، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٩٢.

فانتهبوها؛ واستوعبوا خراب كل ما مروا عليه من العمران والقسرى، وأقفروها. وانصرف المسلمون غانمين ظافرين. والحمد لله!

وفي سنة ٢٠٩، توفي عبد الكريم بن عبد الواحد؛ وكان قد أخذ في الحركة إلى أرض العدو؛ فاعتل. وعوض منه الأمير عبد الرحمن بن الحكم أمية ابن معاوية بن هشام. فغزا بالصائفة إلى أوريط؛ فاحتل بها، وهي يومئذ للإسلام؛ فأخذ أهل الذنوب والريب، وعفا عن الباقين؛ ثم تقدم إلى شنت برية وتدمير...

وفي سنة ٢١٣، غزا عبيد الله بن عبد الله البلنسي بالصائفة إلى دار الحرب؛ فجال في أرض العدو حتى بلغ برشلونة، وتردد في تدويخها وانتسافها ستين يوما...

وفي سنة ٢٢٣، أعزى الأمير عبد الرحمن بن الحكم أخاه الوليد بن الحكم إلى جليقية؛ فدخل من باب الغرب مع قطيع من العسكر؛ فدوخها. وكانت له فتوحات كثيرة.

وفي سنة ٢٢٤، أغزى الإمام عبد الرحمن ابنه الحكم إلى دار الحرب، وأمره بالتجوال في جهات الثغور، ليتعرف أخبارها ومصالحها...

وفي سنة ٢٢٥ غزا الإمام عبد الرحمن بنفسه أرض جليقية. ففتح حصونها، وجال في أرضها. وطالت غزاته، وتعب كثيرا؛ فأرق في بعض الليالي؛ فلما كان في بعض الليل، حضر عبد الله بن الشمر الشاعر؛ فوصف له أرقه، وأنه تذكر بعض من حن إليه؛ فقال عبد الرحمن بن الشمر:

عَدَانيَ عَنْكَ مَزَار العِدَى ::: وقَودِي إليهم لُهَاماً مَهيبَا
وكَمْ قَدْ تعسفتُ من سَيْسَب ::: وجاوَزتُ بعد دُروب دُرُوبا
وادَّرعُ النَّقْعَ حتى لَبستُ ::: من بَعْدِ نَضْرةِ وَجهي شُحُوبا
ألاقِي بوجهب سموم الهجيرِ ::: وقد كادَ مِنْه الحَصَى أن يَذُوبا
أنا ابن الهِشامَين مِن غالب ::: أشُبُّ حُرُوبا وأطِفْي حُرُوبا
وَبِي أدَّرَكَ الله دينَ الهُدَى ::: فأحْيَيْتُهُ واصطَلَمْتُ الصَّلِبا
سموتُ إلى الشِرْكِ في جَحفَل ::: مَلأتُ الحُزُونَ بِهِ والسُّهُوبَا

وفي سنة ٢٢٦، غزا بالصائفة إلى جليقية من بلاد العدو مطرف بن عبد الرحمن؛ فتوسط بسيطهم، وذهب بنعمتهم؛ وكان القائد عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني...

وفي سنة ٢٢٧، خرج، عبيد الله بن عبد الله صاحب الصوائف؛ فلما حصل بين أربونة وسرطانية، تجالب الأعداء من كل ناحية، وأحاطوا بالعسكر ليلا؛ فقاتلهم المسلمون الليل كله؛ فلما انبلج الضوء، أيد الله المسلمين، وهزم الأعداء.

وفي سنة ٢٢٨، خرج الأمير عبد الرحمن بنفسه إلى أرض العدو، وخلف في القصر ولده المنذر، وجعل على ميمنته ولده محمدا وعلى الميسرة ولده المطرف. فلقي جيشا كبيرا من المشركين؛ فناشبهم الحرب؛ فأنزل الله نصره على المسلمين، وهزموا المشركين، وأثخنوا فيهم القتل. وأفاء الله على المسلمين من ذراري أهل بنبلونة وخيلهم وأسلحتهم ما عظم به من الله سبحانه المن. وقفل غزيرا في منتصف شوال. وكان خروجه من قرطبة لتسع بقين من شعبان...

وفي سنة ٢٣٠ ورد كتاب وهب الله بن حزم عامل الأشبونة، يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركبا من مراكب المجوس [1]، معها أربعة وخمسون قاربا؛ فكتب إليه الأمير عبد الرحمن وإلى عمال السواحل بالتحفظ.

فقد خرج المجوس في نحو ثمانين مركبا، كأنما ملأت البحر طيرا جونا؛ كما ملأت القلوب شجوا وشجونا. فحلوا بأشبونة؛ ثم أقبلوا إلى قادس، إلى شذونة؛ ثم قدموا على إشبيلية؛ فاحتلوا بها احتلالا، ونازلوها نزالا، إلى أن دخلوها قسرا، واستأصلوا أهلها قتلا وأسرا. فبقوا بها سبعة أيام، يسقون أهلها كأس الحمام. واتصل الخبر بالأمير عبد الرحمن؛ فقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب، واتصل المسلمون به اتصال العين بالحاجب. وتوجه بالخيل عبد الله ابن كليب وابن رستم وغيرهما من القواد واحتل بالشرف. وكتب إلى عمال الكور في استنفار الناس؛ فحلوا بقرطبة، ونفر بهم نصر الفتى. وتوافت للمجوس مراكب على مراكب، وجعلوا يقتلون الرجال، ويسبون النساء، ويأخذون الصبيان، وذلك بطول ثلاثة عشر يوما. ذكر ذلك في بهجة النفس. وفي كتاب درر القلائد: سبعة أيام، كما تقدم. وكانت بينهم وبين المسلمين ملاحم. ثم نهضوا إلى قبطيل؛ فأقاموا بها ثلاثة أيام، ودخلوا قورة، على اثني عشر ميلا من إشبيلية؛ فقتلوا من المسلمين عددا كثيرا؛ ثم دخلوا إلى

---

(١) المقصود هنا بالمجوس هم النورمان، وكان النورمان يغيرون على الأندلس من المنافذ النهرية، وقد سماهم العرب النورمان لأنهم كانوا يشعلون النيران كثيرا فظن العرب أنهم يعبدونها، ويرجع النورمان إلى أصل جرماني، وينقسمون إلى ثلاث مجموعات: السويديون والنرويجيون والانماركيون. انظر: المقتبس، ص ٢٧ - ٢٨، ٥٨، الحلة السيراء، ٢ / ٣٧٢، المغرب في حلي المغرب، ١ / ٤٩، البيان المغرب، ٢ / ٨٧ - ٨٨، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٢٥.

طليطلة، على ميلين من إشبيلية؛ فنزلوها ليلا، وظهروا بالغداة بموضع يعرف بالنخارين؛ ثم مضوا بمراكبهم، واعتركوا مع المسلمين. فانهزم المسلمون، وقتل منهم ما لا يحصى. ثم عادوا إلى مراكبهم. ثم نهضوا إلى شذونة، ومنها إلى قادس، وذلك بعد أن وجه الأمير عبد الرحمن قواده؛ فدافعهم ودافعوه؛ ونصبت المجانيق عليهم، وتوافت الأمداد من قرطبة إليهم. فانهزم المجوس وقتل منهم نحو من خمسمائة علج؛ وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها؛ فأمر ابن رستم بإحراقها وبيع ما فيها من الفيء. ثم كانت الوقعة عليهم بقربة طليطلة يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر من السنة، قتل فيها منهم خلق كثير، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركبا. وعلق من المجوس بإشبيلية عدد كثير، ورفع منهم في جذوع النخل التي كانت بها. وركب سائرهم مراكبهم، وساروا إلى لبلة؛ ثم توجهوا منها إلى الأشنونة؛ فانقطع خبرهم.

وكان احتلالهم بإشبيلية يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم من سنة ٢٣٠ وكان بين دخولهم إلى إشبيلية وخروج من بقى منهم وانقطاعهم اثنان وأربعون يوما؛ فقتلهم الله وأبادهم، وبدّد عددهم وأعدادهم؛ وقتل أميرهم نقمة من الله وعذابا، وجزاء بما كسبوا وعقابا. ولما قتل الله أميرهم، وأفنى عديدهم، وفتح فيهم، خرجت الكتب إلى الآفاق بخبرهم. وكتب الأمير عبد الرحمن إلى من بطنجة من صنهاجة، يعلمهم بما كان من صنع الله في المجوس، وبما أنزل فيهم من النقمة والهلكة؛ وبعث إليهم برأس أميرهم وبمائتي رأس من أنجادهم.

وفي سنة ٢٣١، غزا بالصائفة جليقية محمد ابن الأمير عبد الرحمن؛ فحصرها، وحصر مدينة ليون، ورماها بالمجانيق. فلما أيقنوا بالهلاك، خرجوا ليلا، ولجؤوا إلى الجبال والغياض؛ فأحرق ما فيها، وأراد هدم سورها؛ فوجد سعته ثمان عشرة ذراعا؛ فتركه؛ وأمعن في بلاد الشرك قتلا وسبيا...

وفي سنة ٢٣٤، أمر الأمير بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة ميورقة، لنكايتهم، وإذلالهم، ومجاهرتهم بنقضهم العهد، وإضرارهم بمن مر عليهم من مراكب المسلمين. فغزتهم ثلاثمائة مركب؛ فصنع الله للمسلمين جميلا، وأظفرهم بهم، وفتحوا أكثر جزائرهم...

وفي سنة ٢٣٥، ورد كتاب أهل ميورقة ومنورقة إلى الأمير عبد الرحمن، يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين لهم؛ فكتب إليهم كتابا أذكر هنا فصولا منه، وهو: أما بعد، فقد بلغنا كتابهم، تذكرون فيه أمركم، وإغارة المسلمين الذين وجهناهم إليكم لجهادكم، وإصابتهم ما أصابوه منكم من ذراريكم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه

منكم، وما أشفيتم عليه من الهلاك. وسألتم التدارك لأمركم، وقبول الجزية منكم، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة، والنصيحة للمسلمين، والكف عن مكروههم، والوفاء بما عاهدتم وتحملونه عن أنفسكم. ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاحكم، وقمعكم عن العود إلى مثل الذي كنتم عليه. وقد أعطيناكم عهد الله وذمته!.. [(١)].

وفي سنة ٢٣٨هـ، توفي الأمير عبد الرحمن بن الحكم - رحمه الله! - ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر من السنة. وما زال يقتني المآثر، ويبني المكارم والمفاخر، حتى قبضته شعوب، وأرداه مردى القبائل والشعوب.

لقد ارتفع شأن الإمارة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط، وأصبحت الدول الأجنبية تخطب ودها، وكان له من الخصال الحميدة الكثيرة نكتفي هنا بما أوردناه في بداية الحديث عن تاريخه، وبما أورده ابن عذاري بقوله: "... كان شاعرا، أديبا، ذا همة عالية. وكانت له غزوات كثيرة، وفتوحات في دار العدو شهيرة، يخرج إليها في العدد الجم، والعسكر الضخم، يخرب ديارهم، ويعفي آثارهم، ويقفل ظاهر الاعتلاء، قاهر الأعداء. لم يلق المسلمون معه بؤسا، ولم يروا في مدته يوما عبوسا. وهو أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل، وترتيب الخدمة. وكسى الخلافة أبهة الجلالة فشيد القصور، وجلب إليها المياه، وبنى الرصيف، وعمل عليه السقائف؛ وبنى (المساجد) الجوامع بالأندلس؛ وعمل السقاية على الرصيف، وأحدث الطرز، واستنبط عملها؛ واتخذ السكة بقرطبة. وفخم ملكه. وفي أيامه دخل الأندلس نفيس الوطاء وغرائب الأشياء؛ وسبق ذلك إليه من بغداد وغيرها. وعندما قتل محمد الأمين، ابن هارون الرشيد، وانتهب ملكه، سبق إلى الأندلس كل نفيس غريب من جوهر ومتاع. وقصد بالعقد المعروف بعقد الشفاء؛ وكان لزبيدة أم جعفر.

ومن مآثره: أنه كان ورد عليه يوما أموال من بلاده، لعطبات أجناده؛ فأدخلت إليه، وجعلت الخرائط بين يديه. وكان بعث فتيانه؛ فخلا مجلسه إذ ذاك، ولم يبق أحد هناك، حاشى فتى كان بين يديه واقفا، وعلى خدمته الخاصة عاكفا؛ فغشيت الأمير عبد الرحمن نعسة، ظنها الفتى تهزة وخلسة؛ فقبض على خريطة من ذلك المال، وأسدل عليها كمة أسبغ إسدال، والأمير يلاحظه بطرف خفيّ، ويصمت عنه صمت برّ حفيّ؛ ففاز الفتى بماله، وناط به أسباب آماله. فلما رجع الفتيان، أمرهم الأمير عبد

---

(١) البيان المغرب، ٢ / ٨٥ - ٨٨.

الرحمن برفع تلك الخرائط المبسوطة؛ فوجدوا نقصان تلك الخريطة؛ فتدافعوا فيها إذ ذاك، كل يقول لصاحبه: أنت أخذتها من هناك! فقال لهم الأمير: أسكنوا عن هذا! فقد أخذها من لا يردها، وعاينه من لا يقولها! فكان هذا مما عدَّ من كرمه وفضله.

وكانت له جارية تسمى طروب، كان بها دنفا؛ فصدت عنه يوما، وأبدت هجرانه. فأرسل فيها؛ فامتنعت عليه، وأغلقت على نفسها بيتا. فأمر ببنيان الباب بالخرائط المملوءة من الدراهم، استرضاء لها، واستعطافا لوصلها. فلما فتحت الباب، تساقطت الخرائط من كل جانب؛ فأخذتها؛ فألفت فيها نحوا من عشرين ألفا؛ وأمر لها يعقد قيمته عشرة آلاف دينار؛ فجعل بعض من حضر من وزرائه يعظم الأمر عليه؛ فقال له الأمير عبد الرحمن: إن لابسه أنفس منه خطرا وأرفع قدرا! ولئن راق من هذه الحصباء منظرها، ورصف في النفس جوهرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرا يغشى الأبصار، ويذهب بالألباب. وهل على وجه الأرض من زبرجدها وشريف جوهرها أقر لعين، وأجمع لزين، من وجه أكمل الله فيه الحسن ونضرته، وألقى عليه الجمال بهجته؟ ثم قال لعبد الله بن الشمر الشاعر وكان حاضرا: هل يحضرك شئ في المعنى؟ فأنشد:

أتُقرَنُ حَصباءُ البواقِيــت والشــذرِ ::: بمَنْ يتعَالى عن سَنَا الشَمسِ والبَــدْرِ
بمَن قَد بَرَت قِدما يَــدُ الله خلقَــهُ ::: وَلَم يَكُ شيئاً قَبلَــهُ أبَــداً يَبْــرِى
فَأكْرِمْ به مِـــنْ صَــنْعةٍ اللهِ جَــوهراً ::: تَضَاءلَ عنه جَــوَهَرُ البَــرِّ والبحــرِ

فأعجبت الأمير الأبيات وطرب لها طربا شديدا. وأنشد الأمير مرتجلا طويل:

فَريضُكَ يَا ابن الشَّمر عــني علــى الشِــــعرِ ::: وجَلَّ عن الأوهامِ والذِّهْنِ والفِكــرِ
إذا شــافَهتْهُ الأذنُ أدَّى بســحرها ::: إلى القلب إبداعاً فجَلَّ عن الســحرِ
وَهَل بَرأ الرّحْمنُ من كلِّ مــا بــرأ ::: أقــرَّ لعِــينِ مــن منَهمــةٍ بكــرِ
تَرَى الوردَ فوقَ اليَاسَــمينِ بخــدِّها ::: كَمَا فوق الــرَّوْضُ الُمــنَعَّمُ بــالزَّهرِ
فَلَو أنَّني ملكــتُ قَلــبي ونــاظِري ::: نَظَمْتُهما مِنها على الجِيــدِ والنَّحــرِ

ثم أمر لابن الشمر ببدرة فيها خمسمائة دينار؛ فخرج مع الوصيف يحملها له تحت إبطه. فلما تواريا عن الأمير، قال له الوصيف: أين لذات العمر، يا ابن الشمر؟ فقال: تحت إبطك يا سيدي! " (١).

(١) البيان المغرب، ٢ / ٩٢.

* * *

محمد بن عبدالرحمن بن الحكم

(٢٣٨ – ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ – ٨٨٦ م)

تولي الأمير محمد بن عبد الرحمن الإمارة في ٤ ربيع الأخر سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٢ م وحكم ما يقرب من خمس وثلاثين سنة، وكان أوحد قومه في البلاغة والرجاحة وحسن الخلق، يؤثر الحق وأهله وكان عاقلا ذا أخلاق حميدة ومكارم جميلة، وبديهة وروية، خدمته ملوك بلاد المغرب، واعترفت بطاعته تاهرت وسجلماسة، وق عاصر أعظم ملوك الإفرنج حيث كانوا يهادنونه ويطلبون وده [(١)].

وقد وجه الأمير عناية كبيرة بالاهتمام بأمور الدولة الداخلية والخارجية، حفاظا عليها من الثائرين في الداخل والخارج والمغيرين والمتربصين بها من الخارج، وقضي معظم مدة حكمه في غزوات متعاقبة وحملات مستمرة لتأديب الثوار في الداخل، وحملهم علي الطاعة، والوقوف في وجه الممالك النصرانية، حماية لثغور المسلمين، واهتماما بمصالحهم، كما اهتم بالإصلاحات الداخلية فترة حكمه [(٢)].

ولكن ما يؤخذ علي الأمير محمد بن عبد الرحمن: أنه فوض أمور دولته لهاشم بن عبد العزيز أعظم وزرائه، وكان هاشم هذا مغرورا بنفسه، حقودا لجوجا، أفسد الدولة، وكان الأمير محمد يقدمه علي جيوشه، فخرج مرة إلى غرب الأندلس ليقمع ما هنالك من الثورات فأساء السيرة مع جنوده وبعض الثوار، وقيل أنه أهان عبد الرحمن بن مروان الجليقي ببطليوس، في حملته التي قادها سنة ٢٦٢ هـ ففر منه عبد الرحمن بن مروان إلى سعدون السرنباقي الثائر بالثغر، واشتبك الوزير هاشم معهما فهزماه وأسراه ووقع بين يدي من صفعاه، فأحسن إليه، ثم افتداه الأمير محمد بمال كثير، وأرسله الأمير محمد مرة في جيش كبير مع ابنه المنذر إلى ثغر سرقسطه، فأساء الأدب معه حتي أحقده عليه، وقامت الثورات في الأندلس بسببه [(٣)].

* * *

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٩٣ - ٩٤، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٢، ٢٣.

(٢) محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٣٠٤، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٣٣.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٤٤.

الثورات الداخلية في عهده

إن الإمارة الأموية حتى في أيام الرخاء إبان عهد الأمير عبد الرحمن الثاني، لم تكن خالية من المتاعب، ولم تكن السلطة فيها إلا عبئا ثقيلا علي أمراء تلك الحقبة، ذلك أن قضيتين أساسيتين كان علي كل أمير جديد أن يتصدي لهما، أو ينزلق ومعه النظام إلى مهاوي التمزق والانقسام:

القضية الأولي، وهي الأكثر خطورة تكمن في طبيعة المجتمع الأندلسي المفكك الذي هو عبارة عن قبائل وشعوب متعددة، خضعت للسيادة الأموية إما طوعا أو كرها، وإما إبتغاء المصلحة، دون أن يجمع بينها قليل من القاسم المشترك بالمسؤولية الوطنية، فالمجتمع الأندلسي يتكون من أقلية عربية جاءت مع الفتوح أو في ظروف عادية، وحتى هذه الفئة من المجتمع كان يعوزها الانسجام لتوزع إنتمائاتها قبليا بين قيسي ويمني، وإقليميا بين حجازي أوشامي أو إفريقي، وهناك أقلية أخري يتكون منها المجتمع الأندلسي وهي البربر التي جاءت في نفس الظروف ونازعتها مشاعر السيطرة والنفوذ، فـأ خفقت مرارا، ولكنها لم تتخل عن طموحها الذي استمدته من دعم القوةالأساسية للبربر في المغرب، أما أغلبية السكان فكانوا من السكان الأصليين الذين تأقلموا مع النظام عقيدة وهوية فصاروا يعرفون بالمولدين، بالإضافة إلى فئة أخري من هؤلاء تأقلمت هوية دون عقيدة، وهي التي عرفت بالمستعربة أو المستعربين.

أما القضية الثانية والتي كانت نتيجة حتمية لهذا المجتمع المنخور والمتنافر عنصريا ودينيا، إن لم نقل إجتماعيا، هي العلاقة العدائية بين حكومة قرطبة والإمارات الأسبانية في الشمال، التي كانت تغذي هذا التنافر وتستفيد من اختلال الحكم المركزي لحساب مصالحها التوسعية.

هكذا كانت ظروف الإمارة الأموية في الفترة التي تولي فيها الأمير محمد بن عبد الرحمن الحكم في الأندلس، تناقضات هائلة ورياح وحركات إستقلالية مكبوتة تنتظر لحظة الإنفجار في الوقت المناسب، حتى إذا حانت الفرص في مطلع عهده وثب الطامحون إلى السلطة كل في مقاطعته، حيث يتوفر الأنصار والمؤيدون، وكأنهم علي موعد مع خطة مشتركة ومدبرة (١).

* * *

(١) إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ٢٥٧ - ٢٥٨، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٣٤.

ثورة طليطلة

أولي هذه الثورات علي الأمير محمد ثورة أهل طليطلة، وكانت طليطلة بحكم موقعها الجغرافي وكثرة عدد سكانها المولدين موطنا للثورات، وقد بدأ أهل طليطلة بالثورة علي الأمير في نفس عام ولايته وسجنوا عامل طليطلة عندهم حتي يطلق الأمير رهائنهم من درا الرهائن من بقرطبة، ففعل الأمير وأطلقوا عامله، ثم يجرؤوا بعد ذلك علي الأمير وأغاروا علي قلعة رباح وأرغموا حاميتها علي الإنسحاب وعندئذ بعث الأمير أخاه الحكم علي رأس جيش لغزو طليطلة سنة ٢٣٩هـ، فاحتل الحكم قلعة رباح وأم ببنيان أسوارها، واسترجاع من فر من حاميتها [(١)].

ثم عاد أهل جليقية للثورة من جديد سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤م مما اضطر الأمير للخروج إليهم بنفسه، فاستعان المتمردون بصاحب جليقية أردون بن أذفونش ملك أشتوريش، الذي لم يتورع في تقديم كل وسائل المساعدات لثوار طليطلة، إذ كانت مصلحته تقتضي إشعال نيران الحرب الأهلية في الأندلس، فأمدهم بأخيه غثون في جمع عظيم من النصاري، فلما عرف ذلك الأمير محمد - وكان قد اقترب من طليطلة - أعمل الحيلة والكيد، واستشعر الحزم، فعبأ الجيش وكمن الكمائن خلف النتوءات البارزة من سطح الأرض في نواحي نهر سليط، فلما التقي الجمعان خرجت الكمائن عن اليمين والشمال، وتواترت الخيل أرسالا، حتى غشي الأعداء منهم ظلل كالجبال، فانهزم المشركون وأهل طليطلة، وأخذهم السلاح ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح، فقتل معظمهم وأبيد جمعهم، وكان عدد قتلاهم عشرين ألفا [(٢)].

وفي سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦ م وجه الأمير محمد ابنه المنذر بالجيوش إلى طليطلة فحاصرها وأقام عليها ينسف معايشها، وفي العام التالي ٢٤٣هـ / ٨٥٧ م ثار أهل طليطلة وخرجوا إلى طلبيرة فحرج إليهم قائده مسعود بن عبد الله العريف بعد أن كمن لهم الكمائن، فقتلهم قتلا ذريعا، وبعث إلى قرطبة بسبعمائه رأس من رؤوس أكابرهم. وكانت هذه النكبة لا تقارن بما أصابهم في العام التالي [(٣)].

فقد خرج الأمير محمد سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨ م إلى طليطلة بعد أن قل جدهم بسبب ما نزل بهم من مصائب، فلم تكن لهم حرب إلا علي القنطرة، فأمر الأمير محمد

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٩٤، ٩٥.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ٢ / ٩٤ - ٩٥، المقري، نفح الطيب، ١ / ٣٥٠.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٩٦.

بقطع القنطرة، وجمع العرفاء من البنائين والمهندسين وأداروا الحيلة لهذا الغرض دون أن يعلم بها أهل طليطلة، فلما تدفقت عليهم قوات طليطلة إنهارت بهم فغرقوا في النهر عن آخرهم وأخيرا لم يجد أهل طليطلة بدا من التسليم بالهزيمة والإذعان للأمير، ولكن هذا الأمر لم يستمر طويلا إذ عادوا من جديد إلى الثورة سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٥ م فخرج لهم الأمير بنفسه لوضع الأمور في وضعها الصحيح وأرغمهم علي تقديم فروض الولاء والطاعة، وأخذ منهم رهائن وعقد لهم أمانا وأغرمهم ضريبة من العشور يؤدونها له في كل عام [١].

* * *

ثورة ماردة

وتبعت ثورة أهل طليطلة ثورة أهل ماردة، إذ ثار بها عبد الرحمن بن مروان بن يونس المعروف بابن الجليقى مع جماعة من المولدين أمثاله، نخص بالذكر منهم ابن شاكر ومكحول فى٢٥٤هـ/ ٨٦٨م.

فخرج الأمير محمد إلى ماردة وقد تظاهر بتوجهه نحو طليطلة لحصارها، فلما سار في طريق طليطلة انحرف إلى الطريق المؤدى إلى ماردة، فحاصر المدينة أياما واضطر أهل ماردة إلى التسليم، واشترط عليهم الأمير أن يخرج من المدينة فرسانهم والمحرضين على الثورة وعلى رأسهم عبد الرحمن بن مروان وغيره، فخرج المذكورون بأولادهم وذراريهم، وولى الأمير عليها سعيد بن عباس القرشي، ثم أمر بهدم سورها، ولم تبق إلا قصبتها باعتبارها مركز الحكومة. وظل ابن مروان في قرطبة حتى سنه ٢٦١هـ/ ٨٧٥م ثم هرب مع أنصاره، واستقروا بقلعة حنش على بعد نحو ٢٠ ك. م جنوب شرقى ماردة. فغزاه الأمير محمد، وحاصره مدة ثلاثة أشهر، وقطع عنه الأقوات والمياه حتى اضطر عبد الرحمن إلى طلب الأمان، فأمنه الأمير، وطلب منه ابن الجليقى الرحيل إلى بطليوس والحلول بها، وكانت يومئذ قريه، فوافقه الأمير. فابتنى بطليوس وجعل منها حصنا يتحصن فيه ضد الأمير. إذ كان يزمع العصيان عندما تهيأ له الظروف. وفعلا لم يمض عام واحد حتى عاد إلى اعلان الثورة على الأمير واستولى على بعض المدن بإقليم أشبيلية مثل طليطلة، وأكشون، وأحتل جبلا يقال له من شاقر، عندئذ أخذ أغزي إلى الأمير ولده المنذر، وكان قائد هذه الحملة هاشم بن عبد العزيز الذي كان السبب في هروب ابن مروان الجليقي إذ

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٩٦، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٤٦.

سبه وصفعه علي قفاه. فلما علم ابن مروان بقدوم هاشم بن عبد العزيز لمحاربته، انتقل من بطليوس وحل بحصن كركر، وكان ابن مروان قد اتفق مع زميله في العصيان سعدون السرنباقي الثائر في منت شلوط عل مكاتبة الفونسو الثالث بن أردون الأول ملك أشتوريشس وتظاهر أنه في قلة من الجند فبادر هاشم إلى مهاجمة ابن مروان الجليقي علي غير أهبة واستعداد إذ انخدع بقلة عدد قواته، فانهزم هزيمة نكراء وأسر وقتل من رجاله خمسون، وأرسله ابن مروان الجليقي إلى ملك أشتوريش ألفونسو إظهارا بعرفانه بجميله، فأقام بأبيط عامين ثم افتداه الأمير سنة ٢٦٤هـ من ألفونسو بـ ١٥٠ ألف دينار (١).

لم يستطع الأمير محمد أن ينتظر من ابن مروان أكثر من ذلك، فأرسل إليه القوات السرية تلو الأخري، ثم خرج بنفسه وأرغمه علي الهروب في المرتفعات وأجبره علي التحصن في جبل أشبرغوزة، وأخيرا وافق الأمير محمد علي أن يستقل ابن مروان ببطليوس (٢).

* * *

ثورة سرية

وفي سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م ثار سليمان بن عبدوس وتغلب علي مدينة سرية، فأرسل إليه الأمير ابنه الحكم، فقضي علي ثورته وأذعن للطاعة، فأخذه الحكم وأتي به قرطبة فسكنها (٣).

ولقد شهد عهد الأمير محمد العديد من الثورات وحركات التمرد التي نجح في القضاء عليها ومنها:

- ثار سليمان بن عبدوس سنة ٢٥٥هـ في سرية، ومطرف وإسماعيل بن لب ويونس بن زنباط في الثغر (طليطلة، وسرقسطة) سنة ٢٥٨هـ، وعمروس الوشقي في وشقة سنة ٢٥٦هـ، ويحي الجزيري في جانب من كورة رية والجزيرة وتاكرنا سنة ٢٦٥ هـ، وحارث بن حمدون من بني رفاعة في مدينة الحامة من كورة رية سنة ٢٧٣ هـ، والتي يجملها ابن عذاري بقوله: "...

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٤٦، ٢٤٧.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٤٦، ٢٤٧.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٠٠.

وفي سنة ٢٤٨، تقدم موسى بن موسى لمقاتلة ابن سالم في وادي الحجارة؛ فنالته جراح منعته الركوب بعدها؛ وكانت سببا لهلاكه؛ فتوفي في هذه السنة...

وفي سنة ٢٥٥، خرج الحكم ابن الأمير محمد، وقصد مدينة سرية. وكان قد تغلب بها سليمان بن عبدوس، وخالف فيها؛ فبادرته الصائفة، وحلت به العساكر، وأحدقت بالمدينة، ورميت بالمجانيق، حتى هتكت أسوارها. فقام أهلها على سليمان بن عبدوس؛ فطاع، ونزل؛ فقدم به قرطبة؛ فسكنها...

وفي سنة ٢٥٧، خرج إلى الثغر عبد الغافر بن عبد العزيز؛ وكان بتطيلة. فقبض على زكريا بن عمروس وعلى أولاده وجماعة من أهل بيته، ونزل بهم على باب مدينة سرقسطة، وقتلهم بها. وقفل إلى قرطبة بالرؤوس...

وفي سنة ٢٥٨، كانت في الثغر ثورات وحركات، منها أن مطرفا وإسماعيل ابني لبّ، ويونس بن زنباط غدروا بعبد الوهاب بن مغيث، عامل تطيلة، وابنه محمد عامل سرقسطة. فقبضوا عليهما، وملكوا في هذا العام الثغر. وكان توفي مطرف في صفر، ودخل إسماعيل سرقسطة في ربيع الأول...

وفي سنة ٢٥٩، خرج الأمير محمد بنفسه إلى الثغر، وحل في وجهته بطليطلة، وأخذ رهائنهم، وعقد أمانهم، وقاطعهم على قطيع من العشور يودونه في كل عام، وهو الأمان الثاني. واختلفت أهواؤهم في عمالهم؛ فطلب قوم منهم تولية مطرف بن عبد الرحمن، وطلب آخرون تولية طربيشة؛ فولى كل واحد منهما جانبا، وتقسما المدينة وأقاليمها على حدود مفهومة معلومة؛ ثم تنازعا، وأراد كل واحد منهما الانفراد بملك طليطلة. ثم غلب الداعون إلى تقديم طربيشة ابن ماسوية، وتأخير مطرف المذكور. وكان الأمير محمد تتلقاه في وجهته هذه، في الارتحال والاحتلال، طلائع الظفر، وبوادر النجح والنصر. وتجول في الثغر محاصرا لبني موسى، ومضيقا عليهم. ثم تقدم إلى بنبلونة؛ فوطئ أرضها، وأذل أهلها، وخربها؛ ثم قفل؛ فحل بقرطبة، ومعه جماعة من الثوار الناكثين المفسدين. فلما أخذ راحته، أمر بقتل مطرف بن موسى وبنيه، وأمر بإطلاق كاتبهم، وكان لا ذنب له. فلما أخرج مطرف وبنوه للقتل، وأخرج كاتبهم للإطلاق، وكان يعرف بالأصبحي، قال: لا خير في العيش بعد هؤلاء! فقدم للقتل قبلهم، ورفعت رؤوسهم.

وفي سنة ٢٦٠، خرج المنذر بن الأمير محمد إلى سرقسطة وبنبلونة؛ وكان القائد هاشم بن عبد العزيز. فاحتل سرقسطة، وانتهب زروعها، وأذهب ثمارها وأشجارها، ونقل أطعمتها إلى وشقة، وتقدم إلى بنبلونة؛ فجال في أرضها، وأتلف

معايش أهلها...

وفي سنة ٢٦١، هرب ابن مروان الجليقي من قرطبة مع رجال ماردة المنزلين منها، واستقروا بقلعة الحنش. فغزاه الأمير محمد، وحاصره حصارا قطعه وضيق عليه مدة من ثلاثة أشهر، ألجأه فيها إلى أكل الدواب؛ وقطع عنه الماء، ورماه بالمجانيق، حتى أذعن، وطلب الأمان، وشكى ثقل الظهر وضيق الحال؛ فأباح له الأمير محمد الرحيل إلى بطليوس والحلول بها؛ وهي يومئذ قرية؛ فخرج إليها، وقفل عنه...

وفي سنة ٢٦٤، حارب المنذر سرقسطة، وأفسد ما ألقى من زروعها؛ ثم تقدم إلى تطيلة والمواضع التي صار فيها بنو موسى؛ فانتسفها، وأجال العسكر عليها...

وفي سنة ٢٦٥، ظهرت الفتنة وظهر الشر في جانب كورة رية والجزيرة وتاكرنا؛ وظهر يحيى المعروف بالجزيري؛ فغزاه هاشم؛ فأذعن له، وقدم به إلى قرطبة...

وفي سنة ٢٦٩... غزا محمد بن أمية بن شهيد إلى كورة رية وكورة إلبيرة. وكانوا بحال توحش ونفار؛ فسكن أحوال أهلها، وهدن الناس بها، ونظر في استنزال رجال بجبال رية وغيرها من بني رفاعة وغيرهم.

وفي سنة ٢٧٣، خرج المنذر بن الأمير محمد إلى كورة رية، والقائد محمد بن جهور. فقصد مدينة الحامة، وفيها حارث بن حمدون من بني رفاعة؛ وكان مظاهرا لعمر بن حفصون، وكانا قد اجتمعا بالحامة. فنازلهم، وناهضهم، وأحدق بهم من كل ناحية؛ وأقام محاصرا لهم شهرين. فلما وصل إليهم الضيق، برزوا إلى باب المدينة خارجا، مستقبلين للحرب. وقام بها؛ فنالته جراح، وشلت يده؛ ثم انهزم هو وأصحابه، وصاروا بين قتيل وفليل. ودخل باقيهم في الحامة [1].

* * *

---

(١) ابن عذاري، اليان المغرب، ٢ / ٩٤ - ١٠٠.

ثورة عمر بن حفصون ٢٦٧ هـ / ٣١٦ م

وأعظم الثورات شأنا ثورة عمر بن حفصون في بيشتر سنة ٢٦٧ هـ، وكان عمر من أسرة فقيرة يعمل أبوه فلاحا، وقد كان عمر منذ فجر شبابه طموحا ميالا إلى المغامرة، مطبوعا علي العنف، مجبولا علي القسوة، عاش مطلع حياته في إقليم رندة، وفي أحد الأيام تشاجر مع أحد جيرانه فقتله، مما اضطره إلى الهرب إلى العدوة المغربية ولاذ بتاهرت عاصمة الرستميين هناك، حيث اشتغل هناك خياطا، ثم عاد إلى الأندلس وهو مصمم علي الثورة، فاستولي علي قلعة قديمة في جبل تعرف ببشتر في إقليم رية، والتفت حوله جماعة من الثوار، وكانت أولي أعماله المنظومة ضد الحكومة في قرطبة، الهزيمة التي أوقعها بحاكم رية عامر بن عامر، حيث كان لها الأثر الكبير في تقوية نفوذه وازدياد مكانته، ولكن الأمير محمد عزل عامرا عن حكمه رية وولاها عبد العزيز بن عباس فهادنه ابن حفصون وسكنت الحال بينهما، ثم عزل عبد العزيز، فعاد ابن حفصون إلى الثورة، فأرسل إليه الأمير محمد وزيره هاشم في سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م، الذي استطاع إرغام ابن حفصون علي الاستسلام وجماعته، حيث حملوا جميعاإلي قرطبة فعفي عنه الأمير وأكرمه، وبلغ به التسامح أن يعينه في من صب مهم في الجيش، ولكنه لم يلبث طويلا حيث هرب سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ من قرطبة، ورجع إلى جبل ببشتر، فأرسل إليه الأمير محمد ابنه المنذر والقائد محمد بن جهور للقضاء عليه في سنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦ م، ولكن ابن جهور توجه أولا إلى مدينة الحامة التي ثارت ضد الأمير محمد بزعامة الحارث بن حمدون من بني رفاعة، وشايعت ابن حفصون وأعلنت تأييدها له، وعندما سمع ابن حفصون بأخبار هذه الحملة هرع إلى معقل حلفائه الجدد لقطع الطريق علي جيش الإمارة، ولكن القائد الأموي سبقه وأحكم قبضته علي القلعة والتي سقطت بالرغم من إشتراك الحليفين في الدفاع عنها، حيث أصيب قائدها بالجروح البالغة، في حين هرب ابن حفصون وأتباعه قبل أن تدركهم سيوف الأمويين وفي هذه الأثناء جاء الناعي إلى المنذر يخبره بوفاة أبيه الأمير محمد بن عبد الرحمن. " فبينا المنذر في هذه الحال من السرور، إذ أتاه الخبر بموت أبيه الأمير محمد بن عبد الرحمن، ليلة الخميس لليلة بقيت من شهر صفر من السنة؛ ودفن في القصر. وأدركه المنذر قبل مواراته وصلى عليه... " (١).

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٠٤ - ١٠٦، ابن بيضون، الدولة العربية، ص ٢٦٣، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٣٧ - ١٣٨.

يقول ابن عذاري: "... وفي سنة ٢٦٧،... ابتدأ شر اللعين عمر بن حفصون، الذي أعيى الخلفاء أمره، وطالت في الدنيا فتنته، وعظم شره؛ فقام في هذه السنة على الأمير محمد بناحية رية. فتقدم إليه عامر بن عامر؛ فانهزم عامر وأسلم قبته؛ فأخذها ابن حفصون، وهو أول رواق ضربه؛ فاستكن إليه أهل الشر. وعزل الأمير عامرا عن كورة رية، وولاها عبد العزيز بن عباس؛ فهادنه ابن حفصون، وسكنت الحال بينهما. ثم عزل عبد العزيز، وتحرك ابن حفصون، وعاد إلى ما كان عليه من الشر. وخرج هاشم ابن عبد العزيز إلى كورة رية يطلب كل من كشف وجهه في الفتنة وأظهر الخلاف، وأخذ رهائن أهل تاكرنا على إعطاء الطاعة.

قال حيان بن خلف في عمر بن حفصون: هو كبير الثوار بالأندلس ونسبه: عمر بن حفص، المعروف بحفصون، بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذيبان بن فرغلوش بن إذفونش، من مسالمة الذمة، من كورة تاكرنا من عمل رندة. وكان الذي أسلم منهم جعفر بن شتيم؛ ففشا نسله في الإسلام. وكان له من الولد الذكور عمر وعبد الرحمن؛ فولد عمر بن جعفر حفصا. وولد حفصون هذا عمر هذا الثائر الملعون؛ فعمر هذا هو الذي ثار على الأمير محمد أولا، ثم بلغ بعد ذلك في الشقاق والفتن مبلغا لم يبلغه ثائر بالأندلس. واستوطن لأول نفاقه حصن بربشتر قاعدة وحضرة، وهي أمنع قلاع الأندلس قاطبة، وذلك في هذه السنة، وهو تأريخ صعوده الآخر إليها الذي توطد له ملكه فيه، وخالف على السلطان حتى رضى عنه بالمناركة. واتصلت أيامه في ظهور وعزة حتى قدم فيها ثلاثة من خلفاء المروانيين أئمة الجماعة بالأندلس - رحمهم الله! - أولهم هذا الأمير محمد؛ وتخلف بعدهم إلى أن هلك على يد الرابع منهم، وهو عبد الرحمن الناصر... " [١].

وانتهز ابن حفصون فرصة وفاة الأمير محمد، وعودة المنذر إلى قرطبة علي إثر ذلك، فراسل الحصون التي تمتد من ببشتر حتى الساحل، فأجابته بالطاعة، وأغار علي باغة، وقبرة وعلي البيرة وأحواز جيان، وأنضم إليه كثير من شطار الناس وشرارهم، فاضطر الأمير المنذر إلى الخروج إليه بجيوشه سنة ٢٧٤هـ - فافتتح حصون ابن حفصون في كروة رية وقبرة وحاصر ببشتر وضيق عليها، ثم مضى إلى مدينة أرشذونة، وكانت تابعة لابن حفصون، وفيهاعامل من قبله اسمه عيشون، وتغلب المير علي قصبة أرشذونة، وأسر العامل وأسر معه بني مطروح،

---

(١) البيان المغرب، ٢ / ١٠٦.

وافتتح حصونهم بجبل باغة، وأمر بقتل بني مطروح، ومعهم عيشون فصلبوا جميعا بقرطبة وصلب مع عيشون كلب وخنزير [١] ولما اشتد الأمر علي ابن حفصون وشعر أنه قد إقتربت نهايته سارع إلى مهادنة الأمير وطلب الأمان، مقابل أن يعيش هو وبنوه وأهله إلى جوار الأمير في قرطبة، فأجابه الأمير إلى طلبه ومنحه الأمان، ولكنه نقض العهد وغدر بالأمير وعاد إلى سيرته الأولي من الثورة، فأقسم الأمير المنذر أن يقصده، وأن يحاصر ببشتر التي يتحصن بها، ولا يبرحها حتى يتمكن من ابن حفصون، فقضي الأمير نحو ٤٣ يوما في حصاره لببشتر، ثم أصابته علة شديدة، فبعث إلى أخيه عبد الله لينوب عنه، في الحصار، ومات الأمير المنذر في ١٥ صفر سنة ٢٧٥ هـ، فحمل الأمير علي جمل إلى قرطبة حيث دفن مع أجداده في تربة الخلفاء المعروفة بالروضة داخل القصر [٢].

ونتيجة لوفاة الأمير المنذر حدث الاختلال في صفوف الجيش المحاصر لابن حفصون، فاستغل ابن حفصون هذا الاضطراب الذي حدث في جيش الأمويين وهاجم المحلة وانتهبها، ولم يجد الأمير محمد بدا من مهادنة ابن حفصون حت يتسني له مواجهة أخطار أخري محدقة بإمارته، وبدأ عهده بمعاهدة سلمية عقدت بينه وبين هذا الثائر، نصت علي بقاء ابن حفصون وأتباعه في قلعة ببشتر تحت وصاية الأمير عبد الله ومراقبة الحاكم الذي عينه علي إقليم رية، غير أن هذه المعاهدة انتقضت قبل أن يجف مدادها، إذ سرعان ما استأنف ابن حفصون الحرب في المناطق المحيطة بمنطقة رية ونازع الأمير عبد الله السيطرة علي مناطق كثيرة، مما أجبر الأمير محمد علي الخروج لمقاتلته بنفسه ومحاصرته في قلعته الحصينة سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩ م، ولكن هذاالحصار لم يكن بالكفاءة العالية ولم يؤد إلى نتائج حاسمة، فاضطر الأمير غلي العودة إلى عاصمة إمارته مؤثرا السلامة، فاستغل ابن حفصون هذه الفرصة ووسع دائرة نفوذه شمالا فاستولي علي استجة، ثم عرج علي قرطبة وحاول الاستيلاء عليها ولكن محاولته باءت بالفشل [٣].

وفي سنة٢٧٨هـ / ٨٥١ م كثف ابن حفصون من هجماته ضد السلطة المركزية فهاجم إقليم جيان وتقدم شمالا حتي وصل مشارف قرطبة، فعهد الأمير عبد الله إلى قائده أحمد بن محمد بمهمة التصدي لابن حفصون، فاستطاع الانتصار عليه وإيقاع

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٠٦، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٥١.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١١٧ - ١١٨، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٥١.
(٣) أخبار مجموعة، ص ١٥١، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

الهزيمة النكراء به وبجيوشه، واستعاد منه كثيرا من المدن التي كان قد استولي عليها، فاستعاد الأمير عبد الله السيطرة علي مدن بلاي، واستجة والمناطق الأخري، واضطر ابن حفصون علي العودة إلى قاعدته في ببشتر يجر أذيال الهزيمة [(١)].

وكانت هذه المعركة بداية لانفراط عقد ثورة بن حفصون، إذ تتابعت عليه الهزائم المريرة التي أدت إلى إنفضاض كثير من الناس من حوله، ففي سنة ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م أرسل إليه الأمير محمد ابنه المطرف فحاصره في حصن ببشتر ودمر عمارته وعاث في أنحاء الحصن ولما حاول ابن حفصون الخروج من الحصن والتصدي له حاقت به الهزيمة النكراء، وقتل الكثير من خيرة جنده وقادته [(٢)].

وكانت القشة التي قصمت ظهر ابن حفصون، أنه لم يستطع إخفاء حقده علي الإسلام والمسلمين وأزال القناع الذي ظل يخفي به حقده الدفين للإسلام، فأظهر اعتناقه للنصرانية، مما أدي إلى إنصراف الكثير من أتباعه عنه، بل ومجاهرته بالعداء وإعلان الجهاد ضده، والاتصال بالأمير عبد الله وإعلان تأييدهم له، مما جعل ابن حفصون يبحث له عن مناصرين جدد ويقوون جبهته التي أصبحت ضعيفة بعد أن انفض من حوله الكثير من مسلمي الأندلس، فبدأ في الاتصال بملوك النصاري بهدف عقد التحالفات معهم ضد المسلمين في الأندلس، فتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون وبني قسي في سرقسطة وابن حجاج في إشبيلية، كما كاتب ابن الأغلب صاحب إفريقية، وبعث إليه بالهدايا وأظهر دعوة العباسيين في الأندلس، وبعث بطاعته للشيعة عندما تغلبوا علي القيروان وانتزعوها من أيد ي الأغالبة وأظهر في الأندلس دعوة عبيد الله المهدي الشيعي[(٣)].

في حين استمر الأمير عبد الله في مهاجمة ابن حفصون وإرسال الجيوش لمناجزته، وإيقاع الهزائم المتتالية به وبحلفائه، واستمر الحال علي هذا المنوال حتى نهاية الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م، وبالرغم من أنه لم يقض علي فتنة ابن حفصون في عهد الأمير عبد الله إلا أنه نجح في كسر شوكته، مما مهد الأمور لإخماد ثورته في عهد عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م [(٤)].

---

(١) ابن حيان، المقتبس، ص ٩٧ - ١٠٠، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ٢٦٨.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٢٤.

(٣) ابن عذاري، البيان ألمغرب، ٢ / ١٣٩، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٣٢٥.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٩٣ - ١٩٥، محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

* * *

الحروب الخارجية في عهده

بالإضافة إلى الحملات التي وجهها الأمير محمد للقضاء علي الثورات الداخلية المتعددة، فإنه لم يهمل في نفس الوقت الجبهةالخارجية، حيث أعد العديد من الغزوات والحملات العسكرية لغزو الدول والإمارات المتاخمة لحدود إمرته وذلك إما لرد عاديتهم، أو فض تحالف لهم مع ثوار داخل إمارته، أو لإشعارهم بهيبة وقوة دولته، وسوف نعرض هنا لأهم تلك الغزوات والحملات ولكن علي لسان ابن عذاري الذي يقول: "...

وفي سنة ٢٣٩، خرج الحكم ابن الأمير عبد الرحمن إلى طليطلة بالصائفة...

وفي سنة ٢٤٠، خرج الأمير محمد بنفسه إلى طليطلة في المحرم. فلما اتصل بأهلها ذلك، أرسلوا إلى أردن بن إذفونش صاحب جليقية، يعلمونه بحركته ويستمدون به. فبعث إليهم أخاه غثون في جمع عظيم من النصارى. فلما اتصل ذلك بالأمير محمد، وقد كان قارب طليطلة، أعمل الحيلة والكيد، واستشعر الحزم؛ فعبأ الجيوش، وكمن الكمائن بناحية وادي سليط؛ ثم نصب الردود، وطلع في أوائل العسكر في قلة من العدد. فلما رأى ذلك أهل طليطلة، أعلموا العلج بما عاينوه من قلة المسلمين؛ فتحرك العلج فرحا، وقد طمع في الظفر والغنيمة وانتهاز الفرصة. فلما التقى الجمعان، خرجت الكمائن عن يمين وشمال، وتواترت الخيل أرسالا على أرسال، حتى غشى الأعداء منهم ظلل كالجبال؛ فانهزم المشركون وأهل طليطلة، وأخذتهم السلاح، هذا بالسيوف، وطعنا بالرماح؛ فقتل الله عامتهم، وأباد جماعتهم. وحيز من رؤوسهم مما كان في المعركة وحواليها ثمانية آلاف رأس، وجمعت ورصعت؛ فصار منها جبل علاه المسلمون، يكبرون ويهللون ويحمدون ربهم ويشكرون. وبعث الأمير محمد بأكثرها إلى قرطبة، وإلى سواحل البحر، وإلى العدوة. وانتهى عدد من فقد منهم في هذه الوقعة إلى عشرين ألفا. وكانت في شهر محرم من السنة...

وفي سنة ٢٤٢، كتب الأمير محمد إلى موسى بن موسى بحشد الثغور والدخول إلى برشلونة؛ فغزا إليها، واحتل بها، وافتتح في هذه الغزاة حصن طراجة، وهي من آخر أحواز برشلونة...

وفي سنة ٢٤٥... خرج المجوس (النورمان) أيضا إلى ساحل البحر بالغرب، في اثني وستين مركبا؛ فوجدوا البحر محروسا، ومراكب المسلمين معدة، تجري من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية في الغرب الأقصى. فتقدم مركبان من مراكب المجوس (النورمان)؛ فتلاقت بهم المراكب المعدة؛ فوافوا هذين المركبين في بعض

كسور باجة؛ فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبي والعدة. ومرت سائر مراكب المجوس (النورمان) في الريف حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية في البحر؛ فأخرج الأمير الجيوش، ونفر الناس من كل أوب: وكان قائدهم عيسى بن الحسن الحاجب. وتقدمت المراكب من مصب نهر إشبيلية حتى حلت بالجزيرة الخضراء؛ فتغلبوا عليها، وأحرقوا المسجد الجامع بها؛ ثم جازوا إلى العدوة؛ فاستباحوا أريافها؛ ثم عادوا إلى ريف الأندلس، وتوافوا بساحل تدمير؛ ثم انتهوا إلى حصن أوريولة؛ ثم تقدموا إلى إفرنجة؛ فشتوا بها، وأصابوا بها الذراري والأموال، وتغلبوا بها على مدينة سكنوها، فهي منسوبة إليهم إلى اليوم، حتى انصرفوا إلى ريف بحر الأندلس، وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركبا. ولقيهم مراكب الأمير محمد؛ فأصابوا منها مركبين بريف شذونة، فيها الأموال العظيمة. ومضت بقية مراكب المجوس.

وفي سنة ٢٤٦، أغزى الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى أرض بنبلونة أحد قوّاده؛ فخرج في هذه الغزوة خروجا لم يخرج قبله مثله جمعا وكثرة، وكمال عدة، وظهور هيبة. وكان غرسية إذ ذاك متظافرا مع أزدون صاحب جليقية؛ فأقام هذا القائد يدوخ أرض بنبلوبة، مترددا فيها اثنين وثلاثين يوما، يخرب المنازل، وينسف الثمار، ويفتح القرى والحصون. وافتتح في الجملة حصن قشتيل، وأخذ فيه فرتون بن غرسية المعروف بالأنفر، وقدم به إلى قرطبة؛ فأقام بها محبوسا نحوا من عشرين سنة؛ ثم رده الأمير إلى بلده، وعمر فرتون مائة وست وعشرون سنة.

وفي سنة ٢٤٧، قال الرازي: غزا محمد بن السديم أرض الحرب، وعامل الثغر إذ ذاك عبد الله بن يحيى. وكان كتب موسى بن موسى يذكر ما ناله ونال أهل بلده في إداختهم أرض الجليقيين، وما وصل إليهم من النصب، وسأل أن يكون دخول العسكر على غير ناحيته؛ فأسعف في ذلك، ودخلت العساكر على غير بلده...

وفي سنة ٢٤٩، خرج عبد الرحمن ابن الأمير محمد إلى حصون ألبة والقلاع؛ وكان القائد عبد الملك بن العباس؛ فافتتحها، وقتل الرجال، وهدم البنيان؛ وانتقل في بسائطها من موضع إلى موضع يحطم الزروع، ويقطع الثمار. وأخرج أردون بن إذفونش أخاه إلى مضيق الفج ليقطع بالمسلمين، ويتعرضهم فيه؛ فتقدم عبد الملك؛ فقاتلهم على المضيق، حتى هزمهم وقتلهم وبددهم؛ ثم وافنهم بقية العساكر، وأظلتهم الخيل من كل الجهات؛ فصبر أعداء الله صبرا عظيما؛ ثم انهزموا. ومنح الله المسلمين أكتافهم؛ فقتلوا قتلا ذريعا؛ وقتل لهم تسعة عشر قومسا من كبار قوادهم...

وفي سنة ٢٥١، كانت غزوة ألبة والقلاع أيضا هزيمة المركويز - أخزاه الله! - خرج إلى هذه الغزاة عبد الرحمن بن محمد، وتقدم حتى حل على نهر دوير. - وتوالت عليه العساكر من كل ناحية، فرتبها. ثم تقدم؛ فاحتل بفج برذنش؛ وكانت عليه أربعة حصون؛ فتغلب العسكر عليها، وغنم المسلمون جميع ما فيها وخربوها؛ ثم انتقل من موضع إلى موضع، لا يمر بمسكن إلا خربه، ولا موضع إلا حرقه، حتى اتصل ذلك في جميع بلادهم. ولم يبق لرذريق صاحب القلاع، ولا اردمير صاحب توفة، ولا لعندشلب صاحب برجية، ولا لغومس صاحب مسانقة، حصن من حصونهم إلا وعمه الخراب. ثم قصد الملاحة، وكانت من أجل أعمال رذريق؛ فحطم ما حواليها وعفا آثارها.

ثم تقدم يوم الخروج على فج المركويز؛ فصد العسكر عنه، وتقدم رذريق بحشوده وعسكره؛ فحل على الخندق المجاور للمركويز. وكان رذريق قد عانى توعيره أعواما، وسخر فيه أهل مملكته، وقطعه من جانب الهضبة؛ فارتفع جرفه، وانقطع مسلكه؛ فنزل عبد الرحمن ابن الأمير محمد على وادي إيره بالعسكر، وعبا القائد عبد الملك للقتال؛ وعبا المشركون، وجعلوا الكمائن على ميمنة الدرب وميسرته. وناهض المسلمون جموع المشركين بصدورهم؛ فوقع بينهم جلاد شديد. وصدق المسلمون اللقاء؛ فانكشف الأعداء عن الخندق، وانحازوا إلى هضبة كانت تليه. ثم نزل عبد الرحمن ابن الأمير محمد، ونصب فسطاطه، وأمر الناس بالنزول وضرب أبنيتهم؛ فأقامت المحلة. ثم نهض المسلمون إليهم؛ فصدقوهم القتال، وضرب الله في وجوه المشركين، ومنح المسلمين أكتافهم؛ فقتلوا أبرح قتل؛ وأسر منهم جموع. واستمروا في الهزيمة إلى ناحية الأهزون، وافتحموا نهر إنره باضطرار في غير مخاضه؛ فمات منهم خلق كثير غرقا. وكان القتل والأسر فيهم من ضحى يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب إلى وقت الظهر. وسلم الله المسلمين ونصرهم على المشركين. وكان قد لجأ منهم إلى الوعر والغياض، عندما أخذتهم السيوف، جموع؛ فتتبعوا وقتلوا؛ ثم هتك الخندق وسوى حتى سهل، وسلكه المسلمون غير خائفين ولا مضغطين. وأعظم الله المنة للمسلمين بالصنع الجميل، والفتح الجليل. والحمد لله رب العالمين. وكان مبلغ ما حيز من رؤوس الأعداء في تلك الوقيعة عشرين ألف رأس وأربعمائة رأس واثنين وسبعين رأسا.

وفي سنة ٢٥٢، خرج عبد الرحمن ابن الأمير محمد غازيا إلى ألبة والقلاع؛ فحارب أهلها، وأفسد زروعها، وغادرها هشيما. وكان أهل هذا الجانب في ضعف

ووهن شديد ألجأهم إلى المنع من التجمع والاحتشاد، لما نالهم في العام الفارط من النهب والقتل الذريع.

وفي سنة ٢٥٣، خرج الحكم ابن الأمير محمد غازيا إلى جرنيق؛ فجال في أرض الأعداء، وحل على حصن جرنيق، وحاصره حتى فتحه عنوة...

وفي سنة ٢٦٠، خرج المنذر بن الأمير محمد إلى سرقسطة وبنبلونة؛ وكان القائد هاشم بن عبد العزيز. فاحتل سرقسطة، وانتهب زروعها، وأذهب ثمارها وأشجارها، ونقل أطعمتها إلى وشفة، وتقدم إلى بنبلونة؛ فجال في أرضها، وأتلف معايش أهلها...

وفي سنة ٢٦٤، حارب المنذر سرقسطة، وأفسد ما ألقى من زروعها؛ ثم تقدم إلى تطيلة والمواضع التي صار فيها بنو موسى؛ فانتسفها، وأجال العسكر عليها.

وفيها، دخل البراء بن مالك من باب فلنبرية إلى جليقية بحشود الغرب، وتردد هنالك حتى أذهب نعيمهم.

وفي سنة ٢٦٨، خرج المنذر ابن الأمير محمد، والقائد هاشم بن عبد العزيز؛ فقصد الثغر الأقصى، وحطم سرقسطة، وافتتح حصن روطة؛ ثم تقدم إلى ألبة والقلاع، وافتتح حصونا كثيرة، وأخلى حصونا كثيرة، خوفا من مهرة العسكر، وتوقعا من تغلبه... " (١).

وبعد حياة حافة بالكفاح، ومطاردة الثوار في الداخل ومقاتلة النصاري في الخارج، توفي الأمير محمد في ٢٨ صفر سنة ٢٧٢ هـ / ٤ أغسطس سنة ٨٨٦ م. وكان الأمير محمد - رحمه الله! - فصيحا، بليغا، عظيم الأناة، متنزها عن القبح، يؤثر الحق وأهله، لا يسمع من باغ، ولا يلتفت إلى قول زائغ. وكان عاقلا، على أخلاق جميلة ومكارم حميدة، ذا بديهة وروية، يرى كل من باشره وحدثه أن له الفضل المستبين في إدراكه، وفهمه، ودقة ذهنه، ولطيف فطنته، وجزالة رأيه. وكان أعلم الناس بالحساب وطرق الخدمة. وكان متى أعضل منها شئ، رجع إليه فيه؛ وإذا أخل أحد من خزانه وأهل خدمة الحساب بشيء من ذلك، لم يجز عليه بأدنى لحظة أو نظرة. ولقد استدرك على بعض خزانه في صك يشتمل على مائة ألف دينار خُمُسَ درهم؛ فرد الصك، وأمر بتصحيحه؛ فتجمع الخدمة والكتاب عليه؛ فلم يقعوا على ذلك النقصان لدقته وخفائه؛ فرجعوا إليه معترفين بالتقصير، وأعلموا الرسول؛ فرد الصك

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٩٥ - ١٠٥.

إليه وأعلمه باعترافهم؛ فعلم لهم على موضع الخطاء؛ فإذا هو خُمُسَ درهم... وكان - رحمه الله! - أصح الناس عقلا، وأحسنهم تمييزا، وأبصرهم بوجه الرأي. وكان يستشيرنا؛ فنجتهد ونقول ونحصل؛ فإن أصبنا، أمضى ذلك؛ وإن كان في الرأي خلل، قام فيه بالحجة، وأبانه بما تعجز الأوهام عنه تنقيحا وتهذيبا... وكان - رحمه الله! - مأمولا محبوبا في جميع البلدان. وكان محمد بن أفلح صاحب تاهرات لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأيه وأمره؛ وكذلك بنو مدرار بسجلماسة. وكان قرولش ملك إفرنجة يسترجح عقله؛ فيهاديه ويتحفه... وكان الأمير محمد - رحمه الله! – مهتمًا بأمور رعيته، مراقبا لمصالحها. ووضع عن أهل قرطبة ضريبة الحشود والبعوث... وخرج الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى الرصافة يوما متنزها، ومعه هاشم ابن عبد العزيز؛ فكان بها صدر نهاره على لذته؛ فلما أمسى، واختلط الظلام انصرف إلى القصر، وبه اختلاط. فأخبر من سمعه وهاشم يقول له: يا ابن الخلائف! ما أطيب الدنيا لولا الموت! فقال له الأمير: يا ابن اللخناء! لحنت في كلامك! وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا بالموت؟ فلولا الموت، ما ملكناه أبدا!... " [(١)].

* * *

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

(٢٧٣ – ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ – ٨٨٨ م)

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم كنيته: أبو الحكم. مولده: سنة ٢٢٩. أمه: تسمى أثل، ولدته لسبعة أشهر، وكان أسمر، جعد الشعر، بوجهه أثر جدري، يخضب بالحناء والكتم، بويع يوم الأحد لثمان خلون من ربيع الأول سنة ٢٧٣، وهو ابن أربع وأربعين سنة، وسبعة عشر يوما؛ وتوفي في بربشتر يوم السبت للنصف من صفر سنة ٢٧٥. وعمره: ستة وأربعون سنة وخلافته: سنتان إلا سبعة عشر يوما. ودفن بقصر قرطبة، وصلى عليه أخوه عبد الله، جد الناصر [(٢)].

كان المنذر هو أقدر إخوته علي خلافة أبيه، فقد تمرس في الحكم وسياسة الناس، وقيادة الجيش ومقاتلة الثوار والنصاري، فقد كان ساعد أباه الأيمن الذي كان ينيبه في عظائم الأمور، فقد أنابه لمقاتلة أخطر الثوار في عهده وهو ابن حفصون، لما يعلمه

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٠٦.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١١٣ - ١١٤.

عنه من الشجاعة وشدة الحزم ومضاء العزم، وشدة الصرامة، ولو أطال الله عمره لضبط أمور الأندلس وأعاد لها عزها ومجدها وجدد هيبتها، ولكن عاجلته المنية وهو محاصرا لابن حفصون.

تسلم المنذر إرثا ثقيلا من المشاكل، ولم يكن من السهولة إيجاد حلول لها، فالتمزق السياسي بلغ مداه، والحركات الانفصالية اخذت تتفشى في كل الأقاليم، والمؤامرات تزحف إلى القصر وتهلك في طريقها الحرث والنسل، وقد تصيب الأمير نفسه.

ومن الأحداث الهامة في عهد الأمير المنذر أنه أرسل في السنة التي تولي الحكم فيها القائد محمد بن لب إلى ألبة والقلاع، ومعه جموع من المسلمين ففتح الله علي يديه للمسلمين، وقتلوا من المشركين قتلا ذريعا.

وفي ذات السنة ٢٧٣هـ إزدادت الجفوة بين الأمير المنذر والوزير هاشم بن عبد العزيز، وزير أبيه وخاصته، ثم أمر بقتله في جمادي الأولي، حيث كانت بينهما جفوة كبيرة. وقيل في سبب تلك الجفوة أراء كثيرة فقد قيل ان سبب الجفوة أن الوزير هاشم كان يحسده الكثير لمكانته عند الأمير محمد ولذلك سعي به عند الأمير المنذر، وقيل أن بعض الوشاة سعوا بالوزير هاشم عند المنذر وأوغروا صدره عليه، وقيل أن الوزير هاشم - عند وفاة الأمير محمد - أنشد شعرا قال فيه:

أعزي يا محمد عنك نفسي ::: أمين الله ذا المنن الجسام
فهلا مات قوم لم يموتوا ::: ودوفع عنك لي كأس الحمام

فتأولوا أنه يريد بقوله " لم يموتوا " المنذر ولذلك بعث من قتله ليلا، وأمر بسجن أولاده وحاشيته، وصادر أمواله وهدم داره، وغرم أولاده مائتي ألف دينار، وبقوا في سجنهم إلى أن مات المنذر، وتولي بعده أخوه عبد الله الذي أطلق سراحهم، ورجع إليهم ضياعهم، وولي أحدهم الوزارة والقيادة [1].

يقول ابن عذاري: "... وفي هذه السنة، أعني سنة ٢٧٣هـ في جمادى الأولى، أمر الأمير المنذر بسجن هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه وخاصته، وأمر بقتله في جمادى الأولى؛ وسبب ذلك أن هاشما كان يحسد لمكانه من الأمير محمد وخاصته به؛ فكانوا يسعون به عند المنذر، ويكررون ذلك عليه، حتى تنافرت النفوس. فلما مات الأمير محمد، وولى المنذر، أراد أن يفي له ويتبع فيه فعل أبيه؛ فولاه الحجابة.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١١٥ - ١١٦.

ثم تمالؤوا عليه، وأمثروا، وحرفوا عليه الكلام، وتأولوا عليه أقبح التأويل، حتى نفذ قضاء الله فيه. وكان مما تأولوا عليه أن هاشما أنشد عند مواراة الأمير محمد - رحمه الله! -:

أعَزّى يَا مُحَمَّدُ عَنكَ نَفسي ::: أمين الله ذَا المِنَنِ الجِسَامِ
فَهَلاً مَاتَ قَومٌ لَم يَمُوتُوا ::: وَدُوفِعَ عَنكَ لِي كَاسُ الحِمَام

فتأوَّلوا أنه يريد بقوله " لم يموتوا " المنذر. وكتب هاشم من حبسه إلى جاريته عاج:

وَإنّي عَدَانِي أن أزُورَكِ مَطبَقٌ ::: وبَابٌ مَنيعٌ بالحديدِ مُضبَّبُ
فإن تَعجبي يا عَاجُ مِمَّا أصابني ::: فَفِي رَيب هذا الدَّهرِ مَا يُتعَجبُ
تَرَكتُ رَشادَ الأمرِ إذ كنتُ قادِراً ::: عَليهِ فَلاقَيتُ الذِي كُنتُ أرهَبُ
وكم قَائِلٍ قَالَ: أنجُ وَيحَكَ سَالماً ::: فَفِي الأرضِ عَنهمُ مستراذٌ ومذهبُ
فَقُلتُ لَهُ: إنَّ الفِرارَ مَذَلَةٌ ::: ونَفسي علَى الأسواء أحلَى وأطيَبُ
سأرضَى بحُكمِ الله فِيمَا يَنُوبُنِي ::: ومَا مِن قضَاء الله لِلمَرءِ مَهرَبُ
فَمَن يَكُ أمسَى شَامِتاً بي فإنَّهُ ::: سَيَنهَلُ في كاسِي وَشِيكاً وَيشرَبُ

ثم بعث فيه الأمير ليلا؛ فقتله، وسجن أولاده وحاشيته، وانتهب ماله، وهدم داره، وألقى أولاده في السجن، وألزمهم غرم مائتي ألف دينار؛ فلم يزالوا في السجن والغرم إلى موت المنذر وولاية أخيه عبد الله؛ ثم أطلقهم عبد الله، وصرف عليهم ضياعهم، وولى أحدهم الوزارة والقيادة.

وكان الأمير المنذر قد شمر عن ساعد الجد في مقاتلة ابن حفصون، ولكن لم يطل به لجل حتي يمضي قسمه وعزمه في القضاء عليه إذ وافته المنية وهو يحاصره.

كان الأمير المنذر - رحمه الله! - يحبُّ إخوته، ويكرمهم، ويدني مجالسهم، ويصلهم، ويحضرهم مجالس أنسه. وكان يجزل العطاء للشعراء؛ فينشدونه غازيا وراجعا. وكان من شعرائه أحمد بن عبد ربه، والعكي، وغيرهما. ولم يكن أحد من الخلفاء قبله مثله شجاعة وصرامة وعزما وحزما. ولقد بلغ في سنة بذلك ما لم يبلغه غيره في الدهر. ولقد كان أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنة يذعنون إليه دون محنة، ويرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها. وإن الخبر المستفيض عن الشيوخ أنه، لو عاش المنذر عاما واحدا زائدا، لم يبق برية منافق؛ وأخباره تدل على ذلك. وأول

أخباره الدالة على ذلك أنه، لما أتاه موت أبيه، لم يمنعه ذلك من التعريج عن القصد واختصار الطريق، ولا شغله أمر مهم ولا أمر جليل عن آخر؛ فجعل طريقه على رية؛ فهذب أمورها، وولى عليها سليمان بن عبد الملك بن أخطل، وعبد الرحمن بن حريش، وأدخل معهما أهل المعاقل من العرب والحشم. ثم جمع في يوم ولحد مبايعته، وإعطاء الجند، والنظر فيما أسقط من الأزمة عن الرعية، وما فعله من الاستحماد إلى أهل قرطبة بإسقاط العشور عنهم، والنظر في الندب وإخراج القائد. وهكذا كان فعله في جميع أسبابه؛ ويحسب ذلك كان انقياد الأشياء له... " [1].

عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم

(٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م)

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، ولد في النصف من ربيع الآخر سنة ٢٢٩هـ / ٨٤٣ م. أمه: تسمى بهار وقيل: عشار، بويع في اليوم الذي مات فيه أخوه المنذر في المحلة على بربشتر، وذلك يوم السبت في النصف من شهر صفر سنة ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م. ثم قفل إلى قرطبة بأخيه المنذر ميتا؛ فاستتم البيعة بقرطبة، ودفن أخاه بعدها. وتوفي عبد الله سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢ م، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة؛ فكانت خلافته خمسا وعشرين سنة، وخمسة عشر يوما [2].

عندما أفضت إليه الإمارة كانت البلاد تموج بالفتن، وفرقها الشقاق، وكثر فيها الخارجون عن الدولة المتغلبون عليها، واستمر ذلك طوال مدة ولايته، وقد تألب علي المسلمين أهل الشرك، ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جردوا سيوفهم علي المسلمين، فصاروا بين قتيل ومحروب ومحصور يعيش مجهودا، يمت هزلا، قد انقطع الحرث، وكاد ينقطع النسل... ومن قول ابن عبد ربه فيه:

خِلافَةَ عَبدِ اللهِ حَجٌ عَلَى الوَرَى ::: فلا رَفَثٌ في عَصرِهِ وفُسُوقُ
تَجَلَّت دَياجي الحيفِ عَن نُورِ عَدلِهِ ::: كَمَا ذَرَّ في جَنحِ الظَّلامِ شُرُوقُ
ونَقَّفَ شَهمَ الدينِ بالعَدلِ والتُّقَى ::: فهَذَا لَهُ نَصلٌ وذَلِك فُوقُ
وأعلنَ أسبَابَ الهُدَى بضَميرِهِ ::: فلَبسَ لَهُ إلاَّ بِهِنَّ عُلُوقُ
ومَا عَاقَهُ عَنها عَوائقُ مُلكِهِ ::: وأمثالُها عَن مِثلِهِنَّ تعُوقُ

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١١٦.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٢٠.

وأفضت الخلافة إليه، وقد تحيفها النكث، ومزقها الشقاق، وحل عراها النفاق؛ والفتنة مستولية، والدجنة متكاثفة، والقلوب مختلفة، وعصى الجماعة متصدعة، والباطل قد أعلن، والشر قد اشتهر؛ وقد تمالا على أهل الإيمان حزب الشيطان؛ وصار الناس من ذلك في ظلماء ليل داج، لا إشراق لصباحه، ولا أقول لنجومه. وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة، الذين جردوا سيوفهم على أهل الإسلام؛ فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب ومحصور، يعيش مجهودا، ويموت هزلا؛ قد انقطع الحرث، وكاد ينقطع النسل. فناضل الأمير بجهده، وحمى بجده، وجاهد عدو الله وعدوه. وانقطع الجهاد إلى دار الحرب، وصارت بلاد الإسلام بالأندلس هي الثغر المخوف؛ فكان قتال المنافقين وأشباههم أوكد بالسنة، وألزم بالضرورة... " [١].

* * *

الثورات في عهده

ومن أهم الثورات التي شهدها عصره ثورة ابن حفصون التي أقلقت مضجع الإمارة في الأندلس، وقد فصلنا الحملات التي شنها الأمير عبد الله علي ابن حفصون في سابق الصفحات.

وفي سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩م ثار عليه أبو يحيي محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز المعروف بالأنقر، وفيها أيضا ثار أهل جيان وأخرجوا عاملها عباس بن لقيط وملكها ابن شاكر فأرسل إليهم الأمير عبد الله قائده ابن أبي عبدة في سنة ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م فحاصر جيان وحارب ابن شاكر وقتل جماعة من أصحابه، ثم استطاع ابن حفصون قتله، ليتقرب بذلك إلى الأمير عبد الله وبعث براسه إليه، ثم توجه ابن حفصون إلى جيان وأغرم أهلها الأموال الجسيمة، وبقيت جيان والبيرة مدة دون عامل من الأمير [٢].

وقد أورد ابن عذاري الفتن والثورات التي قامت في عهد الأمير عبد الله ما نصه...

* * *

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٢١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٢٢، ١٢٣.

جملة الثُّوَّار ببلاد الأندلس في أيام الأمير عبد الله الخارجين عن الجماعة المضرمين لنار الفتنة

وثار سوَّار بن حمدون بحصن منت شاقر؛ فقام إلى جعد عامل إلبيرة بمن معه؛ فهزم جمعه، وأخذه أسيرا، وأراه يوما عسيرا. ثم أطلقه من عقاله، وعمه بإفضاله، وانصرف إلى إلبيرة بلده، ومقر أهله وولده. وسار سوار إلى غرناطة، وأغار على حصون ابن حفصون؛ فاجتمع أهل إلبيرة في نحو ثلاثة وعشرين ألفا؛ فلقيهم سوَّار في عدد قليل؛ فلاذوا بالفرار والنفور، وصاروا كالهباء المنثور؛ ونيطت بهم الحتوف كسفا، وقتل منهم على ما ذكر اثنا عشر ألفا، وذلك في سنة ٢٧٦. وكانت بين سوَّار هذا وابن حفصون ملاقاة انقلب فيها ابن حفصون مهزوما، وتولى ملوما مذموما، قد أثقل بالجراح، وقتل قوّاده في ذلك الكفاح. وكان جعد الثائر بالبيرة منفقا مع ابن حفصون على النفاق، منعقدا معه على الفساد في تلك الآفاق؛ فأعمل جعد الحيلة في الغدر بسوار جهده، وأظهر في ذلك نصبه وجهده؛ فأغار على جهته يوما، وقد أكمن هنالك قوما. وخرج هو بنفسه في نفر يسير؛ فاكتسح وأغار، وأنجد في الجهة وغار. وظن سوّار أن ليس وراءه أجناد تنجده، ولا أمداد تمده؛ فبز إليه بأهل المكان، وقد أيقن بالظفر والإمكان. فلما انبسط من هنالك كالفرخ الأشر، ثارت الكمائن عليه كالجراد المنتشر، وأحدقت الخيل بسوار؛ فقتل تقتيلا، وعاد عسكره مهزوما مفلولا. وأرسل جعد صاحب إلبيرة إلى ابن حفصون برأس سوار، وأعلمه بالكبت الشامل لأعدائهم والبوار.

وثار سعيد بن جودي في ذلك التأريخ بالعرب، وعارض ابن حفصون بالحرب والحَرَب، حتى أغصه بريقه، وضايقه في سبيله هناك وطريقه؛ فرجع ابن حفصون إلى الحيلة فيه والكيد، إذ عجز عنه بالقوة والأيد، حتى قبض عليه، وصار أسيرا لديه، وأقام عنده ببشتر شهورا مكبولا، إلى أن قبل فيه ابن حفصون مالا جزلا قبولا؛ فأطلقه من وثاقه؛ فجد في خلافه على الأمير عبد الله وشقاقه، إلى أن مكر به مكرا، وقتل في دار عشيقة له يهودية غدرا. وتولى أمر العرب بجانب إلبيرة محمد بن أضحى؛ فأمسى على طاعة الأمير عبد الله وأضحى؛ فناصب ابن حفصون الحرب، وعارضه بالطعن والضرب، إلى أن ظفر به ابن حفصون في تلك المسالك، وصار عنده أسيرا هنالك؛ ففداه العرب منه بمال جسيم، ومشى من طاعة الأمير على منهاج قويم.

وثار العرب بإشبيلية ثورة، وقبضوا على عاملها عنوة، وانتهبوا طارفه ومشلده، ولم يتركوا إلا أهله وولده، وقتلوا كثيرا من أعوانه، وعانوا ما شأوا في سلطانه؛ فاجتمعت العساكر من قرمونة وسائر الأقطار، وأحاطت بإشبيلية إحاطة الفلك الدوار؛ فغلبوا على القائمين فيها. وقتلوا منهم فرقة؛ فكانت الوقعة المعروفة بالدعقة.

وتغلب إبراهيم بن حجاج على إشبيلية تغلبا، ونصب لأحواز قرطبة منها حربا وحربا؛ وارتبط مع ابن حفصون على العبث التام، والاحتلال بقرطبة في ذلك العام. وتغلبا على الحصون والقلاع، وجدا في الكفاح والقراع، إلى أن انتقض ما بينهما من السلم المنتظم، والعهد المحكم المنبرم. وصالح ابن حجاج الأمير عبد الله؛ فأقره بإشبيلية، وصرف إليه زمامها، وأوقف عليه أعمالها وأحكامها.

وثار دبسم بن إسحاق، وغلب على مدينتي لورقة ومرسية، وما يليهما من كورة تدمير. وكان مودودا من طبقات الناس، رفيقا برعيته، جوادا، منتجعا، له إفضال على الشعراء والأدباء.

وثار عبيد الله بن أمية، وملك كورة جيان، ودخل حصن ابن عمر وغيره.

ومنهم، عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، اقتعد مدينتي بطليوس وماردة؛ ففارق الجماعة، وجاور أهل الشرك، ووالاهم على أهل القبلة.

ومنهم، عبد الملك بن أبي الجواد، اقتعد مدينة باجة وملكها، وتحصن بحصن مارتلة، وله حظ من المنعة تشييدا وعدة. وكان معاقدا لابن مروان، صاحب بطليوس في هذا التأريخ، وابن بكر صاحب أكشونبة؛ فكانوا متأبين على من خالفهم.

وثار ابن السديم، وهو منذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم، بمدينة ابن السليم، المنسوبة إلى جده، من كورة شذونة؛ فاقتصد في سيرته، ولم يظهر نبذ الطاعة، إلى أن قتله مملوك له يسمى غلنده. وخلفه وليد بن وليد، وصار إلى الطاعة عند هبوب ريحها بالخليفة عبد الرحمن الناصر.

ومنهم، محمد بن عبد الكريم بن إلياس، امتنع بقلعة ورد من كورة شذونة، وسعى للفتنة سعيه، وتمادى، حتى استنزله الناصر فيمن استنزل من الثُّوَّار. ومات بقرطبة.

وثار خير بن شاكر بحصن شوذر من كورة جيان، وظاهر زعيم الثوار عمر ابن حفصون؛ ففتك بخير المذكور، وأرسل برأسه إلى الأمير عبد الله.

ومنهم، عمر بن مضم الهترولي المعروف بالملاحي؛ وكان جنديا متدونا عند

العامل بحضرتها؛ فوثب عليه؛ فغدره، وضبط القصبة.

ومنهم، سعيد بن هذيل. كانت ثورته بحصن المنتلون من كورة جيان؛ فبنى قصبته، وحصنها، وأعلن بالخلاف، حتى استنزله الناصر؛ فلحق بقرطبة إلى أن مات.

وثار سعيد بن مستنة بكورة باغة، واقتعد حصونها؛ فاستفحل أمره وشره، وعمَّ أذاه واصطفى من حصونها التي ظهر عليها أربعة لا مثيل لها في الحصانة والمنعة.

وثار بنو هابل الأربعة: أكبرهم منذر بن حريز بن هايل، وأخوه أبو كرامة هابل بن حريز، وأخوه عامر، وأخوه عمر؛ ثاروا ببعض حصون جيان في أيام الأمير عبد الله، وخلعوا طاعته، وأطلقوا الغارة، وأطلعوا أهل الفساد. ثم استنزلوا؛ فنزلوا على حكم الأمان؛ فحسنت طاعتهم وخدمتهم.

وثار إسحاق بن إبراهيم بن عطاف العقيلي بحصن منتيشة؛ فبناه وحصنه وامتنع به، إلى أن استنزله الخليفة الناصر إلى قرطبة؛ وبها توفي.

ومنهم، سعيد بن سليمان بن جودي؛ أمرته عرب إغرناطة وإلبيرة؛ فضبط أمرهم، حتى دبر عليه كبيران منهم بحيلة؛ فقتلاه بها. فلم ينتظم للعرب هناك أمر بعده.

وثار محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمداني، من أكابر أبناء العرب بكورة إلبيرة، إلى أن هلك الأمير عبد الله؛ فاستنزله الناصر لدين الله عن حصنه، فيمن استنزله من الثوار. وكان ابن أضحى هذا مع رجوليته أديبا بليغا، يقوم بين أيدي الأمراء في المحافل، فيحسن القول، ويطيب الثناء. وله أخبار معروفة.

وثار بكر بن يحيى بن بكر، واقتعد مدينة شنت مرية من كورة أكشونبة، وبناها حصنا اتخذ عليها أبواب حديد. وكان له ترتيب وأهبة، ورجال شجعان، وعدة موفورة. وكان يتشبه - بزعمه - في سلطانه بإبراهيم بن حجاج. وكان له أصحاب للرأي وكتاب للعمل. وكان له عهد مؤكد إلى جميع من في طاعته بإضافة أبناء السبيل، وقراء التنزيل. وحفظ المجتازين؛ فكان السالك بناحيته كالسالك بين أهله وأقاربه.

وثار ابنا مهلب، من وجوه قبائل البربر بكورة إلبيرة؛ وهما خليل وسعيد؛ ثارا ثورة نظرائهما بجهتهما؛ فأقاما على سبيلهما إلى أن استنزل الناصر أولادهما بعد وفاتهما.

وثار سليمان بن محمد بن عبد الملك الشذوني بشريش شذونة؛ وهو الذي بنى نبريشة وحصنها.

وثار ابنا جرج بحصن بكور؛ ففسدت سيرتهما؛ فأخرجا عن الحصن. فمات عبد الوهاب، ولحق محمد بن عبد الرحمن بن جرج بابن الشالية؛ وكان مصافيا له؛ فتقبله، واستخدمه، وبنى له حصن مورينة من كورة جيان؛ فأقام فيه إلى أن استنزله الناصر ونقله إلى قرطبة.

وثار أبو يحيى النجيبيُّ المعروف بالأنقر بمدينة سرقسطة وأعمالها، وقتل أحمد بن البراء القرشي عامل الأمير على سرقسطة، واستولى عليها؛ وأظهر التمسك بطاعة الأمير عبد الله، وخاطبه، وهو ينسب ابن البراء إلى الخلاف. فأظهر الأمير تصديقه، وسجل له على سرقسطة. فثبت بها قدمه.

وفي سنة ٢٨٣، أخرج الأمير عبد الله على العسكر هشام بن عبد الرحمن بن الحكم إلى كورة تدمير، في أواخر ربيع الأول. وكان القائد معه على الجيش أحمد بن أبي عبدة. ولما احتل بوادي بلون، تقدم قطيع من الخيل؛ فافتتح هنالك حصنا، وغنم ما كان فيه. وتوافت على العسكر حشود أهل الكور. ثم انتقل وطوى المراحل حتى حل بمرسية. ثم انتقل إلى لورقة. فخرج إليه ديسم بن إسحاق؛ فحاربه؛ فهزم ديسم؛ ورجع إلى لورقة وأقام محاصرا حتى قفل عنه العسكر. ثم خرج ديسم بمن معه؛ فضرب في الساقة؛ فرجع إليه؛ فهزم واتبع حتى اشتغاث بالوعر ونجا راجلا، وأخذ فرسه. وقفل العسكر سالما. وفقد في هذه الغزاة الماء، ومات فيها اثنان وثلاثون رجلا عطشا، وهلكت دواب كثيرة.

وفي سنة ٢٨٤، أخرج الأمير عبد الله ابنه أبان إلى لبلة. وكان ابن خصيب بحصن منت ميور، وكان قد ثار به؛ فحاصره، ونصب عليه المجانيق، ورماهم بها حتى ضجوا ودعوا إلى الطاعة؛ وانعقد أمانهم. وفي خلال ذلك، دخل ابن حفصون إسنجة الدخلة الثانية؛ فورد كتاب الأمير باستعجال القفول بسبب إسنجة؛ فقفل العسكر. وكانت مدة هذه الحركة شهرين ونصفا، وهي أول حركة أبان.

وفي سنة ٢٨٥، غزا أبان ابن الأمير عبد الله إلى ابن حفصون، والقائد ابن أبي عبدة.

وفيها أيضا، غزا عباس بن عبد العزيز إلى حصن كركي وجبل البرانس؛ وقتل ابن بامين وابن موجول، وأخذ حصونهما.

وفيها، تقدم لب بن محمد بن طليطلة إلى حيز جيان، ونازل حصن قسكلونة؛ وكان فيها نصارى يحاربون عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية؛ فأخذ الحصن، وقتل العجم. ووافاه فيه قتل أبيه محمد بن لبَّ في محاصرته لسرقسطة.

وفيها، كانت المجاعة الشديدة التي سميت السنة ٢٨٥ بها سنة لم أظن.

وفي سنة ٢٨٦، أظهر ابن حفصون النصرانية؛ وكان قبل ذلك يسرها؛ وانعقد مع أهل الشرك وباطنهم، ونفر عن أهل الإسلام، ونابذهم؛ فتبرأ منه خلق كثير. ونابذه عوسجة بن الخليع، وبنى حصن قنبط، وصار فيه مواليا للأمير عبد الله، محاربا لابن حفصون. واتصلت عليه المغازي من ذلك الوقت، ورأى جميع المسلمين أن حربه جهاد؛ فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواني، ولا بني القواد عنه في الحل والترحال. وفي ذلك قال ابن فلزم للقائد ابن أبي عبدة:

فَفِي كُلِّ صيفٍ وفِي كُلِّ مَشتَى ::: غَزَاتانِ مَنكَ عَلَى كُلِّ حالِ
فَتِلكَ تُبيدُ العَدوَّ وَهذِي ::: تُفيدُ الإمامَ بِهَا بَيتَ مَالِ

وفي سنة ٢٨٧، كانت الصائفة مشجولة ما بين كورة موزور وكورة شذونة وكورة رية.

وفيها، قتل القائد ابن أبي عبدة طالب بن مولود الموروري.

وفيها، صلب إسحاق وصاحبه؛ وكانا من رجال ابن حفصون؛ وفيهما جرى المثل في الناس: غررتني يا إسحاق! وذلك أن أحدهما قال هذه الكلمة لصاحبه، وهو يرفع في الخشبة.

وفي سنة ٢٨٨، قبضت رهائن ابن حفصون. وتجولت الصائفة بشذونة وغيرها من الكور.

وفيها، عظم السيل بقرطبة، وانهدم رجل من قنطرتها.

وفيها، خرج من قرطبة أحمد بن معاوية ابن الإمام هشام إلى فحص البلوط. ثم تقدم إلى ترجيله؛ فأقام فيها مدة يسيرة. وانحشدت إليه الحشود؛ فدخل إلى سمورة وبها قتل في شهر ربيع الأول.

وفي سنة ٢٩١، كان غزو أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - إلى رية؛ وقاد الخيل أحمد بن محمد بن أبي عبدة. وفصل يوم الخميس لخمس خلون من جمادي الآخرة؛ ونهض حتى احتل بوادي نسقانية، واضطرب في هذه المحلة. وخرج إليه عمر بن حفصون؛ ثم التقيا؛ فوقعت بينهما حرب شديدة؛ ثم انكشفت الهزيمة على

أصحاب ابن حفصون؛ فقتل منهم عدد كثير؛ ثم أضرم قرى وادي نسقانية وما حواليها نارا. ثم انتقل وحل على وادي بينش المجاور لببشتر، ووقعت الحرب بين أهل العسكر وبين ابن حفصون؛ فانهزم ابن حفصون، وقتل له رجال، وعقرت له خيل. واتصل الحريق في جميع قرى تلك الناحية. ثم انتقل إلى محلة طلجيرة؛ فأقام بها أياما، يحارب فيها ابن حفصون كل يوم، وينال منه. وفي هذه الأيام، أحرقت منية لجعفر بن عمر بن حفصون. وفي هذه الغزاة، حوربت طرش والرجل، وقتل أخو زيني وجماعة من حماة ابن حفصون. ونصب المنجنيق على الرجل؛ فأثر فيه وثلم في سوره. ثم تقدم القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة من حصن لوشة إلى حصن الخشن، في جرائد الخيل، وأبقى أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - معسكرا بمحلة لوشة؛ فحارب حصن الخشن، وقتل عددا من أهله، وأسر منهم جماعة، وانصرف بالرؤوس والأسرى إلى لوشة. ثم قفل بالعسكر، ودخل قرطبة يوم الجمعة لخمس بقين لرمضان؛ فكانت هذه الغزاة ثلاثة أشهر وعشرين يوما.

وفيها، خرج لُبُّ بن محمد إلى بايش من أحواز آلبة، وذلك في رمضان؛ فافتتح حصن بايش وما يليه، والعلج إذفنش يومئذ على حصن غزنون محاصرا لأهله. فلما بلغه دخول لُبّ بن محمد بحصن بايش، ولّى هاربا.

وفيها، ثم في ذي الحجَّة، خرج لبُّ بن محمد إلى ناحية بليارش؛ فافتتح حصن لحروسه، وحصن إيلاس، وحصن قشتيل شنت، وحصن مولة، وقتل بهذه الحصون نحوا من سبعمائة علج، وسبى بها نحوا من ألف سبية.

وفي سنة ٢٩٢، كان خروج الصائفة إلى عمر بن حفصون. وتجوّل العسكر على حصونه؛ فهتك بعضها. وقوطع البعض على وظيف يودونه. وفيها، كانت الوقعة العظيمة على عمر بن حفصون بوادي بلُّون من جيان. وكان قد توافى إليه أهل الخلاف والخلعان، وخرج مغيرا على المسلمين؛ فهزمه الله، وقتل كثيرا ممن كان معه. وأدبره في شرذمة قليلة، وأفنى أكثر رجاله في ذلك المعترك.

وفيها، خرج لبُّ بن محمد لمحاصرة مدينة سرقسطة، وأخذ في ردم الخندق المجاور لسورها وشرع في البنيان عليها. فلما كمل له ردم الخندق وبنيان ما فيه، رحل عنه وأدخل ندبة فيه من رجاله.

وفيها، توفي عبد الله بن قاسم بن هلال؛ وكانت له رحلة؛ وأدخل الأندلس كتب داود العباسي وغيره.

وفي سنة ٢٩٣، كان خروج الصائفة إلى فهر بن أسد، وهو بحصن تشّ من كورة جيان؛ فافتتح الحصن، وأخذ فهرا أسيرا، وقدم به إلى قرطبة؛ فأمر الإمام عبد الله - رحمه الله - بصلبه عند القصابين في بيع الآخر.

وفي جمادى الآخرة، دخل القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة حصن قنيط من تاكرنا، وندب فيه جيشا، واستنزل من كان فيه من بنى الخليع، وأدخل فيه الحشم.

وفيها، قتل يحيى بن قسيّ، ومحمد بن إسماعيل، وأيوب ابن سليمان بطليطلة وفي سنة ٢٩٤، كان غزو أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - الصائفة إلى الجزيرة. وقاد الخيل أحمد بن محمد بن أبي عبدة، وحل بالجزيرة يوم الجمعة لتسع بقين من رجب. ثم تقدّم إلى حصن لوزة يوم السبت لانسلاخ رجب؛ فحارب الحصن وحاصره، وقتل جماعة ممن فيه؛ ثم تقدم إلى حاضرة رية، فيها مساور بن عبد الرحمن؛ فأحرقت أرباض الحاضرة وحوصر من كان فيها؛ فدعا مساور إلى السلم، وبذل الرهائن. فأجيب إلى ذلك، وقبضت رهائنه؛ ثم تقدم القائد إلى الساحل؛ فجال عليه أجمع، وخرج على حصون إلبيرة، وقفل منصرفا إلى قرطبة؛ فدخلها يوم السبت لليلتين خلتا من ذي القعدة.

وفيها، خرج لُبُّ بن محمد إلى جانب بنبلونة؛ فبذل في تهوره، وشرع في البنيان بحصن هريز؛ فحشد إليه العلج شانجه جميع أهل بلده، وكايده بالمكامن؛ ثم وجه إليه خيلا يسيرة؛ فلما سمع الصيحة، بدر إلى الركوب؛ فلقى بكمين، فهزمه؛ ثم بكمين، فهزمه؛ ثم أحدقت به الكمائن. فقتل وقتل من كان معه، ممن آثر الشهادة؛ وذلك في ذي الحجة لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه. فنزل طليطلة أخوه عبد الله بن محمد. وكان لبٌّ، يوم قتل، ابن ثمان وثلاثين سنة.

وفيها، ظهر محمد بن عبد الملك الطويل في الثغر، ودخل حصن بربشتر وحصن القصر وحصن بربطانية.

وفي سنة ٢٩٥، كان غزاة أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - بالصائفة إلى جهة رية؛ وقاد الخيل أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فقصد ببشتر، وحارب ابن حفصون، ونكاه، وأنزل به، وحارب ما حواليه من الحصون.

وفيها، غدر سعيد بن الوليد المعروف بأبن مستنة، وتخلى عن حصن بلدة إلى عمر ابن حفصون، وظافره، وأبدى ما كان بصميره من العصيان.

وفيها، ولي المدينة محمد بن عبيد الله بن أبي عثمان، وذلك يوم خميس؛ فاستعفى عنها؛ فأعفي يوم الجمعة ثاني ولايته، وولى مكانه عليٌّ بن محمد المعروف بالباسة؛ وكان عليها ثلاثة أيام. ثم عزل وأعيد إليها موسى بن حدير؛ فكان واليا عليها إلى آخر أيام الإمام عبد الله؛ وأقره أمير المؤمنين - رحمه الله - إلى سنة ٣٠٣.

وفيها، دخل محمد بن عبد الملك الطويل حصن منتشون ومدينة لاردة في المحرم.

وفيها، دخل محمد بن عبد الرحمن النجيبيُّ مدينة شية.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بربطانية؛ فافتتح حصونا جمة، وسبى سبيا كثيرا.

وفيها، توفي الفقيه يحيى بن عبد العزيز بن الجرَّار، والفقيه محمد بن غالب بن الصفار، ومحمد بن يحيى بن أبي غسان صاحب السوق. وولى أحكام السوق يحيى بن سعيد بن حسَّان.

وفي سنة ٢٩٦، كان غزو أبان ابن الإمام عبد الله بالصائفة إلى حصون رية وغيرها. وقاد الخيل معه أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فقصد ناحية بهشتر، ونازل ابن حفصون، وحاربه ونكاه، وتحرك عيسى بن أحمد القائد غازيا إلى حصون سعيد بن مستنة؛ فنازله أيضا، حتى قفل القائد أحمد ابن محمد من ببشتر. ثم نازل حصن لك من حصون ابن مستنة؛ فأقام عليه حتى افتتحه.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بليارش في شهر رمضان؛ فقتل هنالك مقتلة عظيمة. ووفد عليه رسل أهل حصن روطة، يرغبون الصلح ويسمحون بالرهائن والجزية؛ فلم يجبهم إلى ذلك؛ فخرجوا هاربين من الحصن، وأخلوه. وتقدم إليه؛ فهدمه. وفيها، تغلب على حصن منت بطروش، وهو المعروف بجبل الحجارة.

وفيها، توفي محمد بن سليمان بن تليد المعافري قاضي مدينة وشقة.

وفي سنة ٢٩٧، كان غزو العاصي ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - الغزاة المعروفة بغزوة رية وفريرة. وقاد الخيل أحمد بن محمد بن أبي عبدة. وفصل يوم الخميس لتسع بقين من شعبان؛ فتقدم إلى بلدة؛ فحاربها. ثم احتل على نهر طلجيرة؛ فدارت بينه وبين أصحاب ابن حفصون حرب، عقرت فيها خيل السلطان، وقتل عدد من أصحاب ابن حفصون. ثم تقدم إلى حصون إلبيرة؛ فنزل على حصن شبيلش؛ فكانت هنالك حرب شديدة، ونالت بعض حماة العسكر جراح. وتجول في كورة

إلبيرة، وحل بمحلة بجانة؛ ثم قفل على كورة جيان؛ فنازل حصن المنتلون يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي القعدة؛ فأقام عليه محاصرا أياما؛ ثم ضحى فيه يوم الأحد، وقفل يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، ودخل قرطبة يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة.

وفيها، افتتحت بياسة؛ واستنزل منها محمد بن يحيى بن سعيد بن بزيل.

وفيها، اجتمع عمر بن حفصون، وسعيد بن مستنة، وسعيد بن هذيل، وضمهم عسكر واحد؛ فضربوا بناحية جيان وأغاروا؛ فأصابوا وغنموا، وانصرفوا إلى حصن جريشة؛ فاتبعهم القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فلحقهم، وهزمهم، وقتل جماعة منهم، فيهم تسريل العجمي من قواد ابن حفصون.

وفيها، افتتح القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة حصن الزبيب، وابتنى حصن ترضيض تضييقا على ابن هذيل، وحصن قلعة الأشعث، ووضع فيه ندبا من الرجال. وشتى القائد هذه السنة بجبل أرنيش من كورة قبرة. وكانت له في هذه الشتوة حركات بالغت في نكاية أهل النفاق.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى بار بليارش؛ فافتتح حصن أوربوالة، وأصاب من المشركين ثلاثمائة سبية، وقتل كثيرا منهم، وهدم الحصن وحرقه. وتقدم إلى حصني علتير والغبران؛ فهدمهما. وكان مبلغ الفيء في هذه الغزاة ثلاثة عشر ألفا.

وفي سنة ٢٩٨، خرج العاصي ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - بالصائفة. وقاد الخيل أحمد بن محمد بن أبي عبدة؛ فتقدم إلى حصن ببشتر وغيره من حصون الساحل بكورة رية. ثم تقدّم بالعسكر إلى كور إلبيرة؛ فحطم زرعها، وهشم ثمارها.

وفيها، أقام عيسى بن أحمد بن أبي عبدة في طقيع من الخيل بمدينة بيانة؛ فأغار عمر ابن حفصون وسعيد بن مستنة في بسيط قبرة وقرى قرطبة. وأخذوا الغنائم؛ فخرج عيسى بن أحمد طالبا لهما؛ فالتقى بهما على نهر ألبة؛ فدارت بينهم حرب شديدة، وإنهزم عمر بن حفصون وابن مستنة؛ فقتل من أصحابهما خلق كثير، وافترقوا أيادي سبا. وبعث عيسى بن أحمد من رؤوسهم عددا كثيرا.

وفيها، غزا الوزير عباس بن عبد العزيز إلى مدينة قلعة رباح؛ وكان أهلها قد خالفوا، وخلعوا الطاعة؛ فافتتحها. وكان فضل بن سلمة، ختن سعيد ابن مستنة، قد خالف بحصن أشر؛ فتقرب أهل حصن أشر بقتله إلى الإمام عبد الله - رحمه الله! -

فقدم منهم قوم برأسه إلى باب السدة؛ فشكر لهم ذلك.

وفيها، خرج عباس بن أحمد بن أبي عبدة قائدا على خيل كثيفة إلى المنشلون لحرب سعيد بن هذيل. وفيها، تداعى البربر الطنجيون الذين كانوا غزوا مع القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى النزوع إلى مدينة بلدة إلى ابن حفصون؛ وتداعى الطنجيون الذين كانوا مع عباس بن أحمد على المنتلون إلى النزوع إلى ابن هذيل؛ فخرجوا عن العسكر، ولحقوا بأهل الكفر والخلعان. ثم دارت الدائرة على هؤلاء وهؤلاء في الموضعين جميعا لأمور أحدثوها، واستدرجهم الله - عز وجل - بها؛ فقتلوا ببهشتر والمنتلون. وعاد من بقى منهم إلى الطاعة. وكان صاحب الصائفة العاصي ابن الأمير عبد الله؛ وكان فصوله لهذه الغزاة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان، وهو يوم النصف من أبريل. وكانت في هذه الغزاة أمراض ووباء.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى أرغون يريد بنبلونة وأن يجتمع هنالك مع عبد الله بن محمد بن لب. فانتهى إلى حصن البربر؛ فأحرق ما حواليه، وهدم كنائس تلك المواضع، وذلك في شهر رمضان. وعرج عن ملاقاة ابن لب وعن القصد إلى بنبلونة، وانصرف؛ فاحتل حصنا من حصونه يعرف بشار قشتيله؛ فأنذر بأن ابن شانجة يريد الهجوم عليه؛ فخرج في بعض أصحابه متسللا. فلما أيقن أهل العسكر بهروب ابن الطويل، تخاذلوا؛ فكان سببا لانهزام أهل الحصن. فلما بلغ عبد الله بن لب الخبر، وأن ابن الطويل كر عن ملاقاة شانجه، نزل بمن معه من المسلمين على حصن لوازة من حصون شانجه؛ فقتل جماعة منهم وكر راجعا؛ فالتقى ببعض الخيل التي كان فيها شانجه؛ فقتل فيهم وسبى.

وفي سنة ٢٩٩، كان غزاة القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة إلى حصن فننجالة من حصون ابن هذيل، بالقرب من جبل المنتلون، وذلك في صدر المحرم؛ فحاصره أشد الحصار، حتى افتتح الحصن.

وفيها، غزا بالصائفة أبان ابن الإمام عبد الله - رحمه الله - وقاد الخيل عباس بن عبد العزيز الوزير. وفصل يوم الاثنين لتسع بقين من شعبان، وقصد حصن ببشتر، وحارب ابن حفصون، وأوقع به. ثم خرج بإثره أحمد ابن محمد بن أبي عبدة؛ فتولى القيادة مكانه، واستقدم عباس بن عبد العزيز إلى قرطبة؛ فقصد القائد حصون ابن حفصون، وحارب من كان فيها.

وفيها، خرج محمد بن عبد الملك الطويل إلى وادي برشلونة؛ فأغار بوادي طراجة. فخرج عليه العلج شنير؛ فأخذ عليه المضايق. فلما كرّ عسكر المسلمين،

ألفوا أعداء الله على تلك المضايق؛ ففتح الله للمسلمين عليهم، وقتلوا فيهم مقتلة عظيمة.

وفي سنة ٣٠٠، كان وفاة الإمام عبد الله بن محمد - رحمه الله - ليلة الخميس مستهل ربيع الأول، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة، وخمسة عشر يوما. ودفن في قصر قرطبة مع أجداده الخلفاء ☺ وعنهم! وصلى عليه أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد [1].

كان الإمام عبد الله مقتصدا، يظهر ذلك في ملبسه وشكله وجميع أحواله. وكان حافظا للقرآن، كثير التلاوة له. وكانت له صدقات كثيرة ونوافل جزيلة. وكان متقدما في ورعه وفضله، محبا للخير وأهله، كثير الصلاة، دائم الخشوع والذكر الله عز وجل، كثير التواضع، منكرا للسرف ومبعدا لأهله، شديد الوطأة على ذوي الظلم والجور. وكان متفننا في ضروب العلوم، بصيرا بلغات العرب، فصيح اللسان، حسن البيان وكان لا يخلو في أكثر أيامه من مقاعدة وزرائه ووجوه رجاله؛ فإذا انقضى خوضهم في الرأي والتدبير لأسباب مملكته وما كان يحاوله من حسم علق الفتنة، خاض معهم في الأخبار والعلوم. ولم يكن ممن اشتغل بلذة، أو قارف شيئا من الأنبذة في أيام خلافته ولا قبلها. وهو ابتنى الساباط بين القصر والجامع بمدينة قرطبة، رغبة في شهود الجمعة، ومحافظة على الصلوات، وحبا للصالحات. وكان يقعد في الساباط قبل صلاة الجمعة وبعدها؛ فيرى الناس، ويشرف على أخبارهم وحركاتهم، ويسر بجماعاتهم، ويسمع قول المتظلم؛ ولا يخفى عليه شئ من أمور الناس. وكان يقعد أيضا على بعض أبواب قصره في أيام معلومة؛ فترفع إليه فيه الظلامات، وتصل إليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرجبا لذلك؛ فلا يتعذر على ضعيف إيصال بطاقة بيده، ولا إنهاء مظلمة على لسانه. وكان أهل المكانات وذوو المنازل والأقدار يتحفظون من كل أمر يوجب الشكوى بهم، وينقبضون عن التحامل على من دونهم، ويهابون عقابه، ويحذرون إنكاره، ويتحرون موافقة مذاهبه. وكانت اللذات مهجورة في أيامه، واللهو غير مقترف من جميع خاصته وعامته، وإعمال الخير وإظهار البرّ والتقوى فاش في كل طبقة من رجاله ورعيته.

وكان - رحمه الله - كثير الاستغفار لله عز وجل، ومتحفظا من اليمين باسمه؛ فإذا حلف له حالف بالله، صدقه؛ وإذا شفع به إليه شافع، شفعه؛ أو خائف، أمنه؛ أو

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٢٤ - ١٢٦.

مذنب، صفح عنه. ومآثره كثيره، وفضائله محفوظة مذكورة. وكان قد فتح بابا في القصر، سماه باب العدل. وكان يقعد فيه للناس يوما معلوما في الجمعة، ليباشر أحوال الناس بنفسه، ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترا. وكان بصيرا باللغات، حافظا لأشعار العرب وأيامها وسير الخلفاء، راوية للشعر. وكانت اللذات في أيامه مهجورة؛ فإنه لم يشرب قط نبيذا ولا مسكرا. واعتذر إليه يوما بعض مواليه؛ فقال له: إن مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك وتنبئ عن باطل تنصلك. ولو أقررت بذنبك، واستغفرت لجرمك، لكان أجمل بك، وأسدل لستر العفو عليك! فقال: قد اشتمل الذنب علي، وحاق الخطاء بيَّ! وإنما أنا بشر، وما يقوم لي عذر! فقال: مهلا عليك، رويدا بك! تقدمت لك خدمة، وتأخرت لك توبة؛ وما للذنب بينهما مدخل. وقد وسعك الغفران! وأملى كتابا إلى بعض عماله: أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتبالك به على حسب مواترتك بالكتب واشتغالك بذلك عن مهم أمرك، لكنت من أحسن رجالنا عناء، وأتمهم نظرا، وأفضلهم حزما. فأقلل من الكتب فيما لا وجه له ولا نفع فيه، واصرف همتك وفكرتك وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غناؤك، إن شاء الله!

وكان - رحمه الله - تقيا نقيا. بنى الساباط من القصر إلى الجامع، محافظة منه على الصلوات. والتزم الصلاة مع الجماعة إلى جانب المنبر دائما حتى لقي ربَّه. وكان - رحمه الله - شاعرا مطبوعا؛ له أشعار حسان. فمن قوله يتغزل في صباه:

وَيَحـي عَلَـى شـادِنٍ كَحيـلِ ::: في مِثْلِـه يُخْلَـعُ العِـذَارُ
كأنَّمـا وَجْنَتَـاهُ وَرْدٌ ::: خالَطَـهُ النَّـوْرُ والبَهَـارُ
قَضِـيبُ بَـانٍ إذا تَثَـنَّى ::: بُـدِيرُ طَرفـاً بِـهِ احْـوِرَارُ
فَصـفْوُ وُدِّي عليـه وَقـفٌ ::: مـا اطَّـرَدَ اللّيـلُ والنّهـارُ

ومن قوله أيضا في مثل ذلك - رحمه الله -:

يَا مُهجَـةَ المُشـتاق مـا أَوجَعَـكْ ::: ويَا أسِـيَر الحُـبِّ مـا أخضَـعَك
ويَا رَسُـولَ العـينِ مِـنْ لَحظها ::: بـالرَّدِ والتبليـغِ مـا أسـرَعَك
تَـذهَبُ بالسِّـرِّ فَتَـاتِي بِـهِ ::: في مجلِسٍ تَخفى عَلَـي مَـن مَعَـك
كَـم حاجـةٍ أنجـزتَ أسـرارَها ::: تَبَـاركَ الرَّحمـانُ مَـا أطوَعَـك

ومن قوله في الزهد:

يَـا مَـن يُراوغـه الأجَـل ::: حـتى مَ بُلـهِبكَ الأمَـل

حتَّى مَ لا تَخشَى الرَّدَى ::: وَكَأَنَّه بِكَ قد نَزَل
أغفَلتَ عن طَلَبِ النَّجاةِ ::: وَلا نَجَاةَ لِمَن غَفَل
هَيهَاتَ يَشغلك المُنَى ::: وَلَمَا يدومُ لَكَ الشَّغَل
فكأنَّ يَومَك لم يَكُن ::: وكأنَّ نَعيَك قَد نَزَل

وله أيضا في الزُّهد:

أرَى الدُّنيا تَصِيرُ إلى فَنَاء ::: وَمَا فيها لشيء من بَقَاء
فبَادِر بالإنابة غير وَانٍ ::: علَى شَيْءٍ يصِير إلى فَنَاء
كَأنَّكَ قد حُمِلتَ على سَرِيرٍ ::: وغُيبَ حُسنُ وَجهك في الثَّرَاء
فَنَافِس في التُّقى واجنح إليه ::: لَعَلَّك تُرضِيَنَّ رَبَّ السَّماءِ

ولم يزل - رحمة الله عليه - يرفع منار الدين، ويسلك سبيل المهتدين، لم تمنعه الفتن عن النظر لنفسه، والعمل ليوم فاقته وحلول رمسه. وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بن أمية بالأندلس، وأمثلهم طريقة، وأتمهم معرفة، وأمتنهم ديانة؛ إلا أنه كان منغص الحال بدوام الفتنة، وتضييق نطاق الخطة، ونقصان مقدار التزكية، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه، والبخل بطوقه طبيعة ليست له تحط من هواه؛ وغمض دينه لما كان من هوان الدماء عليه، بسبب الفتن الطارئة حتى من ولديه، آخذا لأكبرهما بالظنة. وقد صرح النقية أبو محمد بن حزم بذم هذا الأمير، وقال إنه كان قتالا تهون عليه الدماء مع كثرة إقباله على الخيرات، وإعراجه عن المنكرات؛ فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره له، وواطأ عليه حجامه بأن سمَّ له المبضع الذي قصده به، وهو نازل بعسكره على ابن حفصون. ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدا بعد واحد: قتل محمدا والد الناصر لدين الله، وقتل أخاه المُطرف؛ ثم قتل أخوين له معا أيضا: قتل هشاما منهما بالسيف، والقاسم بالسم. والله أعلم بحقيقة أمره [1].

* * *

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٣٨ - ١٤٦.

الفصل الخامس
عصر الخلافة الأموية في الأندلس
(٣١٦ - ٤٠٠ هـ / ٩٢٩ - ١٠٠٩ م)

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ / ٩١٢ – ٩٦١ م):

سياسته الداخلية:

القضاء علي الثورات الداخلية:

اتخاذه لقب خليفة:

سياسته الخارجية:

الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ – ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ – ٩٧٦ م):

الأحداث الخارجية في عهده:

خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور بن أبي عامر:

سقوط الدولة الأموية في الأندلس:

* * *

عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م)

لما توفي الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ / ٩٦١ م ظفر حفيده عبد الرحمن بن محمد بالإمارة دون أعمامه وأعمام أبيه، وكانوا أحق منه بالإمارة شرعا، ولكنهم تخلوا له عنها زاهدين فيها لما يحيط بها من أخطار، وكان اعتلاء الإمارة في قرطبة يعني التعرض للأخطار والمكاره، وكان الظن أن مصيرها يؤول حتما إلى الزوال، فزهد فيها من هم أحق بها من البيت الأموي، وتعلقت آمال الناس بهذا الشاب اليتيم - عبد الرحمن بن محمد - الذي يتوقد عزما وحزما وشبابا، ويتحرق شوقا لتوطيد دولة الإسلام في الأندلس، حيث كانت الأندلس يومها تحتاج إلى إلى الهمة العالية والسياسة الحكيمة لحل مشاكلها، وتوفي الاستقرار المطلوب، والاستمرار في دفع موكب الحضارة والعطاء، والإنتاج الفكري المترعرع في ربوعها، فتعلقت آمال الناس بعبد الرحمن الناصر (١).

وكان محمد بن عبد الله - والد عبد الرحمن الناصر - محبوبا لدي أبيه عبد الله، فرشحه لولاية العهد باعتباره أكبر أبنائه سنا، وأكثرهم عقلا، وأقربهم إلى قلبه، وآثره علي أخيه المطرف، الذي كان يحقد علي أخيه وينافسه المنزلة والمكانة في قرطبة، فعظم الأمر علي المطرف، وبدأ النزاع والخلاف يدب بين الأخوين لهذا السبب، وأخذ الواحد منهما يقابل أخيه بالصد والإعراض، وحدث أن اعتدي محمد علي أحد فرسان المطرف، فأغري المطرف أباه به فزج بمحمد في السجن وأوثقه، واتصل أثناء وجوده بالسجن ببعض الأشرار والمفسدين فأغروه بالذهاب إلى ابن حفصون، فأقام لديه، ثم خاطبه الأمير محمد بالأمان، فاستجاب إليه وعاد إلى قرطبة، ولكنه لم يزل علي حقده لأخيه محمد، ولم ينس ما كان بينهما من منافسة، وظل المطرف يغري عبد الله ويضمر له السوء والحقد، ويدبر له المكائد وينصب له الشراك، ويزرع الخوف والشك والريبة في قلب أبيه من أخيه محمد، ويزعم أنه علي إتصال بابن حفصون وأنه يعمل علي الثورة علي أبيه، وما زال بأبيه يوغر صدره عليه حتى اقتنع عبد الله بهذه الوشاية وأمر بمحمد فسجن في دار البقيقة، ريثما يتحقق من الأمر، فلما اتضحت له براءته عزم علي إطلاق سراحه، ولكن المطرف الذي كان يمني نفسه بخلافة أبيه في إمارة الأندلس لم يكن ليسمح بذلك، فدخل عليه أخوه المطرف وأجهز عليه، وتركه متخبطا في دمه، ملقي علي يده وفمه، ظنا منه أن ذلك

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٧٩، عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٢٩٧ - ٣٢٠، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٥١.

سوف يفسح له الطرق إلى إمارة الأندلس بعد إزاحة أخيه من طريقه، وكان ذلك سنة ٢٧٧هـ وهو نفس العام الذي ولد فيه عبد الرحمن بن محمد، إذ ولد قبل قتل أبيه بواحد وعشرين يوما، وقد نال المطرف جزاء فعلته وجريمته إذ قتله أبوه عبد الله، واحتضن عبد الرحمن بن محمد، وخصه بمحبته ورعايته، ويبدو أن الأمير عبد الله كان يستشعر الندم لتسببه في قتل ابنه محمد، فاراد أن يكفر عن غثمه، فكرس حياته لتنشئة حفيده اليتيم، فكان يحظيه دون بنيه، ويوميء إليه ويرشحه لأمره [١].

يقو ابن عذاري: "... كان الأمير عبد الله قد رشح ابنه محمدا لولاية عهده، وأثره بما عنده؛ فعظم الأمر على أخيه مطرف، وبعد ما بينهما كل البعد، وقابل الواحد الثاني بالهجران والصد. فوجد مطرف يوما فارسا من فرسان محمد؛ فاغتاله وقتله؛ ثم فرق من أبيه عبد الله وحذر سطوته، ولم يأمن طولته؛ فسار إلى السجن وفتقه، وحلّ من شده أبوه وأوثقه، وخرج بمن فيه من أهل الدعارة والفساد، ولحق ببربشتر قاعدة أهل الضلال والعناد، وصار عند ابن حفصون، في حرز من الأمن مصون. ثم إن الأمير عبد الله أباه خاطبه بالأمان، وقال: بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان! فقبل من أبيه، وانصرف إلى أهله وذويه. ولم يزل بعد ذلك مطرف يغري بمحمد إغراء، ويطوي له عداوة وبغضاء، ويزعم أنه يخاطب ابن حفصون ويداخله، ويداهنه على القيام على أبيه ويواصله. فسجن الأمير عبد الله ابنه محمدا في دار البقيقة، وامتحن خلال ذلك عين الحقيقة. فلما واصل في البحث صباحه ومساءه، لم يقرع سمعه من جهته ما ساءه فأسرع إطلاقه، وحلَّ وثاقه؛ فدخل مطرف إليه، وأجهز في الحين عليه، وتركه متخبطا في دمه، ملقى على وجهه وفمه. فلما علم ذلك الأمير عبد الله، أعظم ذلك منه، وهم بقتله عنه؛ فلم يعدم من كسر عليه لذلك؛ فتركه. وقيل: قتله فيه: والله أعلم. وكان ذلك في سنة ٢٧٧... " [٢].

وحاصل الأمر أن الإمارة تهيأت لهذا الفتي، من حيث لا يدري، وأصبح أمير قرطبة بلا منازع، في الوقت الذي كانت الأندلس فيه جمرة تتقد ونارا تضطرم... وولي، والأندلس جمرة تحتدم، ونار تضطرم شقاقا ونفاقا؛ فأخمد نيرانها، وسكن زلازلها، وغزا غزوات كثيرة. وكان يشبه بعبد الرحمن الداخل؛ ومن وقت دخوله الأندلس سنة ١٣٨ إلى ولاية عبد الرحمن الناصر [٣].

* * *

(١) ابن عذاري، البيان المغرب ٢ / ١٣٧، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٧٩.
(٢) البيان المغرب ٢ / ١٣٧.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب ٢ / ١٥٨، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين ص ٢٨٠.

سياسته الداخلية

القضاء علي الثورات الداخلية

وجد الأمير عبد الرحمن الناصر أرض الأندلس مضطربة بالثورات، مضرمة بنيران المتغلبين، فعمد قبل كل شيء إلى إخماد هذه النيران واستنزال أهل العصيان [(١)] وكانت سياسته تهدف إلى جعل السلطة المركزية في يده وحده، وتوحيد الأندلس كما كانت عليه أيام أمراء بني أمية الأقوياء، لهذا كان لزاما عليه أن يلتزم سياسة تقوم علي الترغيب والترهيب، أو الشدة واللين، وقد شرع في تنفيذ خطته في عزم وإصرار، فأنفذ الكتب إلى العمال في جميع كور الأندلس يطلب الطاعة والاستسلام، فكان أول رد ورد عليه بذلك هو سعيد بن السليم عام لحصن مارتس من كورة جيان، ثم أرسل الأمير عبد الرحمن أمناءه إلى البلاد لأخذ البيعة، فتتابعت البيعة عليه من جميع أرجاء الأندلس، واستبشر الناس خيرا بهذا الأمير، الذي دخلت محبته في نفوسهم لما أبداه من أشكال التسامح مع الخارجين علي السلطة المركزية، بعد أن استسلموا له وأعلنوا الطاعة له، فلما انقضي شهر من توليه الإمارة أعد حملة كبيرة للقضاء علي بقية الثوار وتسمي هذه الصائفة بغزوة المنتلول، وافتتح خلالها سبعون حصنا من أمهات الحصون سوي ما فتح بفتحها من توابعها مما قارب الثلاثمائة بين حصن وبرج، وقد كان في يد عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية منها ما يجاوز المائة [(٢)].

أما بنو حجاج بإشبيلية فقد استطاع الأمير عبد الرحمن أن يجتذب منهم إليه أحمد بن محمد بن مسلمة بن حجاج، والذي ولي إشبيلية بعد وفاة عبد الرحمن بن حجاج سنة ٣٠١هـ / ٩١٣ م فسلم له مدينة إشبيلية في نفس السنة المذكورة، ثم أذعن له محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة [(٣)] وعن سقوط إشبيلية في أيدي عبد الرحمن الناصر يقول ابن عذاري: "... وفي سنة ٣٠١، توفي بإشبيلية عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج صاحبها، في المحرم؛ فاجتمع أهلها على تقديم أحمد بن مسلمة مكانه؛ وكان من الشجعان فأخرج أمير المؤمنين الناصر - رحمه الله - أحمد بن محمد بن حدير الوزير قائدا نحوها؛ فكان أول من حاربها وأوقع بأهلها. وكان محمد

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٣٥٣.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٨٠.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢، ١٦٣، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٨١، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٥٣.

بن إبراهيم بن حجاج عند ذلك بمدينة قرمونة؛ فقصد باب السدة، وعرض نفسه على أمير المؤمنين لمحاربة أهل إشبيلية. فأخرجه لذلك مع قاسم بن وليد الكلبي [١]؛ وحاصراها شهورا. ثم خرج إليها الحاجب بدر بن أحمد؛ فدخلها يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولي من هذه السنة، وهدم أسوارها، واستصلح أمور أهلها، وأخرج مع نفسه سعيد بن المنذر عاملا عليها... " [٢].

وبعد أن استنزل عبد الرحمن بني حجاج بإشبيلية، رأي أن يقضي قبل كل شيء علي رأس الأفعي وهو عمر بن حفصون وابنه جعفر، وكان عمر بن حفصون قد تحصن في مدينة ببشتر، من كورة رية وأطاعته أكبر مدن وسط الأندلس الواقعة بين رية والجزيرة الخضراء من جهة، والبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخري، وقد حاول الأمير المنذر بن محمد أن يقضي علي حركته ولكنه مات وهو يحاصر ببشتر، فتفرق جنده عند موته، ولم يستطع الأمير عبد الله أن يعيد جمعهم، واستطال عمر بن حفصون في المحلة وانتهبها بالجملة، وعظم أمر ابن حفصون في عهد الأمير عبد الله وقويت شوكته، وجرت بينه وبين الأمير مناوشات لم تؤد إلى نتيجة، ثم استفحل أمره واشتد خطره، فأغار علي موررور وشذونة وقرمونة، والبيرة، واتسعت رقعة مملكته [٣].

ولكن لحسن حظ المسلمين بالأندلس أن ارتد هذا الثائر عن الإسلام وأعلن اعتناقه للنصرانية سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩ م، وكان يسرها قبل ذلك. [٤] ولما علم المسلمون ذلك انفضوا من حوله، ورأي المسلمون في الأندلس أن حربه جهاد في سبيل الله، فتتابعت علي الغزوات بالصوائف والشواتي، حتى ضعف أمره وتظاهر بالخضوع للأمير عبد الرحمن بن محمد بعد أن رأي قوته وصولته، فوجد طريق المصالحة مع الأمير الجديد هو الطريق الأمثل، وكانت المفاجأة عندما أرسل عمر بن حفصون عهدا بالاعتراف به والالتزام بالولاء والطاعة للسلطة المركزية في قرطبة، وجاء هذا الثائر إلى قرطبة حوالي سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م وغزا مع قوات الناصر بلاد النصاري، ثم توفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م حسب قول ابن عذاري [٥]، أو سنة

---

(١) صاحب شرطة العليا.
(٢) البيان المغرب، ٢ / ١٦٣.
(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٨٢.
(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٣٩.
(٥) البيان المغرب، ٢ / ١٧١.

٣٠٦ هـ / ٩١٨ م حسب قول ابن الخطيب[١]، وقد ولي أمر الثورة بعده ابنه جعفر بن عمر الذي ذهب مذهب أبيه في الفساد والعناد وفي الثورة ضد السلطة المركزية، ولكنه أغتيل بقلعة ببشتر فتولي بعده أخوه سليمان، وتظاهر سليمان هذا بطاعة الأمير الناصر، فسالمه الأمير واعترف به الناصر، ولكنه نكث عهده وأخذ في مقارعة الدولة الأموية بعد أن شعر بالقوة والمنعة، وشن الغارات علي قرطبة فدخل مدينة المنكب عنوة وقتل جميع سكانها، وما زال كذلك في نكثه وغدره طويلا، غير أن الأمير عبد الرحمن الناصر هاجمه وسد عليه كل منافذ القلعة التي كان يتحصن بها، وأحاطها بحزام كثيف من الجنود، وظل يسد له الضربات المتلاحقة حتي خارت قواه وسقط سليمان صريع في معركة طاحنة جرت بين الفريقين سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م واستسلم أخيه حفص في السنةالتالية، بعد أن اخترقت جنود الإمارة أسوار القلعة المنيعة، وتمكن الأمير عبد الرحمن من القضاء علي خطر بني حفصون أخطر الخارجين عليه [٢].

* * *

إتخاذه لقب خليفة

بعد القضاء علي ثورة بني حفصون، واقتلاع جذورها شعر الأمير عبد الرحمن الناصر بأنه اجتاز أصعب المراحل في طريق الوحدة السياسية، فعلي الرغم من أن بضعة مواقع ما تزال خارجة علي سيادته، فإن أمرها لم يكن يقلقه كثيرا، بعد أن بلغ هذا المبلغ من القوة والنفوذ، لعل إحدي مظاهر الثقة القوية بقدرته علي تحطيم القوي المعادية والمتصدية له، ذلك القرار الذي اتخذه بعد سقوط حصن ببشتر في يديه بعد أن وجد أن اللقب الذي توارثه عن أسرته وأجداده وهو الإمارة، لم يعد يتسع لطموحه الكبير، فأعلن عن نفسه خليفة تيمنا بأجداده الأمويين في المشرق خلفاء دمشق فانتهي بذلك عصر الإمارة سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م في وقت كانت الظروف الداخلية والخارجية متاحة لإعلان هذه الخطوة [٣].

يقول ابن عذاري - عن هذه الخطوة -: "... وفي هذه السنة - ٣١٦ هـ - رأى

---

(١) أعمال الأعلام، ص ٣٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٩٣، ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣٣، ٣٤، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٥٤.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٩٨، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ٢٨٢ - ٢٨٣، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٥٥.

الناصر أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات له في جميع ما يجري ذكره فيه، بأمير المؤمنين، لما استحقه من هذا الاسم الذي هو له بالحقيقة، ولغيره بالانتحال والاستعارة؛ فهو أبر أمراء المؤمنين والهداة الفاضلين، والأبرار المنقين، من كل منتخب في المشرق والمغرب، وقائم بالحق، وسالك لسبيل الهدى والرشد؛ فعهد إلى أحمد بن بقيّ القاضي صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك. ونفذت الكتب إلى العمال فيه، بما اجتلبنا نسخته لما فيها من إيعاب القول، واستبقاء الحجة، وظهور الحقيقة. ونسخة الرسالة النافذة في ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنا أحق من استوفي حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا إدراكه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا. والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه! وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه. وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه. فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطباتك لنا عليه، إن شاء الله. والله المستعان! وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ... " [١].

وعلي مايبدو أن الذي دفع الناصر لاتخاذ هذا اللقب هو طموحه الكبير في تحقيق الوحدة السياسية للأندلس، ونجاحه الكبير في تحقيق جزء كبير من هذا المسعي بعد القضاء علي ثورة بني حفصون التي طالما أعجزت سابقيه من الأمراء، كما أن ضعف الخلافة العباسية وترديها في مهاوي التمزق والانفصال، علاوة علي ضعف خلفائها ووضعهم تحت الوصاية الدائمة من قبل القدة الأتراك الذين أصبحوا يتحكمون في مصائر ليس الخليفة فقط بل والخلافة جميعا، وفي تلك اثناء كانت الدولة الفاطمية الشيعية التي قامت بشمال إفريقية وانتقلت إلى القاهرة، وبدأت تتطلع في العبور إلى الأندلس وتكوين قاعدة شيعية في المغرب الإسلامي تضاهي القاعدة السنية في المشرق الإسلامي، فيكون العالم الإسلامي مقسما بين خلافة سنية في المشرق تحت الزعامة الروحية للخلافة العباسية، وخلافة شيعية رافضة في المغرب الإسلامي

---

(١) البيان المغرب، ١ / ١٩٨.

تحت الوصاية والزعامة الروحية للخلافة الفاطمية، فكان لابد لمجابهة هذا المد الشيعي الرافضي بإقامة خلافة سنية جديدة في الأندلس، كما أن عبد الرحمن الناصر والأندلسيين كانوا يرغبون في أن يكون لقرطبة دور أكثر مركزية، بأن تصبح عاصمة للخلافة وليس لإمارة فقط، والخلافة لها تأثير معنوي كبير يفوق حاجز الإمارة، مما يؤدي إلى إحكام قبضتها علي أطراف الإمارة الأندلسية (١).

* * *

سياسته الخارجية

تعرضت الأندلس لعدة أخطار خارجية فرضت علي الخليفة عبد الرحمن الناصر إتخاذ ساسات محددة أصبح مجبرا عليها ليس مختارا لها، ففي العلاقة مع النورمان، كانت الأندلس تعرضت لهجماتهم المدمرة في عهد الأمراء السابقين للخليفة الناصر، فوجد نفسه لاتباع سياسة بحرية معينة، فقد أنشأ دار الصناعة بإشبيلية واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس، فألحقهم ووسع عليهم، وتأهب لاستقبال النورمانديين بالآلات والنفط، فلما أعاد ا لنورمان هجماتهم علي إشبيلية عام ٢٤٥ هـ أيام الأمير محمد تلقاهم أسطول الأندلس وهزمهم وأحرق مراكبهم (٢) كما أن دار الصناعة في إشبيلية كانت نواة لدور الصناعة في عدد من المدن الأخري مثلا طركونة والمرية والجزيرة ومالقة وميورقة ولقنت، كما أن الناصر حرص علي إنشاء أسطول قوي يدافع به عن الأندلس من هجمات النورمان والفاطميين، وأمر عبد الرحمن سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤ م بإنفاذ هذا الأسطول إلى مضيق جبل طارق ليمنع عن ابن حفصون وصول الإمدادات من ساحل إفريقة الشمالية، إذ كان قد تحالف مع الفاطميين، وكان للأسطول الفضل الأكبر في إستيلائه علي مليلة سنة ٣١٤ هـ/ ٩٢٧ م، وعلي سبته سنة ٣١٨ هـ / ٩٣١ م (٣).

أما الخطر الثاني الذي ساهم بشكل كبير في تحديد ملامح سياسة عبد الرحمن الناصر الخارجية، فكان الفاطميين المقيمين في المغرب، والذي لا يمكن إغفاله أن الفاطميين منذ بداية دعوتهم الشيعية الرافضة وهم يطمحون في العبور إلى الأندلس والسيطرة عليه وإقامة الدعوة والخلافة الشيعية الرافضة فيه، فتتابعت عيونهم

---

(١) أحمد العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٠، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٨٥.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٨٥.

وجواسيسهم علي الأندلس بهدف دراسة أحواله والتعرف علي عوراته ونقاط الضعف فيه واستمالة أصحاب النفوذ وبعض الأنصار، بهدف التوطئة للسيطرة عليه، ونجح هؤلاء العيون والدعاة والجواسيس في استمالة بعض الأنصار في الدولة الأندلسية أمثال ابن أبي المنظور قاضي إسماعيل المنصور، ثالث أئمة الفاطميين، وابن هانيء الذي الشاعر الذي التحق بخدمة المعز. لذلك عمد عبد الرحمن الناصر إلى محاربة الفاطميين بالطرق الآتية:

أولا: تلقب بلقب الخلافة، ليوطد مركزه داخل الأندلس وخارجه ولفرض هيبته في النفوس، وأصدر منشورا وزعه عماله علي النواحي المختلفة.

ثانيا: بذر بذور الفتنة بين قبائل البربر في بلاد المغرب، فانضم إليه بنو إدريس أمراء العدوة، وملوك زناته، فوالاه موسي بن أبي العافية صاحب المغرب، وأمده عبد الرحمن بالخلع والأموال، فظهر أمر موسي وأجتمع له أنصار كثيرون من البربر فتغلب علي مدينة جراوة.

واستولي عبد الرحمن الناصر علي معبري الأدلس، سبتة سنة ٩٣١ م، وطنجة سنة ٩٢٧م، ومليلة في السنة نفسها، واستطاع بذلك السيطرة علي الملاحة في مضيق جبل طارق، واهتم بتحصين سبتة وبني سورها بالحجارة، وأثبت أسطوله بقيادة أحم بن محمد ابن إلياس، ويونس بن سعيد، قائديه في البحر في جملة مراكب وعدد كبير من البحريين والمقاتلين فجازا مرسي الجزيرة واحتلا العدوة وحاصرا محمد بن أبي العيش بن عمر بن إدريس، ونجح قاسم بن محمد قائد عبد الرحمن الناصر سنة سنة ٣٣٣هـ في إخضاع بقايا الأدارسة، وعقد الناصر الأمان لأبي العيش بن عمر الذي أرسل رسله الأدارسة إلى قرطبة.

وعمل الناصر علي توطيد علاقته ببعض الدويلات المغربية السنية ويشجع الثائرين علي الخليفة الفاطمي أمثال أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار.

ثالثا: أنشأ عبد الرحمن الناصر أسطولا قويا نازع به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أي هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميون، وهاجم هذا الأسطول الأسطول الفاطمي في سواحل إفريقية سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م ردا علي مهاجمة الأسطول الفاطمي لمدينة المرية الأندلسية سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م

رابعا: وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين، فتحالف مع ملك إيطاليا الذي كان يحنق علي الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة، كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى استرجاع صقلية من أيدي الفاطميين، ثم وطد علاقته مع الإخشيين في مصر وعمل علي إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربة المذهب الشيعي، من أمثال هؤلاء أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي.

وهكذا أدت سياسة الخليفة الناصر إلى إنصراف الفاطميين عن فتح الأندلس إلى فتح مصر (١).

أما خطر نصاري الشمال الأسباني، فما كاد عبد الرحمن يتم توحيد الأندلس حتي اتجه إلى الممالك المسيحية بشمال إسبانيا، وكان خطرهم في إزدياد مستمر منذ اعتلاء الناصر الإمارة، فقد تكررت هجماتهم علي ديار المسلمين ففي سنة ٣١٤ هـ قصد أردون الثاني بجيوشه مدينة يابرة ودخلها عنة، وفي سنة ٣٠٥هـ التقت قواته بقوات المسلمين قرب شنت اشتبن انهزم فيها المسلمون (٢).

وعندئذ أحس الناصر بتطور الموقف إلى جانب نصاري الشمال فقام بنفسه سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م علي رأس جيش كبير واتجه إلى جليقية ونبره، وهاجم تلك المناطق، واستمرت معهم الحرب عهدا طويلا، وخاض مع ملوك النصاري عدة مواقع خرج منها جميعا منتصرا، حتى كانت تلك الوقعة التي تعرف باسم موقعة الخندق التي انهزم فيها الناصر هزيمة شنيعة سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٨ م قرب مدينة شنت مانكش، ومنذ تلك الهزيمة لم يعد الناصر يباشر الحرب بنفسه واحتاط في حروبه، وسجلت له الوقائع التالية بينه وبين نصاري الشمال (ليون ونبرة) انتصارات هائلة اكتسح بعهدا هاتين الدولتين حتى أذعن له أعداؤه بالطاعة وهدنوه، وبعثوا له السفارات والهدايا طالبين الصلح (٣).

وقد شهدت أندلس في عهد الناصر نهضة علمية وعمرانية كبيرة، وأصبحت قرطبة في عهدة تضاهي العواصم العربية الأخري، بغداد ودمشق والقاهرة، وغيرها وأصبحت تستقطب الألاف من البشر، وتزدحم بالآلاف من المنازل والقصور

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٨٩.
(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

وعشرات الفنادق والحمامات والمتاجر، وتخترقها الشوارع المرصوفة، وتعج بالأسواق المزدحمة، وتعج أروقة المساجد فيها بالعلماء والفقهاء وطلاب العلم، كما تجتذب صورها أجواء الشعر والغناء، وقد عمل الناصر علي جعل حاضرته قرطبة جديرة بأن تكون حاضرة الخلافة، فأخذ يحيط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء، وقامت في قرطبة حركة معمارية لم تشهد لها نظير من قبل، ونشطت هذه الحركة علي وجه الخصوص منذ سنوات ٣٢٥هـ/ ٩٣٦ م واستمرت في عهد ولده الحكم المستنصر بالله، ففي عهد الناصر أقيمت القناة الغريبة الصنعة التي يجري منها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة، وأنشأ الناصر مدينة الزهراء بقرطبة علي سفح جبل العروس من جبال قرطبة(١).

وتوفي الخليفة الناصر سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م وهو في سن الثالثة والسبعين من العمر بعد حكم دام خمسين سنة سبعة أشهر وثلاثة أيام (٢).

كان الناصر - رحمه الله - ملكا أزال الأواء؛ وحسم الأدواء، وقهر الأعادي، وعدل في الحاضر والبادي؛ قد أسس الأوس؛ وغرس الغروس واتخذ المصانع والقصور، وترك أعلاما باقية إلى النفخ في الصور. فاعتبر بالزهراء كم بها من قصر مشيد، وآثار ملوك صيد؛ قد عادت معاهدها بعدهم دارسة، وآثارها دونهم طامسة؛ تنفي الرياح بجنباتها، وتبكي الغيوم على عرصاتها. ولما ولي الناصر لدين الله، اعتز ركن الدين، واحتمى ذمار المسلمين، وقام الجهاد على ساق، وخمدت نار الخلاف والشقاق، ودخل الناس في طاعته أفواجا، واستنفروا إلى دعوته أفرادا وأزواجا. فناهيك من فضل أعطاهم، وعدل أكنفهم به وغطاهم، وتكرمة أنالهم إياها، ومسرة أبدى لهم محياها؛ قد ملك سبتة وما يليها من الأقطار، وطرد عنها ملوك الأدارسة طرد الليل النهار، وبث عماله وقواده فيها، وطاعت له البرابر في جميع نواحيها، واعتصموا بحبله، ولاذوا بفضله وعدله...

ومن قول ابن عبد ربه فيه:

قَدْ أوضَحَ الله للإسلامِ مِنهاجا ::: والناسُ قَد دخلوا في الدِّينِ أفواجا

وَقد تَزَيَّنَت الدُّنيا لساكِنها ::: كأنَّما ألبسَت وَشياً ودِيباجَا

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ١ / ٦٠، علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٥٩.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٣٢.

يا ابن الخَلائفِ إنّ المُزنَ لَو عَلمَــت ::: نَدَاكَ ما كان مِنــها المــاء نجاجــا
والحَربُ ولَو عَلِمت بأساً تَصُولُ بــه ::: ما هيَّجَت من حُمَيّاكَ الذي اهتَاجــا
مَاتَ النفاقُ وأعطَى الكُفــرُ ذِمَّتَــهُ ::: وذَلَّــت الخَيــلُ إلجامــاً وإســراجا
وأصبَحَ النَّصــرُ معقــوداً بألويــةٍ ::: تَطوى المَرَاحِــلَ تَهجــيراً وإدلاجــا
إنَّ الخِلافةَ لن تُرضَــى وَلا رُضِــيَت ::: حتَّى عَقَدتَّ لها في رأسِــكَ التَّاجــا

ومن مناقبه، أنّه لم يبق في القصر الذي هو من مصانع أجداده ومعالم أوليته بنية إلا وله فيها أثر محدث، إما بتجديد أو بتزييد. ومن مناقبه: كثرة جوده الذي لم يعرف لأحد قبله من أجواد الجاهلية والإسلام، حتى قيل فيه - رحمة الله عليه -:

يا ابن الخَلائَفِ والعُلَــى للِمعُتَلــى ::: والمَجْدُ يُعــرَفُ فَضــلُهُ للِمُفضَــلِ
نَوَّهــتَ بالخُلفــاء بَــل أَخمَلــتَهُم ::: حتَّــى كَــأنَّ نَبــيَلُهم لَــم يَنبُــلِ
أذكَرتَ بَل أنسَيتَ مَا ذَكَرَ الــوَرَى ::: مِــن فِعلِهــم فَمأنَّــهُ لَــم يُفعَــلِ
وأتَيتَ آخــرهُم وَشَــأوُكَ فَائِــتٌ ::: للآخــرين وَمُــدركٌ لِــلأوَّلِ
تَــأبي فِعَالُــك أنْ تُعَــدَّ لآخِــرٍ ::: مِنــهُمْ وَجُــودُكَ أنْ يُعــدَّ لأوَّلَ

وكم للناصر - رحمه الله - من غزوات مذكورة، وفتوحات مشهورة، يبقى في الأعقاب فخرها، ولا يبلى على مر الأحقاب أثرها [(١)].

* * *

الحكم الثاني المستنصر بالله

(٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م)

بويع الحكم المستنصر بالله، بعد وفاة والده لثلاث خلون من رمضان سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م وتوفي ليلة الأحد لثلاث خلون من صفر من سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م فكانت مدة حكمه خمسة عشرة سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام [(٢)].

تولي الحكم بالأندلس وسنه تناهز الأربعين، وكان أبوه يشركه في بعض أمور السياسة ليتمرس في شؤون الدولة ومقتضياتها، ولقب بالمستنصر، فقد أشرف في حياة أبيه علي بناء الزهراء، فقام بمهمته خير قيام.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٣٢.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٣٣، المقري، نفح الطيب، ١ / ٣٨٦.

واشتهر الحكم بحبه للعلم والعلماء، واقتنائه للعديد من الكتب في مختلف ألوان الثقافة، وقد كان لاتجاهه العلمي هذا ومبالغته في أثر واضح في التخلي عن بعض مهامه السياسية، ولكن ذلك لم يترتب عليه ضرر بالغ، حيث أن والده قد أورثه الدولة وهي في أتم ما تكون استقرارا وأمنا، كما كانت الخلافة قد استقرت هيبتها في النفوس علي الصعيدين الداخلي والخارجي.

وللخليفة المستنصر بالله أعمال عمرانية كثيرة أهمها الزيادة الكبيرة التي عملها في مسجد قرطبة من جهة القبلة سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م، وفي سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦م أجري الماء العذب إلى سقايات الجامع، والميضائتين اللتين علي جانبيه، وقد جلبه من عين بجبل قرطبة [١].

الأحداث الخارجية في عهده

كان الخليفة الناصر في أواخر أيامه قد أقام علاقات ودية مع نصاري الشمال وأعان الملك شنجة الأول (سانشو) علي استرداد عرش مملكة ليون من خصمه أردونيو الرابع مقابل عدة حصون استرتيجية علي الحدود تسلم للخلافة الأموية في قرطبة، ولكن نصاري الشمال لم يوفوا بتعهداتهم بعد أن اعتلي الحكم المستنصر عرش الخلافة، وظن سانشو أن الظروف قد تغيرت وأن وفاة الناصر وغيابه عن الساحة تبيح له التحلل من تنفيذ العهود التي أخذها علي نفسه، فأخذ يماطل ويتلكأ في تنفيذ الإتفاقية المعقودة بين الطرفين، ظنا منه أن الخليفة الجديد ليس كالناصر وأنه هين لين وليس علي شاكلة أبيه، فأرسل الحكم إلى هؤلاء النصاري جيشا اضطرهم إلى تنفيذ الاتفاقية التي عقدوها مع أبيه[٢].

ولم تدم معاهدات السلام مع نصاري الشمال الأسباني طويلا، ولم تلبث أن تتهاوي قبل أن يجف مدادها مما جعل محاربة الحكم المستنصر لهم تستمر طويلا في عهده، وتتابعت هجمات جيش الأمويين علي قشتالة في السنوات اللاحقة، مما سلب الأسبان فرصة التقاط الأنفاس أو الإعداد لمهاجمة حدود دولته ووضعهم دائما تحت ضغط مستمر[٣].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٤٠.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٢٦، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ١ / ٣٠٦.

كما نهج الحكم المستنصر بالله سياسة أبيه في معاداة الفاطميين، والحرص علي رد عاديتهم، والوقوف لهم بالمرصاد، وكان شديد التيقظ لمحاولات الفاطميين إدخال الدعوة الشيعية الرافضة إلى الأندلس، كما أنه نهج نهج أبيه في مساندة أعداء الدولة الفاطمية وتقديم يد العون لكل خروج علي سلطتها أو منازع ينازعها السيطرة، مما أيئسهم في نهاية المطاف من الحصول علي أي شيء في الأندلس ومما جعلهم يسعون حثيثا لإيجاد مكان آخر يكون بعيدا عن مناوأة الأمويين في الأندلس لهم، فغيروا وجهتهم باتجاه مصر واستولوا عليها سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩ م (١).

وقد استغل الأدارسة في المغرب فرصة انتقال الفاطميين إلى مصر، ومحاولتهم الإستقلال بالحكم، بعث إليهم هم الآخرون بجيش كبير قضي علي سلطانهم وأنهي حكم هذه الأسرة بالمغرب، وجاء بمن بقي من الأدارسة إلى قرطبة، فكان هذا آخر العهد لهذه الأسرة التي حكمت المغرب الأقصي في أواخر القرن الثاني الهجري، كأول دولة تنسلخ عن الخلافة العباسية في تلك المنطقة (٢).

أما الخطر النورمان، فقد تكررت هجماتهم علي الأندلس في عهد الحكم المستنصر بالله، في سنوات ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م، وفي سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م، وفي سنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ م (٣) وبالرغم من تكرار الهجمات النورمانية علي سواحل الأندلس إلا أنها لم تستطع النزول علي الشاطيء الأندلسي بفضل يقظة رجال الأسطول الأندلسي الذين استطاعوا ردها علي أعقابها في كل مرة، ولكن بعد قتل عدد كبير من رجالها وتدمير عدد من سفنها (٤).

* * *

---

(١) إبراهيم بيضون، الدولةالعربية، ص ٣٠٦ - ٣٠٧، أحمد العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص ٤٢٣.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٤٧ - ٢٤٨، أحمد العبادي، في التاريخ العباسي، ص ٤٢٨.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٣٨ - ٢٤١.
(٤) عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٣١٢.

خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور بن أبي عامر

توفي الحكم الثاني المستنصر بالله في ٤ صفر سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦ م وخلفه ابنه الصبي هشام المؤيد بالله في الخلافة وكان عمره لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، وبالرغم من أنه كانت تبدو عليه مخايل النجابة والذكاء وحسن الرأي ولكن كانت أيام الأمويين مدبرة، وتتهاوي إلى مهاوي الردي والسقوط، فقد أهمل الحكم شأن ابنه وخليفته ولم يعمل علي صقله وتدريبه، كما أن الحكم في أخريات عمره قد ترك أمور الحكم لزوجاته اللاتي كن يفرضن نفوذهن علي رجال الدولة لا سيما صبح [١] أم الخليفة هشام التي لعبت دورا خطيرا في الأحداث التاريخية التي جرت أثناء حكم ابنها هشام المؤيد [٢].

وفي هذه الأثناء ظهر رجل قوي هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر [٣] ولقب بالمنصور فيما بعد وأسس الأسرة العامرية المتمثلة في الحاجب المنصور بن أبي عامر وولديه المظفر وعبد الرحمن، فتاريخ الأندلس في الفترة ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٨م هو تاريخ أسرة ليست من بيت الملك ولكنها استطاعت أن تستبد بالحكم وتصرف شؤونه تصرفا تاما، وغدا الحاجب المنصور الحاكم الحقيقي للأندلس [٤].

وقد وصف لنا ابن عذاري نشأته بقوله:... وكان محمد هذا حسن النشأة، ظاهر

---

(١) كانت صبح هذه محظية للحكم ومغنية وهي أم ولده، وقد توفيت في خلافة ابنها هشام. أنظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٥٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٥٣ - ٢٥٤، المقري، نفح الطيب، ١ / ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٣) هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك؛ وكان له في فتحها أثر جميل؛ وكان في قومه وسيطا.
وجده عبد الملك هو الذي دخل مع طارق ونزل الجزيرة الخضراء لأول الفتح؛ فساد أهلها، وكثر عقبه فيها؛ وتكررت فيهم النباهة والوجاهة؛ وجاور الخلفاء منهم بقرطبة جماعة أحدهم أبو عامر محمد بن الوليد، الذي عرف آل عامر طرًّا به. وساد بعده ولده عامر، وتقدم عند الخلفاء، وولي الأعمال، ومات بقرطبة؛ وباسمه نقش محمد السكك، ورقم الأعلام. وكان عبد الله السكنى بأبي حفص، والد محمد المنصور، من أهل الدين والزهد في الدنيا والقعود عن السلطان؛ سمع الحديث، وأدى الفريضة، ومات منصرفا من حجه بمدينة طرابلس المغرب؛ وأصهر التميميين المعروفين بقرطبة ببني برطال؛ فنكح بريهة بنت يحيى بن زكريا؛ فولدت له أبا عامر المنصور، وأخاه يحيى. وكانت أم عبد الله، والد المنصور، بنت الوزير يحيى بن إسحاق، وزمر الناصر لدين الله وطبيبه. ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٥٧.

(٤) علي حسين الشطشاط، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص ١٩٣.

النجابة، تتفرس فيه السيادة؛ سلك سبيل القضاة في أولىته، مقتفيا آثار عمومته وخولته؛ فطلب الحديث في حداثته، وقرأ الأدب، وقيد اللغات على أبي علي البغدادي، وعلى أبي بكر بن القوطية؛ وقرأ الحديث على أبي بكر بن معاوية القرشي، راوية النسائي، وغيره من رؤساء أهل المشرق؛ وبرع بروعا أدناه، مع نوازع سعد وبوادر حظ، من الحكم المستنصر؛ فقربه وصرفه في مهم الأمانات وأصنافها؛ فاجتهد وبرز في كل ما قلده، واضطلع بجميع ما حمله... " (١).

لقد استطاع الحاجب المنصور السيطرة علي مقاليد الأمور سيطرة كاملة، حيث استغل ضعف الخليفةالشرعي هشام المؤيد بالله وصغر سنه، وتلقب بلقب المنصور سنة ٣٧١هـ / ٩٨١ م ودعي له علي المنابر عقب دعاء الخليفة، وكانت المكاتبات تصدر عنه بعبارة من الحاجب المنصور بن أبي عامر إلى فلان، وأخذ الوزراء تقبيل يده، ثم تابعهم وجوه بني امية،... فساوي بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب، وربما شاركه في تلك الراتب، ولم يبق فرق بينهما إلا في الاسم عند صدور الكتب عنه، إذ تنامت حاله في الجلالة، وبلغ غاية العز والقدرة (٢).

أما عن سياسةالمنصور الخارجية مع الأسبان فقد اتخذت طابعا جهاديا، إذ غزا سبعا وخمسين غزوة قادها كلها بنفسه واتخذت طابعا جهاديا هجوميا نفذها ضد نصاري ليون وقشتالة ونفار ومواقع أخري (٣).

وقد لخص لنا ابن عذاري سياسة المنصور علي لسان الفتح بن خاقان بقوله: "... وتمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس؛ وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتد بقاع؛ ووالى على بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع؛ وأغصَّ بالحمام أرواحهم، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم. ومن أوضح الأمور هنالك؛ وأفصح الأخبار في ذلك: أن أحد رسله كان كثير الانتياب، لذلك الجناب؛ فسار في بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكش، فصادفه في يوم فصح؛ فوالى في إكرامه، وتناهى في بره واهتمامه؛ فكالبت مدته فلا متنزه إلا مرَّ عليه متفرجا، ولا موضع إلا سار إليه معرجا؛ فحل في ذلك أكثر الكنائس هنالك؛ فبينا هو يجول في ساحتها، ويجيل العين في مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر؛ قويمة على طول الكسر؛ فكلمته،

---

(١) البيان المغرب، ٢ / ٢٥٧.
(٢) البيان المغرب، ٢ / ٢٧٩ - ٢٨٠.
(٣) ابن عذاري، البيان النمغرب، ٢ / ٣٠١.

وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بوسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد قصت لبوسها؟ وزعمت أن لها عدة من السنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذلّ وصغار ملبسه، وناشدته الله في إنهاء قصتها، وإبراء غصتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه في ذلك أوكد مواثيق الرحمان. فلما وصل إلى المنصور، عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ إليه حتى نمَّ كلامه. فلما فرغ، قال له المنصور: هل وقفت هنالك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته؟ فأعلمه بقصة المرأة، وما خرجت عنه إليه، وبالمواثيق التي أخذت عليه؛ فعتبه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه؛ ثم أخذ في الجهاد من فوره، وعرض مَنْ مِن الأجناد في نجده وغوره؛ وأصبح غازيا على سرجه، مباهيا مروان يوم مرجه، حتى وافى ابن شانجه في جمعه؛ فأخذت مهابته ببصره وسمعه؛ فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما هي الجنية، ويحلف له بأعظم ألية، ما جنا ذنبا؛ ولا نبا عن مضجع الطاعة جنبا. فعنف أرساله، وقال لهم: كان قد عاهدني ألا يبقى بأرضه مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصلها النسور؛ وقد بلغني بعد مقام فلانة المسلمة بتلك الكنيسة. ووالله! لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها! فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها، وأقسم له أنه ما أبصرهن، ولا سمع بهن، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقا لقوله، وتضرع له في الأخذ بطوله. فاستحيى منه، وصرف الجيوش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحق توحشها بأنسه، وغير سوء حالها، وعاد بسواكب نعماه على جذبها وإمحالها، وحملها إلى قومها، وكحلها بما كان شرد من نومها.. [1].

وفي سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م توفى المنصور ابن أبي عامر - رحمه الله - ليلة الاثنين لثلاث بقين لرمضان المعظم، وهو ابن خمس وستين سنة وعشرة أشهر؛ كان له من الولد الذكور يوم وفاته إثنان، وهما عبد الملك وعبد الرحمن الناصر؛ فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة إلى أن توفى خمسا وعشرين سنة، وأربعة وأربعين يوما. وترك من الأموال الناضة بالزاهرة أربعة وخمسين بيتا. وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها، الذين حارب بهم الحروب، عشرة آلاف وخمسمائة، وأجناد الثغور قريبا من ذلك.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٢٩٧.

ولله دَرُّ القائل فيه:

آثـارُهُ تُنْبِيـكَ عَـنْ أخْبَـارِهِ ::: حَتَّـى كَأنَّـكَ بـالعُيُونِ تـرَاهُ
تَـالله مـا مَلَـكَ الجَزِيـرَةَ مِثْلُـهُ ::: حَقًّـا وَلاَ قَـادَ الجُيُـوشَ سِـوَاهُ

وذُكرَ أنَّ هذين البيتين قد نقشا في رخامة على قبره - رحمه الله -. وكانت عدَّة غزواته سبعا وخمسين غزوة، باشرها كلها بنفسه، وهو في أكثرها يشكو على النقرس - عفا الله تعالى عنا وعنه! - [1].

* * *

سقوط الدولة الأموية في الأندلس

لما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب بالمظفر سيف الدولة، فجري علي سنن أبيه في السياسة والغزو، وقد دامت أيامه حوالي سبع سنين حيث مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة أو ثمان وتسعين [2].

تولي الحكم (الحجابة) بعده أخوه أبو المطرف عبد الرحمن المعروف بـ شنجول، وقد سماه الخليفة بالمأمون وتلقب بالناصر، فكان يدعي بالحاجب الأعلي المأمون ناصر الدولة [3].

لقد كان عبد الرحمن ضعيف الشخصية ميالا للدعة والاسترخاء في أجواء الترف، قليل الاهتمام بالسياسة الجهادية التي كانت مقياس كفاءة الحخاكم الأندلسي في ذلك الوقت، وقد بدأ يطمع في منصب الخلافة - بالرغم من أن جميع مقاليد الأمور والحكم كات بيده - فطلب من الخليفة هشام المؤيد أن يوليه عهده، ولم يكن لدي هشام القدرة علي الرفض، فوافق علي ذلك وولاه عهده سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ وكتب بذلك عهدا مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطاني عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر [4].

وما أن علم المضريين ذلك حتى ثارت ثائرتهم وعز عليهم أن ينتقل العرش لليمنيين، وأن تخرجخ الخلافة من أيدي القرشيين، فانبعثت العصبية القديمة، وانتهز المضريون فرصة غياب عبد الرحمن العامري إلى الشمال وقاموا بحركة قوية،

---

(١) البيان المغرب، ٢ / ٣٠١.
(٢) ابن عذاري، البيانالمغرب، ٣ / ٣، المقري، نح الطيب، ١ / ٤٢٣.
(٣) البيان المغرب، ٣ / ٣٨.
(٤) البيان المغرب، ٣ / ٣٨، نفح الطيب، ١ / ٤٢٤.

فخلعوا هشام عن العرش، وولوا رجلا من أحفاد الناصر، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولقبوه بالمهدي بالله، واستولوا علي القصر بقرطبة وفتحوا مدينةالزاهرة وأخذوا أموالها ثم أحرقوها وهدموها، ولما علم عبد الرحمن هذه الأنباء عاد من الشمال ولكن كانت الجنود قد انفضت من حوله وانضمت إلى الخليفة الجديد، ثم آل مصيره أن قبض عليه ثم قتل في رجب سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨ م (١) وبموته تنتهي دولة بني عامر، ويلحظ من نهاية هذه الدولة مدي تعلق الناس بالخلافة وحرصهم أن تكون من قريش.

والفترة الباقية من العصر الأموي بالأندلس حتي ١٢ ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م مليئة بالفتن والإضطرابات وتصارعت فيها العناصر امختلفة في الدولة، من البربر والصقالبة والعرب، وخربت فيها مدن عامرة كالزهراء والزاهرة، ويكفي للدلالة علي مدي انقسام الدولة واضطرابها في هذه الفترة الأخيرة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها يزيد علي عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية في الأندلس (٢).

وفي ١٢ ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١ م سقطت الدولة الأموية في الأندلس بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث المعتد بالله، وإجلاء من تبقي من المروانية عن قرطبة (٣).

وانقطعت الدولة الأمويّة من الأرض، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خطّتها، وتغلّب بعضٌ على بعض، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو أن يبتزهم ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قطع إليهم البحر ملك العدوة وصاحب مرّاكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللّمتوني، فخلعهم وأخلى منهم الأرض (٤).

وهكذا خرج حكم الأندلس من أيدي الأمويين لأول مرة وحكم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي نحو عشرين أسرة مستقلة، في

---

(١) البيانالمغرب، ٣ / ٤٩ - ٥٠، نفح الطيب، ١ / ٤٢٦.
(٢) أحمد العبادي، في التاريخ العباسي، ص ٤٦٤.
(٣) أحمد العبادي، في التاريخ العباسي، ص ٤٦٤.
(٤) المقري، نفح الطيب، ١ / ٤٢٦.

نحو عشرين مدينة ومقاطعة، ويسمي هؤلاء بملوك الطوائف، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإسلام في الأندلس.

وعن سقوط الأندلس يقول أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة:

عاثت بساحتك الظبى يادار ::: ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظر ::: طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت النوى بقطينها ::: وتمخضت بخرابها الأقدار

فجعلت أنشد خير سادة أهلها ::: لا أنت أنت ولا الديار ديار

* * *

الفصل السادس
عصر ملوك الطوائف
(٤٢٢ ـ ٤٨٤ هـ / ١٠٣١ ـ ١٠٩١ م):

دولة بني جهور في قرطبة:

بنو عباد ومملكة إشبيلية:

المعتمد بن عباد:

* * *

تتميز هذه الفترة بظاهرة التمزق وانقسام الأندلس إلى عدة دويلات، عرفت في التاريخ بعصر ملوك الطوائف.

ذلك أنه ما أن سقطت الخلافة الأموية وانتهي حكم العامريين، حتى أخذت الأوضاع في الأندلس تدخل طور من الإضطرابات وتفكك الوحدة السياسية، فقد استقل الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والصقالبة بالمدن الأندلسية، واقتسموا ولاياتها، وتغلب بعضهم علي بعض، حيث أقام البربر في الجنوب، وخضع شرق البلاد للصقالبة، أما البقية الباقية من الأندلس فقد أصبحت في أيدي مجموعات من محدثي النعم، أو بعض الأسر القديمة التي أفلتت من ملاحقة عبد الرحمن الناصر أو المنصور بن أبي عامر، وعلي هذا فقد حكم الأندلس يومئذ ما يقرب من نحو عشرين أسرة مستقلة في عشرين مدينة أو مقاطعة، ممن سموا بملوك الطوائف.

من أشهر هؤلاء بنو ذي النون الذين ملكوا طليطلة، وحكموا مرسية وبلنسية، ومنهم بنو هود في سرقسطة، وبنو زيري في غرناطة، وبنو حمود الأدارسة في الجزيرة ومالقة، وبنو عباد في إشبيلية، وبنو جهور بقرطبة، وبنو صمادح بالمرية، وبنو الأفطس ببطليوس غربي الأندلس، وبنو عامر والصقالبة بشرق الجزيرة [1].

"... وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق، إلى حيث يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات وأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكتاب والأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودونت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء، وهم ما بين محبوب، وبربري مجلوب، ومجند غير محبوب، وغفل ليس في السراة بمحسوب، ما منهم من يرضى أن يسمي ثائر، ولا لحزب الحق مغايرا، وقصاري أحدهم أن يقول: " أقيم علي ما بيدي، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه " ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه، ولا لقي خير لديه. ولكنهم استوفوا في ذلك آجالا وأعمارا، وخلفوا آثارا، وإن كانوا لم يبالوا اغترارا، من معتمد ومعتضد ومرتضي وموفق

---

(١) محمد كمال شبانة، الأندلس، ص ١٣٩.

ومستكشف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل... "[١].

ويقول ابن خلدون: "... كذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها، واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة، وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه. وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية، فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته، وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره، لأن الأندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سنذكره، واستمر لهم ذلك، كما قال ابن شرف:

مما يزهدني في أرض أندلس ::: أسماء معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ::: كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الأندلس من أهل العدوة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم، اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم، حين ضعفت عصبية العرب، واستبد ابن أبي عامر على الدولة. فكان لهم دول عظيمة استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها، ولم يزالوا في سلطانهم ذاك، حتى جاز إليهم البحر المرابطون أهل العصبية القوية من لمتونة، فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحوا آثارهم، ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم... "[٢].

وكان تمزق الأندلس على هذا الشكل المأساوي ضرب لكيان الدولة الإسلامية لم تفق منها أبداً، بل إنها كانت البداية الحقيقية لانحلال الدولة الإسلامية رغم ما انتابها في بعض الأحيان من صحوات ويقظة مدت في عمرها هنا مئات الأعوام.

وواكب هذا الضعف الأندلسي تولي الملك ألفونسو السادس عرش قشتالة، الذي عمل جهده للاستفادة من هذا التدهور الذي أحاط بالدولة الإسلامية هناك، فبدأ باستغلال الصراع الدائر بين هذه الممالك، وأخذ يضرب بعضها ببعض، ويفرض عليها الأتاوات والغرامات حتى يستنفد طاقتها، ومن ثم تسقط في يده كالثمرة الناضجة.

* * *

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ١٤٤.
(٢) المقدمة، ص ٧٧.

دولة بني جهور في قرطبة

تقلبت الخلافة في أواخر عهد بني أمية في قرطبة بين أعقاب بني امية وبين المتغلبين من بني حمود، وعندما غارد علي بن حمود قرطبة إلى مالقة سنة ٤١٧ هـ ثار القرطبيون وفتكوا بالحامية البربرية، وأجمعوا علي رد الأمر لبني أمية، وكان عميدهم في ذلك هو الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور [(١)].

وفي ظل هذا التطور بويع بالخلافة هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر في ربيع سنة ٤١٨ هـ وتلقب بالمعتد بالله، وقدم من منفاه إلى قرطبة سنة ٤٢٠ هـ / ولكنه أساء السيرة حتي أسخط عليه أهل قرطبة وقرروا خلعه، فغادر المدينة ناجيا بنفسه وولده سنة في ذي القعدة سنة ٤٢٢هـ، ثم أجمع الناس علي إلغاء الخلافة الأموية والتخلص نهائيا من الأمويين، وكان المحرك لهذه الأحداث هو أبو الحزم جهور.

وبعد أن أصبح مركز السلطة العليا في قرطبة شاغرا تطلعت الأنظار إلى الوزير أبو الحزم بن جهور، لما كان يتمتع به من رفيع المكانة والحزم ورجاحة العقل، وحسن التدبير، وكونه هو المؤهل لقيادة سفينة قرطبة وسط أمواج الفتنة التي كانت تشهدها ألأندلس، واختير ابن جهور بإجماع الأراء لتولي منصب الزعامة في

---

(١) جَهْوَرُ بنُ مُحَمَّدِ بن جَهْوَرٍ أَبُو الحَزْمِ القُرْطُبِيُّ.

الرَّئِيْس أَبُو الحزم القُرْطُبِيُّ، الوَزِيْرُ، مِنْ بَيْتِ رِئَاسَةٍ وَوِزَارَةٍ، مِنْ دُهَاة الرِّجَال وَعُقَلائِهِم، دَبَّرَ أَمْرَ قُرْطُبَة، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا، لكِنَّهُ مِنْ عقله لمْ يتسمَّ بالإمرَة، وَرَتَّبَ البَوَّابِيْن وَالحَشَمَ عَلَى بَابِ القصْر، وَلَمْ يَنْتَقِل مِنْ بَيْتِهِ، وَأَنْفَقَ فِي الجُنْدِ الأَمْوَالَ، وَأَقَامَ العُمَال، وَفرَّقَ العُدَدَ عَلَى العَامَة.

وَكَانَ عَلَى طَرِيْقَةِ الرُّؤَسَاء الصَّالِحِيْنَ، فاسْتمرَّ أَمْرُ النَّاس مَعَهُ مُسْتَقِيْماً إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ فِي صَفَر، سَنَة خَمْسٍ وَثَلاَثِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَةٍ.

فقام بَعْدَهُ ابْنُهُ الرَّئِيْس أَبُو الوَلِيْد مُحَمَّدُ بنُ جَهْور، فَجَرَى فِي السِّيَاسَةِ عَلَى مِنْهَاجِ أَبِيهِ سَوَاء، وَبَقِيَ كذَلِكَ مُدَّة سِنِيْنَ.

وَكَانَ وَالِدُهُ أَبُو الحزم مِنْ كِبَار العُلَمَاء.

وَكَانَ مِنْ صِغَار وُزَرَاء دَوْلَةِ ابْن أَبِي عَامِر.

وَكَانَ يَقُوْلُ:.

أَنا مُمْسِكٌ أَمْرَ النَّاس إِلَى أَنْ يتهَيَّأَ لَهُم مَنْ يَصلُح لِلْخِلاَفَةِ.

فاسْتَقلَّ بالسَّلْطَنَة، وَاسْتَرَاحَ مِن اسْمِهَا، وَكَانَ يَجْعَلُ ارتفاع الأَمْوَال وَدَائِعَ عِنْد التُّجَّار وَمُضَارِبَة.

وَكَانَ يَعُودُ المَرْضَى، وَيَشْهَدُ الجَنَائِز وَهُوَ بِزِيِّ الصَّالِحِيْنَ، وَلَهُ هَيْبَة عَظِيْمَة، وَأَمْرٌ مُطَاع، عَاشَ إِحْدَى وَسَبْعِيْنَ سَنَة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣٣ / ١٢٣.

قرطبة (١).

وينتمي ابن جهور إلى بيت من أعرق البيوتات الأندلسية، وكان جدهم الداخل إلى الأندلس يوسف بن بخت بن أبي عبيدة الفرسي، مولي عبد الملك بن مروان، دخل في كنف الطليعة البلجية، وكان من أنصار عبد الرحمن الداخل، ثم ولاه عبد الرحمن حجابته، ثم تولي القيادة في عهد ولده هشام، وتولي أبناؤه وأحفاده بعد ذلك مناصب الوزارة والقيادة تباعا في ظل أمراء بني أمية وخلفائهم، وتولي أبو الحزم جهور الكتابة لعبد الرحمن المنصور في نهاية المئة ارابعة، حتي كانت الفتنة وانهيار الدولة العامرية، وعاصر الحوادث والانقلابات العاصفة، التي شهدتها عاصمة الخلافة آنذاك، وتولي الوزارة لعلي بن حمود مؤسس الدولة الحمودية، ولما ثار أهل قرطبة علي الحموديين كان هو زعيمهم، ولما أجمعواعلي عودة الخلافة الأموية ومن ثم إسقاطها كان ذلك بناء علي مشورته، حتى غدا في نهاية الأمر هو " شيخ الجماعة " وزعيم ا لمدينة الحقيقي، ولم يكن مستغربا أن يختاره الشعب رئيسًا لحكومة قرطبة الجديدة (٢).

وأصبح ابن جهور رئيسا لحكومة تبسط سيادتها علي منطقة تمتد من جبل الشارات شمالا إلى حدود غرناطة جنوبا ومن منابع نهر الوادي الكبير شرقا إلى استجة غربا، وتشمل مدن قرطبة وجيان وأبدة وبياسة والمدور وأردونة وأندوجر.

شكل أبو الحزم مجلس شوري من صفوة الزعماء يتحدث باسمهم، وكان لا يقدم علي أمر إلا بعد استشارتهم وموافقتهم، وقد عرفت هذه الحكومة بـ " حكومة الجماعة " وكانت هذه الحكومة فريدة من نوعها في التاريخ الإسلامي، وكانت تشكل حكومة الأقلية في ظل عصر سادت فيه النزعة الفردية والملكية المطلقة (٣).

وسلك جهور في حكومته مسلك الأصالة والحزم، وكان أول همه أن يقمع الشغب، وأن يوطد دعائم النظام والأمن، فصانع زعماء البربر

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٢١.
(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٢١.
(٣) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ١٩٧.

واستمالهم بالرفق وخفض الجناح، اتقاء لدسائسهم وتهدئة لثورات أطماعهم، فحصل علي محبتهم وسلمهم، وجعل أهل الأسواق جندا، وفرق فيهم السلاح، وفي البيوت، حتى إذا دهم أمر في الليل أو النهار، استطاع أهل المدينة الدفاع عن أنفسهم، وأصلح القضاء، وعمل علي حفظ العدالة بين الناس، وقضي علي كل مظاهر البذخ والإسراف، وخفف أعباء المكوس، وعمل علي حفظ الأموال العامة، ولا سيما الأموال السلطانية، حيث عهد بتحصيلها وحفظها، إلى رجال ثقات يشرف عليهم بنفسه، وحرص علي تشجيع المعاملات والتجارة، ومن ذلك أن فرق الأموال علي التجار لتكون بيدهم دينا عليهم، يستغلونها ويحصلون علي ربح فقط، وتحفظ لديهم، ويحاسبون عليها من وقت لآخر، وكان من نتيجة هذه الإجراءات أن حل الرخاء مكان الفساد، وازدهرت الأسواق وتحسنت الأسعار، وغلت الدور، ونمت الموارد [١].

يقول ابن حبان عن فترة حكم بني جهور: "... وفي منتصف ذي الحجة من سة اثنتين وعشرين وأربعمائة، بعد خلع هشام المعتد ومقتل وزيره حكم الحائك، اجتمع الملأ من أهل قرطبة على تقليد أمرهم وتأميرهم للشيخ أبي الحزم ابن جهور، وعددوا من خصاله ما لم يختلف فيه أحد منهم، وأبى من ذلك، فألحوا عليه، حتى أسعفهم شارطاً اشتراك الشيخين: محمد بن عباس وعبد العزيز بن حسن ابني عمه خاصة من بين الجماعة، فرأوا مشورتهما دون تأمير، فرضي الناس بذلك، وخلعوا من دونهم من الرؤساء، ووحدوا له عقد الرياسة، فأعطوا منه قوس السياسة باريها، وولوا من الجماعة أمينها المأمون عليها، فاخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه، فاقترن صلاحهم به، واقتصر من الجند على أعيانهم، وسد باب البرابر جملة إلا من قد صار في البلد من بني يفرن الموثوق بهم، وأقصى من سواهم من فرق البرابرة من غير إيحاش، فنال منهم الرضى، وملكهم عما قليل، وأصبح في ذلك عجباً.

وأجاد السياسة، فانسدل به الستر على أهل قرطبة مدته، وحصل كل ما يرتفع من البلد في جميع أوقاته، بعد إعطاء مقاتلته فارسهم وراحلهم، وصير ذلك بأيدي ثقات من أهل الخدمة، مشارفاً لهم بضبطه، فإن فضل شيء تركه بأيديهم مثقفاً

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٢٣.

مشهوداً عليه إلى أن يعن وجه تصرفه فيه، لا يلتبس بشيء منه ولا يدخل داره، ومتى سئل قال: " ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم "؛ وإذا رابه أمر أو عزم على تدبير، أحضرهم وشاورهم فيسرعون إليه، فإذا علموا مراده فوضوا إليه بأمرهم؛ وإذا خوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء. فأعطى السلطان قسطه من النظر، ولم يخل مع ذلك من النظر لنفسه وترقيحه لمعيشته، حتى تضاعفت ثراؤه وصار لا تقع عينه على أغنى منه، حاط ذلك كله بالبخل الشديد والمنع الخالص، اللذين لولاهما ما وجد عائبه طعناً، ولكمل لو أن بشراً يكمل. وكان مع براعته ورفعة قدره، وتشييده لقديمه بحديثه، من أشد الناس تواضعاً وعفة وصلاحاً، وأنقاهم ثوباً، وأشبههم ظاهراً بباطن، وأولاً بآخر، لم يختلف به حال من الفتاء إلى الكهولة، ولم يعثر له قط على حال يدل على ريبة؛ جليس كتاب منذ درج، ونجى نظر منذ فهم، مشاهداً للجماعة في مسجده، خليفة الأئمة متى تخلفوا عنه، حافظاً لكتاب الله قائماً به في سره وجهره، متقناً للتلاوة، متواضعاً في رفعته، مشاركاً لأهل بلده، يزور مرضاهم ويشاهد جنائزهم.

واستمر ابن جهور في تدبير قرطبة، فأنجح سعيه بصلاحها، ولم شعثهافي المدة القريبة وأثمر الثمرة الزكية، ودب دبيب الشفاء في السقام، فنعش منها الرفات، وألحفها رداء الأمن، ومانع عنها من كان يطلبها من أمراء البرابرة المتكنفين لها، المتوزعين أسلابها، بخفض الجناح والرفق في المعاملة، حتى حصل على سلمهم، واستدرار مرافق بلادهم. ودرأ القاسطين عليه من ملوك الفتنة، حتى حفظوا حضرته وأوجبوا لها حرمة، بمكابدته الشدائد حتى ألانها بضروب احتياله؛ فرخت الأسعار، وصاح الرخاء بالناس أن هلموا، فلبوه من كل صقع، فظهر تزيد الناي بقرطبة من أول تدبيره لها حتى ملؤوا المساجد والأفنية، وسمت أثمان الدور بها، والابتناء لخرابها الفاشي، أخذاً بالهوينا، فاتصل البنيان بها، وغلت الدور، وحركوا الأسواق، فعجب ذو التحصيل للذي أوى إليه في صلاح أحوال الناس من القوة ولما تعتدل حال، أو يهلك عدو، أو تقو جباية، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون [(١)].

واستمرت حكومة الجماعة بزعامة ابن جهور اثنتي عشرة عاما ساد الهدوء فيها وأضحت قرطبة ملاذا للزعماء الفارين المخلوعين عن إمارتهم [(٢)] ولكنه استجاب

---

(١) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ٢ / ٦٠٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣ / ٢١٣، ٢٣٧، ٢٤٠.

لمزاعم القاضي ابن عباد صاحب إشبيلية عندما ادعي أن الخليفة الأموي هشام بن الحكم حي يرزق، وذلك لدحض دعوي الحموديين سنة ٤٢٦هـ فندم علي الموافقة علي الأكذوبة خاصة عندما حصل ابن عباد علي مآربه من هذا العمل وطلب منه الدخول في طاعته(١).

توفي الرئيس أبو الحزم في محرم سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٤ م وخلفه ابنه محمد أبو الوليد الذي تلقب بالرشيد، وسار الرشيد باديء ذي الأمر علي خطي والده، حيث أبقي كبار الموظفين في مراكزهم، وكان من معاونيه المؤرخ الكبير أبو مروان بن حيان، والشاعر الوزير أبو الوليد بن زيدون، وقد عهد إليه بالنظر علي أهل الذمة. وكان سفيره إلى أهل الأندلس، وحكامها، ثم ساءت سمعته لعلاقته بولادة بنت المستكفي الأموي، فسخط عليه أبو الوليد وسجنه، فأرسل إليه من السجن قصائد يستعطفه فيها ولكنه لم يلن له.

وأخيرا فر ابن زيدون من سجنه، وقصد إشبيلية سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م ودخل في خدمة المعتضد بن عباد فولاه الوزارة (٢).

يقول ابن حبان: "... وتوفي أبو الحزم ليلة الجمعة السادس من محرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، فصار الأمر إلى ابنه أبي الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور ابن عبيد الله السر من آل عبدة، نهاية الشرف الأثيل بقطربة، على أس الدهر المغرب شأوه في نظم قلادة خمسة ككعوب الرمح أنبوباًعلى أنبوب، هم ما هم، تناقلوا الوزارة والكتابة ما بينه وبين خامسهم عبيد الله ذي المنقبة الزائدة، خولهم الله الرياسة على تعاقب الأزمان واختلاف الأعصار، ولم تنقلها الفتنة إلى أن ورثها تربها هذا الوالي الفاضل أبو الوليد، ولما يعرف البؤس يوماً، فأعانه ذلك على الحسب والمروءة، وأقر أبو الوليد لأول ولايته الحكام، وأولي المراتب على حسب ما كانوا عليه أيام أبيه.

قال ابن حيان: وكنت ممن جادته سماء الرئيس الفاضل أبي الوليد الثرة، وكرم في فعله ابتداء من غير مسألة، فأقحمني في زمرة العصابة المبرزة الخصل، مع كلال الحد وضعف الآلة؛ واهتدى لمكان خلتي وقد ارتشف الدهر بلالتي، بأن قلدني الذكر في ديوان السلطان المطابق لصناعتي، اللائق بتحرفي، براتب واسع، لولا ما

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣ / ١٩٠ - ١٩٨.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣ / ٢٣٢.

أخذ على كتم ما أسداه لجهدت في وصفه، وإلى الله تعالى أفزع في إحمال المكافأة عني برحمته.

ثم اقتفى أبو الوليد آثار أبيه أبي الحزم في السياسة من درء الحدود ما وجد إلى ذلك سبيلاً، والتأول في تعطيل الإقادة بالحديد ألبتة، لعدم الإمام المجتمع عليه في الوقت، والتربص لإدبار الفتنة؛ فأصبح من العجب العجاب تكاف الناس في الأعم عن التظالم والتسافك، بخلاف ما كانوا عليه تحت الضبط الشديد، وتجاوز الحدود، بأيدي جبابرة أصحاب الشرطة أيام الجماعة، فلا يكاد يسمع لشرارهم من معهود ذلك إلا النادرة الفذة. وبرز أيضاً أبو الوليد في فك العقل السلطانية، وأنفذ الحكم في المظالم الديوانية، وعقار الغيب عن قرطبة التى أجلها الفتنة الغماء، أشياء عظيمة القدر توقف والده عنها، فأطلقها وردها على أربابها، وشمل العالم الدعة.. [١].

ولكن لم يستطع أبو الوليد الاستمرار في حكومة الجماعة التي سار عليها أبوه، إذ تسلط عليه ابنه عبد الملك فعينه وليا لعهده وتلقب بذي السيادتين المنصور بالله، الظافر بفضل الله، وخطب له علي المنابر، وأساء عبد الملك السيرة وقرب إليه الأشرار، ورغم ذلك فوض النظر في أمور الحكم إلى وزير والده إبراهيم بن يحيى المعروف بـ السقاء سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٩ م فضبط الأمور وعمل علي تهدئة الأحوال وتوطيد الأمن والنظام، واستمر علي ذلك فترة طويلة، وكان المعتضد بن عباد أمير إشبيلية يشعر بأن استمرار هذا الوزير القوي علي هذا النحو في رياسة حكومة قرطبة يحول دون تحقيق مشاريعه في الاستيلاء عليها، فسعي لدي عبد الملك في حق ابن السقاء وحذره من أطماعه واستئثاره بالسلطة وأغراه بقتله، وكان عبد الملك سيئ التدبير والرأي والتقدير، فاستمع لتحريض ابن عباد وقتل وزيره في كمين دبره له سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م [٢].

وهنا بدأت عوامل الفساد تدب في الجهاز الحكومي، وزاد الوضع سوءا أن حدثت المنافسة والصراع الكبير بين عبد الملك وأخيه عبد الرحمن، وصار الصراع بينهما علي السلطة محموما، وصار كل واحد منهما يستجلب المناصرين من الجند والوزراء ويستكثر من الأحزاب، فلم يجد الأب أبو الوليد بدا من تقسيم مناصب الدولة بين الأخوين، فزاد الأمور تعقيدا وانقساما، ثم مالبث أن تفوق عبد الملك

(١) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ٢ / ٦٠٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣ / ٢٣٢، ٢٥١، ٢٥٦.

وقبض علي أخيه وسجنه واستبد بالأمر دونه، فأطلق العنان لفساده وتهوره وأهواءه، وتمادي في مصادقة المعتضد ابن عباد الذي كان يدبر له الدسائس وتحين الفرص للاستيلاء علي قرطبة، فانصرف الناس عن بني جهور.

قال ابن حيان: وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة كثر خوض أهل قرطبة في الذي رأوه من تنافس ولدي أبي الوليد محمد بن جهور في الانتصاب لخلافته: عبد الرحمن كبير جماعتهم، وأخيه عبد الملك أشهمهم فؤاداً وأصلبهم عوداً، الذي كشف عن وجوههم غمة مركسهم ابن السقاء، كافر نعمتهم، فاستدرك لهم ما كان تولى من سلطانهم، لفتكته به التي أثبتت أوتاد ملكهم، ثم شد يده بطلب حقه من ذلك، ونازع أخاه كبير عبد الرحمن ما ذهب إليه من التفرد به؛ وقد كان أشار على أبيهما بعض حلفائه من رؤساء الأندل بإيثار عبد الرحمن منهما، فتمسك الشيخ بحظه من إرضاء ولده الصغير عبد الملك، فمال إلى قسمة الرياسة بينهما حياته، غير ناصبٍ لأحدهما للأمر، يقضي الله به لمن يشاء بعده، صنيع والده فيه؛ فمتع نفسه بهواها في صغير ولده، وأنشد قول ابن الجزيري:

وإذا الفتى فقد الشباب سما له ::: حب البنين ولا كحب الأصغر

فأرتع ولديه هذين في دنياه، وبسط أيديهما في سلطانه، فطفقا يستميل كل منهما طائفة من الجند، ويصطنع من الرعية فرقة، ويفتلذ من عقيدة الملك فلذة، فأصبح الأمر مختلطاً، والأرباب متفرقين، والمخاوف تطلع من كل ثنية، والهوادي تؤذن بالأعجاز، والله كل يوم في شأن. ثم خاف عليهما، فجعل إلى أكبرهما عبد الرحمن النظر في أمر الجباية، والإشراف على أهل الخدمة ومشاهدتهم في مكان مجتمعهم، والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمنة للحل والعقد، والاطراح والضم، وجميع أبواب النفقات، ألجأ كل ذلك إلى ختمه، وأمضاه تحت حكمه. وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند، والتولي لعرضهم، والإشراف على أعطيتهم، والركوب فيهم لدى الروع، وتجريدهم في البعوث، والتقوية لأولادهم، وجميع ما يخصهم؛ فرضياً منه بهذا التقسيم، وأقامها به على الصراط المستقيم [(١)].

وفي تلك الأثناء خرج المأمون يحيى بن ذي النون في قواته من طليطلة قاصدا قرطبة للإستيلاء عليها، واستولي علي عدد من الحصون في الطريق إليها، واتصل

---

(١) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ٢ / ٦٠٤ - ٦٠٥.

ببعض الناقمين علي بني جهور لتسهيل دخولها، ولكن المدينة أتمت الاستعداد لهذه المواجهة، فلم يجد المأمون بدا من التراجع عنها، بعدما رأي من شدة تحصينات قرطبة، وفي تلك الأثناء كان عبد الملك قد استعان بالمعتمد بن عباد الذي خلف أباه المعتضد في حكم إشبيلية سنة ٤٦١ هـ وطلب منه النجدة، فتقدمت القوات، وتظاهرت بمساعدته، ثم اقتحمت القوات العبادية الأبواب وملكوا المدينة وعاثوا في أنحائها نهبا وهتكا وسبيا، وكان ذلك في شعبان سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م، وتم القبض علي عبد الملك وأخوه عبد الرحمن وأبوهما الشيخ المريض المقعد، ومن معهم من بني جهور ونفوا جميعا إلى جزيرة شلطيش، الواقعة في مصب نهر أراد تجاه ولبة [١].

وهكذا انتهت دولة بني جهور بقرطبة، بعد أن لبثت أربعين عاما، وكانت أول دولة تسقط من بين دول الطوائف الرئيسية.

يقول ابن حبان: "... فلما كان سنة اثنتين بعدها، دلف ابن ذي النون إلى قرطبة، وكان لا يغبها شره، ولا ينام عنها مكره؛ وقد احتاج عبد الملك بن جهور إلى استمداد من المعتمد لانفضاض من لديه، وعجزه عما كان أسند من تدبير قرطبة إليه، فأمده المعتمد بجمهور أجناده، على أكابر قواده، قد تقدم إليهم بمرداه، ونهج إليهم سبيل إصداره وإيراده؛ فوافوا قرطبة، ونزلوا بربضها الشرقي، وأقاموا بها أياما يحمون حماها، وأعينهم تزدحم عليه، ويذبون عن جناها، وأفواههم تتحلب إليه. فلما سئم ابن ذي النون سفره واجتواه، وقضى من غزو قرطبة وطره وما قضاه، أخذ في الرحيل عنها، فما انقشعت سدفة ليله، ولا تمزق غبار سنابك خيله، حتى هتك العباديون الحريم، وركبوا الأمر العظيم؛ باتوا متحدثين بالقفول، ثم غلسوا مظهرين للرحيل؛ وعبد الملك متأهب لتشييعهم، عازم على البكور إلى توديعهم، وشكرهم على حسن صنيعهم،؛ فلم يرعه إلا إحداقهم بقصره، وارتفاع أصواتهم بالبراءة من أمره، وإصمات الأفواه عن ذكره؛ وقد تمخضت له ليلته بيوم عقيم، وافتر له ناجذ صبحها عن ليل بهيم، ومشى من أنصاره هنالك بين أسد شتيم، وأسود مسموم:

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه ::: تصيده الضرغام في من تصيدا

وقبض للحين عليه وعلى إخوته، وسائر أهل بيته وأسرته. وبالغوا لوقتهم في انتهاك حرمه، وإزالة نعمه، وإخفار ذممه. وأخرج الشيخ اليفن أبو الوليد - بقية

---

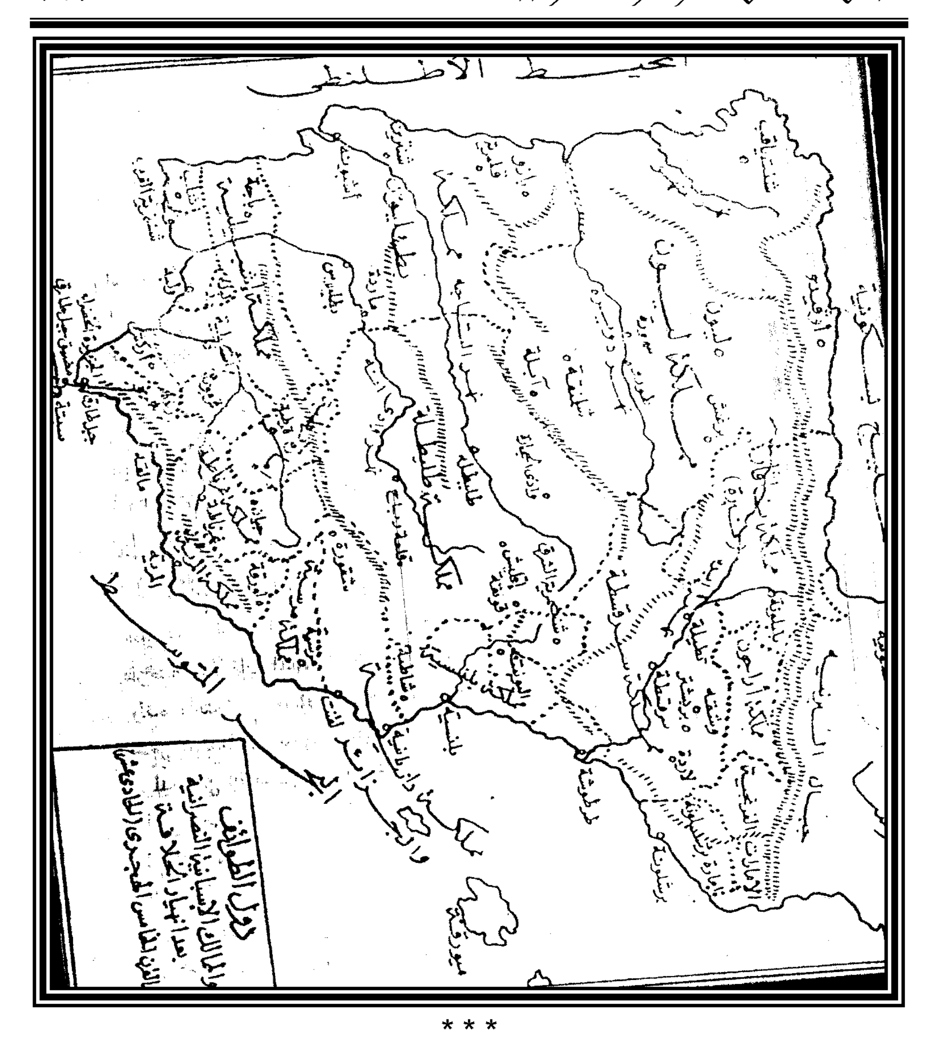
(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣ / ٢١٠، أعمال الأعلام، ص ١٥١، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٢٩.

أشراف الأندلس في وقته - مفلوج الشدق، مائل الشق، مغلوب الباطل والحق؛ لم تحفظ له حرمة، ولا رعي فيه إلاّ ولا ذمة.

بلغني أنه لما وسط به قنطرة قرطبة خارجا منها على مركب هجين، وحاله تقر عيون الحاسدين، رفع يديه إلى السماء، وأخذ يبتهل في الدعاء، وكان مما حفظ عنه قوله: اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا؛ فمات بعد أربعين يوما من نكبته بجزيرة شلطيش مزال النعمة، (مذال الحرمة)، فتعالى المنفرد بالبقاء، جبار الأرض والسماء. وأقرت ساقته بها، فأقاموا هنالك أكثر أيام المعتمد، يأخذهم الحدثان ويدعهم، ويخفضهم الزمان أكثر مما يرفعهم [1].

---

(١) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ٢ / ٦٠٥ - ٦٠٦.


المحيط الأطلنطي
دول الطوائف
والممالك الإسبانية النصرانية
بعد انهيار الخلافة

* * *

بنو عباد ومملكة إشبيلية

كان إسماعيل بن عباد يتولي [١] خطة القضاء بإشبيلية منذ أيام المنصور بن أبي عامر، وكان فضلا عما يمتاز به من العلم والحكمة والورع، ينتمي إلى بيت من أعظم البيوتات العربية الأندلسية، فلما وقعت الفتنة وسادت الفوضى كل ناحية من نواحي الأندلس، استمر إسماعيل في خطة القضاء، وأخذ في نفس الوقت يعمل علي حفظ النظام وضبط الأمور في المدينة ولما استولي بنو حمود علي إشبيلية سنة ٤٠٧ هـ، بقي ابن عباد علي حاله في القضاء، وفي خلال تلك الفترة أخذ ابن عباد يعمل علي توطيد مركزه وتدعيم رياسته، ويعمل علي الأخص علي حماية المدينة من أطماع البربر وعبثهم، ويجمع حوله كلمة الزعماء حتى لا تغدو إشبيلية كما غدت قرطبة مسرحا للفتنة، ومرتعا لأطماع البربر.

ولما اضطرمت الفتنة، وتجهمت الظروف، استطاع بحزمه ودهائه ووجاهته وبذله، أن يستغل ظروف الفتنة علي أكمل وجه، وأن يجمع في يده أزمة الرياسة والحكم شيئا فشيئا، وبعد أن نال بغيته وأصبح هو المقدم في أمر إشبيلية ويشار إليه في ذلك بالبنان، وجد أن السنون قد أثقلت كاهله وأن المرض قد أعياه، فقدم ابنه أبا القاسم محمد ليشغل مكانه خطة القضاء، وعلت مكانته في ظل سيطرة بني حمود علي إشبيلية، وصار من المقربين من المستعلي بن حمود، ولما وجد إختلال أمر بني حمود في قرطبة وإشبيلية وحدثت المنازعات بين أبناء البيت الواحد، اتفق أبا القاسم محمد مع وجهاء إشبيلية علي خلع بني حمود من إشبيلية ومنع المستعلي بن حمود من دخولها، واجتمع رأي أهل إشبيلية علي ثلاثة من الزعماء هم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد، والفقيه أبو عبد الله الزبيدي، والوزير أبو محمد عبد الله بن مريم، وبعد قليل انفرد أبو

---

(١) القاضي ابن عباد هو أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم، وعطاف هو الداخل منهم بالأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري، وكان عطاف من أهل حمص من صقع الشام لخمي النسب صريحاً، وموضعه من حمص العريش، والعريش في آخر الجفار بين مصر والشام؛ ونزل بالأندلس بقرية يومين من إقليم طشانة من أرض إشبيلية.

قال ابن حيان: وإسماعيل بن عباد قاضيهم القديم الولاية، ورجل الغرب قاطبة، المتصل الرئاسة في الجماعة والفتنة، وكان أيسر مكور بالأندلس وقته، ينفق من ماله وغلاته، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ولا خدمه، وكان واسع اليد بالمشاركة، آوى صنوف الجالية من قرطبة عند احتدام الفتنة، وكان معلوماً بوفور العقل وسبوغ العلم والركانة، مع الدهاء وبعد النظر وإصابة القرطسة. أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ١٥.

القاسم برياسة إشبيلية، بعد أن اختاره المستعلي بن حمود ليتقدم على إشبيلية، في أواخر سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م [١].

يقول ابن حيان: "... فأما ذو الوزارتين أبو القاسم فأدرك متمهلاً، وسما بعد إلى بلوغ الغاية فخلط ما شاء وركب الجراثم الصعبة، وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه إسماعيل، ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بعد بعده عنه مدة، وحصل منه بمنزلة الثقة، فخانه تخون الأيام عند إدبارها عنه، إيثاراً للحزم وطلباً للعافية، فصده عن إشبيلية بلده لما قصده من قرطبة مفلولا؛ وكان الذي وطد له ذلك نفر من أكابرها المرتسمين بالوزارة، مناغين في ذلك لوزراء قرطبة، على تحميلهم لابن عباد كبر ذلك، لإنافته عليه في الحال وسعة النعمة، وإحسائهم عليه ملك ثلث إشبيلية ضيعة وغلة، يخادعونه بذلك عن نشبه، إبقاءً منهم على نعمهم، وهو يشتري بذلك أنفسهم ولا يشعرون، إلى أن وقعوا في الهوة، وكانوا جماعةً منهم بنو أبي بكر الزبيدي النحوي وبنو يريم صنائع ابن عاد وغيرهم، راض بهم الأمور واستمال العامة، فلما توطأت له قبض أيدي أصحابه هؤلاء، وسما بنفسه فأسقط جماعتهم وجرت له في تدبيرهم أمور يشق إحصاؤها، ركب فيها أحزم طرق طلاب الدول، حتى انفرد بسابقته ومهد لدولته، واجتمع أهل عمله على طاعته، فدانوا له، وسلك سيرة أصحاب الممالك بالأندلس لأول وقته، وقام بأصح عزمٍ وأيقظ جد، واخترع في الرياسة وجوهاً تقدم فيها كثيراً منهم، وامتثل رسم ابن يعيش صاحب طليطلة من بينهم في تمسكه بخطة القضاء وارتسامه باسمه، وأفعاله على ذلك أفعال الجبابرة، وأقبل لأول وقته يضم الرجال الأحرار من كل صنف، ويشتري العبيد، والجد يساعده والأمور تنقاد له، إلى أن ساوى ملوك الطوائف وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه، وكثرة غلمانه، فنفع الله به كافة رعيته ونجاهم من ملك البرابرة؛ وتدرج في تدبير ذلك أولاً أولاً، ومارسه شأناً شأناً، إلى أن استولى على أمده، ومهد، قواعد سلطانه، وشد أواخيه. وأخباره مأثورة مشهورة... " [٢].

ونظم ذو الوزارتين أبو القاسم بن عباد حكم المدينة، واستأثر بحكم المدينة، وكان يبدي في أحكامه وتصرفاته كثيرا من اللين والرفق، وكان يعمل في هدوء وأناة على التخلص من سائر منافسيه، والقضاء عليهم واحدا بعد الآخر، وعمد في نفس الوقت إلى شراء العبيد، وحشد الرجال واقتناء السلاح، وكان أل صدام مسلح خطير اشترك

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣ / ١٩٤ - ١٩٦، ٣١٤، ٣١٥.

(٢) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ١٦.

به أبو القاسم بن عباد قتاله مع بني الأفطس أصحاب بطليوس وهم جيرانه من الشمال بسبب الاستيلاء علي مدينة باجة، فتقدمت قوات بنو عباد واستولت علي المدينة وهزمت قوات بنو الأفطس وأسرت ولد ابن الأفطس، وأعيدت الحرب بينهما بعد ذلك بأربعة أعوام ودارت الدائرة علي بني عباد وهزمت جيوشهم هزيمة ساحقة بقيادة إسماعيل بن عباد سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ م [١].

وبدأ الصراع جليا بين الحموديين وبنو عباد، بعد أن هاجم يحيي بن حمود - المسيطر علي مالقةومعظم قواعد الأندلس الغربية والجنوبية - الملقب المعتلي، قرمونة وانتزعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البزالي، حليف أبو القاسم محمد بن عباد، فلجأ البرزالي إلى إشبيلية واستغاث بحليفه ابن عباد، الذي أعد العدة وخرج بالجيش لاستخلاص قرمونة ومساعدة حليفه البرزالي، فتمكن من السيطرة علي قرمونة وإعادتها إلى حليفه البرزالي، بعد قتل يحيي المعتلي سنة ٤٢٧هـ.

ولكن سرعان ما دب الخلاف بين حلفاء الأمس، إذ طمع ابن عباد في قرمونة ورغب في السيطرة عليها واستخلاصها من حليفه السابق، فاستولي عليها وعلي استجة وأشونة، وطرد البرزالي، الذي استعان بزملائه من زعماء البربر الذين هبوا لنجدته، وأوقعوا الهزيمة النكراء بجيش بني عباد وهزموا الإشبيليين وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد في سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م.

وعلى ما يبدو أن هذه الهزيمة قد أثرت في القاضي بن عباد، وسرعان ما وافته المنية في سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤٢ م [٢].

فولي الأمر بعده ولده أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل، وتلقب أولا بفخر الدولة ثم بالمعتضد بالله، وكان يوم ولايته فتي في السادسة والعشرين من عمره، وكان مولده في صفر سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م.

وبدأ المعتضد عهده بأمور كشفت عن صرامته وعنف وسائله، منها قتل حبيب وزير أبيه، ومنها إضطهاد الزعماء القدماء ونكبتهم، وقد كان في مقدمة هؤلاء الفقيه أبو عبد الله الزبيدي، وأبو محمد عبد الله بن مريم، زميلا جده القاضي ابن عباد في الرياسة، وذلك حتى لا يقوم لأحد من ذوي العصبيات القوية قائمة.

وفي ذلك يقول ابن حبان: "... ثم أفضى الأمر إلى عباد سنة ثلاث وثلاثين

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٣٦.
(٢) جذوة المقتبس، ص ٢٩، ٣٠.

وتسمى أولاً بفخر الدولة ثم المعتضد، قطب رحى الفتنة، ومنتهى غاية المحنة، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمور وهو متناقض، وأسد فرس الطلى وهو رابض، متهور تتحاشاه الدهاة، وجبار لا تأمنه الكماو، متعسف اهتدى، ومنبت قطع فما أبقى، ثار والناس حرب، وكل شيءٍ عليه إلب، فكفى أقرانه وهم غير واحد، وضبط شانه بين قائم وقاعد، حتى طالت يده، واتسع بلده، وكثر عديده وعدده؛ افتتح أمره بقتل وزير أبيه حبيب المذكور، طعنة في ثغر الأيام، ملك بها كفه، وجباراً من جبابرة الأنام، شرد به من خلفه، فاستمر يفري ويخلق، وأخذ يجمع ويفرق، له في كل ناحية ميدان، وعلى كل رابية خوان، حربه سم لا يبطئ، وسهم لا يخطئ، وسلمه شر غير مأمون، ومتاع إلى أدنى حين.

وذكره ابن حيان فقال: وعشي يوم الأربعاء لست خلت لجمادى الآخرة سنة إحدى وستين، طرق قرطبة نعي المعتضد عباد زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته، أسد الملوك، وشهاب الفتنة، وراحض العار، ومدرك الأوتار، وذو الأنباء البديعة، والحوادث الشنيعة، والوقائع المبيرة، والهمم العلية، والسطوة الأبي، فرماه الله بسهم من مراميه المصمية، أجل ما كان اعتلائه، وأرقى ما كان إلى سمائه، وأطمع ما كان في الاحتواء على الجزيرة، محتفزاً لها عند تشميره الذيل بفتنة لا كفاء لها، فتوفاه الله على فراشه من علة ذبحة قصيرة الأمد، وحية الإجهاز، اتفقت الحكايات أنها كانت شبه البغت. وكانت ولايته بعد موت أبيه القاضي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين، وقضى نحبه يوم السبت الثاني من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين، ودفن عشي يوم الأحد بعده، تغمد الله خطاياه، فلقد حمل عليه على مر الأيام، في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود، والإبلاغ في المثلة، والأخذ بالظنة، والإخفار للذمة، حكايات شنيعة لم يبد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها، فالقول ينساغ في ذكرها؛ ومهما برئ من مغبتها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلة لم يحاش فيها ذوي رحم واشجة... " [١].

علي كل حال، فبعد ان تولي المعتضد الأمر وضع خطته الشاملة للسيطرة علي إمارات غربي الأندلس من أمرائها الأصاغر، حتي يخلص الغرب كله من الوادي الكبير إلى المحيط لسلطان بني عباد.

---

(١) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ٢٥.

وشرع المعتضد بن عباد في مهاجمة لبلة الواقعة غربي إشبيلية، وكانت تحت سيطرة أبي عبد الله محمد بن يحيي اليحصبي الملقب بعز الدولة، الذي استعان بصديقه المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس، واشتركا معا في حرب ضد ابن عباد سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م، ولكن دارت الدائرة علي ابن عباد مما جعله يعود أدراجه، ومال إلى الصلح مع اليحصبي، ولكن سرعان ما عاد ابن عباد لمهاجمة بطليوس حاضرة بني الأفطس مرة أخري سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م، وظلت الحرب قائمة بين الرجلين حتي تدخل ابن جهور وأقنع الرجلين بعقد الصلح بينهما (المعتضد وابن الأفطس) في ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م.

والتفت المعتضد بعد ذلك إلى لبلة فضيق عليها الخناق حتى سلمت له، وقبض علي أميرها عز الدولة وأجبره علي التنازل عن عرش المدينة لابن أخيه أبي نصر فتح بن خلف اليحصبي الملقب بناصر الدولة، علي أن يعقد السلم مع المعتضد وأن يؤدي الجزية السنوية، وانتقل عز الدولة بأهله وأمواله إلى قرطبة ليعيش هناك في كنف ألوزير أبي الوليد بن جهور، وذلك في أواخر سنة ٤٤٣هـ، ثم ما لبث أن انقلب المعتضد علي ناصر الدولة وحاربه سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣م واستولي لبلة وأجبره علي الفرار إلى قرطبة ليعيش إلى جوار عمه في كنف ابن جهور [١].

ثم يمم المعتضد وجهه باتجاة بقية أمارات الغرب الأندلسية، فحاول السيطرة علي إمارة ولبة وجزيرة شلطيش، وكانت تحت حكم أبو زيد عبد العزيز البكري، وما زال المعتضد يحاربه حتى أجبره علي التنازل عن حكم ولية وشلطيش، وبيع أملاكه فيهما والرحيل إلى قرطبة للعيش في كنف ابن جهور أسوة بزميله ابن يحيي أمير لبلة سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م.

ثم أردف المعتضد إمارة شنتمرية الواقعة علي المحيط في جنوبي البرتغال، التي كانت خاضعة لحكم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن هارون، واستولي عليها سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م واصطحب أبو عبد الله محمد بن سعيد إلى أشبيلية ليكون تحت وصايته [٢].

ولم يعد أمام المعتضد من إمارات الغرب الأندلسي سوي كورة شلب الواقعة في

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣ / ٢٠٩ - ٢١١.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ٣ / ٢٩٨ - ٢٩٩.

أقصى جنوب البرتغال، وكانت تحت حكم محمد بن عيسى الملقب بعميد الدولة وظل المعتضد يناصبها العداء ويدخل مع ولاتها المتعاقبين في حروب ودسائس، ويشن عليها الغارات المتلاحقة، حتى تمكن من فرض الحصار الخانق عليها، وقطع عنها سائر الإمدادات ثم اقتحمها بجيشه، ودخل القصر وقتل عيسى المظفر آخر ولاة دولة بني مزين سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م [١].

وفي عشرين عاما استطاع المعتضد بن عباد أن يقضي على سائر إمارات الغرب الصغيرة، وأن يبسط سلطانه عليها، وأصبحت مملكة بني عباد تشمل سائر الأراضي الممتدة من شاطيء نهر الوادي الكبير غربا حتي المحيط الأطلنطي، هذا عدا رقعة شرقي الوادي الكبير.

ثم بدأ المعتضد يوجه اهتمامه للإمارات البربرية فحارب موررور أو مورون، وهي منزل بني دمر، وكانت تحت حكم مناد بن محمد بن نوح الملقب بعماد الدولة، وفرض عليها المعتضد الحصار الشديد وضيق عليها المسالك حتى اضطر عماد الدولة أن يذعن إلى التسليم، وسلم له المدينة سنة ٤٥٨ هـ، علي أن يعيش عماد الدولة في إشبيلية تحت أعين المعتضد وحمايته [٢].

ثم كانت رندة - منزل بني يفرن - هي الوجهة التالية للمعتضد بن عباد، وكانت أنذاك تحت حكم أبو نصر فتوح بن هلال بن أبي قرة اليفرني، فدس عليه المعتضد رجلا من خاصته، وهاجمه ومخمور فقتله، ولم يبد أهل المدينة أية مقاومة، وخلصت رندة وأعمالها علي هذا النحو إلى المعتضد في سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م [٣].

ثم استولي على الجزيرة الخضراء وكانت تحت حكم القاسم بن محمد بن حمود سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م، [٤] قرمونة من يد عزيز بن محمد بن عبد الله البرزالي الملقب بالمستظهر بالله، سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٧ م [٥].

وهكذا أضحت مملكة إشبيلية أو مملكة بني عباد تضم من أراضي الأندلس القديمة رقعة شاسعة تشمل المثلث الجنوبي من شبه الجزيرة، وأراضي الفرنتيرة شمالا حتي شواطيء الوادي الكبير، ثم تمتد بعد ذلك من عند منحنى الوادي الكبير،

---

(١) البيان المغرب، ٣ / ٢٩٢ - ٢٩٨.
(٢) البيان المغرب، ٣ / ٢٩٤.
(٣) البيان المغرب، ٢ / ٢١٢ - ٢١٣.
(٤) البيان المغرب، ٣ / ٢٤٢ - ٢٤٣.
(٥) البيان المغرب، ٣ / ٣١٢.

غربا حتي جنوبي البرتغال وشاطيء المحيط الأطلنطي، وبذلك أضحت أعظم ممالك الطوائف وأغناها من حيث الموارد الطبيعية، وأقواها من حيث الطاقة الحربية [١].

أما علاقة المعتضد مع ممالك النصاري، فتختلف اختلافا كبيرا، فإن كان المعتضد ابن عباد قد أظهر شجاعة وجسارة وقسوة كبيرة في معاملته لأبناء ملته من ملوك الطوائف، نجده يسلك مسلما مغايرا جدا مع ممالك النصاري، خاصة فرناندو الأول ملك قشتالة، ففي العام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣ م خرج فرناندو الأول ملك قشتالة علي رأس جيش كبير من الفرسان والرماة وهاجم أراضي مملكة بطليوس وإشبيلية، فسارع المعتضد بن عباد إلى طلب الصلح والتعهد بدفع الجزية، وقصد المعتضد بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة، وقدم له عهوده شخصيا، ولما توفي فرناندو بعد ذلك بثلاثة أعوام وخلفه ولده سانشو (شانجه) في حكم مملكة جليقية، كان المعتضد يؤدي إليه الجزية أسوة بأبيه، واستمر في تأديتها حتى وفاته [٢].

وتوفي المعتضد بن عباد في الثاني من جمادي الآخرة سنة إحدي وستين وأربعمائة / مارس ١٠٦٩ م، ويقال أن وفاته كانت بسبب ذبحة قصيرة ترتبت علي الإجهاد، وكانت مدة ولايته زهاء ثمانية وعشرين عاما [٣].

يقول ابن حيان: "... كانت ولايته بعد موت أبيه القاضي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين، وقضى نحبه يوم السبت الثاني من جمادى الآخرة سنة (٤ب) إحدى وستين، ودفن عشي يوم الأحد بعده، تغمد الله خطاياه، فلقد حمل عليه على مر الأيام، في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود، والإبلاغ في المثلة، والأخذ بالظنة، والإخفار للذمة، حكايات شنيعة لم يبد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها، فالقول ينساغ في ذكرها؛ ومهما برئ من مغبتها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة، سجايا من جبلة لم يحاش فيها ذوي رحم واشجة.

وقد كان تقيل سيرة أحمد بن أبي أحمد بن المتوكل أحد أشداء خلفاء العباسيين الذي ضم نشر المملكة بالمشرق، وسطا بالمنتزين عليها، وبفقده انهدمت الدولة، فحمل عباد سمته المعتضدية، وطالع بفضل ظره أخباره السياسية التي أضحت عند

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٤٨.
(٢) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٤٨.
(٣) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ٢٦ - ٢٧.

أهل النظر أمثلة هادية إلى الاحتواء على أمد الرياسة، في صلابة العصا وشناعة السطا، فجاء منها بمهولات يذعر من سمع بها فضلاً عن من عاينها، نسبوا إلى هذا الأمير الشهم عباد امتثالها من غير دلالة، وقد انطوى علم الله فيها وتقرر إرصاده للمكافأة بها؛ ولم يقصر عباد في دولته التي مهدها فوق أطراف الأسنة وصير أكثر شغله فيها شب الحروب، وكياد الملوك وإهراج البلاد، وإحراز التلاد، من توفر حظه الأوفى من الأمور الملوكية، والعدد السلطانية، والآلات الرياسية، فابتنى القصور السامية، واعتمر العمارات المغلة، واكتسب الملابس الفاخرة، وغالى الأعلاق السنية، وارتبط الخيول السابحة، واقتنى الغلمان الروقة، واتخذ الرجال الذادة، تناقهم من كل فرقة، فساس طبقاتهم ما بين إدرار الأعطية وضمان الزيادة على صدق الصيال، والوفاء بالوعيد على النكول عن العدو، سياسة أعيت على أنداده من أملاك الأندلس، فخرج منهم رجالاً مساعير حروب، أباد بهم أقتاله... "[١].

ويقول ابن حيان - عن شخص المعتضد بن عباد وسيرته -: "... وكان عباد أوتي أيضاً من جمال الصورة، وتمام الخلقة، وفخامة الهيئة، وسباطة البنان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق الحس، ما فاق أيضاً به على نظرائه. ونظر مع ذلك في الأدب، قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان، أدنى نظر بأذكى طبع، حصل منه لثقوب ذهنه على قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها، ولا إمعان في غمارها، ولا إكثار من مطالعتها، ولا منافسة في اقتناء صحائفها، أعطته نتيجتها على ذلك ما شاء من تحبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة، في معان أمدته فيها الطبيعة، وبلغ فيها الإرادة، واكتتبتها الأدباء للبراعة - جمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى جود كف بارى بها السحاب. وأخبار عباد في جميع أفعاله وضروب أنحائه - عالناته وخافياته - غريبة بعيدة، وكان على تجرده في إحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء، فاستوسع في اتخاذهن، وخلط في أجناسهن، فانتهى في ذلك إلى مدىً لم يبلغه أحد من نظرائه، قيل إنه خلف من صنوفهن السريريات خاصة نحوا من سبعين جارية، إلى حرته الحظية لديه الفذة من حلائله بنت مجاهد العامري أخت علي بن مجاهد أمير دانية، ففشا نسل عباد لتوسعه في النكاح وقوته عليه، فذكر أنه كان له من ذكور الولد نحو من عشرين ومن الإناث مثلهم... "[٢].

---

(١) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٣ / ٢٦، ٢٧.

(٢) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٣ / ٢٧، ٢٨.

وبلغ من قسوة المعتضد بن عباد أنه قام بإنشاء حديقة ليس ككل الحدائق بل هي حديقة الرؤوس المحنطة، رؤوس أعدائه الذين سقطوا في ساحةالحرب، أو قتلوا غيلة، وحملت إليه رؤوسهم، والتي يقول عنها ابن حيان: ".. ومن نادرة أخباره المتناهية في الغرابة أن نال بغيته وأهلك تلك الأمم العاتية، وإن لغائب عن مشاهدتها، مترفه عن مكابدتها، مدبر فوق أريكته، منفذ لحيلها من جوف قصره، ما إن مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة أو اثنتين، ثم لزم عريسته يدبر داخلها أموره، جرد نهاره لإبرام التدبير، وأخلص ليله لتملي السرور، فلا يزال تدار عليه مؤوس الراح، ويحيا عليها بقبض الأرواح، التي لأناسيها من عدائه بباب قصره حديقة تطلع كل وقت ثمراً من رؤوسهم المهداة إليه، مقرطة الآذان برقاع الأسماء المنوهة بخاملها، ترتاح نفسه لمعاينتها، والخلق يذعرون من التماحها، وهو واصل نعيم ليله بإجالة كيده، ومستدع نشاط لهوه بقوة أيده، له في كل شأن شؤين، وعلى كل قلب سمع وعين، ما إن سبر أحد من دهاة رجالة غوره، ولا أدرك قعره، ولا أمن مكره، لم يزل ذلك دبه منذ ابتدائه إلى انتهائه.

وكان محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي، مفرق الجماعة بقرطبة، ومبتعث تلك الفتنة المبيرة، سبق عباداً إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرؤوس أعدائه، أيام أكثر له واضح الخصي العامري من إرسال برؤوس الخارجين عليه، لأول وقته، وأصلح بهم باب مدينته سالم، فغرس منها فوق الخشب المعلية لها بشط النهر حذاء قصره حديقة هول عريضة طويلة الخطة، جمة عدد الصفوف المسطورة، فأضحت شغلاً للنظارة، وذكرتها شعراؤه مثل قول صاعد بن الحسين، من قصيدة أولها:

جلاء العين مبهجة النفوس ::: حدائق أطلعت ثمر الرؤوس
هناك الله مهدي المساعي ::: جنى الهامات من تلك الغروس
فلم أر قبلها وحشاً جميلاً ::: كريه روائه أنس الأنيس
فماذا يملأ الأسماع منها ::: إذا ملئت من انباء الطروس

وقد كانت لعباد وراء هذه الحديقة المالئة قلوب البشر ذعراً، مباهاة بخزانة بلوى، أكرم لديه من خزانة جوهره، مكنونة جوف قصره أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه، منها رأس محمد بن عبد الله البرزيلي شهاب الفتنة، ورؤوس الحجاب ابن خزرون وابن نوح وغيرهم الذين قرن رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن علي بن حمود، سابقهم إلى تلك الرفعة، فخص رؤوسهم بالصون بعد إذالة جسومهم الممزقة، وبالغ في تطييبها وتنظيفها للثواء لا للكرامة، وأودعها المصاون الحافظة

لها، فبقيت عنده ثاوية تجيب سائلها اعتباراً... " [١].

ويضيف المؤرخون: أنه لما افتتحت إشبيلية وخلع المعتمد بن عباد، عثر المرابطون علي هذه الرؤوس في جوالق وأوعية، ظن في البداية أن بها أموالا أو جواهر، فهالهم الأمر لما وجدوا بها رفات من كان قتلهم المعتضد، وسلم كل رأس منها لمن بقي من عقب أصحابها "... قال ابن بسام: فلما افتتحت إشبيلية وخلع المعتمد، حدثت أنه وجد جوالق مطبوع عليه، وظن أنه مال أو ذخيرة، فإذا هو مملوء رؤوساً، فأعظم ذلك وهال أمره، فدفع كل رأس منها لمن كان بقي من عقبهم بالحضرة، أخبرني من رأى رأس يحيى بن علي بن حمود يومئذ ثابت الرسم متغير الشكل، فدفع إلى بعض ولده فدفنه... " [٢].

* * *

المعتمد بن عباد

لما توفي المعتضد بن عباد خلفه يوم وفاته ولده محمد بن عباد، الملقب بالظافر، والمؤيد بالله، والمعتمد علي الله، وهو اللقب الذي غلب عليه واشتهر به طوال حياته.

وكان المعتمد يوم جلوسه علي عرش مملكة إشبيلية فتي في الثلاثين من عمره، وكان مولده بمدينة باجة في سنة سنة ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م [٣].

وكان أول عمل قام به المعتمد بن عباد عقب ولايته هو الاستيلاء علي قرطبة وفق خطة سرية وضعها، وضم قرطبة إلى إشبيلية سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م وندب ابنه عباد الملقب بسراج الدولة لحكم مدينة قرطبة نيابة عن أبيه.

ثم سار المعتمد بن عباد بقواته إلى جيان، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية والتي كانت تحت حكم عبد الله بن بلقين، واستولي عليها سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م، ثم تقدم المعتمد بن عباد للسيطرة علي باقي مناطق غرناطة، فاستعان حاكمها بالنصاري وتعهد لألفونسو السادس ملك قشتالة بدفع الجزية مقابل عقد معاهدة تحالف وصداقة ودفاع مشترك ضد أطماع المعتمد بن عباد، فخرجت قوات عبد الله بن بلقين مع حلفائها النصاري وهاجمت قوات المعتمد بن عباد واستولت علي بعض الحصون التي كان قد استولى عليها في مملكة غرناطة، وفي نفس الوقت كان المأمون بن ذي

---

(١) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ٢٧، ٢٨.
(٢) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ٢٧ - ٢٨.
(٣) محمد عبد الله عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ٣ / ٥٩.

النون قد انتزع قرطبة من ابن عباد سنة ٤٦٧ هـ، ووكان ذلك سببا في تراجع المعتمد بن عباد عن مملكة غرناطة.

غير أن المعتمد بن عباد سارع لإفشال هذا التحالف، بأن عقد حلفا مع ملك قشتالة ألفونسو السادس، علي أن يدفع المعتمد لألفونسو السادس خمسون ألف دينار، مقابل أن يتعاونا في غزو غرناطة، علي أن تكن المدينة ذاتها للمعتمد في حين يظفر ألفونسو السادس بكنوز القلعة الحمراء، وظهر أثر هذه المعاهدة علي الفور، إذ عمد النصاري إلى تخريب بسائط غرناطة، لاسيما مروجها الخضراء [١].

ومن الأحداث المهمة التي في عهدالمعتمد بن عباد، ما كان من وزيره، أبو بكر محمد ابن عمار بن الحسين بن عمار المهري، وكان هذا الوزير من المعروفين بالأدب والشعر، وكثيرا ما مدح الوزراء والخلفاء لا سيما بني عباد، وقد لازم المعتمد بن عباد في شبابه، لا سيما عندما عهد إليه أبوه المعتضد بحكم مدينة شلب، ثم لما توفي المعتضد وآل الأمر للمعتمد بن عباد، جعل هذا الوزير في ركابه، وجعل منه ليس وزيره فقط بل ساعده الأيمن في جميع أموره ولم يكن يقدر علي فراقه طويلا، ونال ابن عمار الحظوة والمكانة لدي المعتمد لسنوات طويلة، وأنجز له الكثير من الأعمال المهمة، إلى أن فسد الجو بينهما بسبب تدخل الرميكية زوجة المعتمد، فكان ذلك إيذانا بنكبته.

وكانت البداية نجاح الوزير ابن عمار والقائد عبد الرحمن بن رشيق، في الاستيلاء علي مدينة مرسية من قائدها أبو عبد الرحمن بن طاهر، سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م [٢] وهنا بدأ النكبة إذ طمع الوزير ابن عمار في حكم المدينة حكما فرديا بعيدا عن سلطة المعتمد بن عباد، وبدأ يستقل بالمدينة بعيدا عن كل سلطة لابن عباد، كما أنه أهمل جانب ابن رشيق الفاتح الحقيقي للمدينة، الذي بدأ يتربص بابن عمار، ويتحين فرصة الوثوب إلى سدة المدينة، واستغل خروج ابن عمار عن مرسية لزيارة بعض الحصون الخارجية، فوثب ابن رشيق واستولي علي المدينة، وأغلق أبوابها في وجه ابن عمار، فكانت تلك الضربة خير جزاء له علي خيانته.

ففر ابن عمار إلى بلاط ألفونسو السادس يطلب المساعدة ولكن ألفونسو رفض ذلك الطلب، فرحل إلى سرقسطة وكان أميرها ابن هود الذي توفي فخلفه ابنه

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٦٣.

(٢) أعمال الأعلام، ص ١٦٠.

المؤتمن سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨١ م الذي أغري ابن عمار بمهاجمة حصن شقورة مع جماعة من أصحابه، وكان صاحب الحصن رجلا داهية يدعي ابن مبارك فدعا ابن عمار مع صحبه إلى دخول لحصن، انخدع لحفاوة الإستقبال، فما كان من ابن المبارك إلا أن ألقي القبض عليه في ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م.

لما علم المعتمد بن عباد بذلك طلب من ابن المبارك تسليمه ابن عمار لقاء هدية كبيرة من الأموال والخيل، فسلمه لرسل المعتمد وزج به في غياهب السجن، وأخذ ابن عمار يرسل إلى القصائد الوجدانية مستعطفا. وكاد المعتمد أن يطلق سراحه لولا وشاية أحدثت في البلاط وعلي رأسهم الوزير أبي بكر بن زيدون، وأخرجوا للمعتمد قصيدة يعرض فيها باعتماد الرميكية زوجة المعتمد، عندها أقدم المعتمد علي قتل وزيره بيده سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٥ م [١].

وفي تلك الأثناء كانت قوة ألفونسو السادس في ازدياد وغدا ملوك الطوائف يستنصرونه علي بعضهم البعض، وكان يخطط للاستيلاء علي أملاك ملوك الطوائف الواحدة تلو الأخري، وكان الفونسو قد استولي علي طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م، ثم وضع خطته القاضية بالاستيلاء علي ملوك الطوائف ويلتهم المدينة تلو الأخري، ومن ثم بدأ يضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية، وذلكبالإستيلاء علي مملكة إشبيلية، أهم دول الطوائف وأقواها فوجه رسالة إلى المعتمد بن عباد ملؤها التهديد والوعيد ويطالبه بتسليم أعماله ويحذره من مثل مصير طليطلة ومحنتها، فقد قال ألفونسو في رسالته: "... من الامبراطور ذي الملتين الملك أدفونش بن شانجة، إلى المعتمد بالله، سدّد الله آراءه، وبصّره مقاصد الرشاد. قد أبصرت تزلزل أقطار طليطلة، وحصارها في سالف هذه السّنين، فأسلمتم إخوانكم، وعطّلتم بالدّعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله قبل الوقوع في الحبالة. ولولا عهدٍ سلف بيننا نحفظ ذمامه نهض العزم، ولكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يعجل إلاّ من يخاف الفوت فيما يرومه، وقد حمّلنا الرّسالة إليك السّيد البرهانس، وعنده من التسديد الّذي يلقى به أمثالك، والعقل الّذي يدبّر به بلادك ورجالك، ما أوجب استنابته فيما يدق ويجلّ. "

ولما ورد الكتاب علي المعتمد بن عباد استشار وزراءه وخاصته فكان منهم من أرجف وارتعدت فرائصه، خوفا من ألفونسو السادس ومنهم من رأي ضرورة إعلان الجهاد في سبيل الله ضد ألفونسو السادس، في حين كان رأي المعتمد بن عباد هو

---

(١) المقري، نفح الطيب، ١، ٤٥١ - ٤٥٢.

محاربة ألفونسو والاستنجاد بالمرابطين في المغرب والاستعانة بهم في قتاله. يقول الذهبي: " فلمّا قدم الرسول أحضر المعتمد الأكابر، وقريء الكتاب، فبكى أبو عبد الله بن عبد البرّ وقال: قد أبصرنا ببصائرنا أنّ مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة اللّعين قوّة بلاده، فلو تضافرنا لم نصبح في التّلاف تحت ذلّ الخلاف، وما بقي إلاّ الرجوع إلى الله والجهاد. وأما ابن زيدون وابن لبون فقالا: الرأي مهادنته ومسالمته. فجنح المعتمد إلى الحرب، وإلى استمداد ملك البربر، فقال جماعة: نخاف عليك من استمداده. فقال: رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير.

ثمّ أخذ وكتب جواب أدفونش بخطّه، ونصّه:

الـذّلّ تأباه الكرام وديننا	:::	لك ما ندين به من البأساء
سمناك سلماً ما أردت وبعد ذا	:::	نغزوك في الإصباح والإمساء
الله أعلى من صليبك فادرع	:::	لكتيبة خطبتك في الهيجاء
سوداء غابت شمسها في غيمها	:::	فجرت مدامعها بفيض دماء
ما بيننا إلاَ التّزال وفتنة	:::	قدحت زناد الصّبر في الغماء

من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله، إلى الطّاغية الباغية أدفونش الّذي لقّب نفسه ملك الملوك، وتسمّى بذي الملّتين. سلام على من اتّبع الهدى، فأول ما نبدأ به من دعواه أنه ذو الملّتين والمسلمون أحقّ بهذا الاسم لأنّ الّذي نملكه من نصارى البلاد، وعظيم الاستعداد، ولا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملّتكم. وإنّما كانت سنة سعدٍ اتّعظ منها مناديك، وأغفل عن النّظر السّديد جميل مناديك، فركبنا مركب عجز يشحذ الكيس، وعاطيناك كؤوس دعةٍ، قلت في أثنائها: ليس. ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنّا لنعجب من استعجالك وإعجابك بصنع وافقك فيه القدر، ومتى كان لأسلافك الأخدمين مع أسلافنا الأكرمين يدٌ صاعدة، أو وقفة مساعدة، فاستعد بحربٍ، وكذا وكذا.. إلى أن قال: فالحمد لله الّذي جعل عقوبة توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، والله ينصر دينه ولو كره الكافرون، وبه نستعين عليك. ثمّ كتب إلى يوسف بن تاشفين يستنجده... " [(١)].

* * *

(١) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٣٢ / ٢٦.

الفصل السابع
المرابطون في الأندلس
(٤٧٩ - ٥٥٥ هـ / ١٠٨٦ - ١١٦٠ م)

الجذور التاريخية للمرابطين

القائد الرباني يوسف بن تاشفين ٤٠٠ - ٥٠٠ هـ / ١٠٠٩ - ١١٠٦م

موقعة الزلاقة:

الأندلس بعد الزلاقة

العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس

الأندلس في عهد علي بن يوسف:

الأندلس في عهد تاشفين بن علي:

أسباب سقوط دولة المرابطين

* * *

الجذور التاريخية للمرابطين

إن المرابطين هم من قبيلة لمتونة، ولمتونة هذه بطن من بطون صنهاجة، أعظم القبائل البربرية، وهي بدورها فرع من فروع قبيلة البرانس الكبري، وتعتبر قبائلُ صنهاجة أقوى قبائل البربر وأشدها وأمنعها، واشتهرت بقُوَّة شكيمتها، وكثرة رجالها الذين ملؤوا الشَّمَال الإفريقى وسكنوا جباله، وسهوله وخصوصًا من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى [(١)].

واعتبرَ بعضُ المؤرخين قبائل صنهاجة مثلت شعبًا انضوتْ تحت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية، ومن أهم هذه القبائل وأشهرها لمتونة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة، وهى التى تكوَّنت منها دولة المرابطين [(٢)] السُّنيَّة.

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ٣ / ٢٩٩.

(1) الرباط: حصن حربى يُقام في الثغور المواجهة للعدو للذود عن ديار المُسْلِمين، وهذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة:.

أما القرآن الكريم فمن قوله تعالى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ } [الأنفال: ٦٠]، ومن قولـــه تعـــالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾} [آل عمران: ٢٠٠].

وفى الحديث النبوى في البخارى جاء فضل الرِّبَاط في سبيل الله تعالى عن سهل بن سعد الساعدى - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال:"رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها" (١).

رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (ج٣/٢٩٥)، حديث رقم (٢٨٩٢).

وأصبحت كلمة مرابط تطلق على الشخص الذى خرج إلى الثغور للدفاع عن المُسْلِمين من أعدائهم، وأطلق المُسْلِمون على الثغر أى المحل الذى يقيمون فيه اسم الرِّبَاط.

ويحتوى الرِّبَاط على برج مراقبة وحصن صغير، وقد أقام ولاة الثغور كثيرًا من هذه الرُّبُط لحماية حدود الدولة الإسلامية على مرِّ التَّاريخ، فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط، وكذلك في ثغور الجزيرة الفراتية، وكانت سواحل المغرب المطلَّة على البحر المتوسط عرضة لغارات البيزنطيين أكثر من غيرها، فأقيمت فيها الرُّبُط وشحنت بالمجاهدين للدفاع عنها، حتى إن الصَّحَابى الجليل عقبة بن نافع الفهرى عندما أراد بناء مدينة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه إقامتها على الساحل للمرابطة فيها، وقالوا له: قرِّبها من البحر ليكون أهلها من المرابطين».

وقد توسَّعت الرُّبُط في عهد العباسيين، وبنى الوالى العباسى هرثمة بن أعين أول رباط في إفريقية عام (١٧٩هـ / ٧٩٥م) وتوسَّع الأغالبة في هذا المجال توسُّعًا عظيمًا، وأقام الوالى زيادة الله الأغلبى رباط سوسة عام (٢٠٦هـ/ ٨٢٢م).

وكان الأغالبة يسمون هذه الرُّبُط بالقصور والمحاريس، وقد انتشرت من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، وكان أهالى الشَّمَال الإفريقى يلجؤون إليها إذا داهمهم الغزاة، وقد قاومت هذه الثغور أساطيل وجيوش البيزنطيين الذين عجزوا رغم تفوقهم البحرى عن احتلال الساحل الإفريقي، وقد التزم المقيمون

وكانت لمتونة، كسائر القبائل البربرية، تدين بالمجوسية، واستمروا على ذلك حتى ذاع بينهم الإسلام عقب فتح الأندلس، وبدأت رئاستهم منذ ذلك الحين تتخذ نوعا من من الملك، ففي أواسط القرن الثاني الهجري كان ملكهم يدعي تيولوثان بن تيكلان الصنهاجي اللمتوني، ولما توفي سنة ٢٢٢هـ خلفه في الرياسة حفيده الآثر بن بطين بن تيولوثان، واستطال حكمه زهاء خمسة وستين عاما، حتى وفاته سنة ٢٧٨هـ فخلفه ولده تميم، واستمر في الحكم إلى أن ثار عليه في سنة ٣٠٦ هـ أشياخ قبيلة صنهلجة وقتلوه، وعندئذ افترقت كلمة الجماعة، وانقسموا شيعا، واستمروا دون رياسة جامعة زهاء مائة وعشرين عاما، إلى أن قام فيهم الأمير أبو عبد الله بن تيفاوت اللمتوني، المعروف بتارسنا، فالتفوا حوله، واجتمعوا على رياسته، وبعد وفاته خلفه صهره الأمير يحيي بن إبراهيم الجدالي، زعيم قبيلة جدالة أو كدالة، وهي

في هذه الثغور بالاهتمام بالفروسية والتدريب عليها خاصَّة، بالإضافة إلى كل التدريبات الجهادية الأخرى التى أهلتهم للقيام بمهماتهم على أكمل وجه من الذود عن حياض المُسْلِمين والجهاد في سبيل الله.

وإلى جانب المهمات الجهادية التى قامت بها الثغور فقد اهتمت بالناحية العِلمِيَّة، فمع انتشارها أخذت التعاليم الإسلامية تنتشر من خلالها، وقد قام فقهاء أهل السنة والجماعة في تلك الثغور من فقهاء المالكية بدور ريادى عظيم في وجه التيارات الفكرية والمذهبية التى عصفت بالمشرق، وكانت الرُّبُط والثغور والقلاع والحصون هى المنطلق لنشر ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة، وأصبحت الثغور في الشَّمَال الإفريقى مدارس علمية تدرِّس أمور الدين من فقه وحديث وتفسير وأصول وغيرها، وكانت حياة أهل الثغور تقوم على أساس من التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية، وكان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البرى والبحرى حسب موقع الرِّبَاط، وكذلك يقومون بإعداد الطعام، وكل ما تتطلبه عمليات التموين من زراعة وصناعة آلاتها بالإضافة إلى صناعة الأسلحة.

وأمَّا من ناحية العبادة، فالجماعة التى التزمت بالرِّبَاط مؤمنة بربها وبرسالة الإسلام، فكانت العبادة تقتصر على الصلوات الخمس جماعة، وقد وضعت عقوبات لمن يتأخَّر عنها.

وفى أوقات السلم كانوا يحفظون القرآن وتفسيره وكل ما يمت إلى الدين بصلة، ويقومون بالمهمات التى تتعلق بحياة الرِّبَاط، وبما أن التبشير بهذا الدين والدعوة إليه من أهم واجباتهم؛ فكانوا يخرجون إلى القبائل لهدايتها وترغيبها في الإسلام وتربيتها عليه، وقد أدَّت الثغُور في الشَّمَال الإفريقى خدمات جليلة للإسلام وللمُسْلِمين، فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفِتَن التى سادت المشرق، وكان لمنهج أهل السنة والجماعة شوكة وحماة وعلماء وفقهاء في تلك الربوع من عالمنا الإسلامي، وتميَّز أهل الثغور عن غيرهم بالزهد والتقشف والتفانى في سبيل الله، ولا يبتغى أهلها من النّاس من وراء ذلك جزاء ولا شكورًا، وإنما لسان حالهم:{إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾} [الإنسان: ١٠]. انظر: المالكي، رياض النفوس، ص ٦، دائرة المعارف الإسلامية مادة رباط، ص ١٩، الصلابي، دولة المرابطين، ص٢٤، ٢٥.

شقيقة لمتونة يجمعهم أب واحد (١).

كان الأمير يحيى بن إبراهيم سيدًا مطاعًا في قومه لِما عُرِفَ عنه مِن شجاعة وكرم وجود ومقدرة قيادية عالية، واشتهر برجاحة عقلة ونفاذ بصيرته وسداد رأيه وحرصه على هداية قومه.

خرج هذا الأمير الجليل من ديار المُلثَّمين قاصدًا بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج تاركًا الحكم لابنه إبراهيم عام ٤٢٧هـ - ١٠٣٥م.

وكانت العادة أن يقترنَ الحج بطلب العلم، وبعد أداء الفريضة، انطلق الأمير يحيى يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهية طالبًا للعلم لإرواء روحه الظمأى إلى نور المعرفة الإسلامية التى اندرست معالمها في بلاده، ورمتْ به أقدارُ الله في حَلَقةِ إمام المغرب في زمانه في مدينة القيروان «الإمام أبو عمران الفاسي» (٢) الذى تعلّقت نفسُ الأمير يحيى بتعاليمه وفقهه، وعرض نفسه على الإمام أبى عمران الفاسى الذى ورث زعامة المدرسة المالكية التى انتصرت على الهيمنة الإسماعيلية العبيدية الباطنية الرافضية، واستردَّت حريتها كاملة بعد جهادهم المرير الذى أصبح مَعْلَمًا من معالم أهل السنة في الشَّمَال الإفريقي.

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٣٠٠.

(١) هو موسى بن عيسى بن أبى حاج بن وليم بن الخير الغَفَجُومي، وغَفَجُوم فخذ من زناتة من هوارة، وأصله من فاس، وبيته بها بيت مشهور، يعرفون ببنى أبى حاج، ولهم عقب، وفيهم نباهة إلى الآن».
تفقَّه بالقيروان عند أبى الحسن القابسي، وسمع بها من أبى بكر الدويلي، وعلى بن أحمد اللواتى السوسي، ورحل إلى قُرْطُبَة، فتفقَّه بها عند أبى محمد الأصيلي، وسمع الحديث من أبى عثمان سعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان، وأحمد بن قاسم، وغيرهم، ثم رحل إلى المشرق، فحج ودخل العراق، فسمع من أبى الفتح ابن أبى الفوارس، وأبى الحسن على بن إبراهيم المستملي، وأبى الحسن الخضر، وغيرهم من العراقيين، ودرس الأصول على القاضى أبى بكر الباقلاني، وسمع بالحجاز من أبى الحسن بن أبى فراس، وأبى القاسم السقطي، وبمصر من أبى الحسن ابن أبى جدار، وأحمد بن نور القاضي، ثم رجع إلى القيروان، وسكنها، وأصبح سيدها المطاع، وأقبل عليه طلاب العلم من كل صوب، وطارت فتاويه في المشرق والمغرب، واعتنى النَّاس بقوله.
ابتدأ نشاطه العلمى سنة ٤٠٢هـ، حين عاد من المشرق، فقد جلس للطلبة في المسجد، وفى داره أيضًا، وسرعان ما عُرف قدره، واشتهرت إمامته، وطار ذكره في الآفاق، وقد خلف الإمام القابسى المتوفى سنة ٤٠٣هـ، في نشر علوم السنة في إفريقية ورئاسة العلم بها، ورحل إليه النَّاس من الأقطار لسماع مروياته واستجازه من لم يستطع الاجتماع به، وكان يجلس في حلقته العِلمِيَّة من بعد صلاة الصبح إلى صلاة الظهر، يحدثهم ويملى عليهم، ويقرأ لهم،♂فلا يتكلم بشيء إلا كُتب عنه إلى أن مات ـــ. انظر: ترتيب المدارك، الطبعة المغربية، ٢٤٣/٧ - ٢٤٤، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٥.

وأعجِبَ الشيخ أبو عمران بالأمير يحيى لما لمسه فيه من حبه للخير وحرصه على التعلم، وتحدث إليه الأمير عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده، وجهل قبائلها بأصول الدين وفروع الشريعة، وطلب من أبى عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الإسلامية.

وتذكر بعض كتب التَّاريخ، أن أبا عمران الفاسى هو الذى وضع الخطوط الأولى مع الزَّعِيم يحيى بن إبراهيم لقيام دولة صحراوية سنية في المغرب على أسس دينية صحيحة، كى تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التى كان المغرب يتخبط فيها منذ سنوات عديدة

فأحال أبو عمران أمير المُلثَّمين على تلميذ له في بلاد السوس في أقصى المغرب، وهو الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي، الذى كان يقيم في رباط هناك بمدينة نفيس يسمى دار المرابطين، ومن هذا الرِّبَاط أرسل وجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى [1] ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم.

وبدأ الأمير يحيى في شق طريقه المليء بالأشواك من أجل إنقاذ قومه وإعزازهم في الدنيا والآخرة، ورجع إلى أهله وعشيرته الفقيه المالكى الإمام عبد الله ياسين، وقبل الدخول في سيرته نترجم للإمام السنى المالكى سيد القيروان في زمانه.

لاقى عبد الله بن ياسين كثيرًا من الصعوبات، فقد وجد أكثر المُلثَّمين لا يصلون ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وعم الجهل عليهم، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة وتلوثت أخلاقهم وأحكام دينهم، واصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء

---

(١) عبد الله بن ياسين.

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن على الجزولي، أصله من قرية (تمامانـاوت) في طرف صحراء غانة.

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا، رحل إلى الأنْدَلُس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين، واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية، ثم أصبح مِن خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلوا فعندما طلب أبو عمران الفاسى مِن تلميذه وجاج بن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهًا عالمًا دينًا تقيًا مربيًا فاضلاً وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجي الذى كان عالمًا بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم.

ودخل عبدُ الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب ومواطن ومساكن المُلثَّمين من قبيلة جدالة في عام ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨م فاستقبله أهلها واستمعوا له، وأخذ يعلمهم، فكان تعليمُه باللغة العربية لطلبة العلم، والإرشاد الدينى للعامة بلهجة أهل الصحراء البربرية. انظر: ترتيب المدارك (ج٧/٢٤٦)، ابن الخطيب، الخلل، ص (١٩١). .

والأشراف، فثاروا عليه، وكادوا يقتلوه، إلا أنه ترك قبيلة جدالة، وانتقل إلى قبيلة لمتونة، ومِن ثمَّ اختار رباطه المشهور على مصب نهر السنغال، بعد انتشار صيته، وتعلُّق النَّاس به، فهرعوا إليه ليربيهم وينظمهم ويعلمهم.

أقام الفقيه ابن ياسين رباطه في الحوض الأدنى لنهر السنغال، وموقعه يدلُّ على أهداف ابن ياسين التى أعد لها، فهو يقع قريبًا من مملكة غانة الوثنية، لذلك فهو مُهدَّد دائمًا بالأعداء، ولابُدَّ للجماعة المقيمة فيه من الجهاد، وهو غير بعيد عن ديار المُلثَّمين، فيستند إليهم في حالات الخطر، وتشكل تلك الديار موردًا بشريًا لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه، وهذا يفسر كثرة عدد رجاله.

دخل ابن ياسين الجزيرة التى في الحوض الأدنى لنهر السنغال عام (٤٣٣هـ/ ١٠٤٠م) ومعه أتباعه المخلصون، ثم بدأ الانضمام إلى جماعته من أبناء المُلثَّمين، وتكاثر عدده حتى بلغ الألف رجل وذاع صيته بين القبائل.

وفى عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى ابن ياسين يُرغِّبونَه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة؛ زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن واندين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة، فأشاروا عليه بمدّ يد المعونة لهم، وقالوا له: «أيُّها الشيخ الفقيه، هذا ما يلزمنا فسِرْ بنا على بركة الله».

فخرجت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧هـ إلى بلاد درعة، فتصدى لهم الأمير مسعود بن واندين بالقتال، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع مسعود وتشتت جيشه، وأسرع ابن ياسين بدخول سجلماسة، وأصلح أحوالها، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وحامية مرابطية ثم عاد إلى الصحراء»

وفى عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م تُوفى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى فعيَّن عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة، ثم تأهَّب أبو بكر لغزو بلاد السوس؛ ففى ربيع الثَّانِى سنة ٤٤٨هـ سار المرابطون صَوْبَ بلاد السوس، واختار أبو بكر بن عمر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليتولى القيادة على مقدمة الجيش المرابطي، وكان ذلك أول ظهور ليوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وقائد مرحلة التَّمكين، وتمكنوا من احتلال تارودانت، وقضوا على الروافض والوثنيين، كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحى فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

وسار المرابطون إلى مدينة أغمات، وكان أميرها يومئذٍ لقوط بن يوسف بن على المغراوى وحاصروها، واضطر لقوط إلى الفرار عندما أيقن عبث المقاومة، فخرج يتلمس النجاة في أهله وحشمه تحت جنح الظلام، ودخل المرابطون أغمات عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م.

ثم سار أبو بكر بن عمر في جموع المرابطين إلى أرض برغواطة وكان أميرهم يومئذٍ أبا حفص بن عبد الله بن أبى غفير بن محمد بن معاذ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطيين وقائع ومعارك حامية الوطيس أصيب فيها ابن ياسين بجراح أودت بحياته إلى الشهادة [١].

واتفق رأى المرابطين على اختيار أبى بكر ابن عمر للرياسة مكان ابن ياسين، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبى بكر، ونستطيع أن نقول أنه بوفاة عبد الله بن ياسين، وقيام أبوبكر اللمتوني مكانه في الرياسة تبدأ الدولة اللمتونية أو الدولة المرابطية.

فقد جمع أبو بكر بن عمر بين الزعامتين الدينية والسياسية، فأمر بتعبئة جيوشه المجاهدة وخرج لقتال واستئصال الكفر من بلاد المغرب، فأثخن في جنود الدولة البرغواطية، وفرَّق جموعهم، وكسر شوكتهم، وأعلنوا الطاعة والولاء للدولة المجاهدة الجديدة، ثم قصد أبو بكر مدينة أغمات، فمكث بها حتى شهر صفر سنة (٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م) ثم تابع سيره في بلاد المغرب، يفتح البلدان والقرى وحصون الجبال، ففتح سائر بلاد زناتة، وفتح مكناسة، وحاصر مدينة لواتة ودخلها عنوة في شهر ربيع الثانِى سنة ٤٥٢هـ، ثم عاد إلى أغمات التى اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقرًا للأمير وإخوته، وعندما امتلأت المدينة اتجه أبو بكر إلى اختيار عاصمة جديدة، فوقع على موضع مدينة مراكش الحالية، وشرع في بنائها، فأتاه رسول من الصحراء يخبره بإغارة قبيلة جدالة على قبيلة لمتونة، فعيَّن ابن عمه يوسف، وأسرع من أجل الإصلاح بين القبائل المتنازعة، وقسَّم الجيش إلى فريقين، نصفه مع يوسف الذى شرع في تأديب القبائل المغربية المتمردة من مغراوة وزناتة وبنى يفرن وغيرهم، ووقع اختياره على أربعة من القوَّاد هم: محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاني، وسير بن أبى بكر اللمتوني، وعقد لكل

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٤، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣، ٣٠٦ - ٣٠٧، دولة المرابطين، ص ٢٢.

منهم على خمسة آلاف من قبيلته، وسيرهم لتأديب تلك القبائل المتمردة، وسار في أثرهم فغزوا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة، وبلدًا بعد بلد، وكان بعضهم يفرون وبعضهم يقاتلونه، والبعض الآخر يدخلون في طاعته.

أما أبو بكر فقد استطاع نشر الأمن في الصحراء، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة، وتوسع في جهاد قبائل السود الوثنية لتدخل في دين الله؛ حيث صاول وجاول وقاتل الزنوج لتأمين حدود دولة المرابطين الجديدة بعد دعوة الزنوج للدخول في الإسلام.

وبعد أن حقق أبو بكر بن عمر نجاحات هائلة في مهمته الدعوية؛ رجع إلى المغرب الأقصى بجيوشه؛ فأكرمهم يوسف بن تاشفين إكرامًا يليق بالقائد الربَّانى أبى بكر بن عمر، واختار أبو بكر يوسف نائبًا عنه على حُكم المغرب الأقصى، وأمره بالعدل والرفق بالمُسْلِمين، ثم ودَّعه وعاد إلى الصحراء وقد زوَّده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب، والجوارى والثياب الفاخرة والمؤن والدوابّ، وهناك استأنف الجهاد والغزو حتى قُتل في إحدى غزواته في سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) (١).

* * *

القائد الربانى يوسف بن تاشفين

(٤٠٠ - ٥٠٠ هـ / ١٠٠٩ - ١١٠٦)

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتونى الصنهاجي، وأُمُّه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين، وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة، واحتفظت بالرئاسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى ابن إبراهيم الجدالى، فنما عزيزًا كريمًا في قومه.

وظهر نجم يوسف للمرابطين في معركة الواحات ٤٤٨هـ - ١٠٥٦م التى كان فيها قائدًا لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، وبعد فتح مدينة سجلماسة عيَّنه الأمير أبو بكر واليًا عليها، فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم سار إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس وفتحها، وكان بها طائفة من الشيعة البجليين نسبة إلى مؤسسها على بن عبد الله البجلي، وقتل المرابطون أولئك الشيعة، وتحوّل

---

(١) محمد عبد الله بن عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ٣ / ٣١١ - ٣١٢، دولة المرابطين، ص ٦٥، الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص ٦٥.

مَن بقى منهم على قيد الحياة إلى السنة.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء، وأناب ابن عمه يوسف على المغرب، ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية، وسلم النّاسُ بزعامته، وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، والكُتّاب والشهود، وأشهدهم على نفسه بالتخلى ليوسف عن الإمارة، وعلّل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته، وأوصاه الوصية التالية: «يا يوسف إنّى قد ولّيتُك هذا الأمر وإنّى مسؤول عنه؛ فاتق الله في المُسْلِمين، وأعتقنى وأعتق نفسك من النار، ولا تُضيِّع من أمر رعيتك شيئًا؛ فإنّك مسؤول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتى عليك وعليهم» [(١)].

بعد تولي الأمر قام يوسف بن تاشفين نحو المغرب الشَّمَالى لينتزعه من أيدى الزناتيين، واستخدم من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إرسال الجيوش للقضاء على جيوش المخالفين مستفيدًا من الخلافات السياسية بين قادة المدن، فحالف بعضها من أجل قتال الباقي، واستطاع أن يدخُلَ مدينة فاس صلحًا عام ٤٥٥هـ، ثم تمرَّد أهلها عليه إلا أنه استطاع إخماد جميع الثورات التى قامت ضد المرابطين بجهاده، وكفاحه المستمرِّ، حتى تمَّ له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م.

وأعاد فتح فاس عنوة بحصار ضربه عليها بجيش قوامه مائة ألف جندى عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م، فقضى على شوكة مغراوة وبنى يفرن وسائر زناتة، ونظم المساجد والفنادق وأصلح الأسواق، وخرج من فاس عام ٤٦٣هـ إلى بلاد ملوية وفتحها واستولى على حصون وطاط من بلاد طنجة.

وبعد أن رجع من تلك الجولة التفقدية الإصلاحية سار بجيوشه عام (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) لغزو الدمنة من بلاد طنجة وفتح جبل علودان، وفى عام (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) استولى على جبل غياثة وبنى مكود وبنى رهينة من أحواز تازا، وجعلها حدًّا فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأبعد عن المغرب كلَّ مَن ظنَّ فيه أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصًا له مرتاحًا إلى طاعته مطمئنًا إلى

---

(١) انظر: روض القرطاس، ص (٨٦).

خلوده إلى السكينة والهدوء غير تواق للثورة عليه.

وأصبحت منطقة تازا ثغرًا منيعًا بينه وبين زناتة؛ ولذلك اعتبر المُؤَرِّخُون عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م فاصلاً في تاريخ الدولة المرابطية إذ بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى الشَّمَالى باستثناء طنجة وسبتة.

وسيَّر يوسف بن تاشفين إلى طنجة جيشًا من اثنى عشر ألف فارس مرابطي وعشرين ألفًا من سائر القبائل، وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام ٤٧٠هـ، وعندما اقتربت جيوش المرابطين من طنجة برز إليهم الحاجب بن سكوت على رأس جيش وهو شيخ يناهز التسعين، وانتصر المرابطون وفتحوا طنجة وقتل في تلك المعارك الحاجب بن سكوت.

وبعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف توسُّعَه نحو الشرق لمطاردة زناتة التى لجأت إلى تلمسان، وكان هدفه القضاء على أى مقاومة تُهَدِّد دولة المرابطين في المستقبل، وبدأت عمليات الهجوم الوقائى التى استطاعت أن تحقق أهدافها وتهزم جيش تلمسان المعادى وتأسر قائده معلى بن يعلى المغراوى الذى قُتل على الفور، ورجعت كتائب المرابطين إلى مراكش، ثم عاد يوسف نحو الريف، وغزا تلك الأراضى وضم مدينة تكرور ولم تعمر بعد ذلك.

ثم رجع بجيوشه نحو وهران وتنس وجبال وانشريش ووادى الشلف حتى دخل مدينة الجزائر، وتوقف عند حدود مملكة بجاية التى حكمها بنو حمَّاد فرع من صنهاجة.

وبنى يوسف في مدينة الجزائر جامعًا لا يزال إلى اليوم ويُعرف بالجامع الكبير [١].

وعاد إلى مراكش عام ٤٧٥هـ/١٠٨١م وبذلك توحَّد المغرب الأقصى بعد جهاد استمرَّ ثلاثين عامًا، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التَّمكين الفعلية، وفى عام ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م وجَّه الأمير يوسف ابنه المُعزَّ في جيش إلى سبتة لفتحها إذ كانت المدينة الوحيدة التى لم تخضع له، كان يحكُمُها بعد وفاة الحاجب بن سكوت ابنه ضياء الدولة يحيى، فحاصرها المعزُّ برًا وبحرًا، ودارت معركة بحرية طاحنة، وفى نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفتحوا سبتة، وقتل ضياء الدولة بعد أن ألقى القبض عليه، وكان ذلك عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م.

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٣١٣ - ٣١٤، دولة المرابطين، ص ٥٠.

بعد هذه الجولة الجهادية الموفقة تم توحيد المغرب الأقصى بجميع نواحيه بعد عمل جادّ مستمرّ، وأصبحت الدولة المرابطية قُوَّة لا يُستهان بها تُشكل خطرًا على النصارى في الأندلس، وملجأ وحصنًا للمسلمين في الأندلس. المرابطون ودفاعهم عن مسلمى الأندلس.

وفي الحقيقة أنه كانت ميادين الجهاد أمام المرابطين متعددة، فهناك الجنوب وإفريقية السوداء، ولكنهم أقلعوا عن الاتجاه بسبب الأمير أبو بكر بن عمر الذي اختار تلك الديار ميدانا لجهاده ن وكان هناك مجال آخر نو الشرق حيث توقف الفتح عند حدود بجاية، التي يحكمها بنو حماد الصنهاجيين، فآثر يوسف التوقف ولم يتقدم شرقا بسبب القرابة التي تربطه ببني حماد، وكان بإمكانه بسط نفوذه في تلك النواحي بسهولة خاصة بعد أن دمرتها غارات بني هلال، تركتها في حال من الفوضي والضعف لا تحسد عليه، ولم يكن يطمح إلى ضم أرض جديدة أو إلى أي كسب مادي، بل كان يصبو إلى تحقيق مبادئ إمامه ابن ياسين، في إحياء تراث الإسلام ومحاربة البدع والفساد والذود عن حياض المسلمين [١].

وفي تلك الأثناء كانت الأندلس تترنح تحت وطأة الضربات وأضحت نهايتها قاب قوسين أو أدني، ومع ذلك لم يهتم حكامها الجدد من ملوك الطوائف بما يجري حولهم، وظلوا منغمسين في ملذاتهم وفسادهم، يتحاربون فيما بينهم وحالفون النصاري ضد إخوانهم في العقيدة، ويؤدون لهم الجزية، مقابل الاحتفاظ بعروشهم التي تهتز تحتهم، ويستخدمون المرتزقة النصاري، لحماية أنفسهم، بعد أن فقدوا الأمل في مواطنيهم.

لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي، بعدما رأي من أمرائه التخاذل والخيانة حتي كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة علي القتال بما كان يرهقه به حكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغد ودفع الجزية للنصاري، وأصبح بين حاكم مبتز وعدو متربص، في الوقت الذي إعتلي فيه عرش إسبانيا النصرانية ألفونسو السادس بن فرديناند الذي كان يرغب في إحتلال الجزيرة الأيبيرية، وعادت حرب الاسترداد قوية علي يده [٢].

وفي السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨هـ - الخامس والعشرين من آيار

---

(١) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٠٩، ٢١٠.

(٢) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٢.

«مايو» سنة ١٠٨٥م استطاع ألفونسو السادس أن يدخل طُلَيْطِلَة «عاصمة القوط القديمة» ودخلت طُلَيْطِلَة بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المُسْلِمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عامًا، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانيا النصرانية.

وهكذا انتهت دولة ذى النون في طُلَيْطِلَة لتستمرَّ في بلنسية.

وقد أحدث سقوطها دويا هائلا في العالم الغربي وبات المسلمون في حال من الضياع التام، حتي وصل الحد ببعض ملوك الطوائف أن أرسل وفود لتهنئة ألفونسو بسيطرته علي طليطلة، حتى أن ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية ذهب بنفسه لتهنئته يحمل إليه الهدايا النفيسة، فجازاه بان أعطاه قردا احتقارا له، بينما اعتبر ابن رزين ذلك مفخرة [(١)]. وشعر مسلموا الأندلس بأنهم أيتام علي موائد اللئام، وبدؤوا بمغادرة الأندلس والمناطق القريبة من سيطرة ألفونسو، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حثوا مطيتكم ::: فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ::: ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ::: كيف الحياة مع الحيات في سفط [(٢)]

وأقفرت مملكة طليطلة من السكان الذين هجروها جماعات إلى بطليوس هربا من الاضطهاد وحفاظا علي دينهم، وشعر بقية مسلموا الأندلس أن الدور عليهم، وأحس ألفونسو بالزهو والافتخار وبدأ يتقدم صوب مدن الأندلس، فشن الغارات علي علي جميع البلاد، ونجح في الاستيلاء علي المدن والقري ما بين وادي الحجارة إلى طلبيرة وفحص اللجج وأعمال شنتمرية كلها [(٣)]، ولاح له أن نهاية الطوائف قد دنت وأنه سوف يتبع نصرا بنصر، فبدأ الضغط علي الدول الكبري المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية، وأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية له، ويتوعد بشر العواقب إذا رفض، وبمثل ذلك للمعتمد بن عباد. ومارس ألفونسو مع المُعْتَمِد أنواعًا من الإذلال والتجنى لتخرج المُعْتَمِد عن طوره ويلغى الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين

---

(١) تاريخ ابن الكردبوس، ص ٢٨٨، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٣.

(٢) المقري، نفح الطيب، ٦ / ٨٤، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨، تاريخ ابن الكردبوس، ص ٢٨٨، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٣.

(٣) تاريخ ابن الكردبوس، ص ٨٧، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٤.

ويجد ألفونسو والنصارى ما يبرِّر أفعاله الانتقامية والوحشية [١].

أمام هذا الضياع المفزع الذى وصلت إليه ممالك الأَنْدَلُس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعْتَمِد أن هذا الرأى فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدَّ في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرَّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسْلِمِين، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونسو والخضوع لشروطه، ولكن هذا الرأى لم يجد هوى في نفس المُعْتَمِد الذى خلا بابنه الرشيد وكان ولى عهده وقال له: «أنا في هذه الأَنْدَلُس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولى ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأَنْدَلُس ليس فيهم نفع، ولا يُرجَى منهم نصرة، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طُلَيْطِلَة وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا.

وإن نزل علينا طُلَيْطِلَة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأى أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا ليدافع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا، وبغضتنا العامة والخاصَّة. فأجابه الرشيد: يا أبت أتدخل علينا في أَنْدَلُسنا مَن يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أى بنى والله لا يسمع عنى أبدًا أنى أعدت الأَنْدَلُس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليَّ اللعنة من على منابر المُسْلِمِين مثل ما قامت على غيري، والله خُرز الجمال عندى خير من خُرز الخنازير» [٢].

ولما عزَم على طلب النصرة من المرابطين؛ كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصُّها: "... لما كان نور الهدى - أيدك الله - دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصحَّ العلم بأنَّك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى لما عضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلُّطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد،

---

(١) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٤.

(٢) الصلابي، دولة المرابطين، ص ٦٨.

ودأبها الإذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كلِّ جهة نارهم، ورويت من دماء المُسْلِمِين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطئ القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا الله ويا للمُسْلِمِين أيسطو هكذا بالحق الإفكُ، ويغلب التوحيدَ الشركُ، ويظهر على الإيمان الكفرُ، ولا يكشف هذه البلية النصرُ، ألا ناصر لهذا المهتضم؟ ألا حامى لما استبيح من الحرم؟ وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزيَّة التى ليس فيها عزاء، والبلية التى ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك - أعزّك الله - بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله وإنّها مؤيدة للجزيرة بالخلاء، ومَن فيها من المُسْلِمِين بالجلاء، ثم ما زال التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند حتى تخلّصت القضية وتضاعفت البلية وتحصَّلت في يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع.

وهى من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوى في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليها عدو مشترك وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركها ركبانًا ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافًا وثقالاً، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنّكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله ﷺ فإنكم إلى معرفته أهدى، وكتابى إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصّلها ويشرُحها، ومشتمل على نكتة وهو يبينها ويوضّحها، فإنه لما توجه نحوك احتسابًا، وتكلف المشقة إليك طالبًا ثوابًا، عوَّلت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه، والسَّلام».

ثم وجه ألفونسو اهتمامه نحو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة، فقد كان أقوي ملوك الطوائف، وكان منتظرا منه أن يقوم بحماية الأندلس، ولكن المعتمد لم يفعل ودخل في صراعات داخلية مع ملوك الطوائف الآخرين، أضعفت المسلمين، ثم إنه كان يعتمدفي تعامله مع نصاري إسبانيا علي مهارته الدبلوماسية - كسائر ملوك الطوائف - أو دفع أذاهم بالجزية، ولما أراد ألفونسو ضرب المعتمد فإنه أراد أن يضرب القوة الرئيسية في صفوف المسلمين فإذا استطاع القضاء عليها يسهل عليه السيطرة علي بقية ملوك الطوائف، ولما بدأ في تنفيذ خطته القاضية بالسيطرة علي الأندلس من أيدي المسلمين، فقد راعي شروط المعاهدة المعقودة مع المعتمد، فلم يهاجمه مباشرة بل طلب منه امورا مستحيلة التنفيذ، فسأله أن يتخلي له عن معاقل

وحصون على الحدود كان الموت عنده أولي من إعطائها [١] وإمعانا في الإذلال والتجني طلب ألفونسو من المُعْتَمِد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربى كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم، وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهودى ابن شالب لأخذ الجزية، وتجرأ السفير وقلَّ أدبه إن كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، وأغلظ في القول للمُعْتَمِد وقال: «لا تعتقدونى بسيطًا لأقبل مثل هذه العملة المزيفة، لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدنًا». فأخذت المُعْتَمِد النخوة الإسلاميَّة وصلب اليهودي، وقتل البعثة[٢].

وقد أثار هذا حفيظة ألفونسو ويكون قد تحصل على ما يريده، وكان ألفونسو متجهًا لحصار قرطبة فلمَّا وصل خبر البعثة أقسم بآلهته ليغزون المُعْتَمِد في إشبيلية، وحرَّك جيوشه نحو غرب الأنْدَلُس فدمَّر كل القرى والتخوم التى في طريقه نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريق آخر يدمِّر ويخرِّب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي، حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأنْدَلُس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلا: «هذا آخر بلاد الأنْدَلُس قد وطئته " [٣].

ومِن هناك أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين: «أمَّا بعد.. فلا خفاء على ذى عينين أنَّك أمير المُسْلِمِين بل الملة الإسلاميَّة، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأنْدَلُس من التخاذل والتواكل، والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الدِّيار وأهتك الأستار، وأقتل الشبَّان وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله - تعالى - فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعًا ولا تستطيعون امتناعًا، وبلغنا عنك وأنَّك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدرى أكان الجبن بك أم التكذيب بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواب فابعث إلى ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتنى فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لى اليد العليا عليك، واستكملت

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٦ / ٨٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠ / ١٤٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٥.

(٣) الاستقصا، ١ / ١١٠، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٧.

الإمارة، والله يتم الإرادة».

ولما قرئ الكتاب على الأمير يوسف بان له غروره وعدوه والاستهانة بقوة المرابطين، فأعلمه يوسف بجوابه أن قوة المرابطين سيراها ألفونسو في ساحةالمعركة لا كما ينقلها إليه أتباعه مزورة بعيدة عن الحقيقة، ثم أمر بالجواب علي ظهر الكتاب ذاته: «ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله - تعالى - » وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ::: ولا رسل إلا الخميس العرمرم (١)

وعاد ألفونسو إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المُعْتَمِد بن عَبَّاد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المُعْتَمِد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحمل المُعْتَمِد هذه الإهانة فردَّ: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك»(٢).

ترك ألفونسو إشبيلية وسار نحو سَرَقُسْطة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم، وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيرًا، ثم أخذ بلنسية، وأعطاها القادر بن ذى النون صاحب طُلَيْطِلَة السابق، وهاجم مملكة المرية، ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة، كان الخطر على الأَنْدَلُس شديدًا، وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ أن ثمانين قشتاليًا هزموا أربعمائة من المرية. وأصبح الناس بين خيارين أحلاهما مر، الخضوع للنصاري أو الهجرة جماعات؟ وكان الخيار الأخير هوالمرجح لأن البقاء في شبه الجزيرة من الجنون (٣).

أمام هذا الضياع المفزع الذى وصلت إليه ممالك الأَنْدَلُس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المُعْتَمِد أن هذا الرأى فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجدَّ في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرَّر أن يطلب النجدة من إخوانه المُسْلِمِين، وبالرغم من

---

(١) الحلل، ص ٢٧، أعمال الأعلام، ص ٢٣٩ - ٢٤٠، تاريخ ابن الكردبوس، ص ٩١، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٠٤، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٨.

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٨٠، الحلة السيراء، ص ٣٥١، الاستقصا، ١ / ١١٣، المقري، نفح الطيب، ٦ / ٩١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ١٠ / ١٤٢، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٨، الاستقصا، ١/ ١١٢، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢١٩.

أن هذا الرأي قد وجد معارضة كبيرة من كثير من ملوك الطوائف وكثير من وزراء المعتمد بن عباد وخاصته وحتي من ابنه وولي عهده الرشيد، ولكن المعتمد بن عباد كان ذو عزيمة كبيرة وبصيرة بأحوال الأندلس.

ولما عزَم على طلب النصرة من المرابطين؛ كتب رسالة إلى يوسف، هذا نصُّها: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.. إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدّين ومحيي دعوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشّاكر لأجلالها المعظّم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرامها، المنقطع إلى سمُّو مجدها، المستجير بالله وبطولها مُحَمَّد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وإنّه أيّد الله أمير المُسْلِمِين ونصر به الدّين، فإنّا - نحن العرب - في هذه الأنْدَلُس قد تلفت قبائلنا، وتفرَّق جمعنا، وتغيَّرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا؛ فصرنا شعوبًا لا قبائل، وأشتاتًا لا قرابة ولا عشائر، فقلَّ نصرنا، وكثر شُمَّاتُنا، وتولّى علينا هذا العدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بطُلَيْطِلة ووطئها بقدمه، وأسر المُسْلِمِين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأنْدَلُس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مُحَمَّد ﷺ، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» [١].

وإلي جانب الكتب الرسمية وردت علي الأمير يوسف كتب وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحثُ الأمير على إنقاذ الأنْدَلُس.. [٢].

أطلع الأمير يوسف حاشيته وخاصته ووزراءه علي المحادثات لاستشارتهم بالأمر وكان المرابطون متشوقين لدخول الأندلس والجهاد ضد النصاري، فأجمعوا

---

(١) الصلابي، دولة المرابطين ص (٧١).
(٢) انظر الحلل، ص ٣٠.

على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف ومستشاره أندلسي الأصل اسمه عبد الرحمن بن أسبط أو أسباط، فنصحه المستشار بأن يطلب من المُعْتَمِد بن عَبَّاد الجزيرة الخضراء لكي تكون آمنة لعبور الجيش، ولحماية خطوط التموين، وقال له: إن الأمر لله تعالى ولكم، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، واقتنع الأمير يوسف برأي وزيره في طلب الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن: صدقت يا عبد الرحمن، لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، اكتب إليه بذلك.

وكتب ابن أسبط إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد الكتاب التالي نصُّه: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلّم:

من أمير المُسْلِمِين وناصر الدِّين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المُعْتَمِد على الله أبي القاسم مُحَمَّد بن عَبَّاد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا في الشَّرع، وفي كتاب الله تعالى، وإنَّه لا يمكننا الجواز إلا أن تُسلّم لنا الجزيرة الخضراء؛ تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك، وابعث إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله تعالى» (١).

ثم جمع المُعْتَمِد القاضي والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضي بن المُعْتَمِد، فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهناً بتصرف الأمير يوسف. وبعد موافقة المُعْتَمِد تجهَّز يوسف لتلبية نداء إخوانه في العقيدة راغبًا في الأجر والمثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أمانًا لأهل الأَنْدَلُس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول مُنتَدَبٍ لنصرة هذا الدِّين، لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي " وأعلن النفير العام في قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش، ومن الصحراء وبلاد الزاب، ومن مختلف نواحي المغرب يتوافدون على قيادتهم الربَّانية، وجهزت السفن لتحمل هذه

---

(١) الحلل، ص ٣٢، ٣٣.

القوات، وكان أول من نفَّذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود ابن عائشة، وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المرابطين، وكانت معهم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأندلسيين، لأنّهم لم يكونوا يعرفونها من قبل، وقد أثّر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها.

ولما تكامل الجيش المرابطي بساحل الجزيرة الخضراء، ركب الأمير يوسف ومعه قادة من خيرة قادة المرابطين وصلحائهم، ولمَّا ركب واستوى على السفينة رفع يديه نحو السماء مناجيًا: «اللهم إن كنت تعلم أن جوازنا هذا إصلاح للمُسْلِمِين فسهِّل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه». وسهل الله عبورهم، وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول ٤٧٩هـ حزيران ١٠٨٦م، وصلى الأمير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاة الظهر، وقام أهل الجزيرة بضيافة المرابطين، وظهر فرحهم وسرورهم على وجوههم، وبدأ الأمير يوسف في تحصين الجزيرة الخضراء، ورمَّم أسوارها وما تصدَّع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة والأطعمة وكلف مجموعة من جنوده بحراستها ثم ساروا نحو إشبيلية [١].

* * *

موقعة الزلاقة

سارع المُعْتَمِد مع مئة من فرسانه وقادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال أمير المرابطين، ولما التقى بيوسف تعانقا طويلاً بمودة وحب وإخلاص وأخوة في الدِّين، وتذاكرا نعم الله عليهما، وتواصيا بالصبر والجهاد في سبيل نصرة دين المُسْلِمِين، وكان المُعْتَمِد مُحمَّلاً بالهدايا، وأصدر أوامره لعمال البلاد بجلب الأرزاق لضيافة الجيش المرابطي، وكان المُعْتَمِد كريمًا وجوادًا باذلاً للخير.

واستعرض المُعْتَمِد الجيش المرابطي فرأى «عسكرًا نقيًا ومنظرًا بهيًا».

وواصل الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق حتى وصل حاضرة المُعْتَمِد، فأقام بها ثلاثة أيام للاستراحة، ثم قال للمُعْتَمِد: «إنما جئت ناويًا جهاد العدو حيثما كان توجهت» [٢].

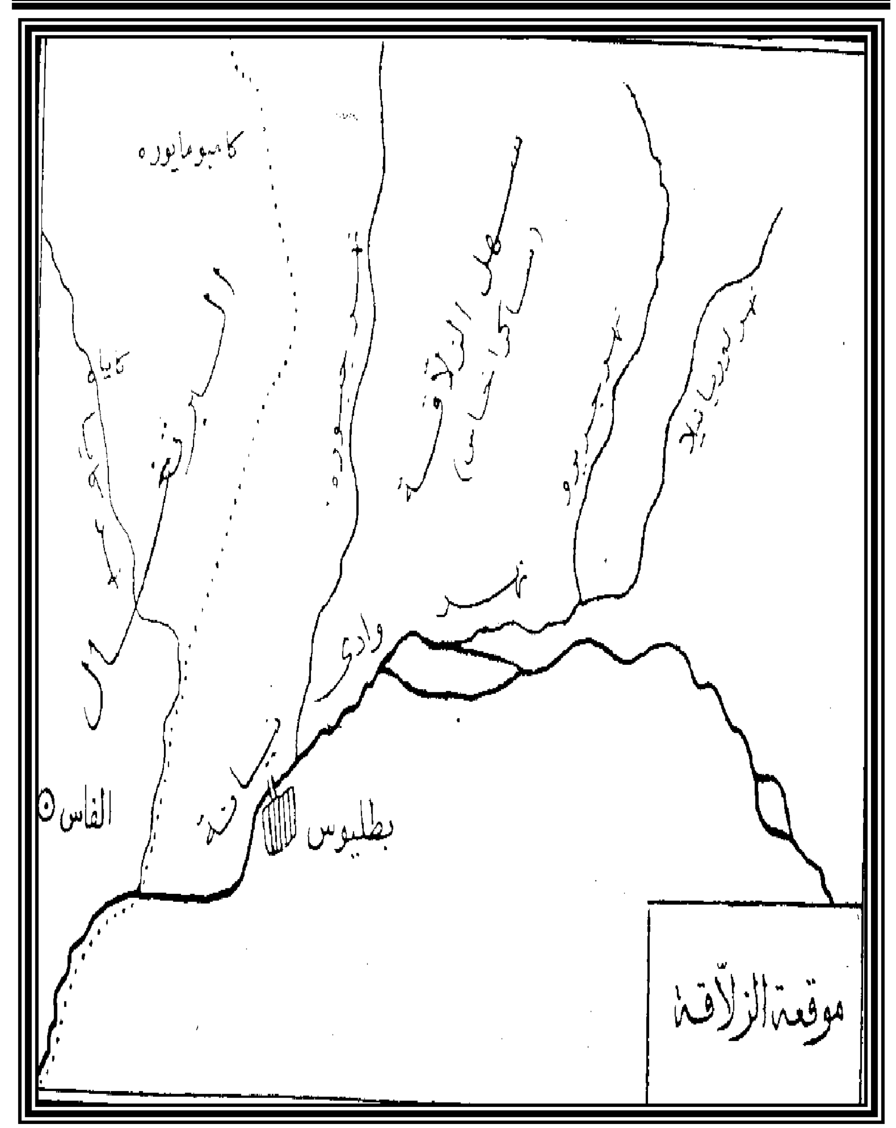
(١) الاستقصا، ١ / ١١١ - ١١٤، الروض المعطار، ص ٨٧، نفح الطيب، ٦ / ٩٣، الحلة السيراء، ٣٥٢، الحلل، ص ٣٤.

(٢) الروض المعطار، ص ٨٧، نفح الطيب، ٦ / ٩٥، الحلة السيراء ص ٣٥٢، الاستقصا، ١ / ١١٤، الحلل ص ٣٥، مذكرات ألأمير عبد الله، ص ١٠٤.

وأثناء مقام الأمير يوسف في إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأنْدَلُس يستنفرهم للجهاد فكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين الصنهاجى صاحب غرناطة الذى خرج إليه بأمواله ورجاله، وأخوه تميم صاحب مالقة، وأرسل ابن صمادح ابنه معز الدولة في فرقة من جيشه، وسار الأمير الربَّانى والقائد الميدانى نحو بطليوس، فاستقبلهم صاحبها المُتَوَكّل بن الأفطس على ثلاث مراحل من المدينة، وقدَّم لهم الهدايا والضيافة وعلف الدواب وظهر منه جود وكرم، وأقام الأمير أيامًا عدة حتى يصل باقى المتطوعين إلا أن أكثرهم لم يصل لانشغالهم بمدافعة النصارى، فتابع سيره الجهادى حتى حطّ رحاله عند سهل الزّلاقة [١]، وكان يبعد عن بطليوس ثمانية أميال.

---

(١) الزلاقة sagrajas.
سهل بالأندلس يقع شمالي بطليوس جرت فيه الوقعة الشهيرة بين البربر بقيادة يوسف بن تاشفين ومن انضم إليه من ملوك الأندلس وبين ألفونسو السادس (الأذفنش) ملك (قشتالة) castilla سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م وفيها هزم جيش الأسبان وقتل أكثره.



ونظّم يوسف بن تاشفين جيشه، فجعل الأندَلسيين جيشًا، مستقلاً بذاته وأسند قيادته إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد الذى تولى المقدمة، وأسندت الميمنة إلى المُتَوَكّل بن الأفطس، وجعل أهل شرق الأنْدَلُس على الميسرة، وباقى أهل الأنْدَلُس في الساقة.

أمَّا الجيش المرابطى فتولى داود ابن عائشة قيادة فرسانه، وأما سير بن أبى بكر فتولى قيادة الحشم، وبقية المرابطين مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب

قيادتـه الجـيش الإسـلامي، وعسكر المرابطـون خلف الأنْدَلُسيين تفصل بينهم ربـوة بقصد التمويه، وكـان تعداد جيش المرابطين والأنْدَلُسيين أكثر من ٢٤ ألف جندي، وتضاربت الروايات في ذلك [١].

كانت أنباء عبور المرابطين إلى الأندلس قد وصلت إلى ألفونسو وهو محاصر سرقسطة ولما وصله الخبر السعيد ارتاع، ولكنه حاول أن ينتهز هذه الفرصة، وطلب من المستعين بن هود حاكم سَرَقُسْطَة أن يدفع لـه مـالاً مقابل فك الحصار، معتقدا أن المستعين لا علم لـه بـالعبور، ولكن الخبر السعيد قد عم الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، وكأنه رحمة نزلت من السماء علي المستعين، الذي رفض إعطائه درهما واحدا خشية أن يتقوي بها علي قتال المسلمين [٢].

واضطرَّ ألفونسو لرفع الحصار، ورجع مسرعًا إلى طُلَيْطِلَة، وأعلن الاستنفار العام، وحل نزاعه وخلافه مع بعض أمراء النصارى، وأرسل إلى مَن وراء جبال ألبرتات فأتته أفواج عديدة من النصارى متطاوعة من أجل الحرب المُقدَّسة، وجند ألفونسو كل مَن يستطيع حمل السلاح صغيرًا أو كبيرًا، ونظَّم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين: أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا ورودريك، وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدء المعركة أثر خلاف مع ألفونسو الذى أبقى رودريك في القيادة، واحتفظ بقيادة الجيش الثانى وعيَّن على جناحيه سانتشور أميرز والكونت برنجار ريموند، وتولَّى هو القلب، «وكان جيش ألفونسو يعتمد على الفرسان كمجموعة، وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التى تغطيه من الرأس إلى القدم كأنَّه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته».

ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبرياءه، وقال قولة تدل على تجذر كفره وعتوه وفساد معتقده حيث قال: «بهذا الجيش ألقى مُحَمَّدا وآل مُحَمَّد والأنس والجن والملائكة» [٣].

«وكانت جموع الرهبان والقسيسين أمام جيش ألفونسو الملعون يرفعون الإنجيل والصلبان لإذكاء الحماس الدِّينى في نفوس الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من ستين

---

(١) روض القرطاس، ص ٩٤، الحلل الموشية ص ٤١، ابن الكردبوس، ص ٩٣، الصلابي، دولة المرابطين، ص ٨٠ - ٨١.
(٢) روض القرطاس، ص ٩٣، الاستقصا، ١ / ١١١.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ١٠ / ١٥٣.

ألفا»(١).

وخرج ألفونسو بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المُعْتَمِد بن عَبَّاد كتابًا جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد تعنّى من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلفكم تعبًا، وأمضى إليكم وألقاكم في بلادكم رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم» (٢).

وقصد ألفونسو بذلك أن تكون المعركة خارج بلاده فإذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم في أرضهم ولابد من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه.

وصل ألفونسو إلى بطحاء الزّلاقة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون (٣).

كانت الأحوال تنذر بأن المعركة سوف تكون حاسمة بالنسبة للأندلس، فقد بلغت قوي النصرانية ذروة قوتها، تذكيها نزعة صليبية تهدف إلى طرد العرب من إسبانيا، في المقابل فإن الحماس الذي بثه المرابطون قد جدد عزائم الأندلسيين وأحيي موات الآمال فيهم.

وقبل بدء المعركة الفاصلة وجريا علي سنة الإسلام في القتال، أرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو كتابًا يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وهذا من مقتضيات الشريعة الإسلامية في قتال أهل الكتاب، ومما جاء في كتاب الأمير: «بلغنا يا أذفونش أنّك نحوت الاجتماع بنا، وتمنيّت أن تكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك{وَمَا دُعَتَوُٓاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ} [غافر: ٥٠] (٤).

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبنى وأنا وأبى نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟» (٥) وقال لرسول الأمير

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ١٠ / ١٥٣، الروض المعطار، ص ٨٨، الحلة السيراء، ص ٣٥٣، نفح الطيب، ٦/ ٩٦، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٩.
(٢) الروض المعطار، ص ٨٨، نفح الطيب ٦/٦.
(٣) روض القرطاس، ص ٩٤، ابن الكردبوس، ص ٩٣.
(٤) الحلل، ص ٣٥، الروض المعطار، ص ٩٠، الحلة السيراء، ص ٣٥٤، نفح الطيب، ٦ / ٩٧، الاستقصا، ١ / ١١٦ ابن خلكان، وفيات الأعيان (١١٦/٧).
(٥) الحلل، ص، ٣٥، الصلابي، دولة المرابطين، ص ٧٨.

يوسف: «قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك» [١]، وإنّنا سنلتقي في ساحة المعركة، ومعنى ذلك أن ألفونسو اختار الحرب [٢].

والحرب خدعة فقد حاول ألفونسو حامي حمى النصرانية في إسبانيا أن يخدع المُسْلِمِين ويمكر بهم، فكتب إلى الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه: «إن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنّه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين» فكان جواب الأمير يوسف: «اتركوا اللعين وما أحب» [٣].

ولكن المعتمد تنبه لهذه الخدعة وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة إنّما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النّهار» [٤].

واستعد المُسْلِمُون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المُعْتَمِد صائبًا صحيحًا، ورصدوا تحرك العدو نحوهم.

وانقض الجيش الذى يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المُسْلِمِين من الأنْدَلُسيين فتصدَّى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود ابن عائشة الذين أرسلهم يوسف بن تاشفين على عجل لدعم الأنْدَلُسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفزع قلوب الأنْدَلُسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأنْدَلُسيين وقومه «المُعْتَمِد بن عَبَّاد وأهل إشبيلية» وأبلى بلاءً عظيمًا وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد المُعْتَمِد مع داود ابن عائشة حتى فلت السيوف، وتكسرت الرماح، وصبر المُسْلِمُون في المعركة صبرًا عظيمًا سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد.

---

(١) روض القرطاس، ص٩٤.

(٢) الأندلس في عصر المرابطين، ص (٨٢).

(٣) الحلل الموشية، ص ٣٦.

(٤) الحلة السيراء، ص ٣٥٤، الروض المعطار، ص ٩٠، نفح الطيب، ٦ / ٩٨ الاستقصا ١ / ١١٦، أعمال الأعلام، تحقيق العبادي، ص (٢٤٣).

وبدأت قوة المُسْلِمِين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر مُعْتَقِدًا إن هذه هى قوة المُسْلِمِين المقاتلة التى ظهر الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقيادة سير بن أبى بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلاميَّة، فتقوَّت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها، ولم ينج منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم. وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارّين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه، وأنَّه خسر حوالى عشرة آلاف قتيل، ووجد ألفونسو نفسه محاصرًا من المُسْلِمِين فاضطر للقتال متقهقرًا نحو معسكره المحروق، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس، فانقضَّ عليه كالسيل، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المُسْلِمِين قائلاً: «يا معشر المُسْلِمِين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رُزق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»، وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكأن العناية الإلهية كانت تحميه [(١)]، وكان فقهاء المُسْلِمِين وصالحوهم يعظون الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدِّين، وفى هذا الجو الرهيب من القتال الذى دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ونزاريق الزان.

اندفعوا إلى المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية، وتكسَّرت شوكتهم، وانقض أسد من أسود المُسْلِمِين على ألفونسو وطعنه في فخذه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش، ولجأ مع خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين.

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذى تابع سيره مع

---

(١) الحلل الموشية، ص ٤٢، روض القرطاس، ص٩٥، ابن الكردبوس، ص ٩٣، نفح الطيب، ٦ / ١٠١، الأندلس في عهد المرابطين، ص ٨٥، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٠٩.

الظلام إلى طُلَيْطِلة، وصل إليها مغمومًا حزينًا كسيرًا جريحًا بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو في الزّلاقة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رءوس القتلى من النصارى، فعمل المُسْلِمُون منها مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، قلما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضي مراكش عبد الملك المصمودي، والفقيه الناسك أبو العبّاس بن رميلة القرطبي. وجمع المُسْلِمُون الأسلاب والغنائم التي تركها النصارى وراءهم في ساحة المعركة، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأَنْدَلُس، وقد عرَّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام [(١)].

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب أخبار النصر المبين وهذا نص خطابه: «أمَّا بعد حمدًا لله المتكفّل بنصر أهل دينه الذى ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد أفضل وأكرم خلقه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين ١٥ رجب وقال: الجمعة عيد المُسْلِمِين، والسبت عيد اليهود، وفى عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فافترقنا على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلمناه أنهم أهل خدع ونقض عهود فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة ١٢ رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المُسْلِمِين، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المُسْلِمِين، وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها، وتعدَّته قبل أن يتعداها، وانقضت جيوش المُسْلِمِين على جيوشهم كانقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برايته السعيدة المنصورة في سائر المشاهد مشتهرة ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفونسو - فلمَّا أبصر النصارى راياتنا المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الصفاح، وأظلّتهم سحائب الرماح، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفونسو، وحملوا على المُسْلِمِين حملة منكرة؛ فتلقّاهم المرابطون بنيَّات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح، بالطعن والضرب، وطاحت المهج وأقلبت سيل الدماء في

---

(١) ابن الكردبوس، ص ٩٤، الحلة السيراء، ص ٣٥٦، وفيات الأعيان، ٧ / ١١٨، نفح الطيب، ٦ / ١٠٢، الروض المعطار، ص ٩٢ - ٩٥، ملوك الطوائف، ص ٣١٤، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١١١.

هرج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج.

وولّى ألفونسو مطعونًا في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في ٥٠٠ فارس من ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل قادهم الله على المصارع والحتف العاجل، وتخلّص إلى جبل هنالك، ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذرًا، ويحيد عنها صبرًا، ولا يستطيع عنها دفعًا ولا لها نصرًا، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وأمير المُسْلِمِين يحمد الله؛ قد ثبتت في وسط المعركة مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة منصورًا لجهاد مرفوع الأعداء، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتصطلم ذخائرها وأسبابها، وتريه رأى العين دمارها ونهبها، وألفونسو ينظر إليها نظر المغشى عليه، ويعض غيظًا وأسفًا على أنامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار، رؤساء الأنْدَلُس المهزومين نحو بطليوس والفار، فتراجعوا حذرًا من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقوّاد، أبو القاسم المُعْتَمِد بن عَبَّاد، فأتى أمير المُسْلِمِين وهو مهيض الجناح، مريض عنه وجراح، فهنأه بالفتح الجليل، وتسلّلَ ألفنش تحت الظلام فارًا لا يهدى ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طُلَيْطِلَة إلا مائة فارس والحمد لله على ذلك كثيرًا.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـ/٢٣ شهر أكتوبر ١٠٨٦م.. العجمي [١].

وأرسل المُعْتَمِد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزفُّ إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحرٍّ من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها: «اعلم أنه التقت جموع المُسْلِمِين بالطاغية ألفونسو اللعين ففتح الله للمُسْلِمِين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب العالمين، فأعلم بذلك من قبلك إخواننا المُسْلِمِين والسلام»، وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمرى وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونسو من الغدر والآخرة للصالحين [١].

---

(١) نفح الطيب، ٦ / ١٠٣، الحلة السيراء، ص ٣٥٦، الروض المعطار، ص ٩٥، روض القرطاس، ص ٩٧ - ٩٨، الحلل الموشية، ص ٤٥ - ٤٧، الصلابي، دولة المرابطين، ص١١٢.

(١) الحلل، ص ٤٤ - ٤٦.

وأصبح يوم الزّلاقة عند المغاربة والأندلسيين مثل يوم القادسية واليرموك: «يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فياله من فتح ما كان أعظمه، يوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزّلاقة ثبتت قدم الدّين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها».

نتائج معركة الزلاقة:

كانت لمعركة الزّلاقة نتائج مهمة من أهمها:

١ - رفع الروح المعنوية لأهل الأنْدَلُس، خصوصًا بعد أن أنقذ الله بها سقوط سَرَقُسْطَة من سقوط محتّم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التى لا تنتهى من الجزية وغيرها.

٢ - سقوط هيبة ملوك الطوائف أمام رعاياهم خاصَّة أنهم قد هزموا في بدء المعركة ولولا أن أكرمهم الله بالمرابطين لضاعت الأنْدَلُس.

٣ - امتناع الرعية عن دفع الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وتعلُّقهم بالمرابطين.

٤ - مهَّدت الزّلاقة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم.

٥ - ظهور نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم أجمع.

٦ - انصياع قبائل المغرب التى كانت مترددة في ولائها وتنتظر فرصة الوثوب على المرابطين، وبذلك تكون نتيجة معركة الزّلاقة أن جعلت تلك القبائل تخلد إلى السكينة وأعلنت ولاءها التام.

٧ - عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامى في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب وسُرَّ العلماء والفقهاء بهذا النبأ السعيد.

٨ - أصيب نصارى الإسبان بهزيمة تعيسة أثّرت في نفوسهم، وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضى المُسْلِمِين في الأنْدَلُس وإبعادهم.

٩ - جعلت النصارى يُرتّبون أمورهم ويوحِّدون صفوفهم، ويتنازلون عن صراعاتهم الدَّاخِلِيَّة.

وغير ذلك من النتائج المهمة التى غيرت مجرى تاريخ الأنْدَلُس وبلاد المغرب [(١)].

---

(١) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص ٢٤٦ - ٢٤٧، الصلابي، دولة المرابطين،

بعد أن رتب الأمير يوسف أموره بعد معركة الزّلاقة عاد إلى إشبيلية، ودعا رؤساء الأندلس إلى اجتماع عام، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذى نخر فيهم بسبب اختلافهم؛ فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته، وترك ثلاثة آلاف جندى مرابطى للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبى بكر [١].

في نشوة النصر عاد الأمير يوسف فجأة إلى المغرب دون أن يجني ثمار نصره، وعلي الأقل استرجاع مدينة طليطلة، وقد تعددت الأسباب التي حملته علي تلك العودة المفاجئة فمنها:

١ - وفاة ابنه الأمير أبى بكر الذى استخلفه على سبتة وكان مريضًا [٢].

٢ - اضطراب الحدود الشرقية بسبب تحالف بنى حَمَّاد مع عرب بنى هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية [٣].

٣ - أراد أن يتفقد الولاة والحُكّام الذين تركهم في المُدُن والقرى، وينظر في أمور الرعية [٤].

٤ - أراد أن يخرج من إلحاح مسلمى الأندلس الذين طلبوا منه تعقُّب ألفونسو وجنوده حيث إنه رأى إن قواته لا تستطيع أن تسيطر على كل الأندلس لاتساع أراضيها[٥].

٥ - خشى من إبراهيم بن أبى بكر بن عمر الذى زعم أنه له حق شرعى في استخلاف والده المجاهد الكبير [٦].

* * *

ص ١٢٤.

(١) نفح الطيب، ٦ / ١٠٤، الروض المعطار، ص ٩٥، الحلة السيراء، ص ٣٥٦، وفيات الأعيان، ٧ / ١٢٢ الحلل الموشية، ص ٤٥ - ٤٧، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص ٢٤٦ - ٢٤٧، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٢٤.

(٢) روض القرطاس، ص ٩٨، الاستقصا، ١ / ١١٨.

(٣) قيام دولة المرابطين، ص ٢٨٨.

(٤) روض القرطاس، ص ٩٨، أعمال الأعلام، ص ٢٤٩، وفيات الأعيان، ٥ / ٢٩.

(٥) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص ٢٤٨ - ٢٤٩، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٢٥.

(٦) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس ص ٢٤٨ - ٢٤٩، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٢٥.

الأندلس بعد الزلاقة

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب للأسباب التى ذكرتها تولى قيادة المرابطين القائد الميدانى سير بن أبى بكر، الذى واصل غاراته الناجحة مع أمير بطليوس على أواسط البرتغال الحالية مما يلى تاجة، وقد أثخنتْ قواته مع قوات المرابطين في تلك البقاع.

كما وجَّه المُعْتَمِد بن عَبَّاد ضربات موفقة بقيادته إلى عدة مُدُن حول طُلَيْطِلَة، ثم اتجه نحو أرض مرسية، حيث استقرَّت جموع الفرسان النصارى بقيادة الكنبيطور في أحد الحصون القريبة التى تشن غاراتها على مُدُن المسلمين، خاصة مدينة المرية، إلا أن المُعْتَمِد انهزم واضطرَّ أن يلتجئ إلى قلعة لورقة في كنف واليها مُحَمَّد بن ليون، ثم توجه نحو قرطبة تاركًا مرسية لمصيرها.

وبدأت قوات النصارى تتجمع حول ألفونسو الذى أربك مُدُن شرق الأَنْدَلُس، متخذين من حِصن لييط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزًا لشنِّ الغارات على أراضى المُسْلِمِين.

فلم يمض عام واحد على هزيمة ألفونسو حتى عاد نشاطه وجيشه، ونقل مقر العمليات إلى شرق الأَنْدَلُس الذى خيمت عليه الفرقة السياسية، بعكس غرب الأَنْدَلُس الذى كانت تحكمه مملكتان قويتان هما مملكة إشبيلية وبطليوس، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل على رأسها القائد العظيم سير بن أبى بكر [(١)].

وهكذا بدأت مناطق شرق ألأندلس بعد الزلاقة مباشرة وكأنها علي شفير الهاوية والسقوط بيد الأسبان، وأرتفعت أصوات الاستغاثة من جديد تستنجد بالأمير يوسف، وأخذت الوفود الشعبية وعلي رأسها الفقهاء تعبر إلى المغرب مستغيثة مستنجدة به لإنقاذ الأندلس من هذه المحنة التي عادت. فتوافدت وفودهم على الأمير يوسف، وخصوصًا أهل بلنسية ومرسية ولورقة، يصفون للأمير يوسف ما نزل بهم على أيدى النصارى الذى يتحكمون في حصن لييط.

وعبر المُعْتَمِد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور، فاستجاب يوسف لرغبته، وتمَّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة ٤٨١هـ/

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٢، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٢٥.

١٠٨٨م، ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأنْدَلُس يدعوهم إلى الجهاد، ثم تحرّك الأمير يوسف إلى مالقة في صحبة أميرها تميم بن بلقين، كما لحق الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح، فضلاً عن المُعْتَمِد بن عَبَّاد، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان، ولم يتخلف من ملوك الطوائف سوى ابن الأفطس صاحب بطليوس، وتوجهت تلك الجموع لضرب الحصار على حصن لييط الذى كان يسكنه ألف فارس واثنا عشر ألفًا من المشاة من جنود النصارى الحاقدين أصحاب النزعة الصليبية الانتقامية، واستبسل النصارى في الدفاع عن الحصن وكانوا يخرجون ليلاً للانقضاض على المُسْلِمين وإلحاق الخسائر بهم.

واستمرَّ الحصار بدون جدوى وظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ووصلت للأمير يوسف الذى ساءه ذلك كثيرًا.

وشكى المُعْتَمِد بن عَبَّاد للأمير يوسف خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ودفعه الأموال لألفونسو السادس تقربًا إليه، وظهرت المشاكل بين أبناء بلكين عبد الله وتميم للأمير يوسف، وكأن لا عمل له إلا حل المشاكل والمنازعات بين الأطراف المتنازعة.

وتضايق الأمير يوسف من خيانة ابن رشيق الذى دفع أموالاً طائلة لألفونسو، وعرض الأمر على الفقهاء والعلماء الذين أفتوا بإزاحته من حكمه وتسليمه للمُعْتَمِد، واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذى أجابه بأنّها أحكام الدِّين ولا يستطيع مخالفتها.

وأمر القائد سير بن أبى بكر باعتقاله وتسليمه للمُعْتَمِد مشترطًا عليه إبقاءه حيًّا[1].

ونفذ سير المهمة، وبهذا يكون الأمير يوسف قد وضع فتاوي الفقهاء فوق كل اعتبار مهما تكن النتائج، وضحي بحليف صغير من أجل حليف اكبر.

وفرَّ جيش مرسية وابن رشيق من المعركة، ومنع الزاد على جيش المرابطين ومَن معه من الأنْدَلُسيين الذين يحاصرون الحصن، فارتفعت الأسعار، ووقع الغلاء واضطربت الأحوال، وعندما علم ألفونسو بالخلافات التى وقعت حشد جيشًا من أجل

---

(١) الحلل، ص ٥٠، مذاكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١١١ - ١١٢، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٢٦.

فك الحصار عن أتباعه في حصن ليبط، فاضطرَّ الأمير يوسف إلى فك الحصار خوفًا من معركة خاسرة غير مأمونة النتائج خاصة بعد الذى رآه من حُكّام الأنْدَلُس وتآمرهم واتصالهم بالعدو، ورجع الأمير يوسف إلى لورقة وترك أربعة آلاف مرابطي بقيادة داود ابن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية وبعث بجنود إلى بلنسية بقيادة مُحَمَّد بن تاشفين.

واستطاع ألفونسو الوصول للحصن وأخرج من نجا من الموت، ورأى أن لا فائدة من الاحتفاظ بالحصن، لأنّه يتطلب حماية كبيرة معرضة لمصير سابقاتها فقرَّر إخلاءه وتدميره، واسترجع ابن عَبَّاد الحصن بعد أن أصبح أطلالاً [١].

لقد أيقن الأمير يوسف إن أمراء الأنْدَلُس لا يصلحون للحكم ولا يعتمد عليهم في جهاد، وبعد رجوع الأمير يوسف في عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م عرض الأمر على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأنْدَلُس للمغرب.

وكان فقهاء وعلماء الأنْدَلُس يؤيدون ذلك، وكذلك فقهاء وعلماء المغرب والمشرق، وأرسل الإمام الغزالى وأبو بكر الطرطوشي فتوى تؤيد عمله الجليل من أجل توحيد صفوف المُسْلِمِين [٢].

يقول الغزالي في شأن أمراء الطوائف: فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة ولا سيما وقد استنجدوا بالنصارى، فقد أفتاه العلماء بجواز خلعهم وإزاحتهم، وبأنه في حل مما تعهد لهم به من الإبقاء عليهم في جوازه الأول، لأنهم خانوا الله بمعاهدتهم ألفونس على محاربة المسلمين؛ وبالتالي فإن عليه أن يبادر إلى خلعهم جميعًا، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم، أغاروا بقية بلاد المسلمين إلى الروم وكنت أنت المحاسب بين يدي الله، وكان ممن استفتى في هذا الموضوع الفقيه يوسف بن عيسى المعروف بأبي الملجوم [٣].

وطلب القضاة والفقهاء من يوسف أن يرجع ويوحد البلاد بالقوة، لتدخل تحت الخلافة الإسلاميَّة في بغداد.

---

(١) الحلل، ص ٥٠، روض القرطاس، ص ٩٩، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١١٢، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٥٧.
(٢) ابن خلدون، العبر، ٦/ ١٨٧.
(٣) محمد بن بيّه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، ص١٥٥.

لقد كان ملوك الطوائف يهتمون بمصالحهم الخاصة لا ينظرون إلى عزة أمتهم حتى وصفهم ابن حزم بقوله: «لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا » [١].

وكان المُسْلِمُون في الأنْدَلُس يتمنون أن ينضموا إلى دولة المرابطين، وعبَّر عن ذلك فقهاؤهم وعلماؤهم وبرز الفقيه القاضي ابن القلاعي «قاضي غرناطة»، الذي توطدت العلاقة بينه وبين يوسف بن تاشفين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة، إذ كان أحد أعضائها، وكان يرى في الأمير يوسف صلاحًا وعدلاً وحزمًا.

حاول الأمير عبد الله ابن ملك غرناطة أن يتخلص منه فاعتقله، ثم اضطر إلى إطلاق سراحه، فهرب إلى قرطبة، ومن هناك اتصل بالأمير يوسف وأطلعه على خفايا من الأمور، وأفتى بخلع ملوك الطوائف، وتفاعل مسلمو الأنْدَلُس مع هذه الفتوى الموفّقة [٢].

وأرسل الإمام أبو بكر بن العربي المالكي إلى الإمام الغزالي كتابًا يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأنْدَلُس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية، ويطلب منه فتيا في ذلك، قال الإمام أبو بكر بن العربي: «وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق، ولطول باعه في العلم ورحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن مُحَمَّد الطوسي الغزالي، فاستدعينا منه فتيا وكتابًا، واختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها لكن أنبه على معناها وهو: في علم الإمام ما ذكر في وصف خلال أمير المُسْلِمِين وناصر الدِّين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربين الأنْدَلُس والعدوة، وما أوضحت لديه من إعزاز الدِّين، والذب عن المُسْلِمِين، وهو حميري النسب ومعه المرابطون، وقد وقفوا أنفسهم على الجهاد، وقد كانت جزيرة الأنْدَلُس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعمائة، عدة ثوار تسوروا على البلاد، فضعف أهلها عن مدافعتهم، وتلقَّبُوا بألقاب الخلفاء وخطبُوا لأنفسهم، وضربوا النقود بأسمائهم، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كلٍّ واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه، واستبانوا الفُسَّاق في الأرقاء والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضًا، واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه، وعند ذهاب شوكة

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣ / ٣١٩.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله، ص ١١٩، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٦١، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٢٨.

المُسْلِمِين، وحينما انكشف للنصارى ضعف المُسْلِمِين، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المُسْلِمِين، طلبوا المعاقل وأخذوا بالحرب كثيرًا منها من غير مؤونة ولا مشقَّة، ثم لجأ الباقى من المُسْلِمِين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المُسلِمين ووصل إلى البحر، فاستاء بعض الرؤساء وفاءً للمشركين، وحقدًا على المُسْلِمِين في استدعائهم له، ووصل الأمير إلى غرب الأَنْدَلُس فمنحه الله نصرًا، وألجم الكفار السيف، ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح فتهيبه العدو، وتحصَّن منه، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقى من جزيرة الأَنْدَلُس، حالفوا النصارى أو صاروا معه إلبًا، ودعاهم أمير المُسْلِمِين إلى الجهاد، والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا: لا جهاد إلا مع إمام من قريش، ولست به، أو مع نائب عن الإمام، وما أنت ذلك، فقال: أنا خادم الإمام العبَّاسي، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك، فقال: أو ليست الخطبة في جميع بلادى له؟ فقالوا: ذلك احتيال. ومردوا على النفاق، فهل يجب قتالهم؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم؟ وهل على المسلم حرج في قتالهم؟ وهل على الإمام العبَّاسى أن يبعث بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم، فإنهم إنّما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه، وهو يخطب له على أكثر من ألفى منبر، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك، ومتى وصف نفسه قال: لست مستبدًّا وإنما خادم أمير المؤمنين المستظهر، وهذا أشهر أن يؤكد بالتحلية، وأظهر من أن يجدد بالتزكية.

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد والأوحد أبى حامد أتم الأجر، وأعم الشكر في الإنعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله تعالى (١).

فأجاب الإمام الغزالى رحمه الله: «لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذى يستغنى عن شهادته عن غيره وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم، من سيرة هذا الأمير - أكثر الله من الأمراء أمثاله - ما أوجب الدعاء لأمثاله، ولقد أصاب الحق في إظهار الشعار الإمامى المستظهرى - حرس الله على المستظهرين ظلاله - وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المُسْلِمِين في مشارق الأرض ومغاربها، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للإمام الحقّ، وإن لم يكن بلغهم صريح

---

(١) د. أحمد العبادي، دراسات في تاريخ المغرب، ص ٤٧٩ - ٤٨٠، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٣٠.

التقليد من الإمام، أو تأخر عنهم ذلك لعائق، وإذا نادى الملك المستولى بشعار الخلافة العباسية، وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد، ولزمهم السمع والطاعة، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هى طاعة الإمام، ومخالفته هى مخالفة الإمام، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة، فحكمه حكم الباغي، وقد قال تعالى:{وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ} [الحجرات: ٩]. والفيئة إلى أمر الله، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية، فكل متمرد على الحق فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته، ولا سيَّما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين وأوليائهم، وهم أعداء الله في مقابلة المُسْلِمِين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية، ويتركوا المخالفة، وجب الكفُّ عنهم، وإذا قاتلوا لم يَجُز أن يُتَتَبَّعَ مدبرهم، ولا أن يُذَفَّف [(١)] على جريحهم، بل متى سقطت شوكتهم وانهزموا، وجب الكفُّ عنهم، أعنى عن المُسْلِمِين منهم دون النصارى الذين لا يبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المُسْلِمِين، وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على وريثهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لا ضمان فيها وحكمهم في الجملة في البغى على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، والمستولى على المنابر والبلاد بقوة الشوكة حكم الباغى على نائب الإمام، فإنه وإن تأخَّر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على الإمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، في أن يخطب عليه، وينادى بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغى أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه.

وإن توقَّف في كتبه المنشور، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير، وأما الإذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسِّيَاسَة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين فلا رخصة في تركه، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهورًا لا شك فيه، وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفتنة لا تنطفئ إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة

(١) لا يذفف: لا يجهز.

بمثله في تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك. فإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحلُّ له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن، قال عمر (: «لو تركت جرباء على ضفة الفرات، لم تطل بالهناء، فأنا المسؤول عنها يوم القيامة»، قال سليمان بن عبد الملك يومًا وقد أحدق به الناس: «قد كثر الناس " فقال عمر بن عبد العزيز: «خصماؤك يا أمير المؤمنين»، يعنى أنّك مسؤول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته، فلا رخصة في التوقيف عن إطفاء الفتنة في قرى تحوى عشرة، فكيف في أقاليم وأقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق، ويمنع منه مانع، المواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها، ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك، فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق، ولم يبعد أن يقتضى الرأى الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد إليها أعين الدولة فضلاً عن أيديهم، وأمَّا مَن يستجيز التوقُّف فيها من غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته، وتناطقت الألسن بعدله، ولم يعرف في ذلك القطر من يجرى مجراه، ويسد في هذا الحال مسده، فهذا اعتقاد فساد في حضرة الخلافة، حاشاها من أن تُنسَب إلى قصور، أو تقتضى في نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها، والمعتصمين بعروتها، والقائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض، وحكم من بغى عليه، والله أعلم [١].

* * *

---

(١) د. أحمد عبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤٨٤، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٣٣.

العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

بعد طلب العلماء والفقهاء في الأنْدَلُس والمغرب والمشرق من الأمير يوسف أن يضُمَّ الأنْدَلُس إلى دولة المرابطين الفتية التابعة للخلافة العباسية السُّنيَّة، عبر الأمير يوسف بقوة ضخمة، عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وسار على رأس جيشه إلى طُلَيْطِلَة وأرسل فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

واستطاع أن يفتحَ غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها، عبد الله بن بلكين الصنهاجي الذى تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيرًا إلى المغرب، واستقرَّ في أغمات بالقرب من مراكش [١].

بعد أن فرغ الأمير يوسف من ضم غرناطة إلى مملكته وجه جيشه نحو مالقة وفيها تميم بن بلكين بن باديس - شقيق عبد الله - فأسلم البلد للأمير بلا قتال وضرب الدراهم المرابطية، مما أسبغ عليه رضي الأمير، وهذا ماجعله مفضلا علي أقرانه، ونقل تميم إلى السوس، وقد أوصي به الأمير يوسف إلى يزلف وبالغ في إكرامه، وكان في عافية ورغد العيش، وقد أمضي أولاد باديس بقية حياتهما في منفاهما في المغرب [٢].

بعد دخول الأمير يوسف إلى غرناطة قدم المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس لتهنئته بالنصر، وأرسل المعتصم بن صمادح ابنه كذلك، وكان المعتمد يمني نفسه بامتلاك غرناطة، فاستقبل الأمير يوسف هذا الوفد بفتور مظهرا تغيره عليهم، كما اعتقل ابن المعتصم بن صمادح. وهنا أخذ الندم المعتمد وادرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه باستدعاء المرابطين، وقال للمتوكل: " والله لابد له من أن يسقينا منالكأسالتي أسقي بها عبد الله بن بلكين " [٣] وانصرفا إلى بلادهما ولسان حالهما يقول: انج سعد فقد هلك سعيد.

وحاول المُعْتَمِد بن عَبَّاد والأفطس أن يقيما حلفا من ملكوك الطوائف لمواجهة المرابطين ولكنهم فشلوا في إقامة هذا التحالف، ولعبت الوشاية دورها في توتر

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٥٠ - ١٦٠، الكامل، ١٠ / ١٥٥، نفح الطيب، ٦ / ١٠٧، الاستقصا، ١ / ١٢٠.

(٢) روض القرطاس، ص ١٠٠، الاستقصا، ١ / ١٢٠، مذكرات لأمير عبد الله، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) الحلل، ص ٥١ - ٥٣.

العلاقة بين الأمير يوسف وبين المغتمد بن عباد، فدعا ألأمير يوسف المعتمد للقاء والتشاور فامتنع المعتمد، فطلب ألأمير يوسف منه أن يطبق أحكام الشرع، وألا يفرض الضرائب المخالفة لتعاليم الأسلام، وأن يرابط في الثغور للذود عن حياض المسلمين، فامتنع المعتمد عن الإجابة، فكان ذلك بمثابة إعلان الحرب (١).

ثم رجع الأمير يوسف إلى سبتة في رمضان سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م، وتولّى القيادة السياسية والعسكرية القائد المحنك سير بن أبى بكر، وبدأ الأمير يوسف في إرسال الجيوش من المغرب إلى الأنْدَلُس للقضاء الكلى على ملوك الطوائف، وأصبحت القوة المرابطة في الأنْدَلُس قوة ضاربة لا يستطيع أحد الصمود أمامها، وقسم الأمير يوسف جيش المرابطين إلى أربعة أقسام:

جيش بقيادة سير بن أبى بكر توجَّه إلى إشبيلية.

وجيش سار إلى قرطبة بقيادة أبى عبد الله بن الحاج وواليها، آنذاك، ولد المُعْتَمِد الفتح أبو النصر.

وسار جرور اللمتونى إلى أرض رندة بجيش ثالث، وفيها ولد آخر للمُعْتَمِد وهو يزيد الراضى بالله.

وسار أبو زكريا بن واسندوا إلى المرية التى فيها المعتصم بن صمادح، صديق المُعْتَمِد الحميم.

وبقى يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطى لكى يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك (٢).

وسقطت قرطبة في يد المرابطين في صفر ٤٨٤هـ/١٠٩١م بعد مقاومة عنيفة من ابنى المُعْتَمِد اللذين قتلا «المأمون ويزيد الراضي» ووصل المرابطون إلى ضواحى طُلَيْطِلَة مهددين ملوك النصارى، واستولوا على قلعة رباح التى فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة، واشتدَّ الخوف بالمُعْتَمِد بن عَبَّاد الذى أرسل إلى ألفونسو يستنجده ضد المرابطين، وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهم (٣).

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول ٤٨٤/١٠٩١م، وأصبح أمير إشبيلية في خطر عظيم، وجاءته إمدادات النصارى التى أرسلها ألفونسو بقيادة

(١) الحلل، ص ٥٢ مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٦٩.
(٢) الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٣٦.
(٣) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٦٩.

الكونت جومز، وعدتها أربعون ألف رجل مرتجل، وعشرون ألف فارس، ووصلت إلى مقربة من قرطبة وتصدَّى لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق في جند الشجعان، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصرًا كبيرًا مبينًا، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار، وكان سير بن أبى أبكر يقود الجيش المحاصِر، وفتحت إشبيلية عنوة في رجب ٤٨٤هـ/١٠٩١م، واستسلم المعتمد بن عباد للمرابطين الذين ألقوا القبض عليه هو وأهله، ونهب مقره مثلما حدث في المدينة (١).

ولكن المعارك لم تنته بسقوط العاصمة إشبيلية واستمرت المقاومة بقيادة ولدي المعتمد في مارتلة، والراضي في رندة، فقد أنفا الذل وأبيا وضع أيديهما بغير يد أبيهما، وكان وضع الراضي جيدا فرندة محصنة ولم يجرؤ المرابطون علي التقدم نحوها، أمام هذا الوضع عمد القائد سير إلى مضايقة المعتمد لإجباره علي مخاطبة ولديه بالاستسلام وإلا كان الموت نصيب الأسرة، حتى أن أمهما كتبت إليهما مستعطفة راجية " وإن دم الكل مسترهن باستسلامهما " ولهما العهود والمواثيق بعدم التعرض لهما بأذي، وقد حرك هذا النداء عواطف الرحمة وحقوق الأبوة في نفسيهما فاستسلما، ولكن القواد المرابطين تنكروا للعهود التي أعطوها للمعتمد بشأن ولديه، فقد قبض القائد جرور علي الراضي وقتله غيله وأحضر جسده، أما المعتد فقد استجاب للنداء مباشرة فكان قدره أقل قساوة، فأبقي عليه حيا بعد مصادرة جميع أملاكه (٢).

وقد حرك هذا العمل مشاعر المعتمد فرثا ابنيه - اللذين قتلا بين يديه صبرا - بقصائد رقيقة حزينة:

يقولون صبراً! لا سبيل إلى الصبر ::: سأبكي، وأبكي ما تطاول من عمري
أفتح لقد فتحت لي باب رحمة ::: كما بيزيد، الله قد زاد في أجري
هوى بكما المقدار عني، ولم أمت ::: فأدعى وفياً، قد نكصت إلى الغدر
ولو عدتما لاخترتما العود في الثرى ::: إذا أنتما أبصرتماني في الأسر
أبا خالد أورثتني البث خالداً ::: أبا نصر مذ ودعت ودعني نصري

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٧، المعجب، ص ١٤١، روض القرطاس، ص ١٠١، وفيات الأعيان، ٥ / ٣٠.

(٢) المعجب، ص ١٤٣، مذكرات الأمير عبد الله بن زيري، ص ١٧١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص٢٧٨، ٢٧٩.

وقبلكما قد أودع القلـــب حســـرةً ::: تجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو [١]

قال أيضاً فيهما يندبهما بما يوقد الضلوع، ويسكب الدموع:

يا عين عيني أقـــوى منـــك تهتانـــا ::: أبكي لحزن ومـــا حملـــت أحزانـــا
ونار برقـــك تخبـــو إثـــر وقـــدتها ::: ونار قلـــبي تلفـــى الـــدهر بركانـــا
نار وماء صميم القلـــب أصـــلهما ::: متى حوى القلب نيرانـــاً وطوفانـــا
ضدان ألف صرف الـــدهر بينـــهما ::: لقـــد تلـــون في الـــدهر ألوانـــا
بكيت فتحاً فـــإذ ناديـــت ســـلوته ::: لقـــد تلـــون في الـــدهر ألوانـــا
يا فلـــذتي كبـــدي يـــأبى تقطعهـــا ::: عن وجدها بكما ما عشت ســـلوانا
لقد هوى بكما نجمـــان مـــا رميـــا ::: إلا من العلـــو بالألحـــاظ كيوانـــا
مخفف عـــن فـــؤادي أن ثكلكمـــا ::: مثقـــل لي يـــوم الحشـــر ميزانـــا
يا فتح قد فتحت تلك الشـــهادة لي ::: باب الطماعـــة في لقيـــاك جـــذلانا
ويا يزيد لقـــد زاد الرجـــا بكمـــا ::: أن يشفع الله بالإحســـان إحســـانا
كما شفعت أخـــاك الفـــتح تتبعـــه ::: لقاكمـــا الله غفرانـــاً ورضـــوانا
مـــني الســـلام ومـــن أم مفجعـــة ::: عليكمـــا أبـــداً مـــثنى ووحـــدانا
أبكي وتبكي ونبكي غيرنـــا أســـفاً ::: لدى التذكر نســـواناً وولـــدانا [٢]

وكانت خاتمة المُعْتَمِد بن عَبَّاد مأساة حزينة، وكأن قتل أبنائه لم يكف، فكبله المرابطون بالحديد وحشروه مع أهل بيته علي ظهر سفينة، وخرج الناس علي ضفتي النهر لوداع ملكهم الأسير وهم يبكون، ونقلتهم السفينة إلى المغرب، فأقاموا في مراكش، ثم أمر يوسف بنقلهم إلى أغمات حيث ألقي بهم في السجن، وسيم المعتمد بأشد أنواع التعذيب النفسي والجسدي وهو يرقد في غياهب سجنه، وقد أمر يوسف بذلك بسبب ثورة أحد أبنائه في الأندلس.

---

(١) المعجب، ص ٤٣. وعني ابنه سراج الدولة أبا عمرو عباد بن محمد قتيل ابن عكاشة بقرطبة. وأبو خالد هو ابنه يزيد الملقب بالراضي، وهو الذي قتله قرور اللّمتوني غدراً برندة. وأبو نصر هو ابنه الفتح الملقب بالمأمون، وقتل أيضاً بقرطبة في آخر دولتهم. وإخوتهم أبو الحسين عبيد الله الملقب بالرشيد، حمل مع أبيه إلى العدوة، وأبو بكر عبد الله الملقب بالمعتدّ، وأبو سليمان الربيع تاج الدولة، وأبو هاشم المعلّى زين الدولة، وكلهم لجاريته هذه الحظية عنده الغالبة عليه " اعتماد "؛ وهي أم الربيع، وتعرف بالسيدة الكبرى، وتلقب بالرّميكيّة نسبة لمولاها رميك بن حجاج، ومنه ابتاعها المعتمد في أيام أبيه المعتضد.

(٢) الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣ / ٧١.

وفى طريقه إلى منفاة تألم المُعْتَمِد من قيده وضيقه وثقله فقال:

تبـــدَّلت مـــن ظـــل عـــزٍّ البنـــودِ ::: بـــذل الحديـــد وثقـــل القيـــود
وكـــان حديـــدي ســـنانًا ذليقًـــا ::: وعضـــبًا رقيقًـــا صـــقيل الحديـــد
وقـــد صـــار ذلـــك وذا أدهمـــا ::: يعـــض بســـاقي عـــض الأســـود

لقد كانت معاملة الأمير يوسف للمعتمد وأسرته قاسية جدا لم يسلكها أحد قبله ولا بعده، فلم يجر عليهم من الطعام إلا ما يقيم أودهم، مما دفع بنات المعتمد الأميرات إلى خدمة الناس، فكن يغزلن الصوف لكسب بعض دريهمات ينفقنها علي الأهل. وحز ذلك في نفس المعتمد وتألم من حالته الحاضرة فكان عزاؤه والوحيد الشعر، وبقي المعتمد سجينا في أغمات إلى أن وافته المنية فيها في ١١ شوال ٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م [١].

ولعل معاملة يوسف القاسية للمعتمد تعود إلى تحالف هذا الأخير واستدعائه له بعد أن مناه بالبلاد، وقد أدت حملة ألفونسو ضد المرابطين في حصن المدور إلى استشهاد جماعة منهم، إضافة إلى ما فقده المرابطون من عناصر بشرية في فتح إشبيلية كان يمكن استخدامها في الحرب مع الأسبان، بدل استنزافها داخليا مما أوغر صدر الأمير يوسف ضد المعتمد، وعامله هذه المعاملة القاسية، التي أضحت نقطة سوداء في تاريخ الأمير يوسف الأبيض [٢].

من شعر المعتمد بن عباد:

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه فخاطب قيده فقال:

قيـــدي، أمـــا تعلمـــني مُســـلمًا ::: أبيـــت أن تشـــفق أو ترحمـــا
دمـــي شـــرابٌ، واللحـــم قـــد ::: أكلتـــه ولا تهشـــم الأعظُمـــا
يُبصـــرني فيـــك أبـــو هاشـــم ::: فينـــثني، والقلـــب قـــد هُشـــما
ارحـــم أخيـــاتٍ لـــه مثلـــه ::: جرَّعتـــهن السُّـــم والعَلقمـــا

وقال ذات مرة بعد أن أحيط به في إحدى معاركه:

لمـــا تماســـكت الـــدموع ::: وتَنْهنـــه القلـــبُ الصـــديع

(١) المعجب، ص ١٤٥، روض القرطاس، ص ١٠١، وفيات الأعيان، ٧ / ١٢٣، ١ / ١٢٠، الكامل، ١٠ / ١٩٠، مذكرات الأمير عبد الله، ص ١٧١، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٢) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٨٠.

قـــالوا الخضـــوعُ سياســـة ::: فليبـــدُ منـــك لهـــم خُضـــوع
وألـــذ مـــن طعـــم الخُضَـــوع ::: علـــى فمـــى السّـــمُّ النقيـــع
أتســـلبْ عـــنى الـــدُّنا ::: ملاكى وتُسـلْم القلـبَ الضُّـلوع
قـــد رُمـــتُ يـــوم نـــزالهم ::: أن لا تحصِّـــنُنى الـــدروع
وبـــرزت لـــيس ســـوى القميـــ ::: ـــص عن الحشـــى شـــيء دَفُـــوع
أجلـــى تـــأخَّر، لم يكـــنْ ::: بهـــواى ذلى والخُضـــوع
مـــا ســـرتُ قـــطُّ إلى القتـــال ::: وكـــان في أملـــى الرجـــوع
شـــيم الأولى أنـــا منـــهم ::: والأصـــل تتبعـــه الفُـــروعْ [1]

لقد كانت محنة المُعْتَمِد بن عَبَّاد عظيمة، وتعاطف معه كثير من المؤرخين والأدباء والشعراء، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة وأنَّه صحراوى بدوى نزعت الرحمة من قلبه، واستدلُّوا أنه ذو نزعة توسعية دنيوية، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من استطاع من ملوك الأنْدلُس وتخلَّص منهم.

وبسقوط إشبيلية تزعزعت باقى المُدُن والحصون، وأصبحت غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية تحت حكم المرابطين في وقت لم يتجاوز ثمانية عشر شهرًا.

ولما سقطتْ المرية بيد داود ابن عائشة، واصل سيره الموفق مع جنوده البواسل، وافتتح مرابيطر وبلنسية وشنتمرية، ولم تغن أمراءهم معاونة الكمبيادور وفرسانه، فبلنسية كان بها يحيى بن ذى النون «القادر»، وعلى الرغم من أنه كان منضويًا تحت حماية ملك قشتالة، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة منهم، وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر على الرغم من كل هذا سقطت بلنسية بيد المرابطين أصحاب الأيادى المتوضئة، والقلوب الطاهرة، والضربات الفتاكة لكل جبار عنيد.

واستمرَّ داود ابن عائشة في فتح حصون وقلاع مُدُن شرق إسبانية تحفُّه العناية الإلهية، وتنزل عليه الفتوحات الربَّانية، ويخط للمغاربة وللأمة الإسلاميَّة تاريخًا مجيدًا باقيًا على مر العصور والأزمان، واضحة معالم العقيدة والإيمان في نحته وكتبه بماء الذهب الصافي.

أمَّا القائد سير بن أبى بكر فكان جهاده الميمون في غرب الأنْدَلُس؛ حيث زحف إلى بطليوس وأميرها يومئذٍ مُحَمَّد بن الأفطس «المُتَوَكِّل " بعد أن فتح

---

(١) الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٤٠.

إشبيلية كما سلف، فاستولى على شلب ويابرة، ثم احتلَّ بطليوس في صفر ٤٨٧هـ - آذار (مارس) ١٠٩٤م.

وفي الوقت الذى سقطت فيه بطليوس، استطاع المرابطون أن يفتحوا جزر البليار، التى كان واليها يومئذٍ من بنى شهيد أتباع أمراء بلنسية ودانية، وأحسن المرابطون صنعًا بفتح الجزر الشرقية «بليار " في الوقت الملائم، فقد كانت منعزلة تعيش تحت هيمنة الأسطول النصراني، وقد تم الفتح على يد القائد البحرى ابن تافرطست [١].

بذلك أصبحت إسبانيا المسلمة تحت قبضة دولة المرابطين الفتية سنة٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، ونستثنى من ذلك ولاية سَرَقُسْطَة التى كان واليها أحمد بن هود «المستعين بالله " الذى أبلى بلاءً حسنًا في جهاد النصارى، وظهرت فيه شهامة ورجولة أقنعت الأمير يوسف على إبقائه في مُلكِه، وتحالف ابن هود مع إخوانه في العقيدة ضدَّ أعدائهم في الدِّين، وكان سدًا منيعًا في الثغور الشمالية وقد كلف النصارى خسائر هائلة في الأموال والأرواح [٢].

واستطاع النصارى أن يحتلُّوا مدينة «بلنسية " عام ٤٨٧هـ بقيادة القائد النصرانى الكمبيادور الذى أمن قاضيها «ابن جحاف " ثم أحرقه بالنار، وعمل المرابطون على إرجاع بلنسية والحصون التى وقعت في يد النصارى، وتمكّنوا من تحرير بلنسية عام ٤٩٥هـ.

والجدير بالذكر أن بابا الفاتيكان أفتى لأهل إسبانيا ومَن حولهم من الإفرنج إن قتالهم في الأَنْدَلُس ضد المُسْلِمِين جهاد مقدس، ولذلك لم يشارك الإسبان في حروب النصارى الصليبية في شرق العالم الإسلامى في هذه الفترة.

لقد كانت سياسة الإسبان في حروبهم للمُسْلِمِين صليبية النزعة، همجية الخلق، خالية من الأخلاق، ممزوجة بالغدر بعيدة عن العلم والحضارة.

وكانت سياسة المرابطين في حروبهم وجهادهم مبنية على نشر الإسلام ومكارم الأخلاق في أُطُر حضارية نابعة من مشكاة الوحيين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [٣].

* * *

---

(١) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٢٨١ - ٢٩٢.
(٢) البيان المغرب، ٤ / ٤٥، الحلل، ص ٥٣، الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٤١.
(٣) الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٤١.

الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس

لما أصبحت إسبانيا المسلمة تحت حكم المرابطين بما في ذلك سَرَقُسْطَة التي حكمها بنو هود، عبر أبو يعقوب يوسف بن تاشفين العبور الرابع سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م بعد استرداد بلنسية بعام واحد، يبتغي تنظيم شئونها، وليطلع على حسن سير الإدارة، ودعا القادة والولاة وزعماء الأَنْدَلُس، وشيوخ القبائل المغربية التي تدين بالطاعة له إلى الاجتماع في قرطبة، وعيَّن ولده الأصغر عليًّا «أبا الحسن» وليًّا للعهد؛ فقد ظهرت مواهبه ونجابته ورجاحة عقله ولمس والده فيه الخصال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة.

وعهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبي مُحَمَّد بن عبد الغفور أن يكتب نص ولاية العهد وكان مشهورًا ببلاغته، وهذا هو النص: «الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة.

أما بعد: فإن أمير المُسْلِمِين وناصر الدِّين أبا يعقوب بن تاشفين لما استرعاه على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غدًا عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظمة، وجعلها من آكد الأشياء الكريمة، كيف في هذه الأمور العائدة في المصلحة الخاصة والجمهور، وإن أمير المُسْلِمِين بما لزمه من هذه الوظيفة وحضه الله بها من النظر في الأمور الدِّينية الشريفة، قد أعزّ الله رماحه وأحد سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحًا إلى المعالي واهتزازًا، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازًا، فاستنابه فيما استرعي، ودعاه لما كان إليه ودعا، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والنأي، فرضوه لما رضيه، واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلاً أن يسترعى فيما استرعاه، فأحضره مشترطًا عليه الشروط الجامعة بينهما وبين المشروط قبل، وأجاب حين دُعي، بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره، وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت النصيحة مرامي قصية، يقول في ختامه شروطها وتوثيق ربوطها، كتب شهادته على النائب والمستنيب من رضى إمامتها على البعيد والقريب، وعلم علمًا يقينًا بما وصاه في هذا الترتيب وذلك في عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م [1].

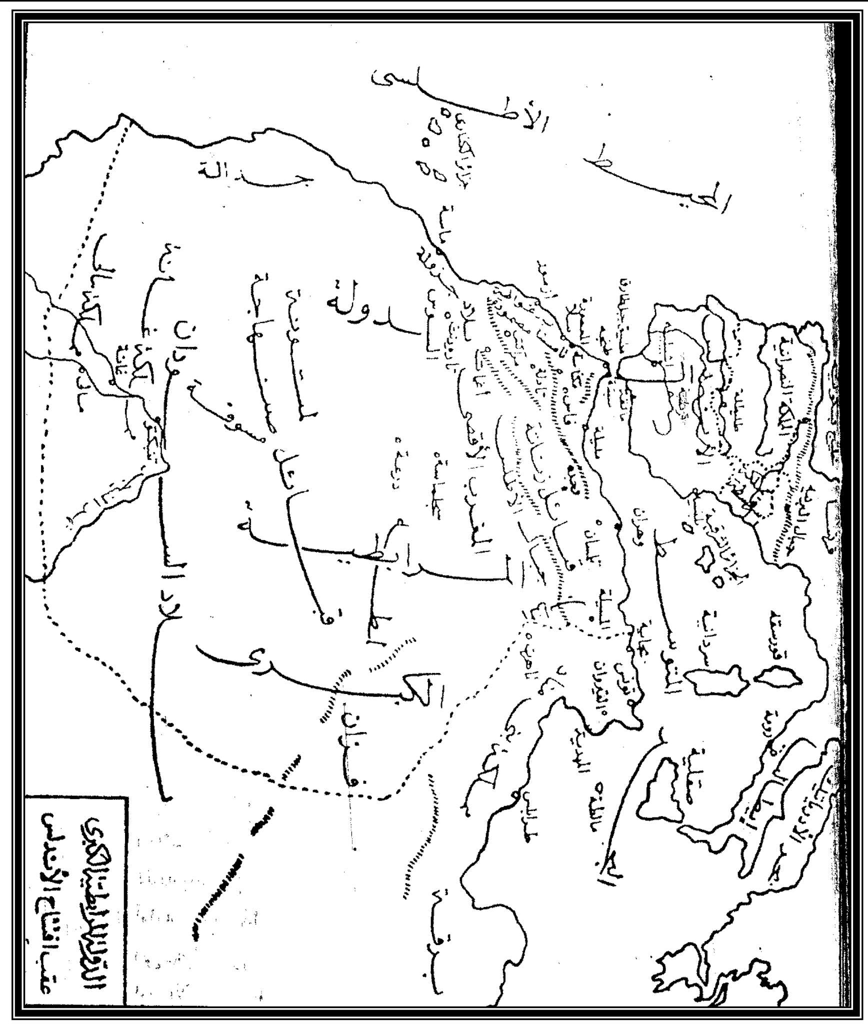
وأوصى يوسف بن تاشفين ابنه عليًّا بما يلي:

---

(١) الحلل، ص ٥٦، ٥٧.

ألا يُعَيّن في مناصب الحُكّام والقضاة في الولايات والحصون والمُدُن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة.

وأن يحتفظ في الأنْدَلُس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين، قوامه سبعة عشر ألف فارس، يطعمون على حساب الدولة يوزعون كما يأتي: أربعة ألاف في ولاية سَرَقُسْطَة، وسبعة آلاف في إشبيلية، وثلاثة آلاف في غرناطة، وألف في قرطبة، والباقي قدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية، ويحسن أن يعهد إلى مسلمي الأنْدَلُس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى، فهم لهم معرفة أوسع وخبرة أكبر على مقاتلة النصارى من المغاربة، وأن يعمل على تشجيع الأنْدَلُسيين على روح الجهاد وأن يكافئ المتفوقين في الحرب منهم بالخيل والسلاح والثياب والمال.



ونصح أبو يعقوب ابنه أن يعامل أهل الأندَلُس وخصوصًا قرطبة بالرفق واللين، وأن يقوى علاقته الأخوية مع بنى هود الذين هم طليعة الأنْدَلُسيين في محاربة النصارى(١).

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شئون الأنْدَلُس وقسمها إلى ست ولايات هى إشبيلية، غرناطة، قرطبة، بلنسية، مرسية، وسَرَقُسْطَة، عاد ابن

(١) الحلل، ص ٥٧ ـ ٥٨، المعجب، ص ١٦٣.

تاشفين إلى مراكش [١].

لقد مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث:

مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المُسْلِمِين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزّلاقة.

مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد، ولم يفكروا في الاندماج في دولة واحدة، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد ببعضهم.

مرحلة ضم الأندَلُس إلى المغرب، فوضعوا حدا لمهزلة ملوك الطوائف.

وهكذا صار الأمير يوسف وابنه من كبار الملوك وسارع القراء إلى مدحه وانقطع إليه من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة خلفاء بني العباس في صدر دولتهم [٢].

وبعد أن أتم الأمير يوسف أخذالبيعة لخليفته الأمير علي، واطمأن علي حسن سير الإدارة قفل عائدا إلى المغرب واستقر بعاصمته مراكش.

وفي أواخر عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م مرض أمير المسلمين وأصابه الضعف، واشتدت به العلة، وبعد مرض دام عاما وشهرين فاضت روحه إلى باريها نهار الإثنين الثالث من المحرم سنة ٥٠٠هـ / الرابع من سبتمبر ١١٠٦ م، بعد ن بلغ من العمر قرنا بكامله ٤٠٠ - ٥٠٠ هـ / ١٠٠٩ - ١١٠٦ م، ودفن بحضرة قصره في مراكش [٣].

* * *

---

(١) الصلابي، دولة المرابطين، ص ١٤٥.

(٢) الحلل، ص ٦٠.

(٣) الحلل، ص ٦٠، روض القرطاس، ص ١٠١، الكامل، ١٠ / ٤١٦، نفح الطيب، ٦ / ١١١، وفيات الأعيان، ٧ / ١٢٥.

الأندلس في عهد علي بن يوسف

تولي الحكم يوم وفاة أبيه نهار الإثنين أول محرم ٥٠٠هـ / ٢ سبتمبر ١١٠٦ م، وبعد توليه بعده أشهر عبر المضيق إلي الجزيرة الخضراء منتصف ٥٠٠ هـ / مطلع ١١٠٧ م فاستقبله زعماء الأندلس وفقهاؤها، وأكرم الجميع ووصلهم (١).

وبدأ الأمير علي نشاطه في الأندلس بمهاجمة القوي النصرانية، وتعددت هجماته عليهم، ففي سنة ٥٠١ هـ أرسل أخيه تميم لمهاجمة ملك قشتالة ردا علي مهاجمته أراضي إشبيلية أثناء مرض الأمير يوسف، وأرسل سير بن أبي بكر إلى غرناطة في نفس العام، وهاجم الأمير تميم إقليش في رمضان ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م، وتصدي محمد بن عائشة ومحمد ابن فاطمة لهجوم سانشو بن ألفونسو السادس في شوال ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م وقتل من القشتاليين الكثير (٢).

وفي محرم سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م هاجم الأمير علي بنفسه مدينة طلبيرة وحاصرها لمدة سبعة أيام ولكنه لم يستطع فتحها فارتد عنها إلى قرطبة (٣).

وهاجم جيش مرابطي بقيادة سير بن أبي بكر أراضي البرتغال واستولي علي يابرة واشبونة وشنترين سنة ٥٠٤ هـ / ١١١١ م، وفي سنة ٥٠٥ هـ / ١١١٢ م سار مزدلي والي قرطبة إلى قشتالة وحاصر طليطلة (٤).

وتوفي الأمير سير بن أبي بكر في جمادي الأولي ٥٠٧ هـ / ١١١٤م ثم توفي الأمير مزدلي، وفقد المرابطون أشجع قائدين من قادتهم (٥).

وفي سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م استولي القائد محمد بن الحاج علي سرقسطة من صاحبها عبد الملك بن هود لممالأته النصاري، وفي سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤ هاجم القائد محمد بن عائشة برشلونة ولكن دون جدوي (٦).

وجاز الأمير إلى الأندلس للمرة الثالثة وافتتح مدينة قلمرية عاصمة البرتغال سنة ٥١١هـ / ١١١٧، ولكنه لم يحتفظ بها لموقعهاالنائي وعاد إلى المغرب، ثم جاز للأندلس مرة أخري سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١م بسبب ثورة قرطبة علي المرابطين، وتمت المصالحة مع أهلها، ثم ضبط أمورها وأزال سبب الخلاف، ثم عاد مسرعا إلى

---

(١) البيان المغرب، ص ٧٦، الحلل ص ٦٠.
(٢) البيان المغرب، ص ٦٧، روض القرطاس، ص ١٠٤.
(٣) روض القرطاس، ص ١٠٦.
(٤) روض القرطاس، ص ١٦٣.
(٥) روض القرطاس، ص ١٦٢.
(٦) روض القرطاس، ص ١٦٢.

المغرب عندما وصلته أنباء المهدي بن تومرت [(١)].

وقد تمكن النصاري بقيادة ألفونسو السادس من الاستيلاء علي سرقسطة سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م، وطرسونة وبرجة وحصون الأجون ومالن وجمايون وأبيلا من قواعد الثغر الأعلي سنة ٥١٣ هـ / ١١٢٠ م [(٢)].

وقد غضب الأمير علي من هذه الأنباء فأسرع بإرسال أخيه الأمير إبراهيم بن يوسف والي إشبيلية لمقاتلة ألفونسو السادس، فالتقي به في ظاهر بلدة كتندة سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م فانهزم المسلمون وقتل منهم عدد غفير من الفقهاء والعلماء [(٣)].

أدت خسائر المرابطين المتتالية أمام الأسبان إلى ضياع هيبة المرابطين العسكرية، وعلو صوت المعاهدين بالثورة والاتصال بألفونسو السادس وعرض المساعدة له في اجتياح الأراضي الإسلامية، وتزعم هذا الإتجاه، المعاهدين في غرناطة، الذين عرضوا علي ألفونسو السادس وضع ثرواتهم ومحاصيلهم بتصرفه ويرغبونه بثراء غرناطة وازدهارها وأنها عاصمة المرابطين في الأندلس، فلبي ألفونسو ندائهم وخرج من سرقسطة علي جيش ضخم في أول شعبان ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م، فاستولي علي بلنسية ودمر كل شئ فيها، وتوجه إلى غرناطة، ولكن المرابطين أسرعوا إلى تحصينها، فلم يجد ألفونسو بدا من التراجع عنها، فسار المرابطون في أثره وقاتلوه ولكن دارت الدائرة عليهم وانهزم المسلمون ورجعوا إلى قرطبة، ولكن لم يتحقق هدف ألفونسو من السيطرة علي غرناطة [(٤)].

ولما كان للنصاري المعاهدين دور كبير في إزهاق أرواح المسلمين بسبب خيانتهم واتصالهم بالنصاري الأسبان، فقد أفتي العلماء المسلمين، وعلي رأسهم القاضي أبو الوليد بن رشد بوجوب تغريب هؤلاء النصاري المعاهدين عن الأندلس، وعمل الأمير بهذه الفتوي وصدر أمره بتهجيرهم إلى المغرب إلى مكناسة وسلا وغيرها جزاء لما اقترفوه بحق المسلمين وكان ذلك في رمضان سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م [(٥)].

ثم عاد ألفونسو لممارسة نشاطه الحربي ضد المرابطين، فأوقع بهم الهزيمة في موقعة القلاعة علي مقربة من جزيرة شقر جنوبي بلنسية سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م واستولي بعدها علي كثير من معاقل الثغر الأعلي فاستولي علي مكناسة الواقعة علي

---

(١) الحلل، ص ٦٣، الكامل، ١٠ / ١٩٧، روض القرطاس، ص ١٦٤.

(٢) نفح الطيب، ٢ / ٥٨٥، روض القرطاس، ص ١٦٣.

(٣) الكامل، ٨ / ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٤) الحلل، ص ٦٦، الكامل، ٨ / ٣١٩.

(٥) روض القرطاس، ص ١٦٣.

نهري سجري وإبري سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م، ثم توجه نحو مدينتي إفراغة ولاردة، ولكن المرابطون تعاونوا مع كونت برشلونة رامون الثالث ضده، وأوقعوا به الهزيمة الساحقة أمام أسوار إفراغة في ٢٣ رمضان سنة ٥٢٨ هـ / ١٧ يوليو ١١٣٤ م، ولاذ ألفونسو بالفرار إلى سرقسطة حيث توفي بعد أيام من المعركة [١].

تولي الأمير تاشفين بن علي حكم الأندلس سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨ م حتى سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧ م وخلال تلك الفترة تمكن الأمير تاشفين من مواجهة القشتاليين في عدة مواقع، وتمكن من إيقاع الهزائم المتتالية بالقشتاليين في عدد من المعارك، وتكررت لقاءاته بهم في سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٩ م، وفي سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م، وفي سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م، وفي سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م، وفي سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م [٢].

* * *

الأندلس في عهد تاشفين بن علي

تولي الحكم بعد أبيه في شهر رجب سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٩ م، وبعد وفاته في ٢٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ / ٢٢ فبراير ١١٤٥م انقسمت الأندلس إلى دويلات طوائف من جديد بعد الثورات التي قامت بها علي المرابطين في عدة مواضع من الأندلس، في الغرب بزعامة أحمد بن الحسين بن قسي، الذي تصوف وأصبح شيخا من شيوخ الصوفية وكثر أتباعه وتسموا بالمريدين، وثار محمد بن عمر بن المنذر في شلب، وانضم إلى ابن قسي، واندلعت الثورة في قرطبة بقيادة القاضي ابن حمدين، ونشبت ثورة مماثلة لثورة قرطبة في غرناطة تزعمها القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحي، وثار في ملقة أبو الحكم الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين بن حسون، وثار في وادي آش قرب غرناطة أحمد بن محمد بن ملحان الطائي، وثار محمد بن سعد بن مردنيش في شرق الأندلس، وثار في جيان القاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزي، وثار في رندة رجل علم أخيل بن إدريس الرندي، وثار ابن عزون بشريش وانضم إلى ابن حمدين ولكنه خلع طاعته ٥٤١ هـ وعبر إلى المغرب وقابل الخليفة عبد المؤمن، ولما عبر الموحدون إلى الأندلس كان أول المستقبلين لهم [٣].

* * *

---

(١) الروض المعطار، ص ٥٢٥، الكامل، ٨ / ٣٥١.
(٢) البيان المغرب، ٢ / ٩٨ - ١٠٤، روض القرطاس، ص ١٠٦ - ١٠٧، الإحاطة، ١ / ٤٦.
(٣) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٣١٢، ٣١٣.

أسباب سقوط دولة المرابطين

١ - ظهور روح الدعة والانغماس في الملذّات والشهوات عند حُكّام المرابطين وأمرائهم في أواخر عصر على بن يوسف، وكان للمجتمع الأنْدَلُسى تأثير لا ينكر في قادة وأمراء وحكام دولة المرابطين الذين استجابوا لنزوات شهواتهم وانغمسوا في الحياة الدنيا، فتحقَّق قول الله تعالى:{ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾} [الإسراء: ١٦] [(١)].

يقول سيِّد قطب رحمه الله: «والمترفون في كلِّ أمَّة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال، ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة والراحة، وبالسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأرض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا مَنْ يَضْرِبُ على أيديهم عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التى لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثَمَّ تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحتها.. ».

والآية تقرر سنة الله هذه في إهلاك مَن انغمس في الشهوات، وأسرف في الملذات، وتحلل مِن القيم والأخلاق ولازم الفسق والانحلال والفساد.

٢ - ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال، وبدأت دولة المرابطين في آخر عهد الأمير على بن يوسف تفقد طُهرَها وصفاءَها الذى اتصف به جيلهم الأول، مما جعل الرعية المسلمة تتذمر من هذا الانحراف والفساد، وتستجيب لدعوة مُحَمَّد بن تومرت الذى أظهر نفسه للناس بالزاهد والنّاسك والآمر بالمعروف والناهى عن المنكر.

٣ - انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثى الذى سبب نزاعًا عنيفًا على منصب ولاية العهد بين أولاد على بن يوسف، كما تطلع مجموعة مِن الأمراء إلى منصب الأمير على ونازعوه في سلطانه مما سبب تمزقا داخليًا، ففقدت الدولة المرابطية وحدتها الأولى، وكثرت الجيوب الداخلية في كيان الدولة، وتفجرت ثورات عنيفة في قرطبة، وفى فاس وغيرهما ساهمت في إضعاف الوحدة السياسية وإسقاط هيبة الدولة المرابطية.

٤ - الضيق الفكرى الذى أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار النّاس، ومحاولة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع

(١) الصلابي، دولة المرابطين، ص ٢٣٩.

بقية المذاهب السنية تعصبًا لمذهبهم، وكان لفقهاء المالكية نفوذ كبير مما جعلهم يوسعون تعصبهم وتحجرهم الفكري.

ويرى بعض المؤرخين أن التعصب الأعمى عند فقهاء المرابطين في زمن الأمير على ابن يوسف كان السبب الأول في سقوط دولة المرابطين، لقد أسهم فقهاء المالكية في دولة المرابطين بقسط وافر في تذمر الرعايا، وإضعاف شأن الإمارة، لقد استغل بعض الفقهاء نفوذهم من أجل جمع المال وبناء الدور، وامتلاك الأرض، وعاشوا حياة البذخ والرفاهية المفرطة، وكان ذلك سببًا في إيجاد ردة فعل عنيفة عند أفراد المجتمع المرابطي، وانبرى الشعراء في تصوير حال الفقهاء في تلك الفترة، فقال أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد المعروف بابن البني:

أهل الرياء لبستم ناموسكم ::: كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك ::: وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب ::: وبأصبغ صبغت لكم في العالم

٥ - ومن أهم العوامل التى أسقطت دولة المرابطين: فقدها لكثير من قياداتها وعلمائها العظام أمثال سير بن أبى بكر، ومُحَمَّد بن مزدلي، ومُحَمَّد ابن فاطمة، ومُحَمَّد بن الحاج، وأبى إسحاق بن دانية، وأبى بكر بن واسينو.. فمن لم يستشهد من كبار رجال الدولة أدركه الموت الطبيعي، ولم يستطع ذلك الجيل أن يغرس المبادئ والقيم التى حملها في الجيل الذى بعده، فاختلفت قدرات الجيل الذى بعدهم واستعداداتهم، وهذا درس مهم لأبناء الحركات الإسلامية في أهمية توريث التجارب والخبرات المتنوعة والمتعددة للأجيال المتلاحقة.

٦ - ومن أهم العوامل التى أنهكت دولة المرابطين، أنها مرَّت بأزمة اقتصادية حادة، نتيجة لانحباس المطر عدة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأنْدَلُس والمغرب، وزاد من حدة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقى مِن الأخضر على وجه البلاد مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير مِن السكان، ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام ٥٢٤هـ - ٥٣٠م [١].

* * *

(١) الدكتور مراجع الغناي، سقوط دولة الموحدين، ص ٣١.

الفصل الثامن
الموحدون في الأندلس
(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٣م)

غرناطة:

استعادة المرية:

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين:

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس:

ثالثا: معركة الأرَكْ:

خطة الموحدين:

رابعاً: نتائج معركة الأرك:

خامساً: اسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك:

الخليفة محمد الناصر:

موقعة العقاب:

- حصار قلعة رباح:

- مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجّاج:

المعركة:

ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب:

يوسف بن محمد المستنصر بالله:

* * *

بعد وفاة المهدي بن تومري في ٢٩ رمضان ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م بويع عبد المؤمن بن علي بالخلافة في رمضان من السنة ذاتها / أغسطس ١١٣٠ م، وكان قد تتلمذ علي يد المهدي بن تومرت (١).

وبعد قضائه على دولة المرابطين ودخوله مراكش في ٨ شوال ٥٤١هـ / ١١٣١م، واستتب الأمر له، وجه عبدالمؤمن نظره الى الأندلس التي عمتها الثورة في آخر عهد المرابطين، وقد آلت السلطة في المغرب إلى الموحدين فلابد لهم من إخضاع الأندلس، وكانت كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين فأعلنت ثوراتها وانفصالها عن المرابطين وزادت عنفاً هذه الثورات بعد وفاة تاشفين بن علي في عام ٥٣٩هـ وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠هـ كذلك قام أحمد بن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما نازعه السيطرة والزعامة أبو محمد سدراي واستولى على مرتلة أجاز ابن قيس إلى عبدالمؤمن بمراكش عام ٥٤١هـ ورغبه في احتلال الأندلس وضمها الموحدين فسير عبدالمؤمن معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفي، في شعبان ٥٤١هـ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي ابن وزير في طاعتهم، كما انضوت أشبيلية في سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧ م تحت لوائهم بعد ان اقتحموها براً وبحراً، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث ان نكث بطاعته للموحدين، وحول الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقى أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة (٢).

اضطرت أحداث الأندلس عبدالمؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان، فنزل يوسف باشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب ولبلة،

---

(١) روض القرطاس، ص ١٨٣، أعمال الأعلام، ص ٢٦٥.

(٢) روض القرطاس، ص ١٨٩، ابن خلدون، ٦ / ٢٣٣ - ٢٣٤، الكامل، ١١ / ١٤، نفح الطيب، ٢ / ٢٠٦، ٢٠٧، المعجب، ص ٢١٠.

ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة ٥٤٣هـ ولم تبدأ سنة ٥٤٥هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبدالمؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس وأشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في عام ٥٤٦هـ وحاصروها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع [١].

* * *

غرناطة

سيطر الموحدون علي الأندلس وبقيت غرناطة في أيدي المرابطين، واستطاع واليها المرابطي ميمون بن بدر أن يصمد مدة سبع سنوات، وأخيرا شعر ميمون بأن لا طاقة له علي الاستمرار في مقاومة الموحدين، فبعث إلى الخليفة عبد المؤمن يعرض تسليم المدينة فأجابه الخليفة إلى طلبه، وتسلم الموحدون المدينة، ورحل ميمون إلى مراكش حيث استقبله الخليفة، وولي عليها ابنه أبا سعيد وكان دخولهم في ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م [٢].

* * *

استعادة المرية

كانت المرية قد سقطت بيد الأسبان سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧ م، وكان الموحدون يتوقون لاستعادة هذا الثغر الحيوي، لاتصالهم بالبحرية، وكان يؤيد هذا المشروع الخليفة، فأرسل إلى ابنه أبو سعيد عثمان بن عبدالمؤمن، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمرا بمحاصرة المرية براً وبحراً وتخليصها من النصارى، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخية أبي حفص، ونصب الموحدون المجانيق على القصبة بعد ان احتلوا المدينة وحاصروها حصاراً محكماً. واستنجد النصاري بـ " ألفونسو السابع " الملقب بالسليطين الذي حاول أن ينقذ النصارى من هذا الحصار فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من ٦ آلاف مقاتل، فاضطر السيد أبو سعيد عثمان الى استمداد الخليفة، فوجه إليه

---

(١) ابن خلدون، ٦ / ٢٣٥، روض القرطاس، ص ١٩١، نفح الطيب، ٦ / ١١٢، الكامل، ٩ / ٢٨.
(٢) روض القرطاس، ص ٢٦٤.

القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن، والى اشبيلية فازدادت قوة الموحدين بقدومه واضطر ابن مردنيش امام وخز الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى، إذ رأى " العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل ". وولى عسكر ألفونسو الأدبار تاركين حامية قصبة المرية لمصيرها التعس، ومات ألفونسو في طريقه إلى بياسة سنة ٥٥٢هـ وخلا الجو للموحدين، فشددوا الحصار على القصبة، واستولوا عليها في سنة ٥٥٢هـ وهكذا استرد الموحدون المرية، وقد تهدمت أبنيتها، وتغيرت محاسنها [(١)].

وكانت بلنسية من مدن الأندلس المهمة وقد أولاها المرابطون أهمية كبيرة لقربها من ثغر برشلونة والممالك النصرانية، فقد تولاها كبار القادة المرابطين بعد تحريرها من النصاري، وكان واليها عند إندلاع ثورة عبد الله بن محمد أخ يحيي بن غانية وقاضيها مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد العزيز، وعندما اندلعت الثورة ضد المرابطين في قرطبة اتفق الوالي والقاضي علي ضبط الأمور، ولكن الوالي ابن غانية توجس خيفة من نوايا القاضي ففر إلى شاطبة وأجمع سكان بلنسية علي تولية القاضي ابن عبد العزيز بتأييد من عبد الله بن عياض قائد الثغر، وعبد الله بن مردنيش، وهرب الوالي السابق ابن غانية من شاطبه فضمها ابن عبد العزيز لإمارته، ولكنه عجز عن ضبط الأمور فعزله الجند واستدعوا ابن عياض فلجأ ابن عبد العزيز إلى المرية حيث اعتقل بها [(٢)].

بعد فرار ابن عبد العزيز اختار الجند المتمردون لقيادتهم عبد الله بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض، ثم حضر ابن عياض فنظم أمور الولاية وعاد إلى مرسية تاركا صهره ابن مردنيش، وكانت الثورة قد اندلعت في مرسية بزعامة أبي محمد بن الحاج اللورقي ودعا لابن حمدين ثم تخلي ابن الحا ج، فأرسل إليهم ابن حمدين عبد الله الثغري واليا في شوال سنة ٥٣٩ هـ فعين علي القضاء الفقيه أبا جعفر محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني، الذي نبذ طاعة ابن حمدين وسار إلى شاطبة لقتال ابن غانية المرابطي فثارت العامة وأطلقت سراح عبد الله الثغري وصهريه، وكان ابن أبي جعفر قد اعتقلهم، ولكنه قتل في معركة بظاهر غرناطة علي أيدي المرابطين.

وبعد مقتل ابن أبي جعفر قدم أهل مرسية في ربيع الأول ٥٤٠ هـ محمد بن

---

(١) روض القرطاس، ص ١٩٣، ابن خلدون، ٦ / ٢٣٧، الكامل، ٩ / ٣٠، ٥٦.
(٢) أعمال الأعلام، ص ٢٥٦.

عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن القيسي، ولكن بعض أهل مرسية استدعوا ابن عياض من بلنسية، فدخل المدينة وعزل ابن طاهر في جمادي الآخر ٥٤٠ / ١١٤٥ م ثم غادرها بعد أن ولي عليها صهره ابن مردنيش ودعا لابن هود. وكان ابن عياض جنديا شجاعا، وكان النصاري يعدونه بمائة فارس (١).

وخرج لمساعدة ابن مردنيش في قتال النصاري الذين أغاروا علي أحواز شاطبه ومعه ابن هود، ودارت معركة في اللج قرب بلدة البسيط نهار الجمعة ٢٠ شعبان ٥٤٠ هـ / ١١٤٦ فانهزم فيهاالمسلمون وسقط قتيلا عبد الله بن مردنيش وسيف الدولة بن هود ونجا ابن عياض فكانت ضربة مؤلمة للمسلمين في شرق الأندلس (٢).

وفي سنة ٥٥٥هـ أمر عبدالمؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدى الحاج يعيش المهندس، وعلى أثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بجبل الفتح وأقام شهرين أشرف خلالهما على أحوال الأندلس، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ثم أمر بغزو غرب الأندلس، فسير الشيخ أبا محمد عبدالله بن أبي حفص من قرطبة، ففتح حصن مراكش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر، ثم عاد عبدالمؤمن بعد ذلك إلى مراكش.

وكان ابن هود حليفا للنصاري وصنيعة ملكهم القيصر ألفونسو السابع، وكانوا يشجعونه علي التمرد في الأندلس ويمدونه بالمساعدات.

بعد مصرع ابن هود دعا ابن عياض لنفسه ببلنسية تاركا ابن مردنيش في مرسية، وامتدت إمارته من شمال بلنسية حتى قرطاجنة جنوبا، استمر في حكمها حتي وفاته في ربيع الأول ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م وخلفه محمد بن سعد بن مردنيش في شرق الأندلس في جمادي الأول ٥٤٢هـ / ١١٤٧ م وابن مردنيش هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش، وكان والده سعد واليا علي إفراغة أيام المرابطين، واستطاع صد ألفونسو المحارب ملك أراجون ٥٢٧ هـ / ١١٣٣م وعمه عبد الله بن سعد صهر ابن عياض (٣).

---

(١) المعجب، ص ١١٥، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص ٣٢٢.
(٢) الحلة السيرا، ص ٢٢٦، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص ٣٢٣.
(٣) أعمال الأعلام، ص ٢٦٠، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص ٣٢٣.

وقد أضحي حاكم شرق الأندلس مجاورا للنصاري، وكان يؤثرهم علي المسلمين ويقلدهم في مأكله وملبسه وتصرفاته ويغدق عليهم الأموال التي يغرمها لرعاياه المسلمين، وقد لقبوه بالملك الذئب، فقد رأي أن يعقد المحالفات معهم للحفاظ علي ممتلكاته والوقوف في وجه الموحدين (١).

فعقد صلحا مع كونت برشلونة رامون برنجير الرابع مدته أربع سنوات، ثم معاهدة مع ألفونسو السابع ملك قشتالة، وكان يؤدي إلى كل منهما ضريبة سنوية مقدارها ٥٠ ألف مثقال ذهب، وامتدت علاقاته إلى خارج الأندلس، فعقد معاهدة صلح مع جمهورية بيزة ٥٤٣هـ / ١١٤٩ م وأخري مع جمهورية جنوة، تعهد فيها أن يؤدي إلى حاكمها ضريبة مقدارها عشرة آلاف دينار مرابطي (مئة ألف مثقال) مدة أربع سنوات، ومع تسهيلات لتجارها في مملكته، وكذلك هادي ملك بريطانية هنري الثاني، وكان يساعد ابن مردنيش مغامر آخر هو مولد إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك صاهره ابن مردنيش فأصبح من أخلص قادته (٢).

وبدعوة من البابا أوجين الثالث قامت حملة صليبية من أراجونة وقطلونية وبيزة وجنوة وفرسان المعبد بقيادة رامون برنجير كونت برشلونة بمهاجمة قواعد الثغر الأعلي في لاردة وإفراغة ومكناسة وسقطت في أيديهم في أيديهم في ٥٤٤هـ / ١١٤٩ م، ووبالرغم من أن هذه المدن كانت تابعة اسميا لابن مردنيش ولكنه لم يدافع عنها حتى لا تسوء علاقته مع كزنت برشلونة الذي عقد معاهدة معه وكل الذي فعله أنه اتفق مع جنوة بالمحافظة علي رعاياه وعد الإضرار بهم (٣).

ثم أخذ ابن مردنيش يهاجم المدن الأندلسية المجاورة له بمساعدة حلفائه النصاري، فهاجم جيان واستولي عليها بدون قتال، وهاجم إشبيلية سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩ م ولكنه فشل في الاستيلاء عليها، وهاجم صهره ابن همشك قرطبة سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠ ولكنه فشل أيضا في السيطرة عليها بعد أن أرسل أبو يعقوب والي إشبيلية نجدة لمساعدتها (٤).

وقد حاول ابن همشك صهر ابن مردنيش السيطرة علي غرناطة فاتفق مع أهلها اليهود وابن دهري أن يساعدوه في دخول المدينة، بأن يفتحا له أبوابها ليلا فيدخل

---

(١) نفح الطيب، ٨ / ١١٣، وفيات الأعيان، ٢ / ٤٩٢.
(٢) أعمال الأعلام، ص ٢٦٠.
(٣) روض القرطاس، ص ١٧٦.
(٤) أعمال الأعلام، ص ٢٦١.

غرناطة ويأخذ الموحدين علي حين غرة، وتمت المؤامرة ودخل غرناطة فتحصن الموحدون في قصبة المدينة، فحاصرهم فيها طويلا ولكنه عجز عن السيطرة عليها، فطلب إمدادات من ابن مردنيش وحلفائه النصاري، في حين استنجد المرابطون بالخليفة الموحدي الذي سارع بإرسال نحو ٢٠ ألف مقاتل بقيادة ابنه أبو يعقوب يوسف ومعه زعيم أشياخ الموحدين يوسف بن سليمان، وسارع ابن مردنيش لنجدة صهره ومعه فرقة من النصاري، ولما التقي الفريقان في ٢٧ رجب ٥٥٧هـ / ١٢ يوليو ١١٦٢ م دارت الدائرة على ابن همشك وحلفائه النصاري، وقتل منهم أعدادا كبيرة، في مقدمتهم البار ردريجس وابن كونت أورقلة ومعظم قادة الأندلس المتمردين ودخل الموحدون غرناطة[١].

وبعد أن أتم عبدالمؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط امارة بني حماد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية، وضمها إلى دولة الموحدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقاً حتى البحر المحيط غرباً، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية، وبعد أن تم له تعيين ابنه ولياً لعهده، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورؤوس الفتنة، وخضّد شوكة افراد بيت بن تومرت، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال وتقوية ظهره بعصبية قبيلته، شرع في الإعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوى القيام به، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الأسبانية وكل من تمرد على دولة الموحدين ولذلك استعد عبدالمؤمن لهذه الحملة.

يقول ابن صاحب الصلاة: تم إعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس وهذه القطع تعتبر اضافة لقطع الأسطول الموحدي الزاخر. وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: " أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة، ما عاينته مكدساً كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله.. ونظر في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وأفريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك

---

(١) نفح الطيب، ٦ / ١١٢، الكامل، ٩ / ٧٩.

من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغربته الأذهان ولاتقدم بمثله زمان. وقسم ذلك كله على الموحدين " (١).

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسين وخمسمائة هجرية (٥٥٨هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوال مائة الف راجل ومائة ألف فارس. وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد أسبانيا:

١ - الجيش الأول: يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

٢ - الجيش الثاني: إلى فرناند ودي ليون.

٣ - الجيش الثالث: إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة.

٤ - الجيش الرابع: يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمّد هذا العمل الكبير، مرض عبدالمؤمن بن علي المفاجئ، وانتظار الموحدين شفائه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جماد الآخرة من سنة ٥٥٨هـ. قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمائة:

" فيها مات صاحب المغرب عبدالمؤمن بن علي، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف وحمل أباه إلى مراكش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وبايعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبدالمؤمن هذا حازماً شجاعاً، جواداً معظماً للشريعة، وكان من لايحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان سفاكاً للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء... " (٢).

تولي الخلافة بعد وفاة عبد المؤمن ابنه يوسف في رجب ٥٥٨هـ، وكان محبا للجهاد، فقد جاء إلى الأندلس مرتين من أجل هذا الغرض.

---

(١) ابن صاحب الصلاة ص ٢١٣ - ٢١٥.

(٢) البداية والنهاية ٢٦٤/١٢، وانظر أيضا الكامل، ٩ / ٨١.

وأبدي الخليفة الجديد اهتماما كبيرا بالأندلس، فلما أغار ابن مردنيش وحلفائه النصاري علي قرطبة سنة ٥٦٠ هـ أرسل إليه جيش كبير بقيادة أبي سعيد وأبي حفص فهزما ابن مردنيش في فحص مرسية، ولما هاجم البرتغاليون حصن بطليوس تمكن الموحدون من رده علي عقبيه (١).

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبدالمؤمن تدور على ثلاثة محاور:

المحور الأول: استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل ادخالها تحت نفوذهم.

المحور الثاني: العمل على الحد من أطماع الممالك والأمارات الأسبانية.

المحور الثالث: المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين اثخنتها وكانت وكان محمد ابن سعد بن مردنيش تولى حكم بلنسيه بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٤٢هـ) الموافق ٢١ أغسطس سنة (١١٤٧م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسه بالتنازل لابن مردنيش عن حكمها في جمادى الاولى سنة (٥٤٢هـ). وبذلك أصبح حكم ابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسيه شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

وكما أسلفنا فقد استطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع مماليك النصارى وإمارتها ضد الموحدين وكان غرض الأسبان النصارى في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع ان تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب. كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاضدة أمراء وملوك النصارى لابن مردنيش، هو أن لا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الإسلامية، وثانيا إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدين في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الأسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم او تحالفهم وبهذا فقد بن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين الذين كان وجوده يعتمد

---

(١) ابن خلدون، ٦ / ٣٩٤، أعمال الأعلام، ص ٢٦٩.

عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحدين يتسع في البلاد الأندلسية، وأن أغلب أماراته وولاياته دخلت في حوزتهم، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طواعية أو كره منهم، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مال إماراته التي جهد من إقامتها، هو الوقوع في أيدي الموحدين، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه وأخذت نفسيته تشذ في تصرفاتها، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبلبل الفكري، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون. ومنها أنه قتل وزيريه ابني الجذع بالجوع، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا.

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقاً في البحر، وارتكب الكثير جدا من أمثال هذه الأعمال، ولذلك امتلأت منه النفوس رعبا وخاصة أقرب الناس إليه، وتوالت النكبات على ابن مردنيش، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجئ عام ٥٦٧ هـ وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين. وبعد موته خلفه ابن هلال الذي قدم طاعته للموحدين وسلم لهم الحصون والقلاع التي كانت خاضعه لأبيه، بلنسية ومربيطر وشاطبة ولورقة وقرطاجنة، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحدين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية [(١)].

وأقام الخليفة أربع سنوات في الأندلس قاد أثناءهاالحملات ضد الأسبان، ففي سنة ٥٦٧ هـ هاجم البرتغال، وحاصر شنترين واستولي علي القنطرة، وفي سنتي ٥٦٨ هـ

و٥٦٩ هـ أغار علي نواحي قلعة رباح، وفي سنة ٥٧١ هـ عاد إلى المغرب [(٢)].

* * *

(١) ابن خلدون ٦ / ٣٩٩، ٤٠٠.

(٢) روض القرطاس ص ٢٦٦.

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين

فقد تأثرت دولة الموحدين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى الأسبان أولا ثم أمراء الأندلس ثانيا ثم المغاربه ثالثا وبالرغم من أن الموحدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم، لقد استطاع ابن مردنيش أن يقف فترة طويلة أمام الموحدين وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في أيديهم وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة، لقد انشغل الموحدون بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحدين، واستنزافه للكثير من جهدهم ورجالهم ووقتهم، كانت إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحدين منذ قيامها [(١)].

لما استتب الأمر ليوسف بن عبدالمؤمن في بلاد المغرب، انصرف إلى الجهاد في الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى أسبانية في صفر سنة ٦٥٥هـ/١١٧١ م، واستطاع ان يوجه ضرباته الشديدة الى إبن سعد بن مردنيش الذي توفى عام ٥٦٧هـ فتنازل أبناؤه عن أملاكهم كلها للموحدين، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصارى، ومكث في الأندلس أربعة أعوام، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى، حقق فيها نجاحات رائعة، ثم عاد إلى مراكش عام ٥٧١هـ/١١٧٦م بعد أن بنى جامع أشبيلية، وأدخل الماء إليها وأقام جسرا على واديها.

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى في الأندلس على شدتها، برية وبحرية ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التي أحرزتها قواته في جهاده ضد النصارى، عبر إلى الأندلس في صفر ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م وصمم على قتال مملكة البرتغال التي كانت أشد الأعداء على المسلمين ووضع خطة تقضي أولا بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتاله وليون، بينما تنشغل قوات اسلامية أخرى تزحف من الجنوب قوات النصارى القشتالية والليونية، وساعده في تحقيق خطته حشوده الضخمة، وقوى مسلمي الأندلس. سار أبو يعقوب يوسف على رأس الجيش الرئيسي متجها إلى بطليوس،

---

(١) سقوط الموحدين ص ٩١، ٩٢.

معتزما حصار أشبونة، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها



على ضفة نهر التاجة اليسرى، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملا أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر.

وبعد أحد عشر يوما من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة، حتى استولى أبو يعقوب عليها، خلا قلعتها، وذلك في

٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبر القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجربين، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شماليها وغربيها، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها، فكان الخطر ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده إسحاق والي أشبيلة ان يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة، وذلك لكي يحمي الهجوم علىقلعة شنترين من التعرض للمفاجأة، فهل وقع سوء فهم، أم كانت ثمة فتنة؟

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلا من أن يسير في الصباح، وبدلا من أن يسير في اتجاه اشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه أشبيلية وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش، حتى انتشر الاضطراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي، وتفاقم الأمر، حيث زحف سانو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجها لوجه.

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب، خلافا لنصح قواده، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية الى ما وراء نهر التاجة، وهو ما بدا كأنه أمر غير طبيعي، وأخيرا ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدين نوعا من الرعب العام، ترتب عليه أن غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها. وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو، وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم، وساعدت حامية القلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة، ومهاجمة المسلمين ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة، فإنه لم يبقى لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص، وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لحاقا بباقي الصفوف. ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطا، أنه وقع ضحية خيانة، أو ضحية سوء تفاهم، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من الرجال، وأخيرا

طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخا بدمائه.

ولما بلغ خبر اشتباك الخليفة مع النصارى رجع الأمير أبو إسحاق بقواته وهاجم بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين.

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في ١٢ ربيع الأول ٥٨٠هـ/٢٤أيار (يوليو) سنة ١١٨٤م وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاما.

لقد حمل الجنود خليفتهم إلى أشبيلية، وأرسل منها في تابوت إلى تينملل حيث دفن بجوار أبيه عبدالمؤمن [١]. وخلفه ابنه يعقوب.

* * *

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس

لم يستطع السلطان يوسف عبدالمؤمن أن يحقق نصرا حازماً على النصارى في الأندلس لعدة أسباب منها:

١ - لم تكن قيادة يوسف بن عبدالمؤمن قد وصلت الى درجة النضج العسكري والسياسي ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على عناصر مختلفة من قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحدي وليست لهذا الجيش خطة مرسومة يسير عليها، كما حدث عند غزوه لمدينة وبذة عام ٥٦٧ هـ حيث كان قرار الغزو جاء متأخرا عن وقت وصوله إلى الأندلس بقرار فردي من الخليفة الموحدي والذي كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون ترو أحيانا فهو قرر ان تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة ونده، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه، ثم أنه أثناء مسيره إلى وندة، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك.

٢ - ومما يعيب كفاءة خليفة الموحدين، عدم تقديره للظروف وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة ونده تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان وكان من المشرّف له أنه قبل هذا العرض وحصل على المدينة بدون أي جهد كان.

---

(١) المعجب، ص ٢٥٨، أعمال الأعلام، ص ٢٦٩، نفح الطيب، ٦ / ١١٣، روض القرطاس، ص ٢٦٩، شوقي خليل، الآرك، ص، ٤٢، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص ٣٢٩، الصلابي، دولة الموحدين ص ١٤٥.

٣ - كانت للخليفة الموحدي ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية ولذلك نجد الخليفة الموحد بدلا من أن يكون مشرفا على تسيير دفة المعارك وهو القائد الوحيد والمسؤول الأول، مشغولا بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة، فعندما كانت جيوش الموحدين تحاصر مدينة وندة جاءه أحد قادة الموحدين وطلب من الخليفة إمداده ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر، لم يلتفت إليه واستمر في مناقشة تلك المسائل.

٤ - لم يكن ولاء المسلمين قوي لدولة الموحدين ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلهاخصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من زعماء الموحدين.

٥ - انتشار الخيانة في أداء الواجب والتعدي على أموال الدولة من قبل الولاة في عهد يوسف بن عبد المؤمن ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الأموال التي اغتصبوها ونفيهم من البلاد ووصل الأمر بالبعض إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسؤولي الدولة ومن أشهر هذه الحوادث:

- محاسبة محمد بن أبي سعيد مسؤول الأعمال المخزية في اشبيلية وثبتت عليه خيانته للدولة فصودرت أمواله وممتلكاته وامتحن في نفسه طويلا ثم ضرب عنقه وكان ذلك عام ٥٧٣هـ.

٦ - انتشار الطاعون في المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبدالمؤمن في عام ٥٧١ هـ واستمر لمدة عام تقريبا، بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى. وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولة الموحدين منهم أربعة من أبناء عبدالمؤمن بن علي. وقد أصيب الخليفة الموحدي نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا، وكاد هذا المرض أن يقضي على من كان بدور الخليفة وأهله، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم وضاق المصلى بالموتى، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك، فقد خيم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهر، ولم يعد يخرج منها أحد أو يأتي وافد إليها.

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبو حفص عمر بن

يحيى الهنتاتي. وهو أحد طبقة الجماعة، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحدين وقد كان قادما من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام ٥٧١هـ وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس، أثره في إضعاف المعنويات، وفي قلة الأيدي العاملة، وتعطل التجارة، وتوقف الحياة الزراعية والصناعية وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات أثر مادي ومعنوي سيىء على الرعية وشجعت هذه الظروف العصيبة التي تمر بها دولة الموحدين ممالك وإمارات النصارى من النيل من الموحدين ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين وأخذت تعبث في بلاد الأندلس بالفساد " وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة " ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون أن يقوموا برد حاسم على التو والحين.

٧ - تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحدي: هذه القبيلة ينحدر - منها محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، ففي سنة ٥٧٨ هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدي في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقربهم من جبل السوس فاهتم الخليفة لهذا الحادث لأمرين: الأمر الأول هو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت وخوفا من التفاف قبائل الموحدين حولها. والأمر الثاني: فإن معدن الفضة يمثل موردا ماليا مهما لخزنة الموحدين، ولذلك فإن فقده يصيب هذه الخزانة بضربة عنيفة.

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر سنة ٥٧٨ هـ على رأس قواته. ولما وصل إلى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبته واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن. ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم، ووضع عليه جنداً لحراسته لقد كان لهذه الثورة أثراً في إضعاف شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم وتشجيع خصومهم على محاربتهم.

٨ - ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحدي وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين ويظهر ضعف تكتيكه العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما فعل ذلك في مهاجمته لمدينة وبذة وشنترين على التوالي، مما أتاح لملوك وأمراء الأسبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم في مركز قوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الأسبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته وإلى مواجهة

الموحدين متفرقين مع حالة الضعف تؤدي إلى انهزام النصارى.

٩ - استطاع النصارى أن يوحدوا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدين ويتخذوا موقفاً عدائياً واحداً منهم هذه أهم الأسباب التي منعت خليفة الموحدين من ضم الأندلس للمغرب ومن ثم الانطلاق لتوحيد العالم الاسلامي تحت لوائهم ونفوذهم وسلطتهم لقد كان يوسف بن عبدالمؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبدالسلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن:

ستملك أرض مصر والعراقا ::: ويجري نحوك الأمم استباقا

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قادته ودفعهم نحو المعالي، فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالأسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضاً طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات أثر مرض أصابه أثناء الحصار.

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في السابعة والأربعين من عمره وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي [١].

بعد استشهاد السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن في الأندلس ٥٨٠ هـ هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين:

١ - انشغال الموحدين بثورات قامت في أفريقية، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه.

٢ - الخلاف الذي وقع بين ملوك الأسبان في تلك الفترة، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين " مارتن دي بسيرجا " مطراناً لطليطلة، شرع الأخير في زرع الحقد والبغض وتاجيج صدور النصارى الأسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة

---

(١) سقوط دولة الموحدين، ص ١٢٧ - ١٤٥، العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص١١٥، حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص١٩٤، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٤٦.

السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقد حملة دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم، فانتسفت الغلات والكروم، وقطعت أشجار الزيتون، وخربت الضياع والقرى، وسيقت الماشية، وسُبي المسلمون العُزل رجالا ونساء، وقتل قسمٌ كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى أقصى جنوب الأندلس، وهم يتابعون العبث والتخريب [١].

استاء الخليفة من تقاعس رؤساء الأندلس وتخاذلهم أمام الأسبان، فقام محمد بن يوسف والي قرطبة باستعادة شلب وقصر أبي دانس وباجة ويابرة، ثم عاد إلى قرطبة [٢].

وبينما كان الخليفة في مراكش قدم عليه وفد قشتالة لمراجعته في تجديد معاهدة الصلح، وهو في نفس الوقت يضمر السوء للمسلمين. رفض الخليفة عرضهم وقطع المفاوضات واستعد للحرب. أرسل إلى إشبيلية يطلب من واليها أن يبني حصنا علي الوادي الكبير ليكون مقرا للمجاهدين المغاربة في الأندلس، فكان حصن الفرج.

بلغ ألفونسو عزم الخليفة علي العبور للأندلس، وكان أمد الصلح قد انتهي، جهز جيشه وحدد لهم يوما للإغارة علي الأندلس، فشنوا الغارات في يوم واحد علي أراضي المسلمين، واجتاحوا أراضي إشبيلية وعاثوا فيها فسادا وتخريبا، فلما وردت هذ الأخبار علي الخليفة وهو يتأهب لقتال بني غانية في إفريقية، فعدل عن قتالهم وقرر الجواز إلى الأندلس لمحاربة القشتاليين [٣].

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتاله واعتزازه بالنصرانية ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة، فكتب إلى سلطان الموحدين خطابا يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى القتال. وهذا هو نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

" باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أما بعد.. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل

---

(١) روض القرطاس، ص ٢٦٩، نفح الطيب، ٦ / ١١٤، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢ / ٨١.
(٢) المعجب، ص ٢٨٠، روض القرطاس، ص ٢٦٩، ابن خلدون، ٦ / ٥١١.
(٣) ابن خلدون، ٦ / ٢٤٥، نفح الطيب، ٦ / ١١٤.

لازب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وانتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عاما بعد عام، تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجيش أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلى جملة من عبيدك بالمراكب والشواتي والطرائد والمسطحات، وأجوز بحملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى "(١).

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مزّقه وكتب على ظهر قطعة منه: {ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧} [النمل: ٣٧]. الجواب ما ترى لا ما تسمع (٢).

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته، وأخذته غيرة الإسلام، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأمر أن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد، وأمر السلطان الموحدي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذانا بالدعوة العامة إلى الجهاد، وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير إلى سبتة، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس.

---

(١) وفيات الأعيان ٦/٧.

(٢) وفيات الأعيان ٧/٧.

ودوّت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي، حتى برقة شرقا على حدود مصر، ضد النصارى الذين غدوا خطرا على الإسلام. في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبيين قد وصلت إلى مسامع المغاربة وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله بل نجد أن بعض المغاربة فضل الذهاب إلى الشام والانصواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي.

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحاري والمدن والقرى والهضاب والشواطئ والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى ألوية الجهاد في أسبانية، وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق.

وبعد أن سير أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس، عبر إلى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ، ولم يسترح بها إلا قليلا، ثم بادر بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولا إلى اختراق قلب أسبانية وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح، على مقربة من قلعة الأراك، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان. ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م، وعقد مجلسا من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة.

* * *

ثالثا: معركة الأرَكْ

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومترا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنه، وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه. تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين

وطلب العون من ملكي ليون ونبارة [١] واستفز كل ملوك أسبانيا المسيحية



واستصرخ البابا في روما وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية ووافته جنود أوربية كبيرة يقودها فرسان ذو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة في الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوربية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية بـ (١٥٠ ألف جندي) تزيد عن ثلاث أضعاف القوات الإسلامية.

وتحركت تلك القوات ونزلت في الأرك، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي، ومرّت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك.

* * *

---

(١) شوقي ابوخليل، الأرك، ص٥٣ - ٥٤.

خطة الموحدين

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة، واستمع الزعيم لرأي الجميع، ثم التفت إلى زعماء الأندلس، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب، وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضح خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة، ولا سيما في معركة شنترين، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائدا عاما للجيش كله، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحيى ابن أبي حفص، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعمائهم، وهو ما لم يتبع دائما، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية، فقد نصح عبدالله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول، وأما بقية الجيش وهي المؤلفة من قبائل البربر، ومعظمهم غير النظاميين، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتبعين، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب، كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي، وأعجب أبو يوسف المنصور بها، فوافق عليها، وأمر بتنفيذها.

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الأسبان القديمة في الحرب، وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع في القلاع، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب، إما لنفاد المؤن، أو لتفشي الأمراض، أو لحلول الشتاء، ولكن

ألفونسو رأى - وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة - أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصا وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصرا باهرا على جيش الموحدين.

وفي ٩ شعبان ٥٩١هـ/٨ تموز (يولية) ١١٩٥ كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة. وفي صباح هذا اليوم، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند، لكي يذكي حماستهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة، مفاده أنه رأى في نومه فارسا بهي الطلعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء، وبيده راية خضراء، وقد انتشرت في الآفاق، يقوله له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله.

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه، الذي قدرته الروايات الأوربية الكنسية بستمائة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى، فاحتل الموحدون - أو القوات النظامية - القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو احفاد فاتحي المغرب المسلمين، ومعهم زناته وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبدالله بن صناديد. وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي، ورفعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة، ولا سيما حملة النبال، تحت أعلامها الخضراء، وهو لون الموحدين، إلى المقدمة، لتفتتح القتال، وهم جميعا يضطرمون شوقا إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى.

وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم: " اغفروا له - فإن هذا موضع الغفران - وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم ".

فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم.

وقام وخطب وحرض على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم وعزائمهم، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم.

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال، وكانت قلعة الأرَك تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول

إليه إلا بواسطة طرق ضيّقة وعرة، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عاليا، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال.

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه بحاول اقتحامه على اثر كلمات قائدها الملتهبة، انقض زهاء سبعة او ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من علٍ.

وفي البيان المغرب في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: " فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسرابا تتلوها أسرابٌ، وأفواجا تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال " أبو يوسف، المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفرداً من خاصته مقدما بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل، وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته " [1] لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسما منها، واضطر الباقون إلى التقهقر والتراجع، وأكرم الله الآف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص، الذي سقط شهيد وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبسالة، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبدالله بن صناديد انقض على النصارى انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة وكان ملك قشتالة يقود قلب جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، لقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص في العدد، بالإقدام والشجاعة، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته

---

(١) البيان المغرب ص١٩٤/.

الاحتياطية، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطرهم إلى الفرار في غير انتظام، لم يغادر ألفونسو وفرسانه عشرة الآلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى.

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلولا من النصارى التفت حول ملك قشتالة. وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه: " لا إله إلا الله محمد رسول الله، لاغالب إلا الله ". ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان، وأن تنقذ بذلك حياته [(١)].

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية، وغنم المسلمون معسكر الأسبان بجميع مافيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين [(٢)].

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في أشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر، كما بنى حصنا كبيراً في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء وكان عددهم عشرين ألفا وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه خطأ لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما

---

(١) الكامل، ٩ / ٢٣٢ - ٢٣٣، المقري، نفح الطيب، ٦/ ١١٥ - ١١٦، روض القرطاس، ص ٢٤٦، البيان المغرب، ٣ / ١٩٤، ابن خلدون، ٦ / ٢٤٢، أعمال الأعلام، ص ٢٦٩، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص ٣٣١ - ٣٣٣، الصلابي، دولةالموحدين، ص ١٧١ - ١٧٣ واللفظ له.

(٢) نفح الطيب، ٦ / ١١٦.

بعد وستسعى للانتقام من المسلمين.

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى، فقام في أوائل سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٦ بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية " استراما دورة " وعبر النهر الكبير " الوادي الكبير " في اتجاه نهر التاجة، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظرا لهبوط معنويات جنده بعد الأرك، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولا اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً جنوباً بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور الى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش اسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة.

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ولذلك استجاب لطلب ملك ناقار وليون وعقد معهم حلفاً واضطر ملك قشتالة الى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في افريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش [١].

* * *

---

(١) معركة الأرك ص٦٥، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٧٣.

رابعاً: نتائج معركة الأرك

١ - ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصارى الإسبان.

٢ - سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.

٣ - حقق الموحدون نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.

٤ - ارتفاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.

٥ - انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.

٦ - عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد.

٧ - أصيب نصارى الأسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وأبعادهم.

٨ - جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدون.

٩ - تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك وترتيب الأمور ورصّ الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.

١٠ - دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي.

وغير ذلك من النتائج.

* * *

خامساً: اسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك

لاشك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك له أسباب عدة منها:

١ - الاهتمام بتصحيح العقيدة ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم وهذا ماقام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه واهتم بالقرآن والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة.

٢ - اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء.

٣ - محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس.

٤ - فتح باب الاجتهاد وحارب الجمود وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه وألزم العلماء بأن لا يفتو إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحد من الأئمة المجتهدين المتقدمين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه. وأبطل التقليد ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب ابن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم.

٥ - احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب أفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسيَّر الأمير عبدالواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبد الله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبدالواحد يطلب

أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضى ذلك أيام. ثم إن الشيخ عبدالواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاؤوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين، كان الأولى أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والزهري والأوزاعي رحمهم الله.

الشيخ عبدالواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبدالواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبدالواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسيَّر إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال: يا أبا عبدالله ماهذا إلا جدّ كبير، ثم استدعى خادما وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبدالواحد إليه فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهّر وانقاد لأوامراه، وهذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضا، فإنه بالغ في إقامة منار العدل.

٦ - الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحدين حيث استطاع أن يوحد البيت المغربي الداخلي والقضاء على ثورات الأعراب وبني غانيه والمتمردين وقاد المعارك بنفسه واسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

٧ - الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ولذلك استمع أبي يوسف إلى الآراء في مجلس حربه وإعطاء لأهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى واعتمد خطة أبي عبدالله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.

٨ - الاهتمام بمعرفة نفسية الأقوام المشاركة في الجهاد فمثلاً، الأندلسيين يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معناويتهم وتنشط هممهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبدالله بن صناديد.

٩ - جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

١٠ - الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائداً أعلى لجيوش الموحدين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال.

١١ - اذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن قبل الحرب أن يذكروا المجاهدين بأحاديث الجهاد ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث في الجهاد لتملى على الموحدين من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.

١٢ - تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

١٣ - سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء وبيده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته.

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر ابي يوسف يعقوب المنصور [١].

وفي ليلة الجمعة ٢٢ ربيع الأمول ٥٩٥هـ / ١١٩٩ م توفي الخليفة المنصور ونقل إلى قصره بالصالحة ودفن هناك ثم نقلت رفاته إلى تينملل [٢].

* * *

---

(١) الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٧٣ - ١٧٥.

(٢) روض القرطاس، ص ٢٧٠، وفيات الأعيان، ٢ / ٤٣١، نفح الطيب، ٦ ١١٧، الكامل، ٩ / ٢٤٩.

الخليفة محمد الناصر

وخلفه في اليوم التالي ابن محمد أبو عبد الله وتلقب بالناصر لدين الله، وهو في السابعة عشرة من عمره. عزل أخاه السيد عن ولاية إشبيلية، ثم أعاده إليها في سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م، وقد حدث في إشبيلية سيل كبير جرف أحياء من مدينة إشبيلية، وبلغ عدد المنازل المدمرة ستة الآف وكان وقوعه ظهر يوم الاثنين ١٩ جمادي الأولي ٥٩٧هـ / ١٢٠١ م واستمر لمدة ثلاثة أيام [(١)].

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين واستطاع عبدالله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بني غانية لها نفوذ من زمن المرابطين واستعمل السلطان المرابطي علي بن يوسف رجلين منهما في الأندلس وهما محمد ويحيى، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس، منها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل، والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع في رواية الحديث وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عُدّ وحده بخمسائة فارس. وكان علي بن يوسف بن تاشفين الملثمي يعده للعظائم ويستدفع به المهمات، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها انقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الأندلس عام ٥٢٩هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعد ما احتل هذا سرقسطة وتطليه وقلعة أيوب.

ولـيّ علي بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها والياً الى أن مات، وبموته كانت أولى الفتنة على المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانية يجول الأندلس الفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما اشتد خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر عنها الى جزيرة البليار (منورقة ويابسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين، داعياً للخلافة العباسية. وبعد محمد ملك ابنه إسحاق، فأمّه بقايا المرابطين، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب

---

(١) البيان المغرب، ٣ / ٢١٤.

طاقته.

وأقبل إسحاق بن محمد على الجهاد في سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالدة في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم - غرب ايطاليا جنوب فرنسا - فيغنم وينكى في الأعداء أشد نكاية، وأشتد بذلك عوده وقوى أمره، وتشبّه بالسلاطين العظام ولم تزل هذه سيرته إلى أن توفى عام ٥٧٩هـ.

وكان إسحاق هذا له سياسة مرنة مع الموحدين، فلاطفهم وارسل لهم الهدايا الثمينة وهادنهم وأشغلهم عنه، ولم يلتفت الموحدون إلى جزر البليار باهتمام يذكر، فلما كان سنة ٥٧٨هـ كتبوا إليه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه إن لم يلبى مرادهم، فأعطاهم العهود المؤجلة، واستشار وجوه أصحابه، فاختلفوا عليه، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار، ومنهم من رأى الدخول أسلم لحماية الأنفس والأغراض وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوة من غزواته، فأكرمه الله بالشهادة، فتولى الامر من بعده ولده الأكبر علي بعهد من والده، والذي دخل في حرب مع الموحدين طويلة المدى واستطاع الخليفة الموحدي المنصور أن يكسر شوكته وجرد الجيوش لحربه وقادها بنفسه واستطاع أن يخمد ثورة بني غانية في المغرب الأوسط وأفريقية وطرابلس بحد السنان ومزق تحالف بني غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال وأمراء الأيوبيين.

ومع وفاة الخليفة الموحدي المنصور عاد بنو غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على إفريقية وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبدالله بن غانية قد حاول في عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف.

ورأى الخليفة الموحدي الجديد أبو عبدالله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين في افريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في افريقية لهذا صمم الناصر على بسط نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحدين وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض في ثغر دانية وأسند قيادة الأسطول الى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبدالمؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن حفص.

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتي فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر

الف من الرجال وغير رجال الأسطول وكان الأسطول في ثلاثمائة جفن (سفنينة) (أو أنواع السفن) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذي حجة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبدالله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء ادريس قائد الأسطول والشيخ أبي سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها الى العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وأقيم عليها عبدالله بن طاع الله الكومي والياً عليها وبذلك يكون الموحدين قد قطعوا جذور بني غانية في الجزر الشرقية (جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة).

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقية والمغرب الأوسط، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده الى صحراء ليبيا وأقام الناصر الشيخ عبدالواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين والياً على أفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحدي الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبني غانية وأحلافهم في أفريقية ونستطيع أن نقول أن عام ٦٠٤هـ الذي كانت فيه موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في إفريقية، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى ابن غانية حتى انهكها وشتت جموعها واحلافها وفي عام ٦٣١هـ/٦٣٣هـ/١٣٣٤م أو ١٢٣٦م توفى يحيى بن إسحاق بن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر وكان هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان.

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم، لأنهم رأو في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السنة والجماعة ولأنهم حرصوا على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ولذلك سعى بنو غانية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب اخلاصها وصادقها للإسلام الصحيح وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وأفريقية لمدة تزيد عن أربعة عقود مع ثورة بني غانية.

لقد كان فشل تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات

الموحِّدية القوية والمركزة وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين وبحروبهم مع والحملات الصليبية الحاقدة. [١].

* * *

موقعة العقاب

انصرف الناصر محمد إلى معالجة أوضاع المغرب عن الاهتمام بأحوال الأندلس، وكان القشتاليون قد أخلدوا إلى السكينة بعد هزيمتهم في الأرك واجتياح الخليفة المنصور لأراضيهم والعبث فيها، ولما طال الصراع بين الموحدين وابن غانية وانقطع عبور المجاهدين إلى الأندلس، أدرك الأسبان النصاري أن الفرصة سنحت لاستئناف الغزو لأراضي المسلمين.

وكان ألفونسو الثامن القشتالي يتحرق للثأر من هزيمة الآرك، ولما انتهي أجل الهدنة المعقودة بينه وبين الموحدين جهز حملة سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م ومعه فرسان قلعة رباح وسار إلى جيان وبياسة واستولي علي عدة حصون، ثم عاد في العام التالي واجتاح أراضي جيان وبياسة حتى وصل أطراف ولاية مرسية، وعاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم. [٢].

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارى وخصوصاً ألفونس الثامن ملك قشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصيناً قوياً عام ١٢٠٩م ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين، لذا لم يكن الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك مَحْوَ وصمة هزيمة الأرك، بإحراز نصر على الموحدين.

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت واستطاع الأسبان

---

(١) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٣٣٦ - ٣٣٧، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٨٧، ١٨٩.

(٢) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص ٣٣٧.

النصـارى أن يوحـدوا جبهـتهم الداخليـة، وان يـدعوا نصـارى أوروبـا لحـرب صـليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصـارى فـي أوروبـا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وأيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس.

وشـرع النصـارى الحاقدين فـي احـراق الـزروع والحقـول، ونهـب القـرى وقتـل السكان وسبي منهم جموعاً كبيرة (١).

وأمـام هذه الاعتداءات الهمجيـة المتكررة علـى الأنـدلس، أعلـن الناصـر لـدين الله الجهـاد، فحشـد قـوات كبيـرة وشـرع فـي ارسـالها مـن المغـرب، وقسـمها الـى خمسـة جيوش:

١ - الجيش الأول من قبائل البربر.

٢ - والثاني من الجنود المغاربة.

٣ - والثالث من الجنود الموحّدية النظامية.

٤ - والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

٥ - والخامس هو جند الأندلس.

وقدر جيش أبي عبدالله محمد الناصـر بنصـف مليون مجاهد وفـي ٢٥ ذي القعدة سـنة ٦٠٧هــ أوائـل أيـار (مـايو) سـنة ١٢١١م، جـاز سـلطان الموحـدين بنفسـه إلـى الأندلس، ونزل فـي جزيرة طريف، ثم سار بعد أيـام إلـى أشبيلية وهنـاك كـان الخطـأ الفادح.

نتيجـة لصـغر سنه ولقلـة خبرتـه، واستبداده بـالرأي حيث أرسـل خيرة جنده إلـى حصن سَلَبْطَرَّة، فأنهك بذلك قواهم، ولبث الجيش أمام هذا الحصـن ثمانيـة أشـهر وهو ممتنع عليه، وأصر أبو عبدالله محمد الناصـر نـزولاً علـى نصـح حاجبـه أبـي سعيد بن جامع وكان الموحدون يشكون في صدق نياته - ولكن أبا عبدالله محمد الناصـر وضـع فيه كل ثقته، وأصر أبو سعيد بن جامع علـى ألا يتقدم جيش الموحدين قبـل الاستيلاء علـى حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصـار طـوال الصـيف حتـى دخـل الشـتاء، وعـانى المغاربـة فـي الجبـال الـوعرة المحيطـة بالحصـن مـن قسـوة الطقـس مـالا يطـاق كمـا أودى المـرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثر يوماً فيوماً.

---

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٢٣، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩١.

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لانقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبا وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي تنساهم في كفاح الصليب المقدس.

وقام البابا أنوسنت الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارى وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسة (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وأنه - أي البابا - يمنح كل من لبي الدعوة الغفران التام).

وتحركت الامواج البشرية النصرانية من اوروبا للوقوف مع نصارى الأسبان وكان الأساقفة يرئسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة، وقد تولوا الإنفاق على حشودهم[١].

ووفدت على أسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عددا، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقاً للقاء المسلمين. ووفق أرنولد الى ماهو أهم من ذلك، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك نافار - بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة - أولاً على أن يؤيد قضية أسبانية بالمال والجند، ثم - وهو الأهم - على التعهد بأن يسير في فرسانه، وأن يشترك بنفسه في القتال.

واجتمعت في مملكة قشتالة ما لايحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين وكان في مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم، وبيدرو الثاني ملك أراغوان في جيشه الضخم، كما توافدت امدادات ليون وجليقية والبرتغال، وكانت قوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة البارعين، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث، أحد أبناء الملك سانشو الأول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم، فأضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة، بأنواع من

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٢٨، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٣.

السلاح والملابس واللغات والعادات لقد اشتركت أوروبة فعلياً بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بأرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغرية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء.

وفي روما، أمر البابا أنوسنت الثالث بالصوم ثلاثة أيام، والأكتفاء بالخبز والماء ألتماساً لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى اخرى، ومن دير إلى آخر، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماساً لنصر الأسبان.

وفي ٢٠ حزيران (يونية) ١٢١٢م، تأهب الجيش النصراني للسير الى لقاء المسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش، حتى لايصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوروبا وكان تعداده مابين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لويزدي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بُردْال) وأسقف نانت.

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدرو الثاني، وهو مؤلف من الأراغوانيين والقطلونين فقط مع فرسان الداوية.

أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز، والأمير البرتغالي بيورو، وردريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة أخر.

وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير [(١)].

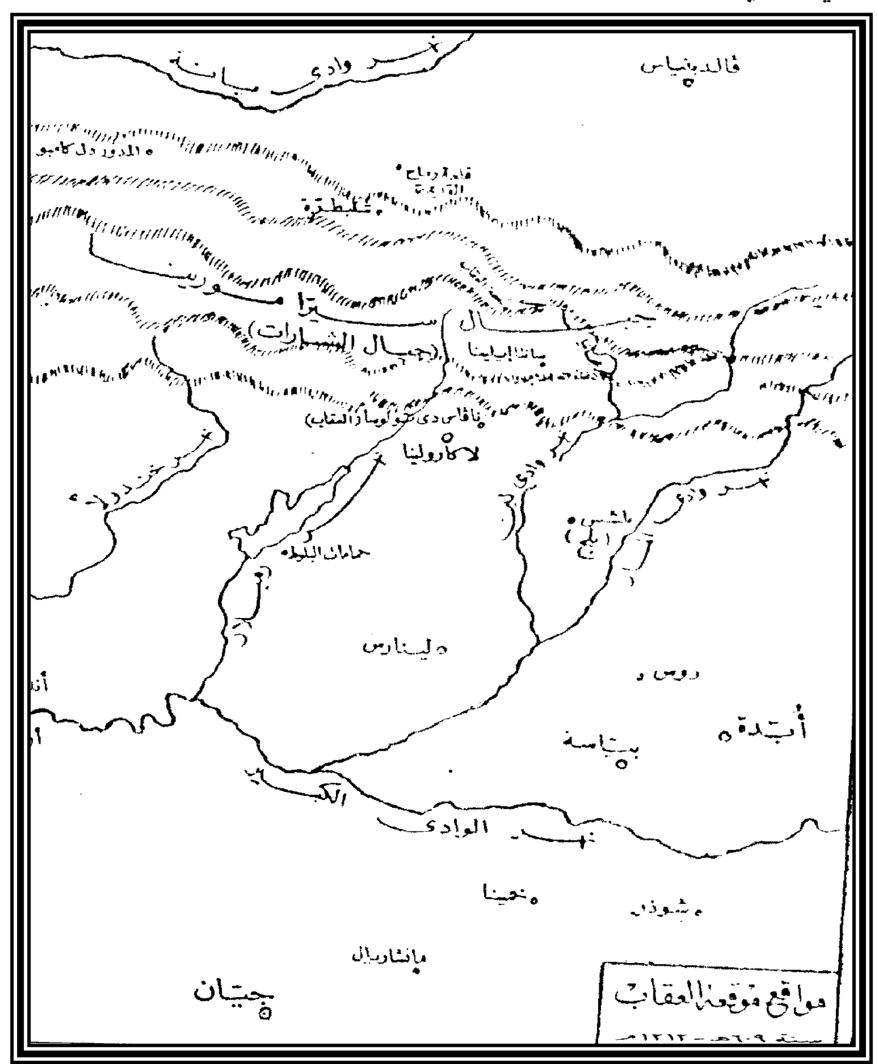
* * *

---

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣١، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٣.

حصار قلعة رباح

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) ١٢١٢م، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه بعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي تقع عليه المدينة صعاباً فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصنانير والخوازيق الحديدية.



وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية، والأسوار المنيعة، وكان يخشى أن تقتضي حصاراً طويلاً. وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ويقول يوسف أشباخ [(١)]: (وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة، دون محاولة افتتاحها، وأن يُبْدأ بالسير تواً لمهاجمة المسلمين)[(٢)].

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ووجد ألفونسو في قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن.

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم شانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال.

وعلى أثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة، الفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو ملك نافار، بيدروا الثاني ملك أرغوني نحو مدينة سلبطرة، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل.

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشا لم تخرج أسبانية النصرانية مثله من قبل، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لا طائل منه، فاخترقوا ممر " ورادال " في جبال سيارا مورنيا " جبل الشارات " لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى.

* * *

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ١١٣/٢.

(٢) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣١، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٤.

مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجّاج

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر على أبي الحجاج وبدس من وزيره أبي سعيد ابن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهارا، فكان لهذا الفعل أثر سيئ في الجيش الإسلامي كله، ولا سيما في جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر.

قلت: وهذا الفعل يدل على ضيق افق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفها ووحدتها في صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد في الشريعة الغرّاء قواعد واضحة المعالم في دفع المفاسد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة.

إن هذا العمل الخاطئ الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار [(١)].

* * *

---

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣٥، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٤.

المعركة

قـام ملـوك الأسـبان فـي صـباح ١٦ تمـوز " يوليـة " بترتيـب جنـدهم لخـوض المعركة، فرابط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الرُّبى، تزعَّم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق:

١ - تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية، ويقودها " ديجولويز ".

٢ - وتتـألف الفرقـة الثانيـة مـن فرسـان قلعـة ربـاح، وشـنب ياقـب، والإسـتبارية والداوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت " جونزالو نونيز دي لارا ".

٣ - والفرق الثالثـة وتتـألف مـن جنـد وفرسـان مـن قشـتالة القديمـة واشـنترويش، وبسكونية، ويقودها الكونت " ردريك دياز كاميروس ".

٤ - وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون، ويقودها ألفونسو نفسه، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلا عن المطران " ردريك الطليطلي "، عدة اساقفة من قشتالة وليون مع جندهم. وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة آرنولد مطران أربونة، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

أمـا الجنـاح الأيسر، فكـان ينقسم أيضـا إلـى أربـع فـرق، ويتـألف كلـه مـن قـوات أراغـون، مـا عـدا بعـض جنـد المشـاة القشـتاليين، ويقـوده الملـك بيـدروا، ومـن حولـه الأحبار والأرغونيون (١).

أما جيش الموحدين، فقد قسَّمه أبو عبدالله محمد الناصر تجاه جيش النصـارى فـي سهل " تولوزا " وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق:

كانـت الفرقـة الأماميـة تتـألف مـن المتطوِّعـة، وهـم الـذين يتطوعـون مـن تلقـاء أنفسهم، وبدافع ذاتـي محض للجهاد والموت فـي سبيل الله، ونشر الإسلام. وتقدرهم الروايـة العربيـة بمائـة وستين ألـف مقاتل. واصطفت القـوات الأندلسية فـي الميمنـة، والقبائل البربرية في الميسرة، وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجـيش، مـن الجنـد المغاربـة والنظـاميين، او بعبـارة أخـرى مـن الجنـد الموحـدين.

---

(١) يوسف أشياخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ١١٧/٢.

وضرب أبو عبدالله محمد الناصر قبّته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف، ربط أمامها جواده المسرج. وقعد في داخلها على درقته، إيذانا باقتراب المعركة، ومن حوله حرسة من مشاة وفرسان. وشهر الجند حرابهم في اتجاه معسكر النصارى الأسبان ومن معهم من قوات أوربية صليبية، فكانت سدا منيعا دون اختراقه الموت.

ولما تمّت استعدادات المعركة، خرج سلطان الموحدين من قبته وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده عبدالمؤمن وقد رفع المصحف الشريف باحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوّي بشدة في ساحة المعركة وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفا قويا ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصارى التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الإستبارية والدواوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين، وأن يمزقوها. واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين، وتقدّموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي، حيث حُشدت صفوة الجند، لقوا أشد مقاومة، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية، وارتدوا فارّين، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم [(١)].

ولما رأى ملك قشتالة من الرُّبى تطور المعركة على هذا النحو السيئ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلّف القوة الاحتياطية، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي: " إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد ".

تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد. ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الاخطار، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعمعة، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندهم.

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الامدادات الجديدة، ليلمُّوا شعثهم، وينظّموا جموعهم، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة،

---

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣٥، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ١١٧/٢، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٤.

وهم يحطّمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الاسلامي، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب، كان جناحا الجيش الإسلامي قد حُطّما، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار، وترتّب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين، والحرس المغاربة، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، ورجولة فريدة، وجلد لا مثيل له، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر النصارى لا مفر منه وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده واتجاه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها، بل سار منها إلى أشبيلية.

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس، حيث كانت النهاية، أو نهاية البداية مصرع غرناطة.

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جدا وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوربا كلها يدفعهم الحقد الصليبي، للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم (١).

لقد استشهد في هذه المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء:

١ - أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضْري (٥٤٢ - ٦٠٩هـ). من أهل شاطبه، صاحب التآليف الذي " كان أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً، لا يخل بحفظ شيء منها. موصوفا بالدراية والرواية، غالبا عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما اذن في المساجد، وله تآليف دالة على سعة حفظه، مع النظم والنثر.. ثم توجه إثر ذلك غازياً. وشهد وقيعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها. وكانت السبب الأقوى في تَحَيّف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حيا ولا ميتا وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة.. ".

---

(١) شوقي أبوخليل، معركة العقاب، ص٣٩، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ١١٨/٢، الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٥.

٢ - القاضي الفقيه أبو ابراهيم إسحاق بن يعمر المجابري. من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية " فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر لصفر سنة ٦٠٩ ".

٣ - أبو الصبر أيوب بن عبدالله الفِهْري. من أهل سبتة، الذي " استوسع في الرواية. وكان معروفا بالزهد، واستشهد في كائنة العِقاب ".

٤ - أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس " كان زاهداً، عابداً، معلما بالقرآن له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازيا وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ٦٠٨، فاقام هنالك أياماً يَلْقى الزاهدين.. ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطيلسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره.. ".

٥ - أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الحضرمي، من أهل اليُسَّانة عمل قرطبة " ولي قضاء موضعه مدة طويلة، مضافا ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه. وله تأليف في رجال الموطأ...، واستشهد في وقيعة العقاب منتصف سنة ٦٠٩ ".

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين[١].

* * *

ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب

١ - الإعجاب بالكثرة، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس. إن الثقة بآلاف الجند، وبمقدرة القادة، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه، ألا وهي: " صدق الرحمن وكذب الشيطان " [٢].

٢ - لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطرة وأخذ براي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحدي لأقسى عوامل

---

(١) الصلابي، دولة الموحدين، ص ١٩٨ - ٢٠٠.

(٢) انظر: العقاب ص٥٠.

الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.

٣ - ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة وخاتما في يد الوزير أبي سعيد بن جامع.

٤ - سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ولاسيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، كل هذا مهد للفرار وانسحب الاندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة وكان هذا الانفصال الغير متوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

٥ - إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوربا وجعل الحرب مقدسة من اجل العقيدة.

٦ - الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم.

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وباشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال، تولوزا، بياسة، بلقيس، بانيوس، وأبدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيرا من مبانيها، بنيما كان الرهبان والقساوسة يرتّلون الصلوات فرحا بنكاية المسلمين، ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة (١).

لقد كانت المجزرة اللا إنسانية في مدينة بياسة. يقول أشباخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (٢): " ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين، فشاءة قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعا بالسيف، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى، بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوى الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك، حينما هاجموا مدينة أبدة

---

(١) انظر: العقاب ص٥٢.

(٢) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (١٢٣/٢).

التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزّل، وكان المسلمون يأملون نظرا لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء [١].

ونظّم النصارى في الواقع على المدينة هجوما عاما خسروا فيه كثيرا من القتلى ولم يسفر عن أي نجاح، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها، وأن يحتلوها، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الأسبان، وعندئذ رأى الملوك، أن خير الطُرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قد خشوا العاقبة، وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب " مليون دينار "، على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقا لشريعتهم وشعائر دينهم، وهكذا قُبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظرا لما أنسوه من صعاب في افتتحها.

ولكن الأحبار الظامئين إلى دماء المسلمين، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق، وطلبوا أن تسلّم المدينة دون قيد أو شرط، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع، منتحلين لذلك عذرا هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى، لم يؤدُّوا الضريبة المضروبة عليهم في الحال، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين، فقتل من في أبدة زهاء ستين ألفا، وسُبي مثل هذا العدد، وهُدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم، ورتّلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته " [٢].

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفاءه للعهود واحترامه للأديان؟!.

قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية ::: فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما ::: غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ::: وكل إناء بالذي فيه ينضح [٣]

---

(١) الصلابي، دولة الموحدين، ص ٢٠٢.
(٢) انظر: العقاب ص٥٣.
(٣) عبدالله علوان، صلاح الدين بطل حطين، ص٨٤.

لم تكن موقعة العقاب سببا في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب ايضا. فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى.

جاء في نفح الطيب: كانت العِقاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبخلاءِ كثير من قُراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدوّ لها..) [١]. وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعا إلى أشبيلية، وهنالك صب حمام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزينا كئيبا ولكي ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في الملذات والشهوات ولم يقم بشيء من شؤون الحكم سوى أن عيّن لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله وكان يومئذ طفلا في العاشرة من عمره ولما انتهى من هذا التعيين، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه وقضى أمدا لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب ثم دس له خدمه السم وتوفي مسموما بأمر من وزرائه، لأنه كان قد عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل. فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في ١١ شعبان ٦١٠ هـ / ٢٥ كانون الأول " ديسمبر " سنة ١٢١٤ م، بعد أن حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر [٢].

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدرات وهكذا توضع امور الدول في يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمدا على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور

---

(١) المقري، نفح الطيب ٤٢٠/١.
(٢) انظر: العقاب ص٥٧، الصلابي، دولة الموحدين ص ٢٠٤.

جامع القرويين وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدون دماء وأموالا، وتفككا داخليا وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلا عام ١٢١٢م وليس عام ١٢٦٩م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على ايدي بني مرين ومن قبلهم بني عبدالواد في تلمسان وبني حفص في تونس (١).

* * *

يوسف بن محمد المستنصر بالله

خلف والده محمد الناصر في ١١ شعبان ٦١٠ هـ / ١٢١٣م وهو في السادسة عشرة من عمره، وفي عهده حدث أمر لم يكن في الحسبان، فقد وفد علي مراكش اليهودي إبراهيم بن الفخار وزير ملك قشتالة بشأن عقد هدنة رحب بهاالخليفة وأرسل الكتب إلى عمال الأندلس يطلب منهم الالتزام بشروط الهدنة مع قشتالة (٢).

وفي عام ٦١٤هـ / ١٢١٧ م تمكن نصاري الأندلس بالاستعانة بأسطول الألمان الصليبي من السيطرة علي الثغر وقتلوا من به من المسلمين وتقاعس مسلموا الأندلس عن نجدة إخوانهم، فكان المصير السيئ لأهل الثغر.

وتلا ذلك سقوط قاصرش الواقعة في شمال ماردة في يد ملك البرتغال في سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٣ م، بعد أن أجهدها بالحصار الخانق وكرر هجماته المدمرة عليها، وحدث سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢٠ قدوم سفير قشتالة إلى مراكش لتجديد الهدنة، فأبرمت المعاهدة (٣).

وتوفي الخليفة المستنصر فجأة نهار السبت ١٢ ذي الحجة ٦٢٠ هـ دون وريث فاتفق الموحدون علي مبايعة السيد أبي محمد عبد الواحد بن الخليفة المنصور وهو

---

(١) الصلابي، دولة الموحدين ص ٢٠٤، ٢٠٥.
(٢) المعجب، ص ١٨٤، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي ص ٣٤٣، ٣٤٤.
(٣) روض القرطاس، ص ٢٧٣، الروض المعطار، ص ١٦٢.

في الستين من العمر [(١)].



نتيجـة لضـعف السـلطة المركزيـة داخـل الدولـة الموحديـة، وتنـاحر عناصـرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتهـا أفريقيـة، وتقلـص نفـوذ الموحـدين بـالمغرب الأقصـى نفسـه حتـى سـقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففـي فتـرة الانحـلال ازداد ضـغط الممالـك المسـيحية علـى الأراضـي الأندلسـية: أرغـون مـن الشـرق وقشـتالة مـن الشـمال والبرتغـال مـن الغـرب، وظهـر فـي شـرق الأندلس ابوعبدالله محمد بن هود في رجب ٦٢٥هـ/١٢٢٨م في مرسيه وحكم تحت شـعار العباسـيين وسـيطر بـن هـود علـى معظـم الأنـدلس وخلـع أهـل الأنـدلس طاعـة

---

(١) نفح الطيب، ٦ / ١١٧، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٣٤٤.

الموحدين وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم [(١)].

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م زيان بن مردنيش وفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام ٦٣٦هـ/١٢٣٩م إلا وقد سيطر على غرب الأندلس [(٢)].

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة، فابتلعوها ماعدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى، فسقطت قرطبة عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م وبلنسية في عام ٦٣٦هـ/١٢٣٩م، ومرسية ٦٤٤هـ/١٢٤٦م وأشبيلية ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً.

وانفصلت أفريقية سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبدالواحد الحفصي الى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعات [(٣)].

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس، وأفريقية بدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل، فسيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بني عبدالواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية [(٤)].

* * *

---

(١) البيان المغرب، ٢٦٩/٣.
(٢) دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص١٠٨.
(٣) دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي ص١٠٩.
(٤) دولة الموحدين، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

الفصل التاسع

عصر بني الأحمر (مملكة غرناطة) وسقوط الأندلس (٦٣٠ - ٨٩٧هـ / ١٢٣٣ - ١٤٩٢م)

* * *

بعد وفاة الخليفة يوسف المستنصر بالله سنة ٦٢٠ هـ دون وريث بايع الموحدون عبدالواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، ولكن ثار عليه عبد الله بن يعقوب والي مرسية وأعلن نفسه خليفة وتلقب بالعادل في صفر ٦٢١ هـ وبايعه ولاة الأندلس وكانو إخوته، وعين الخليفة الجديد أخاه أبا العلاء إدريس علي إشبيلية، وعبر إلى المغرب سنة ٦٢٢هـ ولكن أبو العلاء خلع طاعة أخيه العادل ودعا لنفسه في إشبيلية وتلقب بالمأمون، عندها ثار الموحدون على العادل وقتلوه وعينوا مكانه يحيى ابن أخيه الناصر سنة ٦٢٤هـ، فلجأ المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث طالب منه المساعدة لقاء مبلغ كبير من المال مع منح امتيازات للنصاري في مراكش منها السماح لهم ببناء كنيسة، فأمده فرناندو بقوة نصرانية عبرت معه إلى المغرب سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م، ودارت معركة مع الخليفة يحيي الذي انهزم ودخل المأمون ظافرا إلى مراكش، ثم توفي فجأة في ذي الحجة سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م فخلفه ابنه عبدالواحد وتلقب بالرشيد.

نتيجة لهذا الصراع بين الموحدين انهار حكمهم في الأندلس، وبرز زعيم أندلسي هو محمد بن هود من أحفاد حكام سرقسطة استغل الأوضاع المتردية في الأندلس فأخذ يدعو إلى تحرير الأندلس من الموحدين والنصاري، وهذا ما دفع الأندلسيين إلى تأييده والانضمام إليه، وعندما آنس من نفسه القوة هاجم مرسية سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م وانتزعها من حاكمها الموحدي أبي العباس، فاشتد ساعده واتصل بالخليفة العباسي المستنصر بالله ودعا له، فأرسل إليه الخلع والهدايا والرايات، وعندها تلقب بالمتوكل علي الله، ثم دخلت في طاعته جيان وماردة وقرطبة وبطليوس وغرناطة سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م وكانت خاضعة للخليفة الموحدي المأمون [١].

وبالرغم من أن ابن هود قد حاول جاهدا إيقاف المد النصراني، وصد الغارات القشتالية، وتكوين أحلاف مع أمراء الطوائف الجدد ولكن كان تيار الفرقة والاختلاف أكبر من أن يقف منفردا في وجهه، وقد خاض مع نصاري الأسبان أكثر من موقعة فاصلة خرج منتصرا في بعضها، ولكن أيام الإسلام في الأندلس كانت مدبرة، والأرض تميد من تحته، وبعد حياة حافلة بالقتال في عدة جبهات، توفي ابن هود في ثغر المرية علي يد وزيره ونائبه فيها أبي عبد الله محمد بن عبدالله الرميمي.

---

(١)روض القرطاس، ص ٢٧٤، نفح الطيب، ١ / ٤٢١، ابن خلدون، ٤ / ١٦٨، الإحاطة، ص ١٤٦، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٣٤٨.

وتفصيل ذلك أنه كان لابن هود جارية نصرانية تركها لدي الوزير الذي استأثر بها وخشي العاقبة، فاغتال سيده في ٢٤ من جمادي الأولي سنة ٦٣٥هـ / يناير ١٢٣٨ م [١].

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الاسبانية تتابع مما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها، فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في ٢٣ شوال ٦٣٣هـ/٢٩ حزيران (يونية) ١٢٣٦م، صيحة النذير المدوية، لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثم والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي اصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م ثم شاطبة ودانية وفي عام ٦٤٦هـ سقطت أشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن أشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث، على أن يُخير المسلمون بين البقاء في أشبيلية، أو يهاجروا وفي الحال حُول مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلوها في الحواضر الإسلامية الباقية.

لقد كان سقوط أشبيلية ايذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعاً على: شريش، شذونة، قادس، شلوقه، غليانة، روضة، ثغر شنتمرية، وغيرها.... وتحالف ابن الأحمر مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة [٢].

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرُّنْدي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس قائلا:

---

(١) ابن خلدون، ٤ / ١٦٩، نفح الطيب، ٦ / ٢٠٨.

(٢) ابن خلدون، ٤ / ١٢٩، روض القرطاس، ص ٢٧٥، نفح الطيب، ٦ / ٤٠٩ - ٤٢٢، سقوط غرناطة ص٣٠، دولة الموحدين، ص ٢٢١.

لكـــل شـــيء إذا مـــا تم نقصـــان	:::	فلا يغـــر بطيـــب العـــيش إنســـان
هي الأمـــور كمـــا شـــاهدتها دولُ	:::	من ســـرّه زمـــن ســـاءته ازمـــان
وهذه الدار لا تبقـــي علـــى أحـــدٍ	:::	ولا يدوم علـــى حـــال لهـــا شَـــان
أين الملوك ذوو التيجان مـــن يمـــن	:::	وأيـــن منـــهم أكليـــل وتيجـــان
أتى على الكل أمـــرُ لا مـــرّد لـــه	:::	حتى قضوا فكأن القـــوم ماكـــانوا
فجـــائع الـــدهر أنـــواع منوعـــة	:::	وللزمـــان مســـرات وأحـــزان
وللحـــوادث ســـلوانٌ يســـهلها	:::	ومالمـــا حـــل بالإســـلام ســـلوان
وهي الجزيـــرة أمـــرٌ لا عـــزاء لـــه	:::	هوى له أحُـــدُ وانهـــد ثهـــلان [1]
أصابها العين في الإســـلام فامتعنـــت	:::	حتى خلت منـــه أقطـــار وبلـــدانُ
فاسأل بَلنسية مـــا شـــأن مُرســـية	:::	وأيـــن شـــاطبة أم أيـــن جَيـــانُ
وأيـــن قرطبـــة دار العلـــوم فكـــم	:::	من عالم قد سمـــا فيهـــا لـــه شـــأنُ
وأين حِمصٌ وما تَحويه مـــن نُـــزَهٍ	:::	ونهرهـــا العـــذبُ فيـــاض ومـــلآنُ
قواعدٌ كُـــنَّ أركـــان الـــبلاد فمـــا	:::	عسى البقـــاء إذا لم تبـــق أركـــان
تبكي الحنفية البيضاء مـــن أســـف	:::	كما بكى لفِـــراق الإلـــفِ هَيمـــانُ
على ديـــار مـــن الإســـلام خاليـــةٍ	:::	قد أقفرت ولهـــا بـــالكفر عُمـــرانُ
حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما	:::	فـــيهن إلا نـــواقيس وصُـــلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهـــي جامـــدةٌ	:::	حتى المنابرُ ترْثـــي وهـــي عيـــدانُ
يـــاغفلاً ولـــه في الـــدهر موعظـــة	:::	إن كنت في سنة فالـــدهر يقظـــان
وماشـــياً مرحـــاً يُلهيـــه مَوْطِنـــه	:::	أبعد حمـــص تغـــرُّ المـــرءَ أوطـــان
تلك المصيبة أنســـتْ مـــا تقـــدمها	:::	ومالها مع طـــول الـــدهر نســـيان
يـــا أيهـــا البيضـــاء رايتُـــه	:::	أدرك بسيفك أهل الكفر لا كـــانوا
يـــاراكبين عتـــاق الخيـــل ضـــامرةً	:::	كأنهـــا في مجـــال السّـــبق عُقبـــانُ
وحاملينَ ســـيوف النهـــدِ مرْهفـــةً	:::	كأنهـــا في ظـــلام النقـــع نـــيران
وراتعـــين وراء البحـــر في دَعـــةٍ	:::	لهـــم بأوطـــانهم عـــز وســـطان
أعندكم نبـــأُ مـــن أهـــل أنـــدلس	:::	فقد سرى بحديث القـــوم رُكبـــانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهـــم	:::	قتلى واسرى فمـــا يهتـــزُّ إنســـانُ
ماذا التقـــاطع في الإســـلام بيـــنكم	:::	وأنـــتم ياعبـــاد الله إخـــوان

(١) أحد وثهلان: جبلان.

ألا نفـــوس أبيـــاتٌ لهـــا هِمَـــمٌ	:::	أما على الخـــير انصـــار وأعـــوان
يـــامن لِذِلَّـــةِ قـــومٍ بعـــد عـــزهم	:::	أحـــال حـــالهم كفـــر وطغيـــان
بالأمس كانوا ملوكـــاً في منـــازلهم	:::	واليوم هم في بلاد الكفـــر عبـــدان
فلو تراهم حيـــارى لا دليـــل لهـــم	:::	عليهم مـــن ثيـــاب الـــذل ألـــوان
ولو رأيـــت بكـــاهم عنـــد بـــيعهمُ	:::	لهالك الأمـــر واســـتهوتك احـــزان
يـــارُبَّ أُم وطفـــل حيـــل بينـــهم	:::	كمـــا تفرقـــت ارواح وأبـــدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت	:::	كأنمـــا هـــي يـــاقوت ومرجـــان
يقوُدُها العِلْـــج للمكـــروه مُكرهـــة	:::	والعـــين باكيـــة والقلـــب حـــيران
لمثل هذا يذوب القلب مـــن كمـــدٍ	:::	إن كان في القلب إسلام وإيمـــان [١]

وفي هذه الظروف القاسية التي أخذت فيها الأندلس تواجه مصيرها المحتوم بالفناء بعد سقوط قواعدها المهمة قامت دولة عربية في جنوب الأندلس قادت الصراع مع الأندلس مدة قرنين ونصف من الزمان، تلك هي مملكة غرناطة، وكان صمودها واستمرارها يعود إلى عوامل جغرافية وبشرية، إذ أن موقعها إلى جنوب نهر الوادي الكبير الذي يشكل حاجزا طبيعيا بين الأسبان والعرب، وفي الوقت ذاته أن موقعها قريب إلى عدوة المغرب حيث كانت الإمدادات والنجدات تصلها وتدعم صمودها.

وغرناطة مدينة صغيرة من أعمال ولاية البيرة، فتحها العرب سنة ٩٢ هـ / ٧١٢م، وقد أقطعها أبو الخطار والي الأندلس في عهد هشام بن عبد الملك إلى جند الشام الذين استقروا بها.

وبعد سقوط الخلافة الأموية وانقسام الأندلس إلى دول الطوائف كانت غرناطة من نصيب البربر الصنهاجيين، فقد استولى عليها زاوي بن زيري الصنهاجي، وحاول المرتضي الأموي أخذها منه لاتخاذها عاصمة له فصده ابن أخيه حبوس بن ماكسن، وبعد وفاته سنة ٤٢٩ هـ خلفه ابنه باديس وتلقب بالمظفر، وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٤٧٦ هـ وخلفه في حكمها حفيده عبد الله بن بلكين بن باديس، ثم ضمها المرابطون سنة ٤٨٣هـ، واستمرت تحت حكمهم حتى استولى عليها الموحدون ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م وظلوا يحكمونها حتى كانت ثورة محمد بن يوسف بن هود عليهم بعد

---

(١) نفح الطيب ٤/٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨.

انهيار دولتهم فخضعت له [(١)].

وابن الأحمر هو أبو عبدالله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خمسين ابن نصر بن قيس الخزرجي. يرجع في نسبه إلى سعد بن عُبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ، وكان نقيباً شهد العقبة وبدراً [(٢)].

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرْجُونة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة ٥٩١هـ، (١١٩٥م) وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة، ولما كثرت غزوات النصاري لأراضي الأندلس رأي الفرصة سانحة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فالتف حوله الأنصار في أراجونة والمناطق المجاورة لها، ودخلت في طاعته جيان وبسطة ووادي آش، والحصون القريبة، دعا للم الشمل، فاجتمع حوله الكثير، ورأي أن يستظل بدعوة خلفاء المسلمين فدعا لأبي زكريا الحفصي حاكم إفريقية وللخليفة العباسي المستنصر، وأيدته قرمونة وقرطبة وإشبيلية سنة ٦٢٩ هـ ثم عدلت قرطبة وإشبيلية إلى طاعة ابن هود، ودخلت في طاعته شريش ومالقة والحصون القريبة منه، وانضم إليه كثير من المسلمين الذين غادروا المناطق التي احتلها الأسبان، فاستطاع تجهيز جيش كبير ساعده علي تنفيذ مشاريعه [(٣)].

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها:

١ - موقعها الجغرافي، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال فكانت مملكة غرناطة أبعد مكاناً بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس من حيث الموقع ومن حيث قربها من بلاد المغرب وعدم وجود خط معادٍ أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة.

٢ - ظهور دولة بني مرين في المغرب وكان من أهدافها الكبرى مواصلة الجهاد في الأندلس ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ماتملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصارى في الأندلس، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس.

---

(١) ابن خلدون، ٤ / ١٦٨.

(٢) ابن خلدون، ٤ / ١٧، نفح الطيب، ١ / ٢٨٠،.

(٣) ابن خلدون، ٤ / ١٦٩، روض القرطاس، ص ٢٧٥، نفح الطيب، ٤ / ٤٢٢.

٣ - هجرات المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت الى مملكة غرناطة وأصبحت لهم ملاذاً يحتمون به ويلجئون إليه، فكثر في غرناطة أهل المهارات والكفايات والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبيه وتضع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها.

٤ - حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع للصمود أمام الغزاة النصارى، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثراً مباشراً في بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاقدة.

٥ - براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارى وتقوية النزاعات بينها والتدخل في هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر [1].

٦ - وكان يساعد ابن الأحمر في تحقيق مشاريعه أصهاره بنو أشقليلولة المولدين. كان زعيمهم أثناء الفتنة أبا الحسن بن أشقيلولة من زعماء الأندلس ومن خصوم ابن هود، فانحاز إلى جانب ابن الأحمر وأيد دعته منذ قيامها، وتوطدت العلاقة بين الأسرتين بالمصاهرة، وقوي نفوذ ابن أشقيلولة لأنهم كانوا يطمعون بأكثر من حكم المدن التي أسندها لهم ابن الأحمر، مما جعل ابن الأحمر يخشاهم في آخر أيامه [2].

وغير ذلك من الأسباب.

وهكذا ولدت مملكة غرناطة من رحم الفوضى التي سادت الأندلس، وكانت بحاجة إلى الاستقراربعد أن مزقت الفتنة الأندلس وجعلتها فريسة سهلة بيد الأعداء، فكان علي ابن الأحمر وقد أضحي أمل الأندلسيين أن يعمل علي إنقاذ الأندلس من الحالة التي آلت إليها علي يد حكامها المتخاذلين الذين كانوا يؤثرون الانضواء تحت لواء الملك الأسباني عن مناصرة ابن الأحمر، فكان هؤلاء الحكام الصغار يضحون بمقدساتهم ويخضعون للأسبان ويؤدون لهم الضرائب للبقاء في حكم مدنهم ومقاطعاتهم [3].

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الاحمر، فغزوا أراضيه وشنوا عليه

---

(١) دولة الموحدين، ص ٢٢٥.

(٢) ابن خلدون، ٤ / ١٧٠، روض القرطاس، ص ٢٧٥، أعمال الأعلام، ص ٢٨٧، نفح الطيب، ١ / ٤٢٢.

(٣) سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ص ٣٥٣.

الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ماتبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يفطر حزناً وأسى.

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس حاول ابن الاحمر أن يواجه النصارى وخرج عن طاعتهم وأعلن النصارى الحرب عليه في عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م، فردّهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين. وفي عام ٦٦٢هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصارى.

شددّ النصارى هجماتهم بدءاً من عام ٦٦٣هـ وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد بن يوسف بن الأحمر على يد (دون نوينو دي لارا) صهر ملك قشتالة، فبايع ابن الاحمر المستنصر صاحب تونس فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً، ولكنها لم تجد نفعاً، فسوء المصير لاح في الأفق، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد بن أشقيلولة وكان في مالقة وتحالف ابن الأحمر مع الاسبان عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧ وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأرب (١).

وفي عام ٦٦٨هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خرابا، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ماحدث، وذلك في ٢٩ جمادي الثانية ٦٧١هـ (كانون الأول " ديسمبر " ١٢٧٢م) إثر سقوطه عن جواده، وقد قارب الثمانين من عمره، ودفن بالمقبرة العتيقة بأرض السبيكة بعد أن وطّد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى (٢).

* * *

(١) انظر: مصرع غرناطة ص٣٣.
(٢) نفح الطيب، ١ / ٤٢٣.

محمد بن محمد بن يوسف الفقيه ٦٧١ – ٧٠١هـ

تولى الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبدالله الغالب بالله، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبعد الهمّة، وسعة الأفق، مع علم وأدب، وكان شاعراً فقيهاً، حتى أنه دعي باسم " محمد الفقيه "، وفي أول عهده تحركت قوات نصارى قشتالة بقيادة الفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصرت المرينيين في المغرب، فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب (أبي يوسف يعقوب المريني من أهالي غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبياً دعوتهم، وقاصداً نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة ٦٧٣هـ فسار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى الفقيه أبي القاسم العز في صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان [١] الغزواتية حتى يركبها المسلمون المجاهدون لتسير بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلف من خيرة المجاهدين وأعطاه مالاً وبنوداً وطبولاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له ووجّهه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في ١٧ ذي الحجة ٦٧٣هـ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح مامرّ عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الأسبان أمام جيشه المظفر وجمع في طريقه غنائم ضخمة وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها، ففرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم وهكذا استطاع الأمير أبو زيان - حامل راية والده المنصورة - أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين ابن الأمير أبي مالك إلى يغمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجاهد في الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق

---

(١) أي ببناء السفن.

يغمراس على مبدأ الصلح فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبدالواد) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والاقتتال وجمع الله كلمة الإسلام وألف بين المسلمين.

وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً، وتصدق بصدقات كثيرة، وكتب إلى زعماء بني مرين، وأمراء العرب، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناته يستفزهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز ٦٧٤هـ وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيل العتاق، والعُدة الكاملة والسلاح، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوّعين وقبائل العرب، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر.

قال الشاعر:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى ::: غزو العداة وتجويز صباحَ مَسا
كأنما البحر أضحى للجياد مَدىً ::: وكل عُشبْة ماء حُوّلت فَرَسا
كأنما اقترب البرَّان واتصلا ::: فصار ذاك طريقاً للورى يَبِسا [1]

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضرة، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه وخُدَّام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب، وكان جوازه يوم الخميس ٢١ صفر ٦٧٤هـ وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني أشقيلولة بعساكرهما، واهتزت الأندلس فرحاً وسروراً واستبشاراً بقدومه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين أشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء، فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما، وتصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى والجهاد ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو أشقيلولة إلى مالقة، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصداً جهاد النصارى، ولم يعقد، ولم يبال أو يكترث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلف، ولم تستطب جفونه مناماً، ولم يلتذ شراباً ولا طعاماً، ولم يزل يجد الرحيل، ويوالي المسير، حتى وصل إلى الوادي الكبير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدّمته وقدَّمه بين يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس من شجعان بني مرين والعرب،

---

(١) مصرع غرناطة ص٤٣.

فتقدم والدَهُ بمرحلة، وسار أبو يوسف في أثر ابنه في جميع جيوشه، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان، ووصل إلى حصن المقورة مابين قرطبة وأشبيلية ودخل حصن (بلمه) عنوة بالسيف، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجه.

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحرك حشود النصارى بقيادة " دونونة " في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم (١).

والتقى الجمعان والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقسّم " دونونة " جيوشه إلى خمسة أجزاء، ليظهروا جموعاً متكاثرة، فكانت تقبل بجموعها، فيدفعهم المسلمون، وتتلقاهم سيوف المجاهدين، وحرابهم، وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الإسبان، وقتل زعيم الإسبان " دونونة " كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسَّرت أعلامه (٢).

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبي يوسف يعقوب أن تحقق نصراً حاسماً في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزّلاّقة في زمن المرابطين، وذكريات معركة الأرَك في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصوراً مظفراً إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى الجزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة ٦٧٤هـ، بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم (٣).

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحاً وسروراً بهذه الأخبار السارة، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم، حيث أرسل ابن اشقيلولة كتاباً للتهنئة إلى السلطان المريني وفيه قصيدة من أبياتها:

هَبَّت بنصـــركُمُ الريــاحُ الأربَــعُ ::: وسَرَت بسعدكُمُ النجـــوم الطّلّــعُ
وأتت لنصـــركم الملائــكُ سُــبَّقاً ::: حتى أضاق بها الفضــاء الأوســعُ

---

(١) مصرع غرناطة ص٤٥.
(٢) انظر: سقوط غرناطة ص٤٨.
(٣) انظر: التاريخ الاندلسي ص٥٣٨.

واستبشـر الفَلَـكُ الأثـيرُ تيقّنـاً ::: أن الأمـور إلى مـرادك تَرْجـع [١]
وأمـدّك الـرحمن بـالفتح الـذي ::: مـلأ البسـيطة نـوره المتشعشـع
لِمَ لا؟ وأنْـتَ بـذلت في مرضـاته ::: نفسـاً تُفَـدّيها الخلائـق أجمـعُ
وأتيـت تنصـر دينـه متـوكلاً ::: بعزيمة كالسَّيف بـل هـي أقطـع
أيـن المفـر ولا فـرار لهـارب ::: والأرض تُنْشَرُ في يـديك وتُجْمَـعُ
فلقد كسوتَ الـدين عـزاً شـامخاً ::: ولبست منـه أنـت مـالا يُخْلَـعُ
إن قيل مَنْ خـيرُ الملـوك بأسـرها ::: فإليك يا يعقوب تومي الأصـبَعُ [٢]

علي أن هذا النصر الذي أحرزه السلطان المريني علي القشتاليين لم يلق ترحيبا لدي ابن الأحمر، إذ أخذ يرتاب بنوايا السلطان خاصة بعد أن أخذ يقرب إليه بني أشقيلولة، وكان السلطان قد بعث برأس نونيو دي لارا فأرسله بدوره بعد أن ضمخه بالطيب والمسك والكافور إلى ألفونسو [٣].

وبعد وفاة محمد بن أشقيلولة سنة ٦٧٦هـ صاحب مالقة تنازل ابنه محمد عنها للسلطان المريني ابي يوسف يعقوب الذي أرسل بدوره حاكما لها من قبله، مما زاد من شكوك ابن الأحمر بالسلطان، فأرسل وزيره عزيز الداني للاستيلاء علي المدينة ففشل[٤].

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة ٦٧٨هـ ١٢٧٩م، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.

عبر أبو يوسف المنصور - عبوره الرابع - في صفرسنة ٦٨٤هـ إلى الأندلس، وجاهد في البر والبحر، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم، فأرسل شانجة وفداً من الأحبار يفوض السلطان المريني على مايراه ووضعت شروط أهمها: مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس [٥].

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٥م، بعد حياة

---

(١) ان الأمور مرادها ومرجعها إلى الله تعالى.
(٢) مصرع غرناطة ص٥١.
(٣) روض القرطس، ص ٣١٩، ابن خلدون، ٧ / ١٩٨.
(٤) روض القرطاس، ص ٣٢٤، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي ص ٣٦٠، ٣٦١.
(٥) نفح الطيب، ٢ / ٦٣٩، روض القرطاس، ص ٣٤١ - ٣٤٣.

حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس. وخلفه علي الحكم ابنه يوسف أبو يعقوب نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا ان يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم، من مملكة قشتالة ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها، ليكونوا على أهبة الاستعداد من اجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الأندلس، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة والدين وأطلق على اسم زعيمها شيخ الغزاة.

وتزعم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة، وهو منصب عسكري تولى رياسة المشيخة عبدالله بن ابي العلاء حتى استشهد سنة ٦٩٣هـ، فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن العلاء [(١)].

عن هذه المشيخة يذكر المقّري في نفح الطيب أنه " لم يزل ملوك بن مرين يُعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غُزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشهورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمّونه شيخ الغُزاة " [(٢)].

وانتهز سانشو ملك قشتالة وفاة السلطان ابي يوسف فنكث عهده، وأغار سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م علي أراض المسلمين فرد السلطان أبو يعقوب بمهاجمة شريش وأعلن الجهاد، فأرسل سانشو أسطوله إلى المضيق ليحول دون وصول المجاهدين من المغرب، ودارت معركة بحرية انهزم فيها الأسطول الإسلامي، ولكن الهزيمة لم تفت في عضد السلطان فأرسب أسطولا آخر أجبر الأسطول القشتالي علي الانسحاب، وعبر السلطان إلى الأندلس في رمضان سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩٢ م وغزا شريش ووصل أحواز إشبيلية ثم عاد المغرب سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م [(٣)].

تخوف ملك قشتالة من سياسة السلطان نحوه، فاتصل بابن الأحمر وحذره من نوايا المغاربة تجاه ثغور الأندلس ولا سيما طريف، وكان سانشو يريد الاستيلاء علي

(١) التاريخ الاندلسي ص٥٤٠.
(٢) نفح الطيب (٣٨٥/٤).
(٣) ابن خلدون، ٧ / ٢١٧، روض القرطاس، ص ٣٧٩ - ٣٨٠.

هذا الثغر بمساعدة ابن الأحمر، واستطاع النصارى أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسبوه لجانبهم ودخل معهم في أحلاف أضرت بالمسلمين واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة وعقد تحالفاً مع ملك قشتالة، فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال " طريف " مدخل الأندلس كلها، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف.

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام، فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة، فامتنع عن تسليمها، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عدد من الحصون الهامة، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد، فعاد يخطب ودّهم من جديد، فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن طريف، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وزود ابن الأحمر بقوة لاستعادة طريف ولكنه لم يوفق في ذلك [١] وبقي ملك غرناطة على عهده مع المرينيين حتى توفي - محمد الفقيه - في شعبان سنة ٧٠١هـ/ أيار مايو ١٣٠٢ بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة[٢].

* * *

---

(١) ابن خلدون، ٧ / ٢١٧، روض القرطاس، ص ٣٨٣.

(٢) الإحاطة، ١ / ٥٥٢، مصرع غرناطة ص٥٣.

السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر

وفي عهده ساءت العلاقات مع بني مرين، فقد رأي أن يتحالف مع ملك قشتالة ضد السلطاب أبي يعقوب، وبدأ عمله العدائي ضد السلطان المريني بأن أوعز إلى صاحب ملقة أبي سعيد فرج بن إسماعيل أن يحرض أهل سبتة علي خلع السلطان وأن يعود إلى محالفة ملك قشتالة، وجهز أبو سعيد حملة بقيادة عثمان بن أبي العلاء المريني هاجمت سبتة واستولت عليها في شوال سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٦ م، ثم جاء أبو سعيد إلى سبتة واستبد بأمرها تحت سلطة السلطان محمد بن الأحمر [١].

استاء السلطان المريني لهذا الغدر وبعث علي الفور حملة إلى سبتة حاصرت المدينة ولكنها فشلت في دخولها، فانسحبت وطاردها عثمان بن أبي العلاء وخرب أحواز سبتة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٧ م [٢].

عزم السلطان المريني أن يسير بنفسه لاسترداد المدينة، ولكن فتي من خصيانه يدعي " لاسعادة " اغتاله في ذي القعدة سنة ٧٠٦ هـ / إبريل ١٣٠٧م. تسلم الحكم بعده ابنه عامر بعد صراع مرير مع أخيه أبي سالم.

وفي تلك الأثناء وقعت بالأندلس ثورة ضد السلطان محمد قادها أخوه أبو الجيوش نصر بن الفقيه، واعتقل الثوارالسلطان وخلعوه وقتلوا وزيره أبي حكيم في سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٩ م [٣].

* * *

---

(١) الإحاطة، ١ / ٥٥٢، ٥٦٠.
(٢) روض القرطاس، ص ٣٨٧، ٣٨٨.
(٣) الإحاطة، ١ / ٥٦٠.

نصر بن محمد بن الفقيه

تولى الحكم أخوه نصر وبويع يوم الجمعة غرة شوال عام ٧٠٨ هـ. وهو في الثالثة والعشرين من العمر، وكان مجبولا على طلب الهدنة محبا للعلم وأهله يخط التقاويم الصحيحة، ويصنع بيده الآلات الطريفة، وفي عهده ساءت العلاقات بين غرناطة وقشتالة، ونازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء، وطاغية أراغون في ثغر المريّة، فهزم النصارى في المريّة، وانتصروا عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل طارق في أيديهم بعد حصارٍ طويل مضنٍ دام حتى آخر سنة ٧٠٩ هـ [١].

وفي عهد أخيه، ثم عهده حصل جفاءٌ وعداءٌ بينه وبين بني مرين حكّام المغرب بواسطة جواسيس النصارى المندسين بين المسلمين، واستغل النصارى ذلك التنافر، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزية لهم فثار الشعب في وجهه، وكان أن خلع سنة ٧١٣هـ ورشح الخارجون عليه للملك بدلا عنه: أبا الوليد إسماعيل بن فرج، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف راس الأسرة النصرية، ومؤسس دولتها.

* * *

السلطان أبو الوليد إسماعيل

(٧١٣ – ٧٢٥ هـ / ١٣١٤ – ١٣٢٥ م)

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد، وفي أوائل عهده غزا القشتاليون مناطق غرناطة وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع، وهزموا المسلمين في وادي فرتونه سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٧ م واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون [٢]. فحاول الاستنجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارى، لكنهم اشترطوا عليه تسليمهم المتمرد عثمان بن أبي العلاء لقاء المساعدة، فأبى السلطان ابن الأحمر ذلك [٣].

ثم هاجموا غرناطة بجيش كبير سنة تسع عشرة وسبعمائة وألّب ملوك النصارى على غرناطة، وجاءها (دون بطرة) في جيش لا يحصى كثرةً، وكان وصيا على الملك الصبي ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، ومعه خمسة وعشرون ملكاً أو أميراً

---

(١) ابن خلدون، ٧ / ٢٤٠، نفح الطيب، ١ / ٤٢٥.
(٢) نفح الطيب، ١ / ٤٢٤، أعمال الأعلام، ص ٢٩٤.
(٣) نهاية الأندلس ص١١٧.

بغرض استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي " البابا " في طليطلة وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي.

كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف، منهم ألف وخمس مئة فارس والباقي رجَّالة. لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء، وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة، لجؤوا إلى الله تعالى وأخلصوا نياتهم، فقضى الله تعالى بهزيمة أمم النصرانية التي احتقرت جيش غرناطة حينما رأت التفاوت الكبير بين الجيشين، وكان نصرا عزيزا، ويوما مشهوداً. زاد عدد القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفاً، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس، وهلك الأمراء النصارى جميعهم، واستمر البيع في الأسرى، والأسلاب والدواب ستة أشهر، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه [(١)].

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر وأصلحهم فمما وصف به:

(كان حسن الخُلُق، سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثبتا في المواقف، عفيف الأزرار، ناشئا في حجرة الطهارة بعيدا عن الصبوة، بريا من المعاقرة) [(٢)].

وفي سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢١م عقد السلطان إسماعيل معاهدة صلح مع ملك أراجون خايميي الثاني، نصت على عقد صلح مدته خمس سنوات تكون أثناءها أراضي الطرفين أمنة وأن تباح حرية التجارة لرعايا المملكتين وأن يتعهد كل منهما بمعاداة من يعادي أي من الفريقين وعدم إيواء أي عدو لهما، وأن تتمتع السفن بحرية الملاحة، وتكون الموانئ آمنة، وأن يطلق كل فريق من يأسر في البحر من رعايا الطرف الآخر، وتعهد ملك أراجون بالسماح للمدجنين بالخروج من أراضيه، بأهلهم وأموالهم [(٣)].

---

(١) نفح الطيب، ١ / ٤٢٤ - ٤٢٥، ابن خلدون، ٤ / ١٧٢، أعمال الأعلام، ص ٢٩٥، التاريخ الأندلسي ص٥٤١ - ٥٤٢.

(٢) الإحاطة ٣٧٧/١، برياً من المعاقرة أي بعيداً عن شرب الخمر.

(٣) نهاية الأندلس، ص ١٢٠.

وفي سنة ٧٢٤ هـ زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة، وحاصرها بشدة، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة، ونزل أهلها على حكمه.

وفي رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة دخل مرتش الحصينة التي تقع في جنوب غربي جيان عنوة وكانت من أعظم غزواته وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، وعاد إلى غرناطة مكللا بالنصر (١).

لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قُتل بباب قصره غيلة من قِبل ابن عمه محمد بن إسماعيل لخلاف على جارية نصرانية فتربص به، وطعنه بخنجر له، وهو بين وزرائه وحشمه، فحمل جريحا وتُوفي على إثر ذلك في ٢٦ رجب سنة ٧٢٥ هـ / يونيو ١٣٢٥م(٢).

* * *

السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف

- أبو عبد الله - (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ / ١٣٢٥ - ١٣٣٣ م)

خلف والده إسماعيل وهو في الحادية عشرة من عمره، فقام بأمره وزير أبيه أبو الحسن علي بن مسعود، وكذلك محمد بن أحمد بن المحروق الذي بقي في الوزارة حتي اغتيل بتدبير من السلطان في محرم سنة ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٩ م (٣).

جدد السلطان الجديد معاهدة الصلح مع ملك أراجون بناء علي طلب هذا الأخير إذ كانت المدة قد انتهت، ووفق السلطان أبو عبد الله محمد علي تجديدها بنصوصها كاملة ووقعت في جمادي الثانية سنة ٧٢٦ هـ / مايو ١٣٢٦ م.

وفي عام ٧٣٣ هـ استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع تخليص جبل الفتح - أي جبل طارق - من أيدي النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام ٧٠٩ هـ وكان للسلطان أبي الحسن علي بن عثمان المريني سلطان المغرب دور يشكر عليه في تخليص جبل طارق الذي كان ذا أهمية بالغة بالنسبة للأندلسيين إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العدوة المغربية، ورأي ألفونسو أن لا أمل له

(١) نهاية الأندلس ص١٢٠.
(٢) أعمال الأعلام، ص ٢٩٥، نهاية الأندلس ص١٢١.
(٣) أعمال الأعلام، ص ٢٩٦، الإحاطة، ١ / ٥٣٦.

بالنصر فآثر الصلح وعقد معاهدة مع ابن الأحمر [(١)].

وعلي إثر استرجاع جبل طارق عاد ابن الأحمر إلى غرناطة ولكن اغتاله أحد مماليك أبيه يدعي زيان في الطريق بوادي السقائين بتحريض من إدريس بن عبدالله بن أبي العلاء في نهار الأربعاء ١٣ ذي الحجة سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م وخلفه أخوه أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل [(٢)].

* * *

(١) ابن خلدون، ٧ / ٢٥٥، الإحاطة، ١ / ٥٤٠، نفح الطيب، ١ / ٤٢٦،.

(٢) نفح الطيب، ٢ / ٦، أعمال الأعلام، ص ٣٠٤، الإحاطة، ١ / ٥٤٩.

السلطان أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل

(٧٣٣ – ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ – ١٣٥٤ م)

كان في السادسة عشرة من عمره عندما تولي الحكم، فاستوزر إبراهيم بن عبد البر، وكان عالما وشاعرا، ومن مآثره إنشاء جامعة غرناطة الشهيرة وتحصين المدينة وإنشاء الأبراج.

* * *

د – موقعة طريف

تجلى تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة في معركة طريف سنة ٧٤١هـ من قبل النصارى.

منذ ان استعاد الأندلسيون سنة ٧٣٣هـ بمساعدة بني مرين - حكام المغرب - جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصارى أربعة وعشرين عاما - إذ سقط في أيدي النصارى سنة ٧٠٩هـ توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى.

وكان الأندلسيون كلما احسو بخطر النصارى يحدق بهم سارعوا إلى الاستنجاد بإخوتهم في الدين في العدوة المغربية من بني مرين، وكانوا يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس " وفي عهد أبي الحجاج يوسف (ولايته ٧٣٣ ـ ٧٥٥هـ) ".

كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينين، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلنا الجهاد، فاجتاح أراضي النصارى وحصل على غنائم لا تحصى غير أن النصارى من قشتالة وأرجوان والبرتغال كونوا أسطولا بحريا متحدا ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب وسارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي كان يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك، وهزم جيشه هزيمة منكرة، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة. تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة فأخرج الطاغية أسطوله

إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوّهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف، وطعنا بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم، وقتلوا قائدهم، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة.

ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه، استأنف إجازة العساكر فانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة. ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس، وأحاطوا بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات.

غير أن الطاغية جهّز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم من أول المحرم سنة ٧٤١هـ وإلى أوائل شهر جمادي الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيها كان وراء انكسار شوكتهم [١] وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي:

(ولما قرب معسكرهم سرّب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين، الذين أرصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعاقبهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولبّسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان مواكب المسلمين صفوفاً وتزاحفوا. كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ولمّا نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهنّ وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً وأحسّ المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم

(١) أعمال الأعلام، ص ٣٤٠، الاستقصا، ٢ / ٦٥، نفح الطيب، ١ / ٤٢٦، ابن خلدون، ٧ / ٢٦٤، نهاية الأندلس ص١٢٨، دولة الموحدين، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم.

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب [١] يقول المقري في وصف هذه الفاجعة:

" فقضى الله الذي لامرد لما قدّره أن صارت تلك الجموع مكسرة ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً.. وقتل جمع من أهل الإسلام ولمّة وافرة من الأعلام.. واشرأبّ العدو الكافر لأخذ مابقي من الجزيرة ذات الظل الوريف، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء، التي تضعضع لها ركن الدين بالمغرب، وقرّت بذلك عيون الأعداء " [٢].

استمر السلطان يوسف علي عرش غرناطة حتي إغتاله مخبول بالمسجد نهار عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ / نوفمبر ١٣٥٤ م ودفن بمقبرة الحمراء، وخلفه ابنه محمد الغني بالله [٣].

* * *

السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل

تلقب بالغني بالله، وكان صغيرا، فتولي إدارة الأمور مولي أبيه رضوان، وفي عهده بزغ نجم لسان الدين بن الخطيب.

وفي عهده ثار عليه ابن أبي منديل المريني في جبل طارق سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٥ م، ولكن تم القبض عليه وأعدم في المغرب، كما ثار عليه أنصار أخيه المعتقل إسماعيل بزعامة الرئيس عبد الله بن ابي الوليد سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ واقتحموا حصن الحمراء ونادوا بإسماعيل ملكا، ففر الغني بالله إلى وادي آش، ثم اتصل بالسلطان المريني أبي سالم، فاستدعاه إلى المغرب وأقام عنده علي أمل إرجاعه إلى الأندلس ومساعدته في استعاده عرشه المسلوب [٤].

لم يطل المقام بالسلطان الجديد كثيرا في منصبه - بالرغم من التأييد القوي له من

(١) ابن خلدون ٢٦١/٧ - ٢٦٢.
(٢) نفخ الطيب ٣١٧/٦.
(٣) أعمال الأعلام، ص ٣٠٦، الاستقصا، ٤ / ٨، نفح الطيب، ٢/ ٩.
(٤) أعمال الأعلام، ص ٣٠٧، نفح الطيب، ٢ / ١٤، الاستقصا، ٤ / ٩، ابن خلدون، ٧ / ٣٠٦.

ملك قشتالة - إذ ثار عليه أهل غرناطة وقتلوه، وعندها أسرع الغني بالله بالعودة إلى غرناطة واستعاد عرشه المسلوب في جمادي الآخرة سنة ٧٦٣ هـ / ١٣٦١م، واهتم الغني بالله بالعمران وبني المستشفي في غرناطة، وعني بتحصين الثغور وبث روح الجهاد في نفوس الأندلسيين، وتوثقت علاقاته بالقاهرة، فجرت سفارات متبادلة مع سلطن مصر الأشرف شعبان، كما عقد باسمه ونيابة عن السلطان المريني صلح مع ملك أراجون مدتها ثلاث سنوات ابتداء من رجب ٧٦٨ هـ / مارس ١٣٦٧ م، جاء فيها: تكون أثناءها أراضي الطرفين أمنة وأن تباح حرية التجارة لرعايا المملكتين وأن يتعهد كل منهما بمعاداة من يعادي أي من الفريقين وعدم إيواء أي عدو لهما، وأن تتمتع السفن بحرية الملاحة، وتكون الموانئ آمنة، وأن يطلق كل فريق من يأسر في البحر من رعايا الطرف الآخر، وتعهد ملك أراجون بالسماح للمدجنين بالخروج من أراضيه، بأهلهم وأموالهم[(١)].

ساد الأمن في عهد الغني بالله واستغل انشغال قشتالة بحروبها الداخلية، فأخذ يشن الغارات علي أراضيهم فأغار سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٦ م علي برغة وجيرة، ثم غزا سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م أحواز إشبيلية وفتح حصن أشر، ثم اقتحم مدينة جيان في أواخر محرم ٧٦٩ هـ / سبتمبر ١٧٦٧ م، واقتحم أثناء عودته مدينة باغة ودمرها، ثم افتتح مدينة أبدة شمال شرق جيان عنوة ودمر كنائسها وهدم أسوارها، وعاد إلى غرناطة ظافرا محملا بالغنائم والأسلاب [(٢)].

وفي أواخر سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ ماستولي علي الجزيرة الخضراء وهدم حصونها ومعالمها كي لا تعود سليمة إلى النصاري، وذلك بمساعدة السلطان المريني عبد العزيز، وزحف علي أحواز إشبيلية وحاصر قرمنة وفتح مرشانة القريبة منها. وبذلك هبت رياح الانتصار علي يد الغني بالله التي افتقدها الأندلسيون منذ زمن بعيد [(٣)].

توفي الغني بالله سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩١ م بعد عهد عامر بالجهاد والعمران وخلفه ابنه يوسف أبو الحجاج.

* * *

(١) نهاية الأندلس، ص ١٢٠.
(٢) الإحاطة، ٢ / ٥٤.
(٣) الاستقصا، ٤ / ٥٦.

يوسف بن محمد الفقيه - يوسف الثاني، أبو الحجاج -
(٧٩٣ - ٧٩٧ هـ / ١٣٩١ - ١٣٩٤ م)

قام بتدبير أمور الدولة خالد مولي أبيه، الذي استبد بالحكم وقتل إخوة السلطان يوسف الثلاثة سعدا ومحمدا ومطرا، وأراد أن يقتل السلطان بالسم، ولكن انكشفت المؤامرة فسخط عليه السلطان وقتله، ثم سالم السلطان يوسف مسالمة ملك قشتالة، وأطلق سراح عدد من الأسري النصاري، فاستجاب الملك لذلك وعقد الصلح بين الدولتين [1].

وحاول ابنه محمد خلعه من الحكم، وزحف هو وأنصاره علي الحمراء يريد احتلالها ولكن السفير المغربي برز إليهم وطلب منهم توحيدالصفوف ومواجهة الخطر الحقيقي وهو النصاري الأسبان الذين يتربصون بهم، والذين يشنون الهجمات المتتالية علي الثغور الإسلامية وعلي غرناطة ذاتها، ولكن تمكن السلطان من ردهم علي أعقابهم.

وتوفي السلطان يوسف في أوائل سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤ م بعد حكم دام ثلاثة سنوات وبضعة أشهر، بتدبير من السلطان المغربي أبو العباس، الذي أهدي السلطان يوسف بعض الملابس المسمومة التي ما أن إرتداها حتى صارع الموت. فخلفه ابنه محمد[2].

* * *

(١، الاستقصا، ٤ / ٨١.
(٢) الاستقصا، ٤ / ٨١.

السلطان محمد بن يوسف بن الغني بالله

(٧٩٧ – ٨٠٨ هـ / ١٣٩٤ – ١٤٠٥ م)

تولي الحكم بعد وفاة والده بالاتفاق مع رجال الدولة، وكان أول شئ فعله اعتقال أخيه يوسف وسجنه في قلعة شلوبانية قرب ثغر المنكب، ثم استوزر ابن زمرك الذي أساء السيرة فثارت عليه عامة الناس وقتلوه في منزلة مع عائلته سنة ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥م[١].

وقد ابتدأ السلطان محمد عهده بعقد هدنة مع القشتاليين، الذين لم يلتزموا بها وسرعان ما هاجمو أحواز غرناطة، فرد السلطان محمد بمهاجمة ولايات الغرب واستولي علي أيامونتي، فرد القشتاليون بغزو اراضي غرناطة، وكان الملك هنري الثالث يجيش بنزعة صليبية ضد مسلمو غرناطة، وأخذ يستعد لغزوها، بحشد الأساطيل وتجهيز الجيوش، فاستنجد السلطان محمد بملك تونس وأمير تلمسان، فبعثا إليه بوحدات بحرية، ولكنها انهزمت أمام جبل طارق، ثم عقدت هدنة بين الفريقين، وشكلت لجنة لتقدير الأضرار سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م، ولكن هنري الثالث توفي وخلفه ابنه الطفل يوحنا تحت وصاية أمه وعمه فرناندو الذي نقض الهدنة الموقعة، وغزا أراضي غرناطة. واستولي علي حصن الصخرة قرب رندة وكذلك حصن باغة واستعاد حصن أيامونتي، فرد السلطان محمد بمهاجمة، ثم انتهت حالة الحرب القائمة بين الفريقين بعقد هدنة لمدة ثمانيةأشهر سنة ٨١١هـ / ١٤٠٨ م، وفي تلك السنة توفي السلطان محمد في غرناطة.

وفي عهد السلطان محمد كانت حالة من الهدوء تسود العلاقات بين غرناطة وأراجون منافسة قشتالة، وعقد المعاهدات بين الدولتين، ففي ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ / سبتمبر ١٤٠٥ م عقد السلطان محمد مع ملك أراجون مرتين وابنه ملك صقلية معاهدة صداقة وتحالف مدتها خمس سنوات تنص علي حرية التنقل والتبادل التجاري، وإمداد سلطان غرناطة بـ ٤٠٠ ألي ٥٠٠ فارس لمساعدة حلفائه في حروبهم مع عدو لا يكون صديقا لغرناطة، ونفقاتهم تدفعها أراجون، وكذلك إمداد السلطان بـ ٥ إلى ١٤ سفينة مزودة بالرجال والسلاح لمحاربة أعدائه علي ألا يكونوا أصدقاء لأراجون، ويتكفل السلطان بنفقاتهم، وكذلك حرية المرور للسفن، وكيفية إطلاق سراح الأسري، وتحديد مبلغ مئة دينار ذهبا فداء للأسير [٢].

* * *

---

(١) نفح الطيب، ٤ / ٣٠٩.

(٢) نهاية الأندلس، ص ١٥٢، سعدون نصر الله، تاريخ العرب السياسي، ٣٧٧ - ٣٧٨.

السلطان يوسف بن يوسف بن الغني بالله

(٨١١ - ٨٢٠ هـ / ١٤٠٨ - ١٤١٧ م)

خلف أخاه السلطان محمد، وكان حريصا علي تجديد الهدنة مع ملك قشتالة لمدة عامين، ولما حاول تجديدها مرة ثانية رفض القشتاليون، وطلبوا منه الدخول في طاعتهم، فأبي السلطان هذا الشرط التعجيزي، فنشبت الحرب، وعزا القشتاليون أراضي غرناطة بقيادة الوصي فرناندو، وحاصروا أنتقيرة، وأسرع السلطان لنجدتها ومساعدة حاميتها الصامدة، ولكن ورغم المقاومة الصامدة الباسلة سقطت المدينة سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م، ثم عقدت هدنة أطلق بموجبها السلطان يوسف مئات الأسري النصاري دون فدية.

بعد إقرار الهدنة سادت بلاط الدولتين علاقات المودة والاحترام وأخذت غرناطة تغص بالفرسان النصاري والأشراف، وكانت تقوم المبارزات الرائعة بين فرسان الدولتين فكانت أيام مشهودة في تاريخ غرناطة قبل سقوطها.

وفي عهده ثار سكان جبل طارق ودخلوا في طاعة السلطان المريني أبي سعيد، الذي أرسل إليهم أخاه عبد الله، ولكن يوسف تصدي للمتأمرين وهزمهم، وأسر عبد الله، وأرسله مكرما إلى المغرب وزوده بالأموال والرجال للانقلاب علي أخيه وقد استطاع انتزاع الملك من أخيه [(١)].

* * *

السلطان محد بن يوسف - الأيسر -

(٨٢٠ - ٨٤٦ هـ / ١٤١٧ - ١٤٤٢ م)

توفي السلطان يوسف سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م بعد حكم دام ٩ سنوات وخلفه ابنه محمد الأيسر، وكان سيئ الخلق بعيدا عن الشعب، وحاول وزيره يوسف بن سراج تخفيف حدة سخط الشعب عليه، ولكن لم يستطع ابن سراج تهدئة الأمور، ولم تفلح محاولات الإصلاح، وكان القشتاليون يشجعون حالات الخروج علي الأيسر لإضعاف مملكة غرناطة، ففي سنة ٨٣١هـ / ١٤٢٨ م هاجموا مملكة غرناطة ووصلوا إلى وادي آش، ولم يستطع الأيسر ردهم، فثار عليه الشعب وخلعوه وأتوا بالأمير محمد بن محمد ابن يوسف الثالث الذي لقب بالزغير، وفر الأيسر إلى تونس.

---

(١) الاستقصا، ٢ / ١٤٨، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٣٧٨، ٣٧٩.

عمل السلطان الجديد علي اكتساب محبة الشعب ولكنه لم يوفق في القضاء علي المؤامرات التي كان يحيكها بنو سراج خصومه، فعمل علي سحقهم وطاردهم، فغادر يوسف بن سراج مع أنصاره غرناطة إلى إشبيلية ملتمسا حماية ملكها خوان الثاني الذي رحب بهم واتفق ابن سراج مع ملك قشتالة علي مساعدة الأيسر لاسترداد عرشه، فاستدعاه من تونس، وعاد مع فرقة من الفرسان أمده بها السلطان أبو فارس، ونزل الأيسر المرية فأرسل الزغير قوة لقتاله ولكن الجنود انضموا إلى الأيسر ودخل غرناطة فاستقبله أهلها بالترحاب، وحاصر الحمراء فسلمها له أنصار الزغير، واعتقل الزغير مع أخيه الأمير أبي الحسن علي وأودعا قلعة شوبانية سجن الدولة الرسمي.

أعاد الأيسر يوسف بن سراج إلى الوزارة وأرسل إلى ملك قشتالة خوان الثاني يطلب تجديد الهدنة، فأرسل إليه سفيره كونثالث دي لونا مشترطا علي الأيسر أن يؤدي الأموال التي أنفقها ملك قشتالة لإعادته إلى عرشه بالإضافة إلى جزية سنوية مع الخضوع له والإفراج عن الأسري المسيحيين، فرفض الأيسر الشروط، فهدد خوان بالحرب وفي الوقت نفسه أرسل سفراء إلى سلطان تونس أب فارس الحفصي وإلي سلطان فاس عبد الحق المريني يرجوهما ألا يتدخلا في شئون الأندلس، فأتاه الرد من السلطانين بالإيجاب، فأغر القشتاليون علي أراضي المسلمين وقصدوا رندة فتصدي لهم الأيسر، ثم جاء خوان علي رأس قوات قشتالية وعاث في المنطقة، ثم عاد محملا بالغنائم والأسري سنة ١٤٣١ م.

* * *

يوسف بن الحول

وعاد الأيسر إلى غرناطة التي أخذت تعمها الفتن والاضطرابات الداخلية وانقسمت المملكةالصغيرة إلى أحزاب متناحرة، وكان للنصاري دور كبير في ذكاء روح الفرقة والاختلاف، ليسهل عليهم الانقضاض علي ماتبقي من المتناحرين، والتف المتآمرون حول الأمير أبي الحجاج يوسف بن الحول، وهو يمت بصلة إلى بني الأحمر بالخؤولة فأمه بنت محمد بن يوسف بن الغني بالله، وكان الملك الجديد وافر الثراء قويا، ولنجاح خطته قصد خوان الثاني المرابط قرب غرناطة يترقب سير الأحداث، وتهد له بأن يحكم باسمه ويخضع له، فقبل الملك ذلك ووقع يوسف وثيقة الذل التي أعلن فيها أنه من أتباع الملك القشتالي ومن خدامه وتعهد بإطلاق سراح النصاري، ودفع جزية سنوية مقدارها ٢٠ ألف دينار ذهب، وأن يمده بـ ١٥٠٠

فارس لمساعدته في حروبه وأن يحضر جلسات مجلس النواب القشتالي بنفسه إذا كان منعقدا جنوب طليطلة وأن يمثله أحد أقاربه إذاكان خارج قشتالة، وبالمقابل تعهد الملك بحماية يوسف طوال حكمه وحكم أبنائه وأن يعاونه علي محاربة أعدائه من مسلمين ومسيحيين. وتم توقيع المعاهدة في السابع من محرم سنة ٨٣٥ هـ / ١٦ سبتمبر ١٤٣١ م، ونفذت المعاهدة مباشرة فهاجم ملك قشتالة مرج غرناطة وهزم الملك الأيسر الذي ارتد إلى غرناطة، وتقدم عندها يوسف بمعاونه حلفائه النصاري نحو المدينة بعد أن نصبه خوان الثاني ملكا، ودارت معركة شديدة بين الملك الجديد وقوات الأيسر يقودها الوزير ابن سراج، فانهزم جند الأيسر وقتل الوزير، فغادر الأمير الأيسر غرناطة إلى مالقة ودخلها يوسف في ربيع الأول ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢ م، وكان أول عمل أقدم عليه هو تجديد معاهدة الخضوع لملك قشتالة في ٢٢ جمادى الأولي سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢م.

ولكن القدر كان رحيما بمسلمي غرناطة، فقد توفي يوسف الحول بعد ستة أشهر، فأجمع الغرناطيون علي إعادة الأيسر للمرة الثالثة الي الحكم، وبادر إلى عقد سلم مع قشتالة لمدة سنة. ولكن القشتاليون نقضوا الهدنة وأغاروا علي أراضي غرناطة، فتصدي لهم الوزير ابن عبد البر وهزمهم، موقعا بينهم عددا من القتلي والأسري سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٦ م.

بعد هذه الهزائم التي لحقت بالقشتاليين أخلدوا إلى السكينة، ورأي الأيسر أن يستعين بسلطان مصر، فأرسل سفارة من أربعة أشخاص إلى السلطان جقمق في رجب سنة ٨٤٤ هـ ولكن لم تؤد إلى نتائج ملموسة [(١)].

* * *

محمد بن نصر (الأحنف)

ثم شهدت غرناطة حربا أهلية مميتة أدت في النهاية إلى سقوطها بيد القشتاليين، ذلك أن خصوم الأيسر من الفرسان اللاجئين إلى قشتالة، وعلي رأسهم الأمير يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثاني ثاروا عليه، وكذلك في المرية، فقد أيد الناقمون عليه الأمير محمدح بن نصر بن الغني بالله والملقب بالأحنف، وقد نجح الأحنف دخول غرناطة خلسة، واقتحم الحمراء واعتقل الأيسر سنة ١٤٤٢ م وتربع علي العرش، ولكن قاومه فريق قوي بزعامة الوزير ابن عبد البر الذي كان يؤيد يوسف

---

(١) نهاية الأندلس، ص ١٦٠، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٣٨٠، ٣٨١.

المقيم في قشتالة، وزحف يوسف على غرناطة تساعده قوة من قشتالة واستطاع دخول المدينة، وفر الأحنف الذي عاد واسترد عرشه من يوسف أوائل سنة ١٤٤٦م. ورد على مساعدة القشتاليين ليوسف بأن أغار على أراضيهم، وهاجم قلعتي بني موريل وابن سلامة، وقتل من بهما من النصاري سنة ١٤٤٦ م واغتنم فرصة الخلاف بين أراجون وقشتالة فعقد حلفا مع أراجون، وهزم القشتاليين قرب صنجالة سنة ١٤٥٠م وأرسل قوات إلى قتال يوسف بن إسماعيل. وهكذا عصفت الحرب الأهلية بغرناطة وقربت نهايتها [1].

* * *

سعد بن محمد

(٨٦٣ – ٨٦٨ هـ / ١٤٥٨ – ١٤٦٣ م)

واستمر الأحنف في الحكم حتى ١٤٥٨ م، وخلفه الأمير سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثاني الذي عزل سنة ١٤٦٢ م وأعيد السلطان يوسف بن إسماعيل الذي حكم من أواخر سنة ١٤٦٣م، وأثناء حكمه الأخير سقط جبل طارق بيد القشتاليين سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢م، فقد هاجموه بقيادة الدوق ميدينا سدونا واستولوا عليه، وبذلك فقدت غرناطة الطريق الوحيد الذي الذي كان يربط غرناطة بالمغرب، وتشدد القشتاليون بالضغط علي غرناطة، وقطعوا عنها الإمدادات تمهيدا لاحتلالها.

وأصابت غرناطة ضربة قاسية بسقوط دولة بني مرين بعد مقتل آخر سلاطينها عبد الحق بن أبي سعيد سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤م، وحل محلهم بني وطاس أعداؤهم القدامي [2] ولكن الدولةالناشئة أحجمت عن العبور إلى الأندلس لمساعدة غرناطة التي شعرت بأنها أضحت وحيدة في مواجهة خصمها اللدود، ورغم ذلك كانت تعمها الفتن الداخلية بين العرش وخصومه من الأسر القوية، مما أجبر السلطان علي قبول ما فرضه ملك قشتالة عليه من خضوع وجزية.

وعاد الأمير سعد فهاجم الحمراء واستعاد العرش سنة ١٤٦٣م من ابن إسماعيل وبقي في الحكم حتى أواخر سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م، إذ ثار عليه ولده علي، وتلقب بالغالب بالله فأخرجه من غرناطة، وسار سعد إلى مالقة واستقر بها [3].

* * *

---

(١) تارخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٣٨١، ٣٨٢.

(٢) الاستقصا، ٤ / ١١٩.

(٣) نفح الطيب، ٦ / ٢٥٨.

علي بن سعد - أبو الحسن -

(٨٦٨ - ٨٧٨ هـ / ١٤٦٣ - ١٤٨٢ م)

كان علي أبو الحسن في الثلاثين من عمره عندما تسلم الحكم ولم يستقر حكمه إلا بعد صراع مع أخويه أبو الحجاج يوسف وأبي عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل. توفي الحجاج بعدد قليل، وبقي الزغل ينازع أخاه. انصرف أبو الحسن إلى تحصين مملكته وتنظيم أمورها تحدوه رغبة في الجهاد واستعاد بعض الحصون من النصاري.

ولكن تعرض أبو الحسن لثورة أخيه الزغل في مالقة، وقد لجأ - كعادة الثوار الأندلسيين - إلى ملك قشتالة هنري الرابع يطلب مساعدته ضد أخيه أبي الحسن سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩ م فوعده بإعانته علي تحقيق مطلبه، فرد أبو الحسن علي القشتاليين بأن هاجم أراضيهم سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ /، ثم كرر العملية مرة ثانية وانتزع منهم بعض الحصون، ثم انصرف إلى محاربة أخيه الزغل [(١)].

في تلك الأثناء ثار في مالقة القائد محمد الفرسوطي، فسار أبو الحسن إلى المدينة الثائرة، ولكنه فشل في إخماد ثورتها، وعلي إثر ذلك استدعي الثائرون أخاه الزغل المقيم أثنائها في بلاط قشتالة وتوجوه عليهم ملكا، وبذلك انقسمت الدولة الصغيرة إلى مملكتين، وأخيرا جنح الأخوان للصلح، بعدما تبين لهما عواقب الفرقة والاختلاف، وتم الاتفاق علي احترام الوضع القائم، أبو الحسن في غرناطة والزغل في مالقة [(٢)].

في هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها غرناطة من حرب أهلية أخوية جزأتها كانت إسبانيا النصرانية تحقق وحدتها وذلك باقتران فرناندو بن خوان الثاني ملك أراجون بإيزابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة سنة ١٤٧٩ هـ فتم بهذا الزواج توحيد المملكتين بعد مرحلة طويلة من الحروب الأهلية، وأصبحت إسبانيا النصرانية قوة كبيرة عجلت بسقوط الأندلس.

وحاول السلطان أبو الحسن تجديد الهدنة مع القشتاليين وأرسل في أوائل سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٨ م وفدا لهذه الغاية إلى فرناندو وإيزابيلا وكانا يقيمان في إشبيلية، فوافقا علي الطلب شريطة أن يخضع لهما ويؤدي لهما الجزية السنوية، وأرسلا مبعوثا إلى أبي الحسن لإبلاغه الشروط، فرفضها وأنذر السفير القشتالي بالحرب.

---

(١) نفح الطيب، ٦ / ٢٥٨، الاستقصا، ٤ / ١٠٢، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٣٨٣.

(٢) نفح الطيب، ٦ / ٢٥٩ - ٢٦٠، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ص ٣٨٣.

فأسرع القشتاليون وهاجموا أراضي غرناطة وعاثوا في أحواز رندة فرد عليهم بالهجوم علي مدينة الصخرة شمال غرب رندة واستولي عليها وقتل حاميتها، وأثار هذا الانتصار الغبطة في صفوف الغرناطيين ولكنهم تخوفوا من عاقبته.

وكان اقتحام الصخرة ظفرا مؤقتا. ذلك لأن أبوالحسن تخلي عن الجهاد وركن إلى الهدوء والدعة وأساء التصرف مع القادة وأثقل الشعب بالضرائب يساعده في ذلك وزيره أبو القاسم بنيغش [١].

وفي الحقيقة أن مملكة غرناطة أصبحت في مدّ وجز، واعتورتها حالات الضعف والوهن الشديد، وأصابها الهرم، ولحقتها الشيخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات وفي نفس الوقت توحدت إسبانيا النصرانية وتعضدها البابوية الصليبية واجتمعوا علي ضرب الإسلام من كنانة واحدة.

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء إذ أن أبا الحسن كان قد تزوج من ابنة عمه عائشة أو التي ولدت له أبنه أبو عبدالله المقلب (الصغير) وكان لأبي الحسن زوجة أسبانية جميلة كانت المفضلة عنده وأصبح ملك غرناطة أسيراً لحب امرأته الإسبانية التي تدعى " ثريا " وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسناء وكانت كثيرة الدهاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى وليًّا للعهد، في حين كان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة [٢] أبو عبدالله محمد، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة وولديها حتى أقنعته باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء وزُجَّت عائشة الحرة مع ولديها، وشدَّد الحجر عليهم، وعُوملوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين.

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ.

وفريق يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكنّت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادي الثانية سنة ٨٨٧هـ /١٤٨٢م بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.

---

(١) نفح الطيب، ٦ / ٢٦٠.

(٢) التعريف بالحرة لأنها كانت عربية حرة وثريا كانت محظية وجارية.

وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

وقرر فرديناند وإزبيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها الداخلي وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً، وتم لهم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال ألحامة وعلى مقربة منها وأن يردّا معاً الإسبان في جمادي الأولى ٨٨٧هـ/ تموز " يوليه " ١٤٨٢م [١].

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الشرعية (عائشة الحرة) وثار مع ابنه أبو عبد الله محمد وعزله، واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبدالله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيَّره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبدالله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧هـ، وعمره ٢٥ سنة وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد، وباشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة ٨٨٨هـ / " أبريل " سنة ١٤٨٣م وتعرف هذه المعركة باسم الشرقية، وكان لهذا النصر آثاره، فقد انتعشت آمال الأندلسيين واستبشروا خيرا، وأراد الملك الشاب اغتنام الفرصة وأراد أن يحرز نصرا علي النصاري ويرفع مكانته بين الأندلسيين مقلدا عمه، فسار علي رأس جيش نحو قرطبة في ربيع الأول سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م واجتاح عددا من الحصون وهزم النصاري وعاد محملا بالغنائم، وطارده النصاري ودارت معركة في قلعة اللسان انهزم فيها الغرناطيون ووقع السلطان نفسه في الأسر وسيق أسيرا إلي غرناطه، وعاد المسلمون إلى غرناطة في حالة من الإعياء الشديد بعد أن فقدوا ملكهم الأسير.

قرر قادة غرناطة بالاتفاق مع عائشة الحرة علي استدعاء علي أبو الحسن من مالقة لإنقاذ الوضع المتردي، فاعتذر لمرضه فتنازل لأخيه الزغل واعتزل الحكم [١].

---

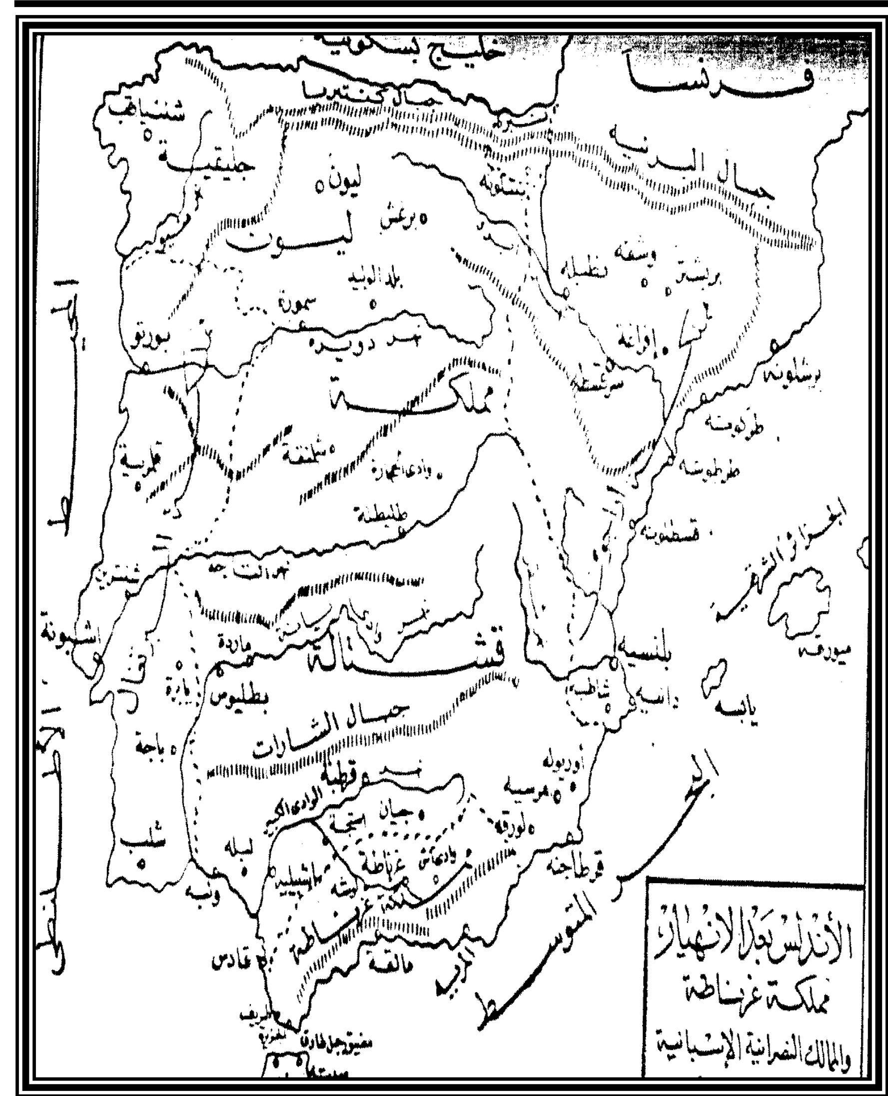
(١) نفح الطيب، ٦/ ٢٦٠، أخبار العصر، ص ١١.

(١) نفح الطيب، ٦ / ٢٦٣ - ٢٦٤، الاستقصا، ص ص ١٠٢.

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبدالله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من أجل فك أسره واستغل النصارى قلة خبرة أبي عبدالله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

وظل فرديناند محتفظا بأبو عبد الله الصغير ولم يطلق سراحه إلا بعد أن وقع لهم على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة وأن يدفع لهما جزية سنوية مقدارها ١٢ أق دوبلا من الذهب، وإطلاق سراح ٤٠٠ أسير نصراني من غرناطة فورا، وإطلاق سراح ٧٠ أسير سنويا لمدة خمس سنوات، وأن يقدم رهائن إلى الملكين من كبار زعماء غرناطة من بينهم ابنه الأكبر، ويساعد فرناندو الملك أبو عبد الله بإخضاع المدن الأندلسية الثائرة عليه ومن ثم إخضاعها لتدخل في طاعة ملك قشتالة ومدة هذه المعاهدة عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبدالله الصغير، وأخذ يبث أبو عبدالله الصغير دعوته في شرق الأندلس، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادي الأولى ٨٩١هـ / أيار مايو ١٤٨٦م، كما استولي الأسبان علي حصني قرطبة وذكوين وغيرهما وقطعت الطريق بين رندة ومالقة، وزحفت علي رندة فاستسلمت في سنة ٨٩٠هـ / ١٤٨٥ م، وكان موقف أبي عبدالله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً.

فهو مازال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى. وبقي يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له. وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند.



ولما تولى عرش غرناطة أبوعبدالله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارى، فقد هاجم القشتاليون حصن مكلين شمال غرب غرناطة وكان به الملك الزغل، فاستطاع أن يردهم علي أعقابهم، وقد كبد القشتاليون خسائر فادحة، وذلك في شعبان سنة ٨٩٠ هـ / يوليو ١٤٨٥ م وعد الزغل وجنوده مسرورين بهذا الانتصار فقد عمد فرناندو وإيزابيلا إلى إطلاق سراح أبو عبد الله

الأسير لديهما في ذلك الظرف بالذان لإحداث الفتنة والفرقة في صفوف المسلمين الأندلسيين، واستخدام اسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة وفي أحرج الظروف أطلق ودعم فرديناند ابا عبدالله الصغير ضد عمه وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرّة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبدالله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جماد الثانية ٨٩٢هـ/حزيران يونيه ١٤٨٧م، وخاف الزغل أن يسير إلى انجادها من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبدالله الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر شعبان ٨٩٢هـ/ آب اغسطس ١٤٧٨م ونكث فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين [١].

كانت مصر في تلك الفترة لاتستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية، إلى البابا أنوصان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم، وتستحل حرمتهم، وتغزا أراضيهم في الأندلس وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغيِّر خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغيّر خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: " أنهما - فرديناند وزوجه إيزبيلا - لايفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنهما لايستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاؤوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما مايلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية " [٢].

وفشلت المحاولة الدبلوماسية، وتركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم، ولم ينفذ السلطان تهديده، فلم يضطهد أحداً، لأن الإسلام لايجيز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط

---

(١) نفح الطيب، ٦ / ٢٦٥ - ٢٦٨، الاستقصا ٤ / ١٠٣.

(٢)بدائع الزهور، ٣ / ٢٤٦، نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين، ص٣٦٩.

تباعاً بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام ٨٩٥هـ/١٨٩٠م واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية وأهمها:

١ - أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم.

٢ - تخفف عنهم أعباء الضرائب.

٣ - ألا يولى عليهم يهودي.

٤ - ألا يدخل نصراني في " الجماعة الإسلامية ".

٥ - وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ.. وغيرها من الشروط إلا إن النصارى لايلتزمون بشيء من ذلك بل يسبون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال.

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي [(١)].

وتطور سير الأحداث وخضع أبو عبدالله الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبية هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبدالله الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى [(٢)].

في سنة ٨٩٥هـ/١٨٩٠م، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند وزوجه ايزابيلا - وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبدالله الصغير، فثارت نفس أبي عبدالله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه فرفض الانقياد والخضوع وقرر المقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين ٥٠ - ٨٠ ألفاً، مع مدافع وعُدَد ضخمة، وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في ١٢ جماد الثانية سنة ٨٩٦هـ/سنة ١٤٩١م، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لاتمد غرناطة بأي طعام، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في

---

(١) مصرع غرناطة، ص ٧٢ - ٧٧.

(٢) مصرع غرناطة، ص٧٧، دولة الموحدين، ص ٢٥١.

ذاكرة التاريخ السحيق وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها.

لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وأفسدوا عليه خططه وتدابيره.

وظهر في تلك المقاومة موسى بن أبي غسّان والذي قرر الموت دون الاستسلام ومن أقواله في ذلك: (ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين ".

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين، يعاونه نعيم بن رضون، ومحمد بن زائدة، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون.

وحل الشتاء، وقلت المؤن، والذخائر ودخل الوزير المسؤول عن غرناطة " أبو القاسم عبدالملك " مجلس أبي عبدالله الصغير، وقال: إن المؤن الباقية لاتكفي إلا لأمد قصير، وإن اليأس قد دبَّ إلى قلوب الجند والعامة، والدفاع عبث لايجدي.

ولكن موسى بن أبي غسَّان قرر الدفاع ما أمكن، فقال للفرسان " لم يبقى لنا سوى الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن ".

استمر الحصار سبعة أشهر، واشتد الجوع والحرمان والمرض، وأعيد تقويم الموقف في بهو الحمراء، فأقر الملأ التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم: " لم تنضب كل مواردنا بعد.. ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها.. " (١).

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناس انهزموا في داخلهم وخارت عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، فقرروا المفاوضة والتسليم، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبدالملك، جاء في نفح الطيب: " وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً من الغدر، وكانت

(١) مصرع غرناطة، ص٨١، دولة الموحدين، ص ٢٥٢.

الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت، ولايحكم على احد منهم إلا شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لايدخل النصارى دار مسلم ولايغصبوا أحداً، وأن لايولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل وأن يفتك جميع من أسرى في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لاسبيل عليه لمالكه ولاسواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعُدْوة ولا يُمنْع، ويجوزون في مدة عُينت في مراكب السلطان لايلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء، وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لايقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصَّر من المسلمين يُوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولايعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ماسلب من النصارى أيام العداوة، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثة، ولايطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولايدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولايجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن [١].

ولايمنع مؤذن ولا مُصَلّ ولا صائم ولاغيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يُعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ويقول المقري بعد هذا: " وأمثال هذا مما تركنا ذكره " من الشروط [٢].

يقول الاستاذ محمد عبدالله عنان: (وهذا أفضل مايمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة، لو أخلص النصارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم، ولما أنسى فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا في يوم ٢٩ تشرين الثاني " نوفمبر " مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم، أو حيث شاؤوا، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن سوف

---

(١) المدجنون: هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الاسبان.

(٢) نفح الطيب ٢٧٧/٦ - ٢٧٨، دولةالموحدين، ص ٢٥٣.

نرى أن الإيمان والعهود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابة نُقضِت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور " [1] وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبي غسّان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم وقال: " اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تُخْلقَ لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة وسوف تحتضن أمُّنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولإن لم يَظْفَر أحدنا بقبر يستر رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها) [2].

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء، واليأس ماثل في الوجوه، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة، عندئذ صاح أبو عبدالله الصغير: " الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله، تالله لقد كتب لي أن اكون شقيا، وأن يذهب الملك على يدي "، وصاح من حوله علي: " الله أكبر ولا راد لقضاء الله " وقرَّروا جميعا التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه [3].

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: " لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق وهذا ماسوف نعاني من مصائب الموت الشريف، أما أنا فوالله لن اراه " [4]، ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى.

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبي غسان فقال:

أنـــــا لــــــن أقـــــرّ وثيقـــــةً ::: فرضـــــت وأخضـــــع للعِـــــدَا
مـــا كـــان عـــذري إن جبنـــت ::: وخفـــــت أســــباب الــــردى

---

(١) مصرع غرناطة ص٨٥، دولة الموحدين ص ٣٥٣.
(٢) مصرع غرناطة، ص٨٦.
(٣) مصرع غرناطة، ص٨٦.
(٤) مصرع غرناطة، ص٨٦.

والمـــوت حـــقٌ في الرقـــاب ::: أطـــال أم قصـــر المـــدى
إني رسمـــــت نهـــايتي ::: بيـــدي ولـــن أتـــرددا
كنـــت الحســـام لأمـــتي ::: واليـــوم للـــوطن الفـــدى
أنـــا لـــن أعـــيش العمـــر ::: عبـــداً بـــل سأقضـــي ســـيدا [(١)]

* * *

وصف حي لتسليم غرناطة

وفي الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ، كانون الثاني (يناير) سنة ١٤٩٢م وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم النصارى الأسبان القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبدالله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع: " هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور - قصوري باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين " [(٢)].

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبدالله الصغير للقيام بهذه المهمة. وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليبا كبيرا فضيا وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب. وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكا للملكين الكاثوليكيين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء وتحرك الركب نحو منطقة البشرات وفي شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبدالله الصغير مودعا لمدينته وملكه، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة: " إبك مثل النساء مُلكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال ".

إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطارا لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل

---

(١) د. ناصر العُمر، سقوط الأندلس، ص٦٥.
(٢) دولة الموحدين، ص ٢٥٧.

العبر والأمثلة والحِكَم [(١)].

وصدقت فالملك لا يحفظه إلا الرجال والدين لا يحفظه إلا الرجال، ولا أعني بذلك الجنس فرب امرأة بألف من الذكران، والعرض لا يحفظه إلا الرجال، والمجد لا يحفظه إلا الرجال، والحرية لا يطلبها إلا الرجال، أما أشباه الرجال فليس هذا ميدانهم ولا بضاعتهم، إنما مكانهم في الخلف مع القاعدين؛{وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾} [التوبة: ٤٦].

ولقد صوّر أحد الشعراء على لسانها قولها:

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع ::: مجداً ثوى وعاراً أقاما
هدّني فوق خطبنا أنك ابني ::: يا لأمٍّ تسقي العذاب تؤاما
لم تصن كالرجال ملكا فأمسى ::: ركنه اندك فابكه كالأيامى [(٢)]

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبدالله الصغير إلى الغرب مع أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فاس، مستجيرا بالسلطان أبي عبدالله محمد الشيخ زعيم بني وطاس [(٣)] معتذرا عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه تمهيدا لعذره وتوطئة لمقصده وتطارحا على تلك الأبواب وتملقا وتمسكا بذلك الجناب وتعلقا وهو في غاية الفصاحة والبلاغة من إنشاء الفقيه الأديب الشاعر الناظم الناثر الكتب المجيد البارع البليغ أبي عبد الله محمّد بن عبد الله العربي العقيلي رحمه الله وسماه بالروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس ونصه بعد الافتتاح:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ::: رعيا لمّا مثله يرعى من الذمم
بك استجار ونعم الجار أنت لمن ::: حار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا ::: و أفظع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتملا مرد لم ::: و هل مرد لحكم منه منحتم
و هي الليالي وقاك الله صولتها ::: تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكا لنا في أرضنا دول ::: نمنا بها تحت أفنان من النغم

---

(١) دولة الموحدين، ص ٢٥٧.

(٢) سقوط الأندلس، ص٧٠.

(٣) نفح الطيب ٦ / ٢٧٨، الاستقصا، ٤ / ١٠٥.

فأيقظتنا سهام للردى صيب	:::	يرمى بأفجع حتف من بهن رمي
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا	:::	و أي ملك بظل الملك لم ينم
يبكي عليه الذي قد كان يعرفه	:::	بأدمع مزجت أمواهها بدم
كذلك الدهر لم يبرح كما زعموا	:::	يشم بو الصغار الأنف ذا الشمم
وصل أواصر قد كانت اشتبكت	:::	فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
و أبسط لنا الخلق المرجو باسطه	:::	و اعطف ولا تنحرف وأعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم	:::	نذنب ولو كثرت أقوال ذي الوخم
فما أطقنا دفاعا للقضاء وما	:::	أرادت أنفسنا ما حل من نقم
و لا ركوبا بإزعاج لسابحة	:::	في زاخر بأكف الموج ملتطم
و المرء ما لم يعنه الله أضيع من	:::	طفل تشكي بفقد الأم في اليتم
و كل ما كان غير الله يحرسه	:::	فإن محروسه لحم على وضم

{رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣].

{أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ} [الأعراف: ١٥٥].{رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ} [الممتحنة: ٤].{ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾} [محمد: ١١].{نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ} [الأنفال: ٤٠].

أما بعد حمد الله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه؛ والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمّد، الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح، يدعوا إلى سبيل كل فلاح، أولى قلوب غافلة، ونفوس سواه؛ والرضا عن أصحابه، وعترته الأكرمين وأحزابه، الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه، وعزروه ونصروه في حالي قربه ونواه.

فيا مولانا... هذا مقام العائذ بمقامكم، المتعلق بأسباب ذمامكم لعواطف قلوبكم، وعوارق إنعامكم، المقبل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم؛ وماذا الذي يقول من وجهة خجل، وفؤاده وجل، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل، بيد أني أقول لكم لربى، واجترائي عليه أكثر وإجرامي إليه أكبر: اللهم لا برئ فأعتذر، ولا قوي فأنتصر، لكني مستقيل مستنيل مستعتب مستغفر؛{وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ} [يوسف: ٥٣]... على إني لا أنكر عيوبي، فأنا معدن العيوب، ولا أجحد ذنوبي، فأنا جبل الذنوب، إلى الله أشكو عجري

وبجري، وسقطاتي وغلطاتي... " (١).

وكانت شروط تسليم غرناطة لفرناندو وإيزابيلا... سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهموعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لايدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعذ تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره... " (٢).

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها، وحرق من بقي منهم، يقول المقري: "... إن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال لحملهم

---

(١) هذه الرسالة طويلة جدا أوردنا مقتطفات منها، وقد أوردها بكمالها المقري في كتابه أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ص ٢٨ - ٣٢.

(٢) المقري، نفح الطيب، ٢ / ٦١٥ - ٦١٦.

المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر، ففعلوا ذلك، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم: إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم، وهذا كان السبب للتنصر، قالوا: لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت، وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم وبادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر، واعتزلوا الناس، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما، فجمع لهم العدو الجموع، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً، إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي، فشدد عليهم النصارى في البحث، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وصف، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين [1].

---

(١) المقري، نفح الطيب، ٢ / ٦١٥ - ٦١٦.

وزاد الكردينال " كمينسس " على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداسا في اكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني وأحرقها، لقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضي على الإسلام في أسبانيا وأنى هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من الآثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور وإن للإسلام جولة وصولة من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريبا عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح، " ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا " [(١)].

* * *

---

(١) سقوط غرناطة، ص٩٨، دولة الموحدين، ص ٢٦٣.

محاكم التفتيش

يرجع قيام محاكم التفتيش إلى فكرة الرقابة القديمة علي العقائد، والتحقق من سلامتها ونقائها، وقد ظهرت فكرة التحقيق في أمر العقائد في الكنيسة الرومانية في عصر مبكر جدا، وبدئ بتطبيقها منذ أوائل القرن الثالث عشر، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة وإلي الآباء الدومنيكان في تعقب المارقين والكفرة ومعاقبتهم، وطبق هذا النظام في البداية في إيطاليا وألمانيا، وكان مندوبواالبابوية يتجولون في مختلف الأنحاء لتقصي أخبار الكفرة والقبض عليهم ومعاقبتهم.

ثم انتقلت محاكم التفتيش إلى إسبانيا، وإلي مملكة أراجون منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ثم انحصر نشاطها في مطاردة المسلمين، وهدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي اسبغت على سياسة أسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الأسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تموز (يولية) ١٥٠١ أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته ": إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال".

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغص بالحشرات والجرذان، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتدفع نفقات سجهنم. ومن أنواع التعذيب، إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، تمزيق الأرجل وفسخ الفك.. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه [(١)].

---

(١) محمد عبد الله عنان، دولةالإسلام في الأندلس، ٧ / ٣٢٩ وما بعدها، سقوط غرناطة، ص١٠٠.

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقا وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق (١).

ومما يذكر.. أن هناك عذابا اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنيَّة لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعا ورعبا (٢).

" لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل نارا، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيالها من فجيعة ما أمّرها! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها ".

" وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً ".

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

---

(١) انظر: سقوط غرناطة، ص١٠٠.

(٢) انظر: محاكم التفتيش، ص٩٣.

فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكّون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته [1].

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب " الأوتودافي " وكذلك يتعدى أثر الأحكام بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة [2].

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء بل كثيراً ماوجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لايتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولايستطيع دفعاً لها ولأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب وأبت اسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائماً منافقين مارقين.

وإليك مايقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة. وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف

---

(١) سقوط الأندلس، ص٧٢.

(٢) محمد عبد الله عنا ن، دولة الإسلام في الأندلس، ٧ / ٣٢٩ وما بعدها.

والنظـام. وهـم لـم يقولـوا الحقـائق قـط خـلال الاعتـراف وفـي يـوم الجمعـة يحتجبـون ويغتسـلون ويقيمـون الصـلاة فـي منـازلهم وفـي أيـام الآحـاد يحتجبـون ويعملـون. وإذا عُمّدوا أطفـالهم عـادوا فغسلوهم سراً بالمـاء الحـار. ويسمون أولادهم بأسماء عربيـة وفـي حفلات الزواج متـى عـادت العروس من الكنيسـة بعد تلقـي البركـة تنزع ثيابهـا النصـرانية وترتـدي الثيـاب العربيـة ويقيمـون حفلاتهـم وفقـاً للأحكـام الإسـلامية. وقـد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين فـي ظـل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسـلامية خفيـة ويلتمسـون مـن جهـة أخـرى سـائر الوسـائل والأعذار الشـرعية التـي يمكـن أن تبـرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم [١].

* * *

القواعد النصرانية الإسبانية

في معاملة من أكرهوا على النصرانية

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون رونـي) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقـة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الدين المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصـرين فـي تهمـة الكفر والمروق، وإليك مـا ورد فـي تلك الوثيقة الغريبة.

" يعتبر الموريسكي [٢] أو العربي المتنَصِّر قد عاد إلـى الإسـلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً. أو أن صـفات العذراء أو اسمها لاتناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليـه أيضـاً أن يبلـغ عمـا إذا كـان قد رأى أو سمع بـأن أحداً مـن الموريسكيين يباشر بعض العـادات الإسلامية. ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعـة وهو يعتقد أن ذلك مبـاح. وأن يحتفل يوم الجمعـة بـأن يرتـدي ثيابـاً أنظف من ثيابـه العاديـة. أو يستقبل المشرق قـائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحهـا، أو يـرفض أكل تلك التـي لـم تذبح، أو ذبحتهـا امرأة. أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبتـه فـي اتباعـه هذه العادة، أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بأيمـان القرآن، أو يصـوم رمضــان ويتصـدق خلالــه، ولايأكـل ولايشـرب إلا عنـد الغـروب، أو يتنــاول

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ٢٢٣/٣، دولة الموحدين، ص ٢٦٤.

(٢) الموريسكي يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية.

الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. أو يقوم بالوضوء والصلاة. بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن. أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية. أو ينشد الأغاني العربية. أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية. أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهنّ، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد. أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر. أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتا إياه بالنبي ورسول الله. أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله أو يقول إنه لم يُنَصَّر إيماناً بالدين المقدس. أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين.. " [١].

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة شؤون حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل، والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد استمرت محاكم التفيش قروناً عدة وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماً سنة ١٨١٨م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا، ولكن رهبان " الجزويت " أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل المريشال " سولت " الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل " ليمونكي " مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء فقرر الكولونيل " ليموتكي " فحص الأرض، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا. فإذا الماء يتسرب إلى أسفل في إحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة. وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الإنسان في مذكراته ما يلي.

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب ٢٢٦/٣، ٢٢٧، دولة الموحدين، ص ٢٦٦ - ٢٦٨.

وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش " الدينونة " كما يسمونه، وهو عبارة عن " دكة " عالية يجلس عليها رئيس الديوان [1]، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التقزز ماحييت رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الأفقية ممداً بها حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية مازالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة، وكان فيهم من جُنَّ لكثرة مالاقى من عذاب، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيفاً من النساء السجينات.

وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه الرأس المُعَذّب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جُنَّ الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت.

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من

---

(١) رئيس ديوان محكمة التفتيش، دولة الموحدين، ص ٢٦٩.

ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذّب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزّق الشاب وتقطّع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المُعَذّبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جُنّ جنونهم وانطلقوا - كمن به مسّ - فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير، فدُقت عظامه دقاً، وسحقتها سحقاً.

وأمسكوا أمين سره، وزفُّوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهما الأبواب، فمزّقته السكاكين شر ممزّق، ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك [١].

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين [٢].

* * *

أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً

- تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

- سعى ممالك إسبانيا نحو الاتحاد وتمّ ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندوا) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون، وإيزابيلا التي تبوأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس

---

(١) مصرع غرناطة، ص٩٣، ١١٢، دولة الموحدين، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٢) دولة الموحدين، ص ٢٧٠.

- الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات).

أما شوقي أبو خليل فيقول: " والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرَّسوا على الحياة الخشنة الجافية وغدا التهتك، والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبُّون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعبا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لايستطيع أن يصمد رجاله في الانحلال والميوعة والمجون، لايستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكوّن منهم جيش قوي، كفء للحرب والمصاولة) [1].

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سُنة متبعة بينهم، وقف عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخين أن وفاة ابن هود عام ٦٣٥هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد ﷺ، دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور " الله أكبر " وبقينا فيها زمنا، حين كان يحكمها أمثال عبدالرحمن الداخل عندما قُدم إليه خمر ليشرب قال إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه " [1].

---

(١) مصرع غرناطة ص٩٤، دولة الموحدين، ص ٢٧٠.

(١) سقوط الأندلس، ص ٢٧ - ٢٩.

يقول الدكتور عبدالرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: (كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حُبَّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم " [١].

الاختلاف والتفرق بين المسلمين، ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبدالواد والدولة الحفصية لوجدت أمراً فظيعاً، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف.

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لاتتبدل ولاتتغير ولاتجامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال ﷺ في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى:《**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**》 وفي رواية: 《**فأهلكوا**》 [٢].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود:《**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**》[٣].

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف ببطلان ماعند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً [٤].

- موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبعض في الله بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حيث تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه فلابد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

---

(١) انظر: التاريخ الاندلسي، ص٢١١، دولة الموحدين، ص ٢٧١ - ٢٧٢.
(٢) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (١٠١/٩، ١٠٢).
(٣) المصدر السابق (١٠٢/٩).
(٤) د. عبدالكريم زيدان، السنن الإلهية، ص١٣٩، دولة الموحدين، ص ٢٧٣.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)} [المائدة: ٥٧].

وقوله عز وجل: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} [آل عمران: ٢٨].

وقوله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ} [المجادلة: ٢٢].

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلابد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتغير ولاتتبدل.

فهذا أبو عبدالله الصغير سلطان غرناطة الأخير يفرح لفرح النصاري ويحزن لغضبهم ويصانعهم ويهاديهم ويهادنهم ويراسلهم، حتي لقد بدا وكأنه أخلص العالم لهم، وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارى في ذلك عناءً يذكر!:

وهل شكر النصارى لهذا، المتخاذل خذلانه لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب (ثم ارتحل السلطان أبو عبدالله إلى مدينة فاس - حرسها الله - ومازال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّوّال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل، المانح المانع لا إله إلا هو) [(١)].

- التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة:

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصرة ماتبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم وانهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصرة من يستحق النصرة وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي ٦٢٧ - ٦٥٥هـ، كان وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس في أقل من ثلاثين عاماً تنقلب خارطة الأندلس، ويتمكن منها عبّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرض نصرانية تحارب الإسلام بكل ماتملك من أجل سحقه ومحيه من الوجود.

(١) انظر: سقوط الأندلس، ص ٦٧، ٦٨، دولة الموحدين، ص ٢٧٦.

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين كما قال الشاعر:

كم جـامع فيهـا أعيـد كنيسـة ::: فأهلـك عليـه أسـىً ولا تتجلـد
أسـفاً عليهـا أقفـرت صـلواها ::: مـن قـانتين وراكعـين وسـجّد
كم مـن أسـير عنـدهم وأسـيرة ::: فكلاهما يبغي الفـداء فمـا فـدى
كم مـن عقيلـة معشـر معقولـةٍ ::: فـيهم تـود لـو أنهـا في مَلحْـد
كم من تقـيّ بالسلاسـل موثـق ::: يبكـي لآخـر في الكبـول مقيّـد
ضجّت ملائكـة السـماء لحـالهم ::: وبكى لهـم مَـن قلبـه كالجلمـد
أفـلا تـذوب قلـوبكم إخواننـا ::: مما دهانـا مـن ردىً أو مـن ردى
أفـلا تراعـون الأذمـة بيننـا ::: مـن حرمـةٍ ومحبـةٍ وتـوددٍ
أكذا يعيـث الـروم في اخـوانكم ::: وسـيوفكم للثـأر تتقلّـدِ
ياحسـرتي لحميـة الإسـلام قـد ::: خمدت وكانت قبل ذلك توقـد [١]

ولم يكن كثير من حكام الأندلس لا سيما منذ عصر الطوائف أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع الى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: (والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه..) [٢].

ومنها الثورات الداخلية في الأندلس، واقتتال المسلمين فيما بينهم، وتغافلهم عما يحاط بهم من أخطار، وغيرها من الأسباب التي سوف نجملها - إن شاء الله - في كتاب منفرد عن محنة الإسلام في الأندلس وسقوط غرناطة.

* * *

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ٣ / ٦٣، دولة الموحدين، ص ٢٧٤.
(٢) مجموع رسائل ابن حزم، ١٧٦/٣، دولة الموحدين، ص ٢٧٩.

وأخيراً

فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان.

والنقص في أصل الطبيعة كامن ::: فبنو الطبيعة نقصهم لا يجحد

وأسأل كل من قرأ هذا الكتاب وانتفع به أن يسأل الله لي غفران الذنوب وتقبل صالح الأعمال وأن يرزقني الشهادة في سبيله ومرافقة نبيه محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد.

ولمن أراد أن يراسلني لمعرفة رأيه في الكتاب، فرحم الله امرأً أهدي إليَّ عيوبي.

جمهورية مصر العربية - محافظة البحيرة - مركز إيتاى البارود - عزبة الحكر.

د / رجب محمود إبراهيم بخيت

وعبر الهاتف

٠٤٥ / ٣٤٣٣٩٥٩

٠٤٥ / ٩١١٨٤٢٨

٠١٠٣٨٤٤٩٣٢

* * *

المصادر والمراجع

المراكشي:

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط القاهرة ١٩٦٣ م.

البكري:

جغرافية الأندلس وأوربا، (من كتاب المسالك والممالك) تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، ط بيروت ١٩٦٨ م.

عبد الرحمن علي الحجي:

التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، ط دار العلم ببيروت ١٩٧٦ م

أحمد مختار العبادي:

في التاريخ العباسي والأندلسي، ط دار النهضة ببيروت، ١٩٧٢ م

حسان حلاق:

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، الأندلس / صقلية الشام، ط الدار الجامعية ببيروت، ١٩٨٦ م،

محمد زيتون:

المسلمون في المغرب والأندلس، ط دار الوفاء للطباعة، القاهرة ١٩٨٤ م

ابن الكردبوس، عبد الملك:

كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء - القسم الخاص بالأندلس نشر أحمد مختارالعبادي - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية.

الحميري:

الروض المعطار في أخبار الأقطار، نشر وترجمة ليفي بروفنسال، ط القاهرة سنة ١٩٣٧ م

المقري:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط القاهرة، ١٣٠٢ هـ

أزهارالرياض في أخبار عياض، ط القاهرة، ١٩٤٢م

ابن عذاري:

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، ط دار الثقافة ببيروت

ابن عبد ربه الأندلسي:

العقد الفريد، تحقيق الناشر دار إحياء التراث العربي، سنة النشر ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، مكان النشر بيروت /لبنان

أحمد زكي صفوت،:

- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت،

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م،

أبو عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني (لسان الدين ابن الخطيب)

الإحاطة في أخبار غرناطة، ط الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ٢٠٠٣ هـ - ١٤٢٤ هـ، تحقيق: د. يوسف علي طويل،

شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي:

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، نشر دار الكتاب العربي، لبنان/ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرناوؤط، مؤسسة الرسالة بيروت.

أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني:

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، نشر الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس

د/ إبراهيم حركات:

النظام السياسي والحربي، في عهد المرابطين، ط الدار البيضاء

د / السيد عبد العزيز سالم:

- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ط مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

د / علي حسن الشطشاط:

- تاريخ الإسلام في الأندلس، من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، ط دار قباء، القاهرة.

د/ سعدون نصر الله:

تاريخ العرب السياسي في الأندلس، ط دار النهضة العربية، بيروت.

محمد عبدالله عنان

دولة الإسلام في الأندلس، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ٢٠٠٣ م.

د/ محمد كمال شبانة:

الأندلس، دراسة تاريخية، ط القاهرة، ٢٠٠٨ م

ابن الآبار القضاعي:

الحلة السيراء، ط بيروت، ١٩٦٢ م.

ابن الخطيب:

الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط القاهرة، ١٩٧٧م

أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، ط بيروت ١٩٥٦م

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، ط تونس.

نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب.

اللحمة البدرية في الدولة النصرية.

ابن حزم الأندلسي:

رسائل ابن حزم، ط المؤسسة العربية للدراسة والنشر.

ابن حيان القرطبي:

المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ط دار الكتاب العربي.

ابن خلكان:

وفيات الأعيان، تحقيق د / إحسان عباس، ط دار صادر.

– أشباخ:

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط

مؤسسةالخانجي، ١٩٥٨ م.

د / علي محمد الصلابي:

دولة المرابطين.

دولة الموحدين.

الدولة الأموية.

عمر بن عبد العزيز.

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

المؤلف مجهول:

أخبار مجموعة من فتح الأندلس حتي آخر عهد الناصر، ط دارالكتاب اللبناني.

المؤلف مجهول:

أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، ط /تطوان بالمغرب.

الأمير عبد الله:

مذكرات الأمير عبد الله، أو كتاب التبيان.

الحميدي:

جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ط دار الكتاب اللبناني.

السلاوي:

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصي، ط الدار البيضاء، ١٩٥٤ م

د / شوقي أبو خليل

العقاب، دار الفكر، تصوير ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م عن ط١ ١٩٧٩م.

الأراك، دار الفكر، الطبعة الاولى ١٩٧٩م.

سقوط غرناطة، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

عوامل النصر والهزيمة، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية١٤٠٧هـ، ١٩٨٧

د / نجيب زبيب:

الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير، الطبعة الاولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

د/ عبدالكريم زيدان:

السنن الالهية، مؤسسة الرسالة، الطبعة الاولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م

د / عبدالرحمن الحجي:

تاريخ الأندلس، دار القلم، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

د / أحمد مختار العبادي:

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة.

د / سلامة محمد سلمان الهرفي:

دولة المرابطين، دار الندوة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

د/ناصر العمري:

سقوط الأندلس، مؤسسة الموتمن، دار الوطن، الطبعة الاولى ١٤١٢هـ.

د. سيد بن حسين العفاني:

صلاح الأمة في علو الهمة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الاولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

د / حسين مؤنس:

- فجر الأندلس، ط القاهرة، ١٩٥٩ م.
- فتح العرب للمغرب، ط القاهرة ١٩٤٧ م.

* * *

الفهرس

* * *